التأصيل والتقعيد لضبط كتاب التوحيد

المُسَمّى

إتحاف الحميد المجيد بالتأصيل والتقعيد لضبط مقاصد كتاب التوحيد

للإمام محمد بن عبد الوهاب التميمي

شرح

خالد بن علي المرضي



ح خالد علي المرضى الغامدي، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الغامدي، خالد علي

شرح كتاب التوحيد./ خالد علي الغامدي.- جده، ١٤٣٦هـ.

٦٤٠ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ١ - ٧٨٠٠ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- التوحيد ٢- العقيد الإسلامية أ. العنوان

ديوي٢٤٠ ١٤٣٦/٣٩٤٠

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٣٩٤٠

ردمك: ١ - ٧٨٠٠ - ٠١ -٦٠٣- ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

دار أطلس الخضراء

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض

هاتف: ٤٢٦٦١٠٤ - ٤٢٦٦٩٦٣ فاكس: ٤٢٥٧٩٠٦

www.facebook.com/DARATLAS

twitter: @ dar-atlas

dar-atlas@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذا شرح مقعد وتبيان مؤصل لمسائل المعتقد على كتاب التوحيد المعتمد عند جميع أهل السنة للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، جعلته على طريقة القواعد والمسائل، واقتصرت فيه على توضيح مسائل العقيدة والتوحيد بعيدا عن التوسع والإسهاب، واستبعدت منه مسائل السلوك واللغة والفقة وشرح الأدلة .

بينت فيه مسائل المعتقد وما يحتاجه المسلم من المعرفة اللازمة في العقيدة المنجية، على هيئة المسائل والقواعد ليسهل ضبطها وفهمها وحفظها.

وإن شرح رسائل التوحيد وغيره من العلوم ومتون العلم على طريقة الشرح الموضوعي والإسهاب في العبارات من أعظم ما يضيّع المقصود الذي وضعت من أجله هذه الرسائل والمتون وهو تيسير العلم وحفظه .

ومن تأمل في معظم شروح كتاب التوحيد يجدها على طريقة شرح الأدلة فكأن القارئ فيها يقلب في كتاب تفسير أو أحد كتب شروح الأحاديث بعيدا عن التأصيل العلمي فلا يجد التقرير المناسب لقواعد التوحيد الذي أُلف الكتاب لأجله.

وقد جعلت هذا الشرح على هيئة المسائل والقواعد ليتيسر فهم حقيقة التوحيد ولتنشيط الذهن لمعرفة العلل ومناطات الأحكام ، لأن كثيرا من المعتنين بعلوم الشريعة قد يحفظ أحكامها من غير فقه لمدلولاتها، فتراه يعلم مثلا أن اليقين والقبول وغيرها من شروط التوحيد ، وأن مظاهرة الكفار والاستهزاء وغيرها من نواقض الإسلام دون أن يعلم سبب كونها كذلك شروطا أو نواقضا، وذلك لجهلة بالعلة التي ارتبطت بالحكم والمناط المتعلق بالفعل، وهذا الخلل هو الذي أخرج لنا مذهب الإرجاء والخوارج وأوقعهم في المخالفة، فإما أن يكفروا بما ليس فيه علة التكفير وذلك لوجود المشابهة في الفعل دون وجود المناط أو يحجمون عن تكفير من كفره الله مع وجود مناط الحكم في الفعل والعلة ظاهرة.

لأجل هذا اعتنيتُ بإبراز مقاصد الأبواب ومغازي الأدلة والشواهد والمناسبات ودلالاتها على مسائل التوحيد وعلل الأحكام ، وعلاقة كل مسألة بالتوحيد ، مع ربطها بالواقع المعاصر والنوازل المحدثة والتمثيل لها بالتطبيقات المشاهدة في بلاد المسلمين.

ليقف الطالب في كل باب على جميع المسائل العقدية المرتبطة به.

ومنهجي في الشرح : أني أترجم للباب وأعنون له إذا كان المؤلف لم يسمه، ثم أبين مقصد الباب ومغازيه، وأذكر موضوعه ومعناه، ومكانه من أي قسم ونوعه، وعلاقته بالتوحيد ، ومناسبة الباب لغيره من الأبواب، ثم أذكر الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب اختصارا ، وأبين المناسبات فيها والشواهد، بعد ذلك أورد المسائل العقدية المتعلقة بالباب.

كما أن لي فيه بعض الاستدراكات على المؤلف من ناحية ذكر ما فاته من أبواب التوحيد ومسائله، أو تنسيق الأبواب من حيث التقديم والتأخير والتكرار .

وقد ذكرت في كل باب القواعد المؤصلة لضبط مقاصد أبواب التوحيد.

ويمكن تقسيم كتاب التوحيد لخمسة أقسام :

١- الأبواب المبينة للتوحيد ومكانته وحقيقة الشرك وخطورته.

٢- أبواب الشرك الأكبر ونواقض التوحيد.

٣- الأبواب المتعلقة بالعبادات والشرك فيها: وهي :

البدنية كالذبح والحكم والطاعة ، والقلبية كالمحبة والخوف والصبر والتوكل والرجاء والإرادة ، والقولية كالدعاء والاستعاذة والاستغاثة والشفاعة والنذر.

٤- الأبواب المحذرة من طرق الشرك والسادة لذرائعه، والمبينة لوسائل حفظ التوحيد.

٥- أبواب الشرك الأصغر ، شرك الألفاظ والمخالفات اللفظية .

وقد أورد المؤلف الأبواب الستة الأولى في حقيقة التوحيد والعبادة والشرك وفضل التوحيد وكيفية تحقيقه وتفسيره وأنواعه ، ثم أعقبها بثلاثة أبواب في ذرائع الشرك ، ثم تسعة في العبادات واستحقاق الله لها، ثم خمسة في وسائل حفظ التوحيد، ثم سبعة في السحر والكفر ، ثم تسعة في العبادات القلبية ، ثم بقية الأبواب وهي ثمان وعشرون في تعظيم الله وحفظ التوحيد وعدم الوقوع فيما يقدح فيه من الشرك الأصغر ، ثم ختم بحماية التوحيد وسد طرق الشرك، وباب تقدير الله وتعظيمه.

مقاصد كتاب التوحيد : وهي إجمالاً:

١- تحقيق العبودية لله وإخلاص العبادة لله والبعد عن الشرك .

٢- تعظيم الرب ﷻ والبعد عما ينافي تعظيمه ، واحترام جناب الربوبية.

٣- إثبات الكمال لله ﷻ، وعدم تعطيله عن كماله.

٤- عدم القدح في أفعال الله وسبها، ونفي النقص عنه وتبرئته من العيب .

٥- تنزيه الله عن التمثيل مع خلقه، فلا نصف ربنا ﷻ بصفات الخلق ولا نصف الخلق بصفات الرب تعالى.

٦- عدم الغلو في الخلق أو إعطائهم صفات الخالق والتأثير .

٧- عدم إثبات صفات الله وربوبيته لهم ، ولا نسبة الحوادث والتأثير لهم.

٨- الرضا عن الله وعما جاء عنه وعن أقداره وعدم التسخط على أقداره .

٩- التأدب مع الله في الألفاظ والبعد عن الألفاظ الموهمة .

١٠- حفظ وسائل حماية التوحيد، وسد ذرائع الشرك وطرقه.

١١- البعد عن مشابهة المشركين.

أخيرا فالواجب على المسلم تعلّم مسائل التوحيد التي قررتها النصوص على طريقة السلف، وأن يحذر الجهل بها أو مخالفة منهج السلف واتباع المتأخرين.

كتبه

أبو علي خالد المرضي الغامدي الأزدي

في ديار غامد بالحجاز

في الرابع من شهر جمادى الأولى من سنة خمس وثلاثين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية

كتاب التوحيد (١)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه: حقيقة عقيدة التوحيد والعبادة.

وأنه الغاية التي من أجلها خلق الله الخلائق وأنزل الكتب وبعث الرسل.

نوعه : يعد الباب الأهم في الكتاب فمقصوده بيان حقيقة التوحيد والعبادة.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

بدأ المصنف كتابه ببيان حقيقة التوحيد إجمالاً . فأورد هذا الباب والأبواب الخمسة بعده في توضيح عقيدة التوحيد وأنواعه، وحقيقة العبادة التي يجب إفراد الله بها وكفر الإشراك فيها ، ثم بين فضل التوحيد ومكانته ، ثم بين كيفية تحقيقه ، ثم بين حقيقة الشرك وخطره ، ثم وجوب الدعوة للتوحيد والشهادتين ، ثم فسر التوحيد.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لبقية أبواب الكتاب:

بدأ الشيخ كتابه التوحيد بأبواب ستة بين فيها التوحيد:

١- كتاب التوحيد .

٢- فضل التوحيد .

٣- باب تحقيق التوحيد .

٤- الخوف من الشرك وحقيقته .

٥- الدعاء إلى الشهادتين .

٦- تفسير التوحيد وأنواعه .

ثم فصل بعد هذه الأبواب الستة بقية مسائل التوحيد في ستين بابا .

فائدة : عنون المصنف هذا الباب بقوله (كتاب التوحيد) :

ومعنى كتاب : مشتق من كتب بمعنى جمع، ومنه كتيبة الجيش سميت بذلك لاجتماع جنودها والكتابة سميت بذلك لاجتماع الحروف، وفي أبواب العلم يعبر بالكتاب وذلك لاجتماع المسائل المتعلقة بالموضوع المراد تبيينه ، وهو هنا التوحيد.

ومعنى توحيد : سنأتي بها.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦.

٢- ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦.

٣- ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الإسراء: ٢٣.

٤- ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ النساء: ٣٦.

٥- ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ الأنعام: ١٥١ .

٦- قال ابن مسعود: من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه ، فليقرأ قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ . إلى قوله: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ الأنعام: ١٥١ - ١٥٣.

٧- عن معاذ بن جبل الخزرجي رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا). قلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟ قال لا تبشِّرهم فيتكلوا . أخرجاه في الصحيحين.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

المسائل العقدية في هذا الباب والواردة في أدلته كثيرة ، منها:

تعريف التوحيد .

حقيقة العبادة

الحكمة في خلق الجن والإنس.

أن من لم يأت بالتوحيد لم يعبد الله.

أن دين الأنبياء واحد.

أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت.

معرفة حق الله علينا وحق العباد عليه.

بدأ المصنف كتابه بالآية المبينة للحكمة التي من أجلها خلق الخلق ، وهي عبادته وحده ، وأي أمر بالعبادة فالمقصود به التوحيد .

أن التوحيد قائم على الكفر بالطاغوت .

وغيرها من مسائل سنبينها بالمبحث التالي :

مبحث : حقيقة عقيدة التوحيد

المسألة الأولى: تعريف التوحيد في اللغة : التوحيد مصدر وحّد يوحد توحيداً. ومعناه الإفراد والتمييز والاختصاص وما لا ثاني له ولا مثيل .

ومن الألفاظ المرادفة للتوحيد : **الإخلاص والتجريد والإفراد .**

والتوحيد في اللغة لا يطلق إلا على ما يقوم على الحصر (النفي والإثبات) ، فلا يسمى الشيء إفراداً أو توحيداً إلا إذا قام على ركنين هما الإثبات مع النفي .

م (٢) : التوحيد على وزن تفعيل وهي صيغة تستعمل للنسبة لا للجعل :

أي نسبة الوحدانية واستحقاق العبادة والربوبية لله الواحد الأحد ، وتجعل المعبود واحدا فلا تجعل نداً مع الله وتنسب الشريك له ، بمعنى أنك تجعل العبادة لله وحده لا أنك جعلت الله مستحقا للتوحيد لأن الله الذي جعل لنفسه ذلك فهذا من لوازم ذاته، ومثله التصديق والتكذيب فهو نسبة الصدق والكذب للمتكلم ممن سمعه ، لا أنك جعلت المتكلم صادقا أو كاذبا فالمتكلم الذي يجعل نفسه كذلك.

م (٣) : نسبة التوحيد تكون بالاعتقاد والعمل ، وذلك بجعل المعبود واحداً اعتقاداً وعملاً، وضده الشرك يكون بالاعتقاد والعمل وذلك بإشراك آلهة مع الله.

م (٤) : التوحيد والشرك صفة العبد وفعله:

التوحيد صفة للعبد وهي نسبة الوحدانية وجعلها لله وحده ، والشرك ضد ذلك بجعل شريكاً مع الله ونسبة استحقاق العبادة لأكثر من واحد ، أما صفة الله فهي الوحدانية ، والتوحيد ليس صفة لله وإنما صفة للعبد وفعل له.

فائدة : الجعل أثبتته النصوص للعبد : والجعل يتعلق بالتوحيد والشرك :

جعل التوحيد: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ .والجعل الشركي: (يجعل لله نداً) البخاري .

م (٥) : تعريف التوحيد الاصطلاحي :

التوحيد شرعا : هو إفراد الله ﷻ بكل ما يستحقه وما يخصه .

والذي يستحقه ﷻ ويجب أن يوحد فيه ، وحقه الذي يختص به ثلاثة أمور :

الأول: العبادة من التعظيم والمحبة والذل له والخضوع والطاعة والالتجاء.

الثاني: الربوبية والأفعال الخاصة به كالخلق والرزق والتدبير والإماتة.

الثالث: إثبات صفات الكمال لله والذي تفرد به، وتنزيهه عن النقص .

فالتوحيد : إفراد الله بالألوهية وبالربوبية والأسماء والصفات .

م (٦) : أساس التوحيد :

التوحيد العلمي (الربوبية) : أساسه قائم على إثبات الكمال لله .

التوحيد العملي (الألوهية) : أساسه قائم على تعظيم الله والذل له وحبه والخوف منه والتوجه لله وتجريد القصد والطلب والتعلق لله وتطويع الجوارح لله.

م (٧) : تفسير النبي ﷺ لشهادة التوحيد :

قال الرسول ﷺ في أركان الإسلام في الصحيحين: (بُني الإسلام على خمس :

ثم عبر ﷺ بعدة عبارات دالة على التوحيد كلها مترادفة وبمعنى واحد :

الأولى : (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ...).

الثانية : (على أن يوحد الله). كما في رواية.

الثالثة : (على أن يُعبد الله ويكفر بما دونه) . كما في رواية.

الرابعة : (إيمان بالله ورسوله) . كما في رواية.

ففسر ﷺ هنا وفي حديث معاذ وجبريل وغيرها التوحيد بالشهادتين وعبادة الله وحده وترك الشرك والكفر بالطاغوت وبالإخلاص وبالإيمان وبالإسلام.

وقد سمى الله التوحيد والعبادة إيماناً وإسلاماً ، كما فسر الإسلام والإيمان بالتوحيد والشهادتين والإخلاص وعبادة الله وترك الشرك والكفر بالطاغوت.

ففسر الإسلام بالإيمان وبالتوحيد ، وفسر الإيمان بالإسلام وبالتوحيد .

م (٨) : المصطلحات المفسرة والمرادفة للتوحيد .

الشهادتان ، الإيمان ، الإسلام ، العبادة ، الكفر بالطاغوت ، الإخلاص .

م (٩): ورود التوحيد في النصوص :

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ البقرة ١٦٣ ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾.

ومن أسماء الله تعالى : الواحد ، الفرد ، الأحد.

ومعناه :أنه هو وحده ﷻ إله واحد لا ثاني له ، ولا شريك، ولا مثيل .

وجاء التصريح بلفظ التوحيد في السنة من ذلك:

قول الرسول ﷺ لعمرو ﷺ : (أما أبوك فلو كان أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك) رواه أحمد وصححه الألباني .

وحديث جابر ﷺ في مسلم: (فأهل بالتوحيد لبيك اللهم لبيك).

وعند أبي داود من حديثه: قرأ فيهما بالتوحيد وبـ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

فسورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تسمى سورة الإخلاص وسورة التوحيد .

وصرح السلف باسم التوحيد فألف ابن خزيمة وابن مندة كتاب التوحيد.

م (١٠) : الفرق بين الربوبية وتوحيد الربوبية والألوهية وتوحيد الألوهية :

الربوبية والألوهية صفات لله، والتوحيد والشرك فيها صفات للعبد .

والفرق بين العبادة وتوحيد العبادة : أن العبادة هي القربة والطاعة وفعل العبادة. والتوحيد أن لا تصرف هذه القربة والعبادة لغير الله ﷻ.

م (١١): فائدة لغوية: لا يصح أن يقال الشرك في التوحيد والشرك في توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، والصحيح قولنا الشرك في الألوهية والشرك في الربوبية .

وعلة ذلك : أن التوحيد يقابل الشرك ولا يجتمعان، فالتوحيد لا يتعلق به الشرك وإنما يتعلق بالعبادة والألوهية والربوبية، أما من وحد وأتى بالتوحيد فلا يقال أشرك في توحيده وإنما أشرك في عبادته ، لكن يصح أن يقال الكفر بالتوحيد .

م (١٢) : فضل التوحيد ومكانته وأهميته وثمراته :

التوحيد أعظم ما أمر الله به، ولا يدخل الإسلام إلا به ولا يعصم الدم والمال إلا هو ولا يدخل أحد الجنة وينجو من النار إلا بتحقيقه ولا تقبل العبادات إلا به ، ولم يخلق الله الخلق إلا ليوحدوه في العبادة ، وله فضائل كثيرة لا يمكن حصرها منها أنه يقوي القلب ويشرحه ويسعده ولا تحصل السعادة والأمن إلا به كما أنه يربي على محبة الله وفعل الخير وكره الشر والبعد عنه والتقرب إلى الله والصبر.

م (١٣): وجوب تعلم مسائل التوحيد وحقيقة الشرك وأسبابه :

يجب على كل مسلم أن يعرف التوحيد الذي أمرنا الله به، ويعرف الشرك الذي ينقضه ويسعى حثيثا في تعلم كل ذلك، وهذا حصن للمؤمن فإذا علم بالشرك اجتنبه، ألا ترى أن بعض الصحابة ﷺ حين جهلوا حقيقة الشرك وكانوا حديثي

عهد بكفر طلبوا التعلق بالأنواط ومثلهم عدي في شرك الطاعة وذلك لعدم معرفتهم بحقيقة الشرك، فأنكر عليهم ﷺ، ولذا ينبغي للمسلم معرفة الشر ليتقيه.

هذا وقد كثر في المعاصرين الجهل بحقيقة الشرك، فلم يفهموا ما هو الشرك الذي حرمه الله تعالى والذي لا يغفره، وكثرت عندهم الشبهات في الشرك وحقيقته والسبب في عدم مغفرة الله تعالى لصاحبه ، فظنوا أن دعاء الأموات واتخاذ الوسائط وطلب الشفاعة ليس بشرك،وظن آخرون أن الحكم بالقوانين والتشريع ليس شركا.

م (١٤): أركان التوحيد :

التوحيد قائم على ركنين النفي والإثبات : وهما ركنا شهادة أن لا إله إلا الله .

الركن الأول : النفي والإنكار: وهو الموجود في (لا إله) .

وهو نفي استحقاق العبادة عن كل ما سوى الله ﷻ والكفر بعبادة من دونه، والخلوص من الشرك والبراءة منه ومن أهله، وخلع الأنداد والمعبودات والآلهة ، وأيضا نفي الربوبية والكمال والتعظيم عن كل مخلوق .

الركن الثاني الإثبات : وهو الموجود في : إلا الله .

إثبات العبادة والدين والألوهية والربوبية والكمال لله وحده دونما سواه.

وليعلم أن ذلك مشتق من أصل اللغة فالتوحيد في أصل اللغة لا يطلق إلا على مصطلح يقوم على النفي والإثبات ومثله الإفراد والوتر وأسلوب الحصر .

فالتوحيد له ركنان هما الإثبات والنفي، فلا يسمى الشيء مفرداً أو إفراداً أو توحيداً أو تجريدا أو إخلاصا إلا إذا قام على ركنين هما الإثبات مع النفي .

م (١٥): أركان التوحيد من حيث محله وآلته:

الركن الأول : قول القلب وذلك بمعرفة الله ﷻ وتصديقه .

الركن الثاني : عمل القلب وذلك يتحقق بـالإقرار بوحدانيـة الله ﷻ وإفـراده بجميع أنواع العبادات القلبية كمـحبته ومهابته والذل له والخضوع له وتعظيمه .

الركن الثالث : قول اللسان ويكون بالنطق بالتوحيد وذكر الله وسؤاله .

الركن الرابع : عمل الجوارح، ويتحقق بالقيام له ﷻ بالتوحيد بالبدن .

م (١٦) : أقسام التوحيد :

ينقسم التوحيد إلى أقسام باعتبارات ، ومثله الشرك الذي هو ضد التوحيد :

التقسيم الأول : ينقسم باعتبار آلاته وأركانه إلى عملي واعتقادي وقولي .

١- التوحيد القولي اللساني :

قول لاإله إلا الله ودعاء الله وتسبيحه والحلف به والإقرار بتوحيد الربوبية له.

٢- التوحيد الاعتقادي الباطني القلبي : (قولي وعملي)

الاعتقادي القولي المتعلق بقول القلب : التصديق والمعرفة بالله واليقين بالله .

الاعتقادي العملي المتعلق بعمل القلب: كالمحبة والخوف والتوكل والتعظيم.

٣- التوحيد العملي الظاهر المتعلق بالجوارح: كالقيام والسجود والذبح .

ويلاحظ أن هذا التقسيم راجع لأفعال العباد .

التقسيم الثاني: أقسامه باعتبار نوعه وجنسه :

١- توحيد الألوهية ٢- توحيد الربوبية ٣- توحيد الأسماء والصفات .

والبعض يسمي الثاني والثالث بالتوحيد العلمي الخبري أو المعرفة والإثبات .

ويقصد بالعلمي الخبري المتعلق بالعلم والخبر وبالمعرفة معرفة الرب ﷻ وبالإثبات إثبات أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله .

والبعض يضيف على الأنواع الثلاثة توحيد المتابعة وتوحيد الحاكمية.

وفصلنا القول في ذلك في كتابنا حقيقة عقيدة التوحيد .

التقسيم الثالث : أقسامه باعتبار من يقوم به ويتعلق به .

توحيد متعلق بالله وهو الخاص بصفاته تعالى وأفعاله ووحدانيته القائمة به .

توحيد متعلق بأفعال المخلوق وهو أن يعبد الله وحده .

فلا يقوم في قلبه وجوارحه تعظيم وذل وخضوع لغير مولاه المنعم عليه وربه المتفضل عليه والمحسن إليه والقادر على نفعه وضره والقائم على مصالحه .

التقسيم الرابع : وينقسم باعتبار من يتصف به :

١- توحيد المرسِل:وهو الله ﷻ ، وتوحيده يكون في ألوهيته وذلك بعبادته وحده، وفي ربوبيته وأفعاله وأسمائه وصفاته،وهذا مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله.

٢- توحيد المرسَل: وهو الرسول ﷺ : ويسمى توحيد المتابعة .

وذلك بإتباع الرسول ﷺ وطاعته وتحكيمه وتقديم أمره وتصديقه ومحبته، وهذا مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله .

التقسيم الخامس: ينقسم باعتبار أهميته إلى توحيد كمال وتوحيد أصل .

م (١٧) : وجه انحصار التوحيد في ثلاثة أنواع : أن ما يختص به الله وحده ويعتبر حقاً له لا يشاركه أحد فيه وصفة لازمة له ، لا يخرج عن ثلاثة أمور :

الأول : تفرده بالربوبية فلا رب للعالمين إلا هو ولا خالق ولا مالك ولا مدبر ولا رازق غيره ﷻ وهذا أحد الأمور التي استحق أن يوحد سبحانه فيها .

الثاني : تفرده بالألوهية وكونه وحده المستحق للعبادة دونما سواه، فلا يشاركه أحد في هذا الحق، فلا يوجد من يستحق أن يعبد، لأن استحقاق العبادة لا تكون إلا لمن هو كامل في ذاته وفي صفاته غني عن كل شيء قادر يملك النفع والضر وليست هذه الصفة لأحد غير الخالق سبحانه فمن خلق وملك كل شيء وجب أن يُعبد، وكان استحقاق العبادة صفة لازمة له لكماله وتفرده بذلك .

الثالث : تفرده بصفات الحسن والكمال والجمال والجلال، فله وحده الأسماء الحسنى الدالة على الصفات العليا لايشاركه أحد وغيره، مخلوق ضعيف فقير محتاج.

م (١٨) : تقسيم التوحيد أمر استقرائي دلت عليه النصوص:

كما قررنا أن لفظ التوحيد مصطلح شرعي ، فكذلك أقسامه هي الأخرى شرعية سلفية ليست بدعية خلفية كما يقول المبتدعة، وليست من مخترعات ابن تيمية كما يزعمون بل وردت هذه الأقسام عند السلف في القرون المفضلة وسيأتي كلامهم.

أولاً : دل على أصل هذا التقسيم القرآن والسنة .

ومن الآيات الجامعة لأنواع التوحيد والدالة على التقسيم :

الأولى: سورة الفاتحة فيها تقرير لأقسام التوحيد قال تعالى:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

الثانية: قوله في سورة الناس: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ مَلِكِ ٱلنَّاسِ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾.

الثالثة: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ مريم .

الجملة الأولى: دلّت على توحيد الربوبية وهي التي وردت في:قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .

الجملة الثانية: دلّت على توحيد الألوهية والعبادة وهي الواردة في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾.

الجملة الثالثة دلّت على توحيد الأسماء والصفات وهي الواردة في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾.

ثانياً: ورود تقسيم التوحيد في كلام السلف وأهل العلم:

كما أنه قد ورد لغة تقسيم التوحيد على لسان السلف وكلامهم ومن ذلك .

قال أبو حنيفة في الفقه الأبسط : (والله يدعى من أعلى لا من أسفل لأن الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء) .

وروى ابن مندة في كتابة التوحيد عن القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة قوله :(إنما دل الله ﷻ خلقه بخلقه ليعرفوا أن لهم رباً يعبدوه ويطيعوه ويوحدوه).

قال أبو جعفر الطحاوي (ت:٣١١) في عقيدته :(نقول في توحيد الله : إن الله واحد لا شريك له ولا شيء مثله ولا شيء يعجزه ولا إله غيره) .

قال ابن بطه (ت:٣٩٧) في الإبانة:(الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده ثلاثة أشياء: أن يعتقد ربانيته، أن يعتقد وحدانيته، أن يعتقده موصوفاً بالصفات).

قال ابن حبان بالروضة:(الحمد لله المنفرد بوحدانية الألوهية المتعزز بعظمة الربوبية)

قال ابن كثير عند آية ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم ﴾ : (احتج على المشركين باعترافهم بوحدانية ربوبيته على وحدانية ألوهيته) .

وقال المقريزي الشافعي في كتابه التوحيد : (ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون بل اقروا به ..وإنما أنكروا توحيد الألوهية).

وقال ابن أبي العز شارح الطحاوية : (التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع: أحدها: الصفات، الثاني: توحيد الربوبية، الثالث: توحيد الألوهية وهو استحقاقه أن يعبد).

وقال الصنعاني في تطهير الاعتقاد : (الحمد لله الذي لا يقبل توحيد الربوبية من العباد حتى يفردوه بتوحيد العبادة كل الإفراد).

فهذه بعض النقولات والنصوص الصريحة في أنواع التوحيد الثلاثة الصفات والربوبية والألوهية ، من علماء الأمة من القرون المفضلة ومن بعدهم من جميع المذاهب وفي هذا رد على من شكك في تقسيمنا للتوحيد وزعم ابتداعنا له .

م (١٩): التوحيد أصل وكمال :

مطلق التوحيد أصله. المصحح للإيمان والإسلام: وهذا المعتبر بدخول الجنة والمنجي من النار والفاصل بين المسلم والكافر وهو مقتضى الشهادتين والإيمان بالله.

كمال التوحيد المطلق : وهذا يتفاضل الناس فيه وتاركه يعتبر موحداً لا كافراً وهو على درجات منه الواجب الذي يعاقب مخالِفُه مع بقاء الإسلام ومنه المستحب.

م (٢٠) : قوادح التوحيد ونواقضه :

القسم الأول: ماينقض التوحيد من أصلة ويزيله بالكلية، وهو الشرك الأكبر.

الثاني: ماينقصه ويقدح في كماله لكن لا يبطله وهو الشرك الأصغر والمعاصي.

والقاعدة:أن الشرك الأكبر لايجتمع وجوده مع وجود الإيمان وأصل التوحيد. أما الأصغر فلا ينافي أصل التوحيد ولا ينقضه وإنما ينقص كماله الواجب .

م (٢١) : **ما يضاد التوحيد** : الشرك ينقض التوحيد، ويكون بأحد طريقين : إما بنفي ما أثبته الله تعالى لنفسه ، أو بإثبات ما نفاه الله. وسيأتي بحث الشرك.

م (٢٢) : **تعلقات التوحيد والشرك** :

١- يتعلق التوحيد بالله ، فيقال توحيد الله والشرك بالله .

٢- ويتعلق بالالوهية والربوبية والأسماء والصفات .

فيقال توحيد الألوهية وشرك الألوهية ومثله الربوبية .

٣- ويتعلق بالعبادة ، فيقال توحيد العبادة لله والشرك في العبادة .

٤- ويتعلق بالإسلام ، فيقال توحيد الإسلام لله .

وجاء الأمر بالتوحيد في الإسلام في قوله: ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ .

٥- ويتعلق بالدين ، فيقال توحيد الدين لله ﴿ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴾ .

٦- ويتعلق بالشريعة ويأتي الشرك في التشريع ﴿ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ ﴾.

٧- ويتعلق بالرسول . فيقال توحيد الرسول بالمتابعة كما سيأتي في فصله.

٨- ويتعلق بالإيمان . فيقال توحيد الإيمان بالله.﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾.

٩- ويتعلق التوحيد والشرك بالانقياد والطاعة .

ويتعلق التوحيد بالحكم والمحبة والدعاء والخلق والأمر والتدبير وبقية أفعال وأفراد الألوهية والربوبية والصفات .

م (٢٣) : **الحنيف هو من أتى بالتوحيد و ترك الشرك عن قصدٍ وعلم**:

مجرد ترك الشرك من غير قصد وتعمد تركه لا يكفي بمفرده في الدخول في الإسلام، فلا بد من ترك الشرك قصدا ومن الكفر به والبراءة منه ومعاداة أهله.

قال ابن كثير في تفسير ﴿ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ : (الحنيف هو المائل عن الشرك قصدا ، أي تاركاً له عن بصيرة) . وقال(المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد) .(ومقبل على الحق بكليته لا يصده عنه صاد ولا يرده راد) .

فمن ترك الشرك وفاقاً وعادة من غير قصد فهذا لا يصدق عليه أنه اتبع ملة إبراهيم الذي صرح بالكفر بالطاغوت وصدع بتكفير أهله عالما عامدا .

م (٢٤) : لا تنفع لا إله إلا الله إلا العالم بمعناها العامل بمقتضاها :

قال الشيخ سليمان في التيسير شرح التوحيد : (ولا ريب أنه لو قالها أحد من المشركين ونطق بشهادة أن لا إله إلاً الله محمداً رسول الله، ولم يعرف معنى الإله ولا معنى الرسول ، وصلى وصام وحج ولا يدري ما ذاك إلاً أنه رأى الناس يفعلونه فتابعهم ولم يفعل شيئاً من الشرك ، فإنه لا يشك أحد في عدم إسلامه).

وقال أيضا فيه: (أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها، فإن ذلك غير نافع بالإجماع . فتباً لمن كان أبو جهل وغيره أعلم منه بلا إله إلاً الله) .

م (٢٥) : لا يقوم التوحيد إلا بالكفر بالطاغوت :

الكفر بالطاغوت أحد ركني لا إله إلا الله ، وقد دلت عليه كلمة التوحيد.

ووجه ذلك أن التوحيد له ركنان :

الأول : عبادة الله . الثاني : الكفر بالطاغوت والبراءة منه .

والطاغوت كل ما عبد من دون الله وهو راض وكل متبوع أو مطاع أو متحاكم إليه من دون الله قال سبحانه : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ البقرة: ٢٥٦ وقدم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله وعبادته

لأن عبادة الله لا تقبل ولا ينظر إليها إذا لم تكن لـه وحـده ولـيس لله فيهـا شريـك، وقارنها الكفر بكل معبود سواه ﷻ .

م (٢٦) : التوحيد هو حقيقة لا إله إلا الله :

شهادة أن لا إله إلا الله هي كلمة التوحيد وهـي نفـس قولنـا التوحيـد فهـما كلمتان مترادفتان . قال ابن تيمية عن لا إله إلا الله إنها : عنوان التوحيد .

لأن لا إله إلا الله دلت على التوحيد لكونها قائمة على الحصر، الذي هو النفـي والإثبات وهذا هو التوحيد، فلا يسمى الأمر توحيداً إلا إذا كان فيه أسلوب الحصر النفي والإثبات، نفي الألوهية والعبادة عن كل من سوى الله ﷻ ، وإثباتها لله وحـده لا شريك له وحصرها عليه .

هذا وقد دلت كلمة التوحيد لا إله إلا الله على توحيد الألوهية بالمطابقة وعـلى توحيد الربوبية والصفات بالتضمن والملازمة .

م (٢٧): الأصل التوحيد والشرك طارئ في الخليقة :

خلق الله ﷻ الخلق على عبادته وطاعته وتوحيده فكان الناس أمة واحدة عـلى التوحيـد قبـل أن يختلفـوا ويـدخلهم الـشرك ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ يـــونس: ١٩ ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ البقرة: ٢١٣ .

وفي الحديث القدسي قال الله ﷻ : (إني خلقـت عبـادي حنفـاء كلهـم وإنهـم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا) رواه مسلم.

م (٢٨) : تعريف المخالفين للتوحيد:

الفرق الضالة تفسر التوحيد بما تعتقد من باطل :

التوحيد عند الاتحادية والحلولية وأهل الوحدة:أن يكون الله عين كل موجود.

التوحيد عند المعطلة الجهمية بفرقها من معتزلة وأشاعرة: إنكار صفات الله.

والتوحيد عند القدرية : إنكار قدر الله وخلق أفعال العباد .

والتوحيد عند الجبرية : إنكار أن يكون للمخلوق تأثير وللأسباب حقيقة.

التوحيد عند المرجئة : مجرد ما في القلب من اعتقاد الربوبية في الله .

التوحيد عند الصوفية والقبورية والرافضة : هو اعتقاد أن الله هو الخالق. والشرك في اعتقاد أن يكون المخلوق خالق له التأثير والاستقلال من دون الله.

قال ابن سريج الشافعي : (التوحيد عند أهل العلم وجماعة المسلمين : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتوحيد أهل الباطل : الخوض في الأعراض والأجسام) . نقله عنه الهروي في ذم الكلام .

هذا تعريف التوحيد وحقيقته عند المبتدعة، فالشرك عندهم توحيد والتوحيد شرك وقد بينا ذلك في شرح النواقض ، كما زعموا أن النبي ﷺ لم يفسر التوحيد.

قال المزني : سمعت الشافعي يقول : (سئل مالك عن التوحيد ، فقال مالك: محال أن يظن بالنبي ﷺ أنه علم أمته الاستنجاء، ولم يعلمهم التوحيد . فالتوحيد ما قاله النبي ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله) أخرجه عنهم الهروي في ذم الكلام والسلمي في ذم الكلام .

تنبيه : مما أجمعت عليه الطوائف الصد عن التوحيد وحرب أهله ومعاداتهم .

مبحث : العبادة

المسألة الأولى : تعريف العبادة في اللغة :

العبادة مشتقة من عبد يعبد عبادة وعبودية وتعبد ومتعبد ومستعبد .

ومعناها : الذل والخضوع والطاعة والاستسلام والانقياد والإذعان والتدين.

فالعبادة هي الطاعة والذل والخضوع على وجه التعظيم .

العبادة قد ترادف لفظ الطاعة والإسلام والألوهية والدين والشريعة .

م (٢) : **تطلق العبادة على : ١- أمر الله ودينه . ٢- فعل العبد لذلك الأمر.**

م (٣) : **معنى العبادة في الشرع : عُرِّفت بعدة تعاريف ، أضبطها ثلاثة:**

الأول: كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

الثاني: فعل ما أمر الله به امتثالاً وترك ما نهى عنه على وجه الطاعة والامتثال .

الثالث: كمال الذل والخضوع مع كمال المحبة. كما عرفه ابن القيم في النونية:

وعبادة الرحمن غاية حبه * مع ذل عابده هما قطبان

ليس العبادة غير توحيد المحبـــة مع خضوع القلب والأركان

م (٤) : **قيام العبادة والألوهية على ثلاثة أمور :**

١- تعظيم الله ﷻ وإجلاله والمهابة منه وخوفه. ٢- غاية المحبة لله ﷻ.

٣- غاية الذل لله ﷻ والخضوع له ومهابته والانكسار له واللجوء إليه .

م (٥): **كل العبادات مبناها على الذل والتعظيم :** أي عبادة لو تأملتها لوجدتها تقوم على الذل والخضوع، ووجد الغاية منها إخضاع العبد لربه والتذلل والانكسار له والتجائه إليه وتعظيمه.فما خلقنا إلا لنعبده ونذل له ونعظمه، ونتقرب إليه.

م (٦): **أسماء المعبود بحق أو باطل** : الرب ، الإله ، المعبود ، المدعو ، الشفعاء الشريك ، الشركاء ، الوسائط المقربة ، الأصنام ، الأوثان ، التماثيل.

م (٧) : من عبد غير الله ﷻ ودعاه، فقد عبد الشيطان على الحقيقة، لأن هذا الشرك من أمر الشيطان فمن أطاعه فقد عبده كما قال تعالى ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ النساء: ١١٨ ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾.

م (٨) : جاءت اطلاقات في لغة العرب ووردت في الشرع بمعنى صرف العبادة منها : التوجه والقصد والطلب والجعل والابتغاء والاتخاذ والإرادة .

م (٩) : **أنواع العبودية** :

١- العبودية العامة: ويشترك فيها كل الخلق المؤمن والكافر، وهذه عبودية الربوبية، يدل لها قوله: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ مريم:٩٣.

٢- العبودية الخاصة : وهي المتعلقة بالمؤمنين وهي عبادة الألوهية ويدل لها قوله تعالى ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ الفرقان: ٦٣.

فالعبودية بنوعيها مثل الربوبية العامة والخاصة والإسلام العام والخاص .

م (١٠) : **أقسام العبادات** :

منها القلبية والقولية والعملية. ومنها الفعلية والتركية.ومنها البدنية والمالية.

ومنها المشروعة وهي الموافقة لأمر الرسول ﷺ وهديه .

ومنها المبتدعة وهي التي لم يأمر الله ﷻ بها أو جاء الأمر بخلافها .

ومنها الشركية : هي التي يعبد بها غير الله ﷻ.

م (١١) : شروط صحة العبادة :

١- الإخلاص لله ﷻ والتوحيد وهذا مقتضى شـهادة أن لا إلـه إلا الله ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ البينة: ٥. ولا تقبل العبادة إلا بالتوحيد .

٢- المتابعة لرسوله ﷺ وهذا مقتضى شهادة أن محمداً رسـول الله ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ الحشر: ٧.

ودليل الشرطين: ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الكهف: ١١٠ .

م (١٢) : قيام العبادة والألوهية على ثلاثة أصول :

١- عبادة الله وحده ، ويتحقق بعدم الكفر.

٢- عبادته بما شرعه لنا رسوله و بمتابعة رسوله ، ويتحقق بعدم البدعة.

٣- الكفر بعبادة ما سواه ، ويتحقق هذا الأصل بعدم الشرك والبراءة منه.

م (١٣) : أطراف العبادة :

لا تتم العبادة إلا بقيام المحبة والخوف والرجاء، وقد أثنى الله ﷻ على من جمع بينها، قال تعالى: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ الأنبياء ٩٠ ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ الأعراف ٥٦ ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ الإسراء ٥٧ ﴿ يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ الزمر: ٩.

م (١٤) : علاقة العبادة بالمسميات الشرعية :

أولا: الفرق بين الطاعة والعبادة :

١- أن العبادة لا تكون إلا لله أما الطاعة فتكون لله ولغيره مثل طاعـة الـزوج والوالدين وأولي الأمر . فالطاعة تصرف للمخلوق أما العبـادة فـلا تـصرف إلا لله . فيقال طاعة الله وطاعة الوالدين ولا يقال عبادتهم. **فالله تفرد بالعبادة دون الطاعة .**

قال ابن تيمية : (باب الطاعة والتصديق ينقسم إلى مشروع في حق البشر وغير مشروع، وأما العبادة والتأله فلا حق فيها للبشر بحال) الفتاوى ١/ ٩٨.

٢- كل طاعة لله هي عبادة لا العكس لأن الطاعة هي تنفيذ أمر وموافقته وامتثاله، والعبادة أعم فقد يكون سببها فعل مأمور به وامتثال أمر وقد تكون مجردة.

قال ابن تيمية في شرح العمدة في كتاب الصيام : (الطاعة موافقة الأمر وهذا يكون بما هو في الأصل عبادة كالصلاة وما كان في الأصل غير عبادة وإنما يصير عبادة بالنية كالمباحات الأكل والنوم بخلاف العبادة فإنها التذلل للإله كذلك فما لم يؤمر به من العبادات وإنما رغب فيه هو عبادة وإن لم يكن طاعة) .

٣- العبادة لابد أن يقارنها الذل والخضوع والمحبة والمعرفة بخلاف الطاعة.

قال ابن تيمية: (الطاعة هي الفعل الواقع على حسب ما أراده صاحب الأمر، أما العبادة فهي المتضمنة لغاية الذل والخضوع مع غاية الحب فمن خضع لشخص مع بغضه له لم يكن عابدا له وكذا إذا أحبه ولم يخضع له). الفتاوى ١٠/ ١٥٣.

٤- العبادة يلزم منها طاعة من يعبد . قال سليمان في التيسير: (تفسير العبادة بالطاعة من التفسير باللازم، فإن لازم العبادة أن يكون العابد مطيعا لمن عبده بها).

٥- الشرك يكون في الطاعة وفي العبادة ، وشرك العبادة أشمل وكله شرك أكبر. أما طاعة المخلوق في معصية الله فمنها طاعة معصية ومنها طاعة شركية كفرية.

ثانيا : علاقة العبادة بالإسلام :

لما قلنا : إن الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة .

كان الإسلام هو بمعنى الانقياد وهو بذلك يدخل في عموم العبادة،فلا يوجد شيء من الإسلام إلا وهو داخل فيها كما أن العبادة الشرعية داخلة في الإسلام .

قال ابن كثير في التفسير: (وعبادته هي طاعته بفعل المأمور وترك المحظور وذلك هو حقيقة دين الإسلام لأن معنى الإسلام الاستسلام لله تعالى المتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع).

رابعا: علاقة العبادة بالتوحيد:

التوحيد صفة وحال للعبادة فالعبادة إذا لم تصرف إلا لله فهي كما يقال التوحيد والإخلاص يدخل في العبادة وأفضل العبادات . فالعبادة أعم من التوحيد فكل من وحد الله فقد عبده وليس كل من عبد الله موحدا فقد يعبد الله ويعبد غيره .

سادسا: علاقة العبادة بالدين :

الدين أصله من الانقياد والذل وما يتدين به المرء ويلتزم به ، فهو قريب من معنى الإسلام ويدخل في عموم العبادة كما قاله ابن تيمية في العبودية.

وقد يكون الدين على غير وجه التعبد فيقال مثلاً الدمقراطية دين الغرب فهو بمعنى المنهج والطريقة وليس من باب التعبد .

والدين كالعبادة منه الحق وهو دين الإسلام والباطل كدين المشركين .

م (١٥) : تارك العبادة والألوهية كافر :

العبادة منها ما تركه كفر كالصلاة والتوحيد ومنها ما تركه محرم كالواجبات ومنها ما تركه لا يعاقب عليه كالمستحبات .

ومن ترك العبادة بالكلية فهو كافر: قال تعالى :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ غافر: ٦٠ . وداخرين أي صاغرين، وكان الجزاء هنا من جنس العمل، حين استكبر ولم يذل ويخضع لله عاقبه بالإذلال. وتارك العبادة وقع في كفر الإعراض، وكفر الإباء والامتناع، وافتقد صاحبه شرط الانقياد .

وخالف في هذا الأصل المرجئة فجعلوا تارك الأعمال مؤمنا مسلما .

م (١٦) : حاجة الإنسان للعبادة وكونه مفطوراً على التعبد والتدين:

عبادة الله فوق كل ضرورة ولابد للمخلوق من العبادة ومن لم يعبد الله عبد غيره لا محالة . وحاجة الخلق لعبادة الله أعظم من حاجتهم لربوبية ربهم لهم .

م (١٧) : شمولية العبادة وجهل الناس بحقيقتها :

كما أن النسك والشعائر التعبدية لله وحده، فكذلك بقية الحياة بجوانبها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها بل وحتى الممات يجب أن يكون كل ذلك لله. إلا أنه مع مرور الزمن وتضليل العلمانية المنافقة والصوفية والمرجئة أدى إلى تشويه الدين وانحسار مفاهيمه الشرعية عن مدلولها الشرعي الصحيح، ومنها العبادة، حيث حصروها في دائرة أداء المناسك والشعائر التعبدية التي ساحتها المساجد والمعابد. وأخرجوا التشريع والحكم والطاعة والتحاكم من العبادة، وأخرجوا الولاء والبراء ومعاداة الكفار وجهادهم والكفر بالطاغوت من العبادة.

أما عند المتكلمين والصوفية القبورية: فلا يسمون العبادة عبادة إلا مع اعتقاد النفع والضر في المعبود واعتقاد الربوبية فيه أو إعطائه بعض صفات الربوبية .

أيضا لا يعتبرون الدعاء والاستغاثة من العبادة فالعبادة في السجود والصلاة.

م (١٨) : لماذا استحق الله تعالى العبادة دونما سواه ؟

الأول: لكماله المطلق من جميع الوجوه بلا نقص، ومن هذا الكمال أنه متصرف قادر خالق عالم بكل شيء، وكماله في قدرته وغناه وعلمه وقيامه على كل شيء، وجماله الكريم وإنعامه على خلقه ورحمته بهم ومحبته لأوليائه. وهذا يستوجب أمرين: أن الكامل يستحق أن يعبد وتجب له العبادة ، وأن المعبود لابد أن يكون كاملاً وإلا فعبادته باطلة لا فائدة منها .

الثاني: لجماله ﷻ فله الجمال المطلق من جميع الوجوه.

الثالث: لإنعامه ﷻ على خلقه وتفضله على عباده ولعظيم نعمته على خلقه فكل خير منه ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ النحل: ٥٣ ، فهو المنعم وحده ولهذا استحق المحبة والعبادة وأن يدعى ويلجأ إليه وحده.

الرابع: لأنه ﷻ النافع الضار وحده ، فهو القادر أن ينفع ويضر والمتفرد وحده بذلك . قال تعالى مبينا هذا الأصل أن النفع والضر بيده وحده وأن المعبودات لا تملكه : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ الفرقان: ٥٥.

الخامس: لكمال غناه ﷻ وفقر كل مخلوق إليه فلا غنى لأحد عنه فهو الغني الحميد والصمد الكريم المجيد .

السادس: لكمال رحمته بخلقه ولعلمه بما يحتاجونه وما ينفعهم، قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يونس: ١٨ .

السابع : استحق ربنا ﷻ أن يُعبد لأنه وحده الخالق وغيره لا يخلق فمن يخلق يجب أن يُعبد ومن لا يخلق لا يستحق أن يُعبد .

ولا يمكن أن توجد هذه الصفات في أي مخلوق.

م(١٩) قاعدة:الكامل يستحق العبادة وتجب له، والمعبود لابد أن يكون كاملاً:

الأول : أن الكامل يستحق أن يعبد وتجب له العبادة. ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ الزخرف: ٨١ أي أنه لو كان للرحمن ولد كما زعم المشركون لصحت عبادة هذا الولد، لأنه لو كان لله تعالى ولد لكسب صفات والده من صفات الكمال، فاستحق العبادة، ولمّا كان هذا مستحيلا، فالولد منتفٍ عن الله ، انتفت العبادة عن غير لله .

الثاني : أن المعبود لابد أن يكون كاملاً وإلا فعبادته باطلة لا فائدة منها بل فيها الضرر كما أخبر تعالى في سورة الحج في قوله: ﴿ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾

وهذا حق دل عليه العقل والشرع أن من يُدعى ويُسأل لا بد أن تكون له القدرة على إجابة من دعاه ورجاه ويملك نفعه ودفع الضر عنه وإلا كانت دعوته وعبادته خسارة ، ولا يصح أن يكون لله شريك في العبادة لعدم وجود الكمال فيه .

فالنتيجة أنه لا كامل غير الله ﷻ وبالتالي فلا يستحق العبادة أحد سواه، لأنه لا يمكن أن يعبد إلا الكامل والكامل لابد أن يعبد، ولا كامل مطلقاً إلا الله فيجب أن تكون العبادة له وحده ، وقد قرر سبحانه في كتابه هذا الأصل وأفحم به أهل الشرك في آيات كثيرة، فلا يستوي الكامل والضعيف ومن يخلق ومن لا يخلق .

م(٢٠):من يخلق لابد أن يُعبد ومن لا يخلق لا يحق أن يُعبد والله الخالق وحده:

ومن أدلة أن المعبود لابد أن يكون خالقا ، قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ الأحقاف: ٤ ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ الفرقان: ٣ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ الزمر: ٣٨ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾ الحج: ٧٣ ﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ الرعد: ١٦ ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ الأنعام: ١٠٢. ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ الأعراف: ٥٤ ﴿ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾.

قال ابن القيم :(فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقا فاعلا يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر) مختصر الصواعق ٧٢ ، وتقدم كلام ابن كثير .

م (٢١) : أسباب العبادة الشركية التي نفاها الله ﷻ :

قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون عباد الأوثان (الملك والشراكة والمظاهرة والمعاونة والشفاعة) ، وقد بينها الله تعالى في آية سبأ في قوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾.

م (٢٢) : طرق عبادة المخلوق وطلب شفاعته :

الطريق الأول: طريق العوام:وهم من يطلب من معبوده أن يشفع له عند الله .

الثاني : طريق الفلاسفة: ممن يعتقد أن المعبود يحصل النفع منه بمجرد القرب منه ببركة الفيض من الإله، بحسب يقين عابدها وتعلقه كالشعاع المنعكس في المرآة.

م (٢٣) : مفاسد عبادة غير الله :

١- أن فيها التجاءً وتوجهاً وافتقارا لغير الله .

٢- أن فيها إهانة العبد لنفسه حين يترك عبادة الله إلى عبادة مخلوق مثله.

٣- تضييع لمعنى العبودية لله التي هي أشرف صفات العبد وأعلى مقاماته .

٤- أن فيه هضماً لحق الربوبية وإبطالاً لمقتضياتها وترك تعظيم الرب وتقديره .

٥- نسبة الألوهية للمخلوق ووصفه بالربوبية والكمال واستحقاق للعبادة .

٦- تنقص جناب الربوبية وذلك بترك عبادته لأن غيره أنفع وأقدر وأجوب.

٧- أن فيها شكاية الرب الرحيم على المخلوق .

٨- أن فيه إساءة الظن بالله وعدم تقديره.

٩- أن فيه تشبيه الخالق بالمخلوق وذلك باعتقاد أنه محتاج لواسطة تشفع عنده، كما أن فيه تشبيه المخلوق بالخالق وذلك بإعطائه صفات الألوهية وأنه يدعى.

١٠- أن دعاء وعبادة غير الله من الشرك المخرج عن الإسلام والكفر البواح .

١١- تفويت الخير من الله والثواب وإجابة المطلوب .

١٢- خسران رضا الله تعالى والجنة وإيجاب سخطه والنار.

١٣- أن من دَعا غير الله فقد عظم وخضع وذل وانكسر وافتقر لمخلوق مثله.

١٤- من دعا غير الله فإنه لم يعط الله حقه في اسمه الرحيم والعليم والقدير .

١٥- أن اعتقاد أن الشرك أمر الله به غاية في الافتراء والكذب على الله ﷻ .

١٦- أن في دعاء الأولياء والصالحين وطلب الشفاعة منهم عدوان عليهم .

١٧- بطلان وفساد وضياع عبادتهم ودعائهم وتشفعهم.

م (٢٤) : العبادات مبناها على التوقيف لا الابتداع :

البدعة هي ما أحدثه الناس مما لا أصل له في الشريعة .

وفي البدع طعن في الله ورسوله ودينه حيث يلزم منه أن الدين والشريعة ليست بكاملة ولم يشرع الله ما يصلح لهم والله ﷻ يقول:﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾.

وقال ﷺ : (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) رواه البخاري .

وقال ابن مسعود ﷺ: (الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة) .

وليس في الإسلام بدعة حسنة.

ومن أمثلة البدع: الاحتفال بالمولد النبوي والعيد الوطني وصلاة الرغائب والصلاة والصدقة عند القبور والبناء عليها وزخرفة المساجد وغير ذلك .

م (٢٥): أقسام العبادات :

القسم الأول : العبادات القولية :

١- الدعاء والتوسل والاستغاثة وطلب الشفاعة. وهذا عند كل المشركين .

٢- المدح والشكر والثناء والحمد والتمجيد والتعظيم والذكر والتسبيح .

القسم الثاني : العبادات البدنية التقرب بالأعمال والتنسك بالجوارح:

الصلاة والقيام والركوع والسجود والاعتكاف والمجاورة والحج والطواف والذبح والنذر والصيام والتقبيل والتمسح والتبرك وتجريد اللباس وحلق الشعر.

القسم الثالث : العبادات القلبية : الإخلاص والنية والإرادة ، والمحبة ، والخوف، والرجاء ، والتوكل ، والتوبة والإنابة واللجوء، والخضوع والتعظيم .

باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب (٢)

اسم الباب : فضل التوحيد

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه:

فضل التوحيد ومكانته .

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن من أتى بالتوحيد نال رضا الله واستحق دخول الجنة وسلم من غضب الله وأمن من عذابه ، وأنه يكفر الذنوب فالتوحيد أعظم حسنة والشرك أعظم سيئة.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

بعد أن ذكر المصنف في الباب الأول حقيقة التوحيد أعقب ذلك ببيان فضله ومكانته ليشمر له الراغبون في مرضاة الله ونعيمه ، وفي مشابهة للباب الذي بعده.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد في استدلاله لموضوع الباب في فضائل التوحيد خمسة أدلة ، وهي:

١- قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ الأنعام: ٨٢.

٢- عن عبادة بن الصامت الخزرجي قال: قال رسول الله ﷺ :(من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق،أدخله الله الجنة على ماكان من العمل) متفق عليه . وهذا الحديث حوى أبواب العقيدة التي يجب الإيمان بها.

٣- حديث عتبان الخزرجي: (فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله) متفق عليه. وقد فهم المرجئة من هذا الحديث أن قائل لا إله إلا الله يدخل الجنة ولو لم يعمل، وقد بينت فساد فهمهم وأن لهذه الكلمة شروطا لا تنفع إلا بعد الاتيان بها في كتابي شرح شروط لا إله إلا الله وكتاب الرد على المرجئة.

٤- عن أبي سعيد الخدري الخزرجي عن النبي ﷺ قال:(قال موسى: يا رب علمني شيئا أذكرك وأدعوك به، قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله، قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا، قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله) .رواه ابن حبان والحاكم.

ومن هذا الحديث يتبين أن التوحيد والإسلام لا يختص به أحد ولا يتميز فيه أحد إلا بعمل العبد نفسه وإخلاصه لمولاه ، فالناس فيه متفاوتون، وهذا يستفاد من طلب موسى مزية غير الرسالة والتكليم التي اصطفاه الله بها وفضله بها عن الناس، فأخبره الله ﷻ أن التوحيد أحب الأعمال إليه وأنه لا يحجب أحداً عنه والناس في التنافس فيه سواء فضلا من الله ومنة ، والأنبياء أفضل الخلق وأفضلهم نبينا محمد ﷺ ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ونوح عليهم السلام .

٥- عن أنس بن مالك الخزرجي الأنصاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قال الله تعالى: يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة) رواه الترمذي وحسنه.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

التوحيد هو العلم الذي يعرف الإنسان بربه وإلهه ومعبوده فيوحده لكونه المستحق وحده لذلك ويعلم السبب في كونه المستحق للعبادة وحده .

التوحيد أعظم ما أمر الله تعالى به، ويكفي لمعرفة مكانته أن العبد لا يدخل الإسلام إلا به ولا يعصم الدم والمال إلا هو ولا يدخل أحد الجنة وينجو من النار إلا بتحقيقه ولا تقبل العبادات إلا به .

ولم يخلق الله الخلق إلا ليوحدوه في العبادة . ولا تحصل السعادة والأمن إلا به.

وقد شهد الله بذلك وأرسل الرسل وأنزل الكتب وأخذ العهد لأجله وبه تحصل الأخوة الإسلامية ولأجله أوجب الجهاد وجردت السيوف واستبيحت الدماء والأموال والحريم .

ومن حقق التوحيد دخل الجنة، ومن اخل به استحق العقاب، ومن نقضه خُلّد في النار، ولا يخلد في النار من قام بالتوحيد الصحيح، ولا يدخل الجنة من قام بالشرك الصريح .

ومن فوائد التوحيد وفضائله أنه السبب الوحيد لتحصيل رضا الله وثوابه وجنته ورحمته والسعادة في الدارين والأمن فيهما .

كما أنه يقوي القلب ويشرحه ويسعده ويربيه على محبة الله وفعل الخير وكره الشر والبعد عنه والتقرب إلى الله والصبر على الأقدار والتحلي بمكارم الأخلاق من الكرم والشجاعة والصدق .

تنبيه : جمع ابن عبدالهادي في رسالته التي في فضائل كلمة التوحيد أكثر من مائتي فائدة للتوحيد.

قال ابن القيم رحمه الله في الداء والدواء عن كلمة التوحيد: (هي الكلمة التي قامت بها الأرض السماوات وفطر عليها جميع المخلوقات وعليها أسست الملة ونصبت القبلة وجردت سيوف الجهاد وهي محض حق الله على جميع العباد وهي الكلمة العاصمة لهم والمال والذرية في هذه الدار والمنجية من عذاب القبر والنار وهي المنشور الذي لا يدخل أحد الجنة إلا به والحبل الذي لا يصل إلى الله إلا من تعلق بسببه وهي كلمة الإسلام ومفتاح دار السلام وبها انقسم الناس إلى شقي وسعيد وبها انفصلت دار الكفر من دار الإسلام وتميزت دار النعيم من دار الشقاء).

وقال في طريق الهجرتين : (اعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً أعظم من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها، فليس لهذه الحاجة نظير تقاس به فلا صلاح للعبد إلا بإلهه ولا تطمئن الدنيا والقلوب إلا بذكره..) .

والقرآن جاء كله دعوة إليه وتقريراً لتحقيقه .

قال ابن القيم في المدارج: (كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهد به داعية إليه فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وهو التوحيد العلمي ، وإما دعوة إلى عبادته وحده فهو التوحيد الطلبي ، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته فهي حقوق التوحيد ، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي الشرك وأهله وجزائهم).

باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب (٣)

اسم الباب : تحقيق التوحيد

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه: كيفية تحقيق عقيدة التوحيد، وما في ذلك من المكانة .

مكانه ونوعه : يعد من أهم أبواب الكتاب فمقصوده تحقيق حقيقة التوحيد.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن التوحيد ليس مجرد شعار أو هو قول بلا عمل بل له حقيقة ولا ينفع صاحبه إلا بعد تحقيق هذه الحقيقة كما أراد الله وهذا هو التخليص والتجريد .

فأورده المصنف هذا الباب الأدلة ليرد به على مشركي زمانه الذين ظنوا التوحيد مجرد تلفظ بالشهادتين فحسب . وأن الواقع في الشرك لا يجوز تكفيره إذا كان ممن ينتسب للإسلام وينطق بالشهادتين ، وأن التوحيد يقوم من دون الكفر بالطاغوت ومن دون الولاء والبراء ومن دون تكفير المشركين.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

بدأ المصنف كتابه ببيان حقيقة التوحيد إجمالاً في توضيح عقيدة التوحيد وأنواعه ووجوب إفراد الله بالعبادة وكفر المشرك فيها ، ثم بين فضل التوحيد ومكانته ، ثم بين كيفية تحقيقه ، ثم بين حقيقة الشرك وخطره ، ثم وجوب الدعوة للشهادتين ، ثم فسر التوحيد.

أما مناسبته للباب الذي قبله: فهو جاء بعد أن أورد حقيقة التوحيد وفضله بين كيفية تحقيقه، حتى لا يكون المريد جاهلا بحقيقة التوحيد .

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١- قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ النحل: ١٢٠.

واهنا فائدة في الاستدلال بهذه الآية على تحقيق التوحيد، وهي أن إبـراهيم ﷺ هو أعظم من حقق التوحيد ،والكفر بالطاغوت ، ولذلك أمرنا بالاقتداء بملته .

٢- قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ المؤمنون: ٥٩.

٣- عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بـن جبـير فقـال: أيكـم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ فقلت: أنا، ثم قلت: أمـا إني لم أكـن في صـلاة، ولكني لدغت. قال: فما صنعت؟ قلت: ارتقيت. قال: فما حملك عـلى ذلـك؟ قلـت: حديث حدثناه الشعبي. قال: وما حدثكم؟ قلت حدثنا عن بريدة بن الخـصيب أنـه قال: (لا رقية إلا من عين أو حمة). قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع.

ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: (عُرضت عليّ الأمـم، فرأيـت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحـد، إذ رفـع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظـرت فـإذا سـواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفـا يـدخلون الجنـة بغـير حـساب ولا عذاب، ثم نهض فدخل منْزله، فخاض الناس في أولئـك، فقـال بعـضهم: فلعلهـم الذين صحبوا رسول الله ﷺ ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولـدوا في الإسـلام فلـم يشركوا بالله شيئا، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقـال: هـم الذين لا يَسْتَرْقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام عكاشـة بـن

محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: أنت منهم، ثم قام رجل آخر فقـال: ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال: سبقك بها عكاشة). متفق عليه .

والمتأمل في الجامع لتلك الخصال الواردة في الحديث يجد أنه كمال التوكل.

وهذا الحديث أورده المصنف ليبين أن تحقيق التوحيد درجات منه الكمال ومنه الأصل .

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

مراتب الناس في تحقيق التوحيد.

معنى تحقيقه :معرفته والعمل به والقيام به قولا وعملا ، وتخليصه من شوائب الشرك والبدع والمعاصي.

كيفية تحقيق التوحيد :

يكون بثلاثة أمور :

الأول : عبادة الله وحده .

الثاني : ترك الشرك والذنوب .

الثالث : الكفر بالطاغوت وبغضه ومعاداته.

ولا بد لنا من بيان هذه الأبواب الثلاثة .

أما مبحث الكفر بالطاغوت ومبحث الولاء والبراء فسنذكرها في هذا الباب.

وأما مبحث التوحيد فتقدم في الباب الأول.

وأما مبحث الشرك فسيأتي في الباب القادم .

مبحث : الكفـر بالطـاغـوت

المسألة الأولى : تعريف الطاغوت في اللغة :

الطاغوت: على وزن فعلوت، أحد الأوزان الدالة على المبالغة ، كجبروت.

والطاغوت صيغة تستخدم وتطلق على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث .

وجمع الطاغوت : طواغيت، وطواغي.

ولفظ الطاغوت مشتق من الفعل : طغى يطغى ويطغو طغيانا، من المجـاوزة، ومنه طغى الماء ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ ﴾. وكل من جاوز حدَّه في العصيان فهو طاغ .

فمعنى طغى: جاوز القَدْرَ وتعدى حده في العصيان وارتفعَ وغَلا في الكفر.

وسمي الطاغوت طاغوتاً : لأنه طغى وتجاوز الحد في الكفر .

م (٢) : معنى الطاغوت في الاصطلاح الشرعي: له تعريفات أضبطها:

١- الطاغوت هو كل ما تجوّز به الحد من متبوع أو مطاع أو معبود .

٢- كل ما عُبد من دون الله وهو راضٍ بذلك ، ولو في باب من أبواب العبادة، كالحب والموالاة والمعاداة ، أو الطاعة والحكم والتشريع ، أو الدعاء.

ويدخل في هذا التعريف كل ما أمر بكفر أو قرره مما يخرج من الـدين مطلقـاً ، سواء أكان عبادةً أو اتباعاً أو طاعةً أو غيرها .

م (٣) : الفرق بين الكفر والطاغوت : ليس كل كافر طاغوتاً، وليس كل كفـر يعتبر بواحا، فالكفر منه المجرد والمغلظ، والكفار مـنهم العـادي ومـنهم الطـاغوت ومنهم دون ذلك ، ولذلك فالطاغوت هو ما زاد عن الحد في الكفر .

م (٤) : ليس كل معبود يسمى طاغوت :

الطاغوت يكون حيا وجمادا والمعبود إذا كان حيا وكانت عبادته برضاه فهو طاغوت وإلا فلا ، فالملائكة وعيسى ليسوا طواغيت ولا يجوز أن يسموا طواغيت.

وقد وهم البعض حين قال أنهم جعلوا طواغيت بعبادة المشركين ، فتصير الطاغوتية في عبادة الناس لا في ذوات المعبودين، وهذا التوجيه بعيد لأن العبادة في الحقيقة وقعت للشيطان فهو إله ومعبود كل مشرك في الحقيقة ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ﴾ سبأ: ٤١ ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ النساء: ١١٧.

أما من قد يستدل بقوله ﷺ : (اللهم لا تجعل قبري وثنا) رواه مالك و أحمد.

فالجواب : أن الوثن في ذات القبر وترابه وليس صاحبه، ثم هناك فرق بين الطاغوت والوثن .

م (٥) : ضوابط الطاغوت وصفاته :

١- من ادعى صفة من صفات الله الخاصة به سبحانه . كالعبادة والألوهية أو الربوبية أو العلم الشامل أو الغيبي أو التشريع والحكم أو القدرة التامة أو الكمال.

٢- ما هو رأس في الضلال يدعو للباطل وينشر الفساد، ويصد عن دين الله .

٣- من يعبد الناس لغير الله .

تنبيه: قد يتصور حصول الجهل ببعض أفراد الطاغوت وبعض صور الكفر به لذا كان لزاما عليك أن تعرف صفاته وضوابطه .

م (٦) : أقسام الطاغوت : الطاغوت ثلاثة أقسام :

١- طاغوت العبادة : ويدخل فيه كل ما عُبد من دون الله ، فإن كان من الأحياء الملائكة أو الإنس أو الجن فلا بدّ من رضاه حتى يسمى طاغوتا ، وإن كان من الجمادات أو الحيوانات فلا يشترط رضاه ويسمى طاغوتا مطلقا .

٢- طاغوت الاتباع : ويدخل فيه الكهان والسحرة وعلماء الضلالة وعبّاد الغواية الذين يُتبعون فيما يقولون، ويحيدون عن شرع الله ﷻ .

٣- طاغوت الطاعة : ويدخل فيه الحكام والأمراء والرؤساء الذين يحكمون بغير ما أنزل الله وينحون شريعة الله ودينه ويتحاكم الناس لهم ، ويحرمون ما أحل الله أو يحللون ما حرم الله سبحانه فيطيعهم المشركون بهم.فكل ما عبد من دون الله فهو طاغوت وكل ما أطيع من دونه فهو طاغوت وكل ما اتبع من دون الله فهو طاغوت.

قال ابن سحمان : (الطاغوت ثلاثة أنواع : طاغوت حكم وطاغوت عبادة وطاغوت طاعة ومتابعة) . الدرر ١٠/ ٥٠٢ .

قال ابن القيم: (هو كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع).

وعلى هذا التعريف فالطاغوت ثلاثة أقسام :

١- المعبود : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ الزمر١٧ ﴿ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ المائدة: ٦٠.

٢- المتبوع: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾ البقرة: ٢٥٧ ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ النساء: ٧٦ ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ النساء: ٥١.

٣- المطاع والمتحاكم إليه : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ النساء: ٦٠ .

م (٧) : رؤوس الطواغيت :

قال محمد بن عبدالوهاب : الطواغيت كثيرة ورؤوسها خمس :

الأول : الشيطان لعنه الله .

الثاني : الذي يحكم بغير ما أنزل الله والدليل قوله تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المائدة: ٤٤.

الثالث : الحاكم الجائر المشرع المغير لأحكام الله تعالى والدليل قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ النساء: ٦٠.

الرابع : الذي يدعي علم الغيب .

الخامس : الذي يعبد من دون الله وهو راض ، أو يدعو الناس لذلك.

وهذا النوع على قسمين :

١ - الداعي الملزم : وهو من يدعو الناس لعبادة نفسه .

٢ - الراضي : من يرضى بعبادته وإن كان لا يدعو الناس لها.

وقد جعل الشيخ في رسالته التي في الطاغوت :رؤوس الطواغيت خمسة:

١ - الشيطان. ٢ - المشرع. ٣-الحاكم بغير ما أنزل الله. ٤ - مدعي علم الغيب. ٥ - مدعي الألوهية الداعي لعبادة نفسه أو من يرضى بذلك .

وجعل اثنين منهما في شرك الحكم مما يدل على خطورته.

التشريع والتحليل والتحريم وشرك الحكم والطاعة أعظم الطواغيت وتقدم.

م (٨) : صور الطواغيت التي تُعبد من دون الله تعالى ووجوب الحذر منها :

من صور الطواغيت وأمثلتها: المشرّع والحاكم المشرك والمضلل والمفسد والساحر وأئمة الصوفية المسوغين للشرك وشيوخ الرافضة والعلمانية والليبرالية والديمقراطية والحداثة والكره والتصوير والتلفاز والنت والتعايش والعولمة . ومنها القومية والوطنية والقبلية والإنسانية والأحزاب حيث يعقد الولاء والبراء فيها.

وبعد : فهذه بعض طواغيت زمانك فاحذرها وتجنّبها واكفر بها وحذِّر منها واعلم أنه قد عدل أكثر الناس عن عبادة الله إلى عبادة هذه الطواغيت وطاعتها واتباعها والتحاكم إليها وعقد الموالاة والمعاداة لأجلها.

قال ابن القيم : (فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إلى غير الله ورسوله أو يعبدونه أو يتبعونه . فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم ممن أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته) نقله عنه سليمان بن عبدالله في التيسير ص:٣٠.

فاعلم أيها الموحد اللبيب أن من سنة الله وجود الطواغيت والحق والباطل، وما من نبي إلا وقد ابتلاه الله تعالى بالطواغيت يقارعهم ويجاهدهم ويبطل شركهم وكفرهم، لتتمايز بجهادهم النفوس فيُعرف المجاهد الصابر من المنافق الكاذب المتخاذل، كما قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ العنكبوت: ٢،

م (٩) : قاعدة: الكفر بالطاغوت لا بد أن يأتي به المسلم عن قصد :

من عبد الله ولم يتبرأ من عبادة غيره ، فهذا لا يعتبر من أهل التوحيد ولا آمن بالله، فلا بد من الكفر بالطاغوت وترك الشرك قصدا . وبينا هذه المسألة في مواضع.

م (١٠) : **أدلة الكفر بالطاغوت** :ورد التعامل مع الطاغوت في ثمانية مواضع:

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ البقرة: ٢٥٦.

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّٰغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦.

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ﴾ الزمر: ١٧ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾ النساء: ٥١.

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّٰغُوتَ ۚ أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ ﴾ المائدة: ٦٠.

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَٰتِ ۗ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٢٥٧.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا إِلَى الطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ وَيُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ النساء: ٦٠.

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا أَوْلِيَآءَ الشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ النساء: ٧٦.

فالآيات الثمان بينت سبعة أحكام : وجوب الكفر بالطاغوت ، ووجوب اجتنابه . وكفر من آمن به ، أو عبده ، أو تحاكم إليه ، أو تولاه ، أو قاتل في سبيله .

قال ابن القيم عن امتناعه ﷺ وعدم إذنه لوفد ثقيف استبقاء اللات: (لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوما واحدا فإنها شعائر الشرك والكفر وهي أعظم المنكرات فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة ألبته، وهكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثانا وطواغيت تعبد من دون الله، وكثير منها بمنزلة اللات أو أعظم شركا) زاد المعاد ٢/ ٢٠٠.

م (١١) : أقوال أهل العلم في المسألة :

قال محمد بن عبد الوهاب: (لا يصح دين الإسلام إلا بالبراءة من هؤلاء ـ أي الطواغيت المعبودون من دون الله ـ وتكفيرهم) الدرر ١٠/ ٥٣.

وقال عبد الرحمن بن حسن:(التوحيد: هو الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله ، والكفر بالطاغوت ركن التوحيد كما في آية البقرة والتوحيد هو أساس الإيمان الذي تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعدمه) . فتح المجيد ٣٩٣ .

م (١٢) : حكمه وكونه شرطاً لصحة التوحيد وأن الإسلام لا يعتبر إلا به:

أول ما افترض الله على عباده الكفر بالطاغوت وإليه دعا جميع الرسل كما دل على ذلك قوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦، ويعتبر الكفر بالطاغوت الركن الأعظم في التوحيد إذ التوحيد لا يسمى توحيداً إذا لم يقم على النفي وهو الكفر بالطاغوت فهو أحد ركني لا إله إلا الله وهو ركن النفي، وإذا كان التوحيد لا يتحقق بدونه فإن الدين لا يصح ولا يقبل الإسلام إلا به، وقد نص العلماء على هذا الأصل وحكوا الإجماع عليه.

قال ﷻ ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ ومن يقول لا إله إلا الله لكنه لا يكفر بالطاغوت فهو كافر غير مسلم .

فلا يجتمع إيمان بالله مع إيمان بالطاغوت ولا عبادة الله مع عبادة الطاغوت ولا التوحيد مع الشرك والطاغوت فما ثم إلا عبادة الله أو عبادة الطاغوت.

والكفر بالطاغوت له علاقة بأركان لا إله إلا الله وشروطها ونواقضها.

وقدم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ﷻ لأهميته .

م (١٣) : صفة الكفر بالطاغوت وحقيقته وكيفيته وبم يحصل :

يحصل الكفر بالطاغوت بستره وتغطيته وإنكاره وجحده والبراءة منه وبغضه وعصيانه ومعاندته والامتناع عن طاعته .

فلابد من نفي ما ادعاه هذا الطاغوت لنفسه، وسلب خصائص الإله عنه، وحتى تكون مؤمنا بالله كافرا بالطاغوت لابد أن توجد هذه الأفعال في قلبك وجوارحك، فتعصيه إذا أمرك، وتظهر مخالفته فلا تتابعه، وتكفر بحكمه ولا تمتثله، وإذا ادعى صفة من صفات الله كعلم الغيب أو التشريع والحكم أو العبادة، فأنت واجبٌ عليك أن تنفيها عنه وتنكرها وتظهر كذبه وتشهد بكفره وتعتقد بطلان عبادته وحكمه وطاعته وتكفر بعبادة غير الله ﷻ وتتركها وتبغضها وتكفّر أهلها وتعاديهم وكذلك تكفر بمتابعة أحد غير رسوله وتكفر بحكم من سواه .

وقد بين الإمام محمد كيفية الكفر بالطاغوت وصفته في خمسة أمور :

الأول : اعتقاد بطلان عبادتها والكفر بها والحكم عليها بالكفر .

الثاني : تركها واجتنابها . الثالث : بغضها . الرابع : تكفير أهلها وعابديها .

الخامس : معاداتهم، ويدخل فيها : إزالة الطواغيت والتصدي لها ومقاومتها .

قال محمد بن عبد الوهاب: (صفة الكفر بالطاغوت : أن تعتقد بطلان عبادة غير الله وتتركها وتبغضها وتُكفر أهلها وتُعاديهم، وأما معنى الإيمان بالله فأن تعتقد أن الله هو الإله المعبود وحده دون ما سواه ، وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله ، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتُحب أهل الإخلاص وتواليهم وتبغض أهل الشرك وتُعاديهم ، وهذه : ملة إبراهيم التي سفه نفسه من رغب عنها) الدرر ١/ ١٦١ .

م (١٤) : مقتضيات الكفر بالطاغوت ولوازمه :

١- الجهاد والقتال: وهذا من أعظم معاني الكفر بالطاغوت وما شرع الجهاد إلا لهذا: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ الأنفال: ٣٩ والفتنة هي الشرك. ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ النساء: ٧٦.

٢- الولاء والبراء : الكفر بالطاغوت يكون بمعاداتها وبغضها والتبرؤ منهم: ﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا ﴾.

٣- الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام وعدم الإقامة عندهم ولا السفر إليهم، وهجرهم ومجانبتهم واعتزالهم ومفارقتهم وعدم مخالطتهم.

٤- تكفير الطواغيت، ومخاطبتهم باسم الكفر: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

٥- التحذير منها ودعوة الناس إلى الكفر بها .

٦- تكسيرها وهدمها وإزالتها حسا ومعنىً وقد كسر النبي ﷺ الأصنام، ولم يستبقِ طاغوتاً لا حياً ولا جماداً، فأمر بهدم الأصنام والطواغيت وقتل الطواغيت .

٧- الإغلاظ عليهم : قال تعالى : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ التوبة: ١٢٣ ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح: ٢٩.

م (١٥) : أنواع الطاغوت :

١- الجماد وغير العواقل: التي لا توصف بكفر ولا إيمان كالأصنام .

٢- الأحياء العواقل من الناس.

٣- الأمور المعنوية فكل ما صد عن دين الله طاغوتاً، كالهوى، وعد ابن القيم المجاز والتأويل طواغيت، ومثلها الدمقراطية، والمصلحة إذا قدمت على التوحيد.

م (١٦) : الإيمان والكفر المشروع والممنوع :

الإيمان المشروع هو الإيمان بالله وبقدره وملائكته ورسله وكتبه والبعث .

والكفر الممنوع: الكفر بالله وبرسله وكل ما أمر الله أن نؤمن به .

والإيمان الممنوع هو الإيمان بالطاغوت .

والكفر المشروع: هو الكفر بالطاغوت .

كما أن الإيمان قول وعمل كذلك الكفر بنوعيه المشروع والممنوع قولا وعملا.

م (١٧) : الكفر بالطاغوت يكون : بالقول والاعتقاد والعمل :

أولا : الكفر بالطاغوت المتعلق بالقلب يكون : ببغضه وكرهه وتمني زواله.

ثانيا: الكفر بالطاغوت المتعلق بقول اللسان يكون:بالتصريح بكفره والتحذير منه وسبه وتكفّيره وتبيين ضلاله ودعوة الناس للكفر به وتنفير الناس عنه .

ثالثا : الكفر بالطاغوت المتعلق بالعمل والجوارح ويحصل: بمجانبته ومفارقته واعتزاله وعداوته وعدم الإقامة معه والهجرة من عنده، وجهاده بالبيان والبنان والسنان والسعي في إزالته والقضاء عليه وإهانته.

قال سليمان بن سحمان: (المراد من اجتناب الطاغوت هو بغضه وعداوته بالقلب وسبه وتقبيحه باللسان وإزالته باليد عند القدرة ومُفارقته، فمن ادعى اجتناب الطاغوت ولم يفعل ذلك فما صدق) . الدرر ١٠/ ٥٠٢.

م (١٨) : الكفر بالطاغوت أصل وكمال : وتاركه على درجتين:

تارك الأصل وهذا كافر . تارك الكمال وهو عاصٍ . ويكون الكمال بالمبالغة في اعتزال الطاغوت والتفاني في عداوته ومجانبته قدر الاستطاعة مع تحمل الأذى .

م (١٩) : المخالفون في الكفر بالطاغوت :

١- المؤمن بالطاغوت والمصدق به والمقر به والمعتقد فيه .

٢- العابد للطاغوت .

والفرق بين الإيمان بالطاغوت وعبادته :

أن عبادة الطاغوت تتضمن الإيمان به فمن عَبَدَ الطاغوت فقد آمن به ولابد .
أما المؤمن بالطاغوت ليس بالضرورة أن يكون يعبده فقد يكون مقراً به أو لا يكفره.

٣- المخالط للطاغوت غير المعادي له ولا المجانب والمجابه المفاصل له.

٤- المدافع عن الطاغوت والمقاتل عنه .

٥- المحارب لمن يكفر بالطاغوت مع اعترافه بأن هذا طاغوت ولكن ينهى عن معاداته وتكفيره والكفر به وهذا من الكفر الصراح وهذا أخطر الأنواع .

٦- المنكرون لعقيدة الكفر بالطاغوت والقائلون: الله لم يتعبدنا بتكفير الناس.

٧- من يبسط لهم الموالاة والتودد، ويركن إليهم، ويذود عنهم، ويتوسع في التأويل لهم، وينصرهم على أهل التوحيد ويجعل الكفر بالطواغيت ومعاداتهم فتنة.

٨- من يقصر الكفر بالطاغوت على القلب دون العمل والباطن دون الظاهر، يحصر شهادة التوحيد في النطق أو القول فقط ، واعلم أنه ليس المراد كسر الأصنام المجسدة وترك الأصنام في القلب بل المراد كسرها من القلب أولا .

٩- من جرد الدين والعبادة عن حقيقتها وجعلها مجرد شعائر تعبدية وأخرج منها الحكم بالشريعة والتحاكم لها ومعاداة الكفار وغيرها، وقد بين الرسول ﷺ هذا الخطأ في معتقد عدي بن حاتم وكذا بينه أبو بكر للصحابة في قتال المرتدين .

مبحث : الولاء والبراء

المسألة الأولى : أدلة الولاء والبراء : قال الله تعالى :

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ المائدة: ٨٠ – ٨١.

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ النساء: ١٣٨ – ١٣٩.

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ المجادلة: ٢٢.

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ الممتحنة: ٤.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ المائدة ٥١.

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ المائدة: ٥٢.

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ آل عمران: ٢٨.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ النساء ١٤٤.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ﴾

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ المائدة: ٥٤ .

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ الإسراء: ٧٥ ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ هود: ١١٣.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ .

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ البقرة: ١٢٠.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ آل عمران: ١١٨ .

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ﴾ البقرة: ٢١٧.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ آل عمران:١٠٠ ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ البقرة: ١٠٩ ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ .

المسألة (٢) : من أعظم لوازم ومقتضيات كلمة التوحيد الولاء والبراء :

دلت كلمة التوحيد على الموالاة والمعاداة بالدلالات الثلاث المطابقة والتضمن والتلازم، وقد بينا ذلك في كتابنا قواعد الولاء والبراء.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً) رواه الطبري ونحوه عند الطبراني .

وقال النبي ﷺ : (أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله) رواه الطبراني .

قال ابن عقيل : (إذا أردت أن تنظر إلى محل الإسلام من أهل الزمان فلا تنظر إلى زحامهم في الجوامع ولا ضجيجهم بلبيك وإنما انظر إلى موافقتهم لأعداء الشريعة) الآداب لابن مفلح ١/ ٢١٠ .

قال ابن تيمية : (إن الإيمان بالله وبالنبي ﷺ وما أنزل إليه يقتضي عدم ولاية الكفار فثبوت موالاتهم يوجب عدم الإيمان لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم). مجموعة التوحيد ٢٥٩.

قال محمد بن عبدالوهاب : (لا يصح للمؤمن دين إلا بموالاة أهل التوحيد ومعاداة أهل الضلال وبغضهم والبراءة منهم كما تبرأ إبراهيم والذين معه من الكفار وكما تبرأ نبينا محمد ﷺوصحبه من كفار قريش وهذه هي الموالاة للمؤمنين والمعاداة للمشركين التي هي أصل عرى الإيمان وأوثقها) . الدرر ٢/ ٩٥.

قال ابن القيم في النونية :

أتحب أعداء الحبيب وتدعي ** حبا له ما ذاك في الإمكان

وكذا تعادي جاهداً أحبابه ** أين المحبة يا أخا الشيطان

شرط المحبة أن توافق من ** تحب على محبته بلا نقصان

م (٣) : قيام الولاء والبراء على ركنين :

الولاء يقوم على ركنين : ١/ المحبة ٢/ النصرة وهي الموالاة الفعلية الظاهرة .

البراء يقوم على ركنين : ١/ البغض الباطن ٢/ المعاداة الفعلية الظاهرة .

ولا يتم الولاء والبراء إلا بركنيه الظاهر والباطن ولا يقبل من المسلم توحيده إلا بقيامه بموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين .

ولا يقبل ولاءه للمؤمنين إلا بمحبتهم ومناصرتهم وموالاتهم ظاهراً وباطناً.

ولا تصح البراءة من المشركين إلا ببغض الكفار بالقلب ومعاداتهم وجهادهم والكفر بهم وتكفيرهم بالعمل الظاهر.

والبغض من أفراد البراء وأبوابه ، فالبراء أعم من العداوة.

م (٤): أن البراءة تكون بالقلب واللسان واليد .فهي قول وعمل واعتقاد، ولا تكفي البراءة بالقلب دون ركنها العملي الظاهر القائم على المعاداة .

م (٥) : حكم المعاداة وحكم إظهارها :

لابد من إظهار العداوة للكفار وإبدائها ، والتصريح بتكفيرهم ، وإظهار الموالاة والمودة والمناصرة للمؤمنين ولا يعتبر الشخص مسلما إذا لم يبغض الكفار ويعاديهم ولا يتم إسلامه ويكتمل إلا بهذا الإظهار فترك معاداة الكفار وبغضهم كفر أما ترك إظهار المعاداة فهو معصية وفسق دون الكفر .

قال ابن سحمان : (لا يقول بأن من لم يظهر عداوة المشركين ويظهر بغضهم إلا الخوارج الذين يكفرون بالذنوب ونحن لا نقول بهذا ولا نخرج بمجرد الإقامة بين أظهر الكفار وعدم إظهار العداوة من الإسلام) الجيوش الربانية ١٠٤ .

قال حمد بن عتيق:(من يقيم عند الكفار لأجل مال وولد وبلاد وهو لا يظهر دينه مع قدرته على الهجرة ولا يعينهم على المسلمين ولا يواليهم بقلبه ولا لسانه فهذا لا نكفره لأجل مجرد الجلوس ولكن نقول أنه عاصي) الدفاع عن أهل السنة ١٠ .

م (٦) : صور موالاة الكفار : لها صور كثيرة جدا قولية وفعلية وقلبية.

م (٧) : أقسام موالاة الكفار :

الأولى: الموالاة المكفرة : ومن صورها : محبتهم لدينهم ، مظاهرتهم على المسلمين ، الرضا بكفرهم أو ظهورهم على المسلمين أو السعي في ظهورهم ، عدم تكفيرهم ، مساواتهم بالمسلمين وتفضيلهم عليهم ، توليهم مطلقا.

الثانية: الموالاة الصغرى: منها: مداهنتهم، التشبه بهم في دنياهم، البشاشة لهم.

م (٨) : الولاء والبراء ضدان :

فالتوحيد أن يصرف الولاء للمؤمنين والبراء والبغض والعداء للمشركين.

والكفر والشرك أن يصرف البراء والعداوة للمؤمنين، والولاء والمحبة للكفر والكافرين، فبهذا تتبين علاقة البغض التعبدي والبغض الشركي الكفري .

والقاعدة :

١- أن من تجب محبته تجب موالاته ونصرته ومن يجب بغضه تجب معاداته .

٢- ومن تجب محبته يحرم بغضه ومعاداته ومن يجب بغضه تحرم موالاته.

م (٩) : أن الإسلام بدون البراءة من المشركين وشركهم لا يكون مقبولاً، والتوحيد بدون الكفر بالطاغوت لا يقبل، وهذا هو حقيقة لا إله إلا الله.

م (١٠) : أن البراءة متعلقة بالشرك وفاعلي الشرك الذين هم أهله، فلا تكفي البراءة من الشرك الذي هو الفعل دون فاعله المشرك ولا العكس، بل لابد من البراءة من الفعل والفاعل والمفعول، من الشرك والكفر ومن فاعل ذلك الذي هو الكافر والمشرك ومن المعبود والطاغوت حياً كان أو جماداً .

م (١١) : أن أهل الشرك على قسمين : أصلي ومرتد ، وكثير من العوام والجهال بحقائق الدين والتوحيد يظن أن البراءة خاصة بالكافر الأصلي دون المرتد.

م (١٢) : أن البراءة لا تتم إلا بأربعة أركان :

١- البغض للكفار وهذا الركن القلبي .

٢- معاداتهم وإظهارها وهذا هو الركن العملي الظاهر .

٣- تكفيرهم والكفر بمعبوداتهم وشركهم وهذا الركن القولي اللساني .

٤- جهادهم وهو من صور معاداتهم .

م (١٣) : من لوازم البراءة من المشركين :

١- إغاظة الكفار : فإغاظة الكفار ومحاولة تحصيل ذلك مطلب شرعي وقد أمرنا الله بذلك وامتدح الله أصحاب هذه الصفة. قال ﷻ: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ التوبة: ١٢٠ ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ الفتح: ٢٩ .

وهذا بخلاف حال أهل النفاق رحماء على الكفار أشداء على أهل الدين .

فالشدة على الكفار والغلظة عليهم من لوازم التوحيد قال سبحانه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ التوبة: ٧٣

فالأصل وجود غيظ أهل الكفر وبغضهم ولا يزول إلا بالقتال والجهاد ، وقد قرر ذلك ابن تيمية في الصارم المسلول .

٢- قصد مخالفة الكفار : ويضاد هذا المبدأ موافقتهم والتشبه بهم .

وهذا من مقاصد الشريعة قال ﷺ : (خالفوا المشركين) رواه البخاري.

باب الخوف من الشرك (٤)

اسم الباب : حقيقة الشرك

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه:

حقيقة الشرك الذي يناقض التوحيد ، وبيان خطره.

مكانه ونوعه :

يعد من أهم أبواب الكتاب فمقصوده تجلية حقيقة الشرك.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ، ومكانته ، وسبب إيراده:

أن التوحيد لا يجتمع مع الشرك فإذا وجد أحدهما انتفى الآخر ، وأن الشخص قد يقع في الشرك المبطل للإسلام والناقض للتوحيد وهو لا يشعر .

فأورد المصنف هذا الباب ليحتج به على مشركي زمانه الذين أنكروا حقيقته .

وإذا كان إبراهيم ﷺ سأل الله له ولبنيه الوقاية من الشرك وعبادة الأصنام، فمن يأمن الشرك بعده ، وهؤلاء لما أمنوا الشرك وقعوا فيه ودافعوا عنه وقاتلوا فيه.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

بدأ المصنف كتابه ببيان حقيقة التوحيد إجمالاً في توضيح عقيدة التوحيد وأنواعه ووجوب إفراد الله بالعبادة وكفر المشرك فيها ، ثم بين فضل التوحيد ومكانته ، ثم بين كيفية تحقيقه ، ثم بين حقيقة الشرك وخطره ، ثم وجوب الدعوة للتوحيد والشهادتين ، ثم فسر التوحيد.

أما مناسبته لما قبله: بعد أن بين التوحيد بين ما ينقضه وهو الشرك.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد المصنف في هذا الباب خمسة أدلة في حقيقة الشرك وبعض أنواعه ووجوب الخوف منه وفي الشرك الأصغر ، آيتين وثلاثة أحاديث ، وهي :

١- قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ النساء: ٤٨ .

٢- قوله تعالى : ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ إبراهيم: ٣٥.

٣- وفي الحديث: (أخوف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر، فسئل عنه، فقال: الرياء) رواه أحمد والطبراني والبيهقي.

٤- عن عبد الله بن مسعود الهذلي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (من مات وهو يدعو من دون الله ندا دخل النار) رواه البخاري.

٥- عن جابر بن عبد الله الأنصاري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئا دخل النار) رواه مسلم .

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

سنبينها في المبحث التالي .

مبحث : حقيقة الشرك

المسألة الأولى : تعريف الشرك في اللغة:

الشرك : الضم والخلط والاقتران، ضد الفرد والوتر والوحدانية والتفرد.

م (٢) : تعريف الشرك شرعاً :

منازعة الله تعالى في خصائصه . والمنازعة تشمل التمثيل والتعطيل ويدخل فيها معنى التسوية وصرف العبادة ، وخصائصه متعلقة بالربوبية والألوهية .

فيكون الشرك في هذين القسمين الخاصين بالله تعالى، بأحد طريقين :

إما بإنكارها وتعطيل الله منها ، أو بإثباتها ونسبتها لغير الله من المخلوقين .

وعُرّف أيضاً بأنه : تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله .

فيدخل في هذا التعريف الشرك في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات .

وعُرّف بأنه : تشبيه المخلوق بالخالق والعكس ، وحقيقة الشرك هو التمثيل.

وهذا التعريف يدخل في عموم الثاني، لأن التشبيه هو بمعنى التسوية .

وعُرّف بأنه: صرف العبادة لغير الله من دعاء وغيره، وجعل نداً لله في العبادة .

م (٣) : ما يضاد التوحيد : الشرك ضد الوحدانية والإشراك ينافي الإفراد والتوحيد فالشرك من الجمع والتثنية والتشريك والخلط والضم نقيض التوحيد.

والشرك يكون بأحد طريقين : إما بنفي ما أثبته الله لنفسه، أو بإثبات ما نفاه.

والشرك ضد التوحيد وليس التشبيه :

ووجه ذلك : أن التشبيه داخل في الشرك ، والشرك قسمان التعطيل والتشبيه ، بتعطيل الله من ربوبيته وألوهيته، أو إثباتها لغيره، وكلاهما يناقض التوحيد .

م (٤) : هل التوحيد والشرك من المتناقضات أو المتضادات :

الضدان لا يجتمعان لكن قد يرتفعان، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان .

وإذا قلنا أن الشرك بمعنى الكفر فهو نقيض التوحيد .

وإذا خصصنا الشرك بعبادة غير الله فهو ضد الشرك وليس نقيضه، لأنه بهذا المعنى قد يتصور ارتفاعهما في حق الكافر فلا يقوم بالعبادة مطلقا لايوحد ولايشرك.

م (٥) : يتعدى الشرك بنفسه وبالباء وبمع وبفي وباللام.

فيصح أن يقال : أشرك مع الله / أشرك بالله / أشرك بعبادة الله/ أشرك في عبادة الله / جعل شريكا لله/ عبد غير الله / عبد من دون الله / عبد مع الله / جعل مع الله شريكا. وكلها بمعنىً متقارب إن لم يكن معناها واحد.

ومعنى (من دون): أي متجاوزين الله إلى عبادة غيره. ولها معنى آخر : وهو الدونيّة أي أن هذه المعبودات دون الله وليست في منزلته تقدس وتعالى.

م (٦) : أدلة تحريم الشرك وكفر فاعله : قال الله تقدس وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ النساء: ٤٨ وهذا الدليل من أصرح الأدلة على أن الشرك أعظم ذنب عصي الله به ومن شناعته أن الله لا يغفره .

﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ النساء: ٣٦ .

﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ الزمر: ٦٥.

﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ الأنعام: ٨٨.

﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ المائدة: ٧٢.

وقال النبي ﷺ : (من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار) رواه البخاري .

م (٧) : مصطلحات في باب الشرك :

أولاً: يسمى المعبود: الإله ، الرب ، الولي ، الشفيع ، المقرب ، الند ، الوثن ، الصنم ، التمثال ، الشريك ، الشركاء .

ثانياً : تسمى عبادته : التوجه، القصد، الإرادة، الطلب، الجعل، الاتخاذ، الابتغاء، الإسلام، الإلحاق. هذه عبارات شرعية معناها في اللغة صرف العبادة .

ثالثاً : الشرك في العبادة عبر عنه بعدة ألفاظ منها :

التنديد – العدول – التسوية – الأمثال – الكفؤ .

م (٨) : مصطلح الشركاء: تطلق الشركاء وتضاف للعابد والمعبود :

وجه اختلاف الضمائر: (شركاء شركائي شركائكم شركائهم شركائنا):

أولاً : معنى شركائكم :

١- لأنها شركاء العابد المشرك في الشفاعة ، فهي تشفع معه وتشفعه . فهي شركاء في طلب الشفاعة عند الله والتقريب عنده .

٢- لأنها شركاء المشرك في الخلق والعبودية وحاجتهم لله الخالق .

ثانياً : معنى (شركائي) أضاف الله تعالى الشركاء إلى نفسه لعدة أوجه :

١- حكاية لإضافتهم، والإضافة تكون بأدنى ملابسة.

٢- ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم .

٣- شُرَكَائي في زَعْمِكُمْ واعتقادكم أيها المشركون فيها الشفاعة .

فائدة : لابن القيم رحمه الله في الجواب الكافي وإغاثة اللهفان كلام نفيس في تعريف الشرك وأقسامه وعلة كونه أعظم الذنوب وهو في غاية الأهمية، فراجعه.

م (٩) : أسماء الشرك والألفاظ التي تطلق عليه :

١- التنديد: هو بمعنى الشرك والند هـو الـشريك: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ البقرة:٢٢ أي شركاء تعبدونهم من دون الله وتجعلونهم أندادا لله تعبد وتساوونها به ﷻ.

٢- العدول: يسمى الشرك عدولاً، لأن فاعله أولاً عَدَل عن الرب ﷻ وتـرك عبادته إلى عبادة غيره ثانياً أنه عدل بينهما أي ساوى بينهما واتخـذ المـشرك إلهـا يعبـده غير ربه ﷻ قال تعالى : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ النمل ٦٠ .

٣- التسوية: يسمى الشرك تسويةً، لأن المشرك سوّى بين الخـالق والمخلـوق قال تعالى حاكيا قول المشركين: ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الشعراء٩٨.فهم لم يـسووا بـين الرب والآلهة الباطلة من كل وجه وإنما كانت التسوية في دعائهم ومحبتهم مع الله.

٤- الأمثال: بجعل معبودات مع الله تكـون مثـل الله قـال ﷻ: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ النحل: ٧٤ أي تمثلوه بخلقه وتمثلوا خلقه به، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ الشورى ١١.

٥- الكفء:بمعنى المثل والند والشريك ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾.

٦- الإلحاد: الشرك أحد درجات الإلحاد والإلحـاد داخـل في الـشرك وبيـنهما ترابط: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾ الأعراف: ١٨٠ .

م (١٠) : أقسام خصائص وحقوق الله تعالى التي لا يشاركه فيها أحد:

الأول : أفعاله وأوصافه . الثاني : ألوهيته وعبوديته.

وعلى هذا فالشرك ينقسم بالرجوع إلى منازعته تعالى ما يخصه إلى:

شرك في الربوبية ، وشرك في الألوهية ، وشرك في الأسماء والصفات .

وهذه الثلاث هي خصائص الله ﷻ التي يجب أن يوحد بها ولا يشرك فيها.

م (١١) : علاقة الشرك بأنواع الكفر :

الكفر له خمسة أنواع وهذه الأنواع في الحقيقة هي صفات لحال الكفر فالكفر إما أن يكون إعراضا أو عنادا واستكبارا وإباء وامتناعا أو شكا أو نفاقا أو تكذيبا وردا وجحودا أو ردة عن الدين، والشرك قد يكون صفته وسببه بأحد هذه الأنواع.

م (١٢) : الفرق بين الكفر والشرك : اختلف أهل العلم واللغة على أقوال :

القول الأول : أنهما بمعنى واحد فكل كفر شرك والعكس.

القول الثاني : أن الكفر أعم من الشرك فالكفر خصال كثيرة منه الشرك ومنه تكذيب الأنبياء وإنكار المعاد أو الملائكة وجحد الواجب واستحلال المحرم .

والصحيح أن الشرك له إطلاقان : إطلاق عام : وهو مرادف لنفس الكفر.

وإطلاق خاص : وهو عبادة غير الله وهذا الغالب .

م (١٣) : أنواع الشرك وأقسامه :الشرك ينقسم إلى أقسام باعتبارات :

الاعتبار الأول: باعتبار خطره : فينقسم إلى شرك أكبر وشرك أصغر.

الثاني: باعتبار نوعه: إلى شرك في الألوهية وشرك الربوبية وشرك الصفات.

الثالث : باعتبار ظهوره وخفائه : إلى شرك ظاهر وباطن وخفي .

الرابع : باعتبار الآلة : فينقسم إلى شرك فعلي وشرك قولي وشرك اعتقادي.

الخامس: شرك تعطيل وسلب وإنكار، وشرك تنديد وتمثيل وإيجاد وإثبات.

م (١٤) تنبيه: من جعل الشرك أربعة:شرك الدعوة والمحبة والإرادة والطاعة.

إنما أراد الأمثلة وليس التقسيم لأن من الشرك شرك الخوف وشرك الحكم وشرك الربوبية وغير ذلك من الأنواع .وأخطأ من ظن أن هذه أقسام الشرك .

م (١٥) : الشرك لا يحصيه إلا الله ، والنوازل المعاصرة فيه يعسر حصرها:

قال ابن القيم أن للشرك صور متعددة وألوان مختلفة لا يحصيها إلا الله.

ويحصل ويتجدد فيكون له نوازل معاصرة كلها تصب في الكفر بالله ﷻ .

وأكثره انتشاراً : عبادة غير الله ودعاء الأموات ، والحكم بغير ما أنزل الله .

م (١٦) : درجات الشرك ومخالفات التوحيد :

١- إنكار وجود الله سبحانه بالكلية.

٢- إنكار ربوبية الله ﷻ مع الإيمان بوجوده وهذا مذهب الفلاسفة الذين يقولون الله لا يخلق ولا يتصف بفعل أو صفة وإنما هو علة المعلول ، وكذا الجهمية الذين ينكرون أسماء الله وصفاته وأفعاله.

٣- الإيمان بربوبية الله لكن من دون توحيده ﷻ فيها ، فيقولون الله خالق مدبر مالك، ولكن يوجد غيره من المخلوقين ممن له صفة الربوبية فيخلق ويدبر.

٤- من يؤمن بتوحيد الربوبية لله ولكن يقع في الشرك في بعض أفرادها كالشرك في التشريع والحكم أو يحصل منه ما يقدح فيها أو ينقص كمالها.

٥- من يثبت توحيد الربوبية لله ﷻ ويؤمن به لكن ينكر الألوهية فلا يعبده.

٦- من يثبت الألوهية لله ولكن لا يوحد الله فيها فيشرك غيره مع الله وهذا دين معظم المشركين الذين يعبدون الله ويعبدون معه آلهة أخرى .

٧- من يؤمن بتوحيد الألوهية ويثبته لله وحده لكن يقع فيما يقدح في كماله أو يخالف في بعض أفراده ومن هؤلاء أصحاب الشرك الأصغر .

م (١٧) : اجتماع التوحيد والإيمان مع الشرك :

توجيه قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف: ١٠٦ .

الإيمان والشرك هنا لهما معنيان ، والآية فيها تأويلان للسلف :

الأول : المراد بالإيمان هنا توحيد الربوبية والإيمان بكون الله خالقا ، والشرك هو الشرك في الألوهية فلا يقبل هذا الإيمان ولا يعتبر به ولا يصح ولا يسمى إيمانا من حيث الإطلاق الشرعي، وذلك لعدم وجود التوحيد فيه واقتران الشرك به .

قال ابن عباس : (من إيمانهم إذا سئلوا من خلق السماء والأرض قالوا الله وهم مع ذلك يشركون به ويعبدون غيره ويسجدون للأنداد دونه).

وقال مجاهد : (إيمانهم قولهم الله خالقنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره).

الثاني : الإيمان هنا هو الأصلي والشرك المقصود به الأصغر ، فيكون المراد بالإيمان في الآية هو الإيمان الشرعي المقبول والمقترن بتوحيد الربوبية والألوهية، ويكون الشرك المقصود به في الآية الشرك الأصغر كالحلف بغير الله وكيسير الرياء وإسناد النعم لغير الله وشكر الناس على ما أنعم الله به عليهم.

م (١٨) : يشهد المشرك بالتوحيد في حالات :

١- يشهد بنوع من التوحيد وهو الربوبية في الجملة.

٢- قد يوحد المشرك في حال الشدة والخوف ويشرك في الرخاء والأمن.

٣- التوحيد في بعض العبادات، فقد تجد شخصا يشرك في جانب ويوحد في جانب ، فيوحد في الحكم ولكن يدعو غير الله ﷻ أو يكون العكس .

م (١٩) : أسباب الوقوع في الشرك وبقائه :

١- الجهل بحقيقة الدين وما أمر الله به وما نهى عنه، والجهل بمعنى العبادة التي هي حق خالص لله والتوحيد والشرك فيها .

٢- سوء الظن بالله عز وجل وعدم تقديره سبحانه ولا معرفة صفاته العلية، فالمشرك يقيس ربه بالمخلوق الضعيف الذي يحتاج لواسطة تقرب وتشفع.

٣- الغلو في الصالحين وفي المخلوقات فترفع عن مرتبتها ومنزلتها ويشبه المخلوق بالرب. وأول شرك وقع في هذه الأرض شرك قوم نوح ، وكان سببه الغلو في الصالحين وطلب الشفاعة منهم والتقرب بهم إلى الله .

وهناك أسباب فرعية خاصة : وهي داخلة في جملة الأسباب السابقة فمنها:

١- اتباع الهوى والشهوات واستمتاع المشرك بشركه.

٢- الكبر والعناد ووجود الطغاة من الحكام والعلماء الداعين للشرك .

٣- التقليد وتحكيم العادات وعدم النظر في الأدلة والحجج العقلية والنقلية.

٤- انتشار رواسب الأديان الوثنية ، ومشابهة اليهود والنصارى .

٥- انتشار البدع ووسائل الشرك مع عدم إنكارها وإزالتها .

٦- قياس المخلوق بالخالق والخالق بالمخلوق .

م (٢٠) : وسائل الشرك وذرائعه وأبوابه:

الوسائل هي بمعنى الذرائع ، والله ﷻ إذا حرم شيئاً حرم الطرق الموصلة إليه والوسائل المفضية إليه ، ومن مقاصد الشريعة وأبواب الدين سد الذرائع ، فالأفعال إذا كانت مباحة لكن قد تفضي إلى محذور وجب سدها ودفعها وإغلاقها .

ومن وسائل الشرك :الغلو في الصالحين ، تعظيم القبور برفعها والبناء عليها والصلاة عندها، التصوير ، رعاية الآثار ، التبرك ، التمائم ، اعتقاد الأسباب المبتدعة، الأعياد البدعية ، شرك الألفاظ من الحلف وغيره ، التشاؤم ، جحد صفات الله ، الجزع من القدر ، سب أفعال الله، نسبة النعم لغير الله.

م (٢١) : تاريخ الشرك : الأصل هو التوحيد والشرك طارئ في الخليقة ، حيث خلق الله ﷻ الخلق على عبادته وطاعته وتوحيده فكان الناس أمة واحدة على التوحيد قبل أن يختلفوا ويدخلهم الشرك كما جاء في الحديث قال الله ﷻ : (إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا) رواه مسلم.

وقد بقي الناس بعد آدم على التوحيد زمناً حتى انتكست الفطر ودخلهم الشرك بعد مرور عشرة قرون من ذرية آدم . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام) رواه الحاكم والطبري.

م (٢٢) : موقف الصوفية والقبورية والأشاعرة من التوحيد والشرك:

أخطأت القبورية والصوفية والمرجئة والمتكلمة في حقيقة الشرك من جانبين:

جانب التوحيد .حيث فسروا الألوهية بالربوبية .

جانب الإيمان :حيث أنكروا شرك العبادة وأخرجوه من الإيمان، لأن الألوهية عمل، والعمل عندهم خارج عن الإيمان وليس من الإيمان .

وقد عقدت فصلاً في كتاب نقض عقائد الأشاعرة عن موقفهم من التوحيد .

م (٢٣) : حكم الجاهل بالتوحيد والواقع في الشرك جهلاً وهل يعذر :

من وقع في الشرك الأكبر عن جهل وعدم بلوغ الحجة :فحكمه في الدنيا أنه كافر ويجري عليه أحكام الكفر من حيث الاسم ولحوق التكفير به والنكاح والميراث والصلاة عليه وإمامته، أما قتاله وقتله فإن هذا لابد فيه من قيام الحجة والاستتابة.

وقد أخطأ بعض العلماء هنا فحكموا بإسلام جهّال المشركين من القبورية والمشرّعين لكونهم نطقوا بالشهادة وجعلوا جهلهم وتأويلهم مانعا من تكفيرهم .

وعليه فالجاهل بالتوحيد ليس مؤمنا به ولا مقرا أو آتياً به لكن كافراً مشركاً.

وتقدم نقلنا قول الطبري وابن منده وابن القيم في عدم عذر الجاهل بالتوحيد.

م (٢٤) : تغيير الأسماء لا يغير الحقائق والمسمى والحكم :

يسمي مشركو زماننا دعاء الأموات والاستغاثة بالآلهة الباطلة توسلاً .

وطائفة من مشركي عصرنا تسمي شرك التشريع والتحليل والتحريم والحكم بغير ما أنزل الله نظاماً ، ويتحاكمون للطاغوت ويسمون ذلك انتخاباً وتصويتاً .

وكل ذلك لا يغير الحقيقة التي وضع الحكم لأجلها فتسمى هذه المعبودات آلهة ويسمى الفعل شركاً ويكفر صاحبه .

باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله (٥)

اسم الباب : الشهادتان والدعوة إليها

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه: دعوة الناس إلى الشهادتين وهي مرادفة للتوحيد.

مكانه ونوعه :

يعد من الأبواب المبينة للشهادتين وحقيقة الإسلام ، ووجوب الدعوة لها.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن التوحيد الذي هو الشهادتين لا يتم للعبد توحيده إلا إذا دعا إليه وجاهد فيه حتى تكون كلمة الله (لا إله إلا الله) هي العليا.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

بدأ المصنف كتابه ببيان حقيقة التوحيد إجمالاً في توضيح عقيدة التوحيد وأنواعه ووجوب إفراد الله بالعبادة وكفر المشرك فيها ، ثم بين فضل التوحيد ومكانته ، ثم بين كيفية تحقيقه ، ثم بين حقيقة الشرك وخطره ، ثم وجوب الدعوة للشهادتين والتوحيد وهما روح الإسلام ، ثم فسر التوحيد.

أما مناسبته لما قبله : بعد أن بيّن التوحيد بين أنه هو الشهادتين ، وأن معنى (يوحدوا الله) هو معنى (شهادة أن لا إله إلا الله) ، وأنه هذا هو حقيقة الإسلام ، وأن العبد إذا امتثل التوحيد وجب عليه أن يدعوا الناس إليه .

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد المصنف في هذا الباب ثلاثة أدلة آية وحديثين ، وهي :

١- قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ يوسف: ١٠٨.

٢- عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذا إلى اليمن قال له: (إنك تأتي قوما من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ، وفي رواية: (إلى أن يوحدوا الله) ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) متفق عليه .

٣- عن سهل بن سعد الأنصاري أن النبي ﷺ قال يوم خيبر:(لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها: فقال: أين علي ؟ فقيل: هو يشتكي عينيه. فأرسلوا إليه فأتي به، فبصق في عينيه ؛ ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع. فأعطاه الراية فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه. فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم) متفق عليه .

والإسلام الذي يجب أن يدعى الناس إليه كما في الحديثين في هذ الباب، هو: الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله .

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب : سنبينها في المبحث التالي .

مبحث : الشهادتان

مبحث : شهادة أن لا إلــه إلا الله

المسألة الأولى : حقيقة الشهادة ومراتبها :

الشهادة لا تعتبر شهادة إلا إذا اشتملت على أربع مراتب .

الأولى : علم الشاهد بها ومعرفته لها واعتقاد صحة ما شهد به وثبوتها عنده .

الثانية : تكلم الشاهد بذلك ونطقه بها .

الثالثة : أن يعلّم الشاهد غيره ما شهد به ويخبره به ويبينه له .

الرابعة : أن يلتزم بمضمونها ويلزم غيره بما شهد به ويأمره بها ويحكم بها.

فشهادة الله ﷻ لنفسه بالوحدانية تضمنت هذه المراتب الأربعة علمه بذلك سبحانه وتعالى وتكلمه به وإعلامه وإخباره وبيانه لخلقه وأمرهم وإلزامهم به .

وكذا شهادة المسلم بالتوحيد لا بد أن تقوم على هذه المراتب الأربع كما هو مقرر عند أهل السنة واللغة . ذكره ابن القيم وابن أبي العز.

المسألة (٢) : دخول الشهادتين في الإسلام والإيمان :

تدخل لا إله إلا الله في ركن الإيمان بالله القائم على الجانب الاعتقادي الباطن.

وتدخل في الإسلام القائم على الجانب العملي الظاهر والعمل بالتوحيد.

م (٣) : معنى كلمة لا إله إلا الله :

معناها لا معبود بحق إلا الله، هذا معنى هذه الكلمة ودلالتها، ومضمونها، لا معبود بحق إلا الله وأن كل معبود غير الله ﷻ فهو معبود باطل وعبادته شرك وكفر، لأن الإله معناه المعبود والألوهية هي العبادة ونفى الله أن يكون هناك معبوداً يستحق العبادة غيره تعالى وأن الآلهة والمعبودات التي يعبدها المشركون كلها باطلة فاسدة .

م (٤): الأصل في تفسيرنا كلمة التوحيد بأحقية العبادة ومصدر قولنا (بحق):

أولاً : أنواع الآلهة :

١- الإله الحق وهو الله ﷻ فهو المعبود وحده بحق .

وهذا حقيقة معنى كلمة التوحيد لا إله إلا الله : أي لا معبود بحق إلا الله فالنفي واقع على العبادة الحقّة وعلى المعبود بحق وعلى الإله المستحق للعبادة، والإثبات بهذه الصفة لا يكون إلا لله وحده المستحق للعبادة وليس النفي نفي وجود المعبودات، فالآلهة غير الله موجودة وكثيرة ومثبتة غير منفية، لكن المنفي استحقاقها للعبادة، إذ أن عبادتها باطلة فلا تستحق أن تعبد ، مما يستوجب نفيها مع الكفر بها.

٢- الآلهة الباطلة الظالمة وهي كل ما عبد من دون الله ﴿ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾.

ثانياً : وجه الاتصاف بالحق والباطل .

اتصفت الآلهة بالبطلان لأن عبادتها وقعت بدون حق، ومعنى (بدون حق) أي أنها لا تستحق العبادة ولا تنبغي لها، فلا يعبد إلا من يخلق وينفع ويضر وحده .

وكونها آلهة (ظالمة باطلة) لأنها ما اتصفت عبادتها بالعدل كما هو الحال في عبادة ربنا ﷻ الذي تمت كلمته صدقاً وعدلاً وقامت بتوحيده السموات والأرض .

ثالثاً : من أين جاءت تسمية الآلهة بالحق والباطل ؟

الأدلة على التسمية بالحق والباطل وبيان ورودها في الشرع :

قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ لقمان: ٣٠ .

وقال: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم ﴾ الرعد: ١٤ .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ لقمان: ٣٠ ﴿ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ الحج: ٦٢.

م (٥) : أركان لا إله إلا الله : لها ركنان : النفي والإثبات :

الركن الأول : النفي في [لا إله] : نفي الألوهية والعبادة (الكفر بالطاغوت):

المقصود به نفي كل إله ومعبود عبد في هذه الدنيا، فلا تنبغي العبادات لأي إله اتخذه الناس معبودا لهم إلا لله تعالى وحده ، والنفي في (لا إله) ليس متعلقاً بالوجود والماهية والكونية وإنما النفي متعلق بالأحقية والاستحقاق، أي أن الله تبارك وتعالى لا ينفي وجود آلهة تعبد وإنما ينفي وجود آلهة تستحق العبادة، يعني أن المنفي المعبودات بحق فلا توجد، أما التي تعبد بظلم وضلال وباطل فكثيرة، حيث سمى الله الأصنام آلهة والهوى إله وعيسى وأمه إلهين، وذلك لكونهم يعبدون ولكن يعبدون بغير وجه حق.

فجاءت هذه الكلمة لتنفي كل هذه المعبودات، ولتحرّم صرف أي عبادة لأي مخلوق، فيجب أن تكون عبادة المخلوق لله وحده ويجب أن يكفر بألوهيته وعبادة كل ما سوى الله ويكفّر من يعبده ويقاتله .

وهذا الركن لا يدخل المرء الإسلام إلا به ولا تقبل كلمة لا إله إلا الله إلا بالإتيان به، فكم من الناس ممن يدعي الإسلام ويعبد الله ولا يعبد غيره تجده لا ينفي العبادة عن غير الله ولا يكفر بعبادة غير الله ولا يتبرأ من الآلهة والمعبودات التي تعبد ولا يكفّر أصحابها ! ، فلا يصير والحالة هذه قائلها من أهل الإسلام .

وكم نرى اليوم من لا يحقق هذا الركن حيث يخالط عبّاد القبور ومن يستغيث بالنبي ﷺ والأموات ثم لا يتبرأ منهم ولا يكفرهم ، ويرى المحاكم الوثنية التي تحكم بالقوانين الوضعية التي تصادم أحكام الشريعة ولا يكفر بها ولا يكفّر أصحابها .

الركن الثاني : الإثبات [إلا الله] إثبات الألوهية لله (الإيمان بالله وحده):

المقصود بهذا الركن إثبات الألوهية والعبادة بجميع صورها وأفرادها وأركانها لله وحده المعبود بحق لا شريك له، والقيام بواجبه سبحانه من عبادته وحكمه، والانقياد لأمره، ومحبته وولايته وعدم الاستكبار والاستنكاف عن عبادته.

م (٦) : ورد في النصوص التعبير عن النفي (لا إله) والإثبات (إلا الله) في كلمة التوحيد بعدة صيغ تحمل نفس المعنى، والأمران بمجموعهما يمثلان التوحيد:

١- لا إله / إلا الله . ٢- تعبد الله / ولا تشرك به شيئا .

٣- الإخلاص لله وحده وعبادته / لا يشرك به شيئا .

٤- يؤمن بالله/ يكفر بالطاغوت ٥- لا إله إلا الله/ وكفر بما يعبد من دون الله.

٦- يوحدوا الله .٧- عبادة الله .٨- إيمان بالله .٩- يخلصوا لله .

١٠- شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .١١- إيمان بالله ورسوله.

١٢- الولاء والبراء : وهو ما جاء في آية إبراهيم التي أوردها المؤلف .

م (٧) : شهادة أن لا إله إلا الله ينقضها أمران :

الأول: ترك عبادة الله أو نفي جنس منها عن الله أو نفي استحقاقها لله.

الثاني: إثبات استحقاق أي نوع من أنواع العبادة لأي مخلوق .

فالأول هو الكافر والثاني هو المشرك ، وكل قول أو اعتقاد أو تصرف وعمل يتضمن أحد هذين الأمرين يدخل صاحبه في الردة .

م (٨) : لا تنفع لا إله إلا الله إلا العالم بمعناها العامل بمقتضاها .

ولا بد في قبول كلمة التوحيد من ترك الشرك قصدا . وتقدم الكلام .

م (٩) : مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله :

قولها باللسان والعمل بمقتضاها والالتزام بما دلت عليه من عبادة الله وحده وطاعته والإذعان لأمره والانقياد لشرعه والتسليم لرسوله والكفر بعبادة كل ما سواه وترك كل العبادات المبتدعة وعدم صرف شيء من العبادات لغير الله والبراءة من المشركين والكفار ومعبوداتهم وكفرهم .

قال ابن القيم : (وروح هذه الكلمة وسرها إفراد الرب جل ثناؤه وتقدست أسماؤه بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء وتوابع ذلك من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة فلا يحب سواه وكل ما يحب غيره فإنما يحب تبعا لمحبته ولا يخاف سواه ولا يرجى سواه ولا يتوكل إلا عليه ولا يرغب إلا إليه ولا يرهب إلا منه ولا يحلف إلا باسمه ولا ينذر إلا له ولا يتاب إلا إليه ولا يطاع إلا أمره ولا يتحسب إلا به ولا يستغاث في الشدائد إلا به ولا يلتجأ إلا إليه ولا يسجد إلا له ولا يذبح إلا له وباسمه ، ويجتمع ذلك في حرف واحد وهو أن لا يعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله) الجواب الكافي ٢٣٣ .

فائدة : شهادة التوحيد أعظم شهادة في الوجود وقد شهد بها الرب ﷻ .

م (١٠) : متى تنفع كلمة لا إله إلا الله صاحبها :

لا تنفع هذه الكلمة العظيمة صاحبها وقائلها إلا إذا قالها بلسانه واعتقد معناها بقلبه وعمل بمقتضاها بجوارحه، ولا يكون ذلك إلا إذا أتى بثلاثة أمور :

الأول : العمل بأركانها : الإيمان بالله والكفر بالطاغوت وترك الشرك قصدا.

الثاني : الإتيان بشروطها السبعة، وستأتي .

الثالث : عدم الإخلال بها ولا الإتيان بناقض من نواقضها . وهي :

الشرك - اتخاذ الوسائط والشفعاء - بغض الله أو رسوله أو دينه أو شيء مما جاء به - الاستهزاء بشيء من الدين - الحكم بغير ما أنزل الله باعتقاد أن هدي غير الرسول أفضل من هديه وحكمه والعمل بغير الشريعة - من ظن أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ- السحر - مظاهرة الكفار على المسلمين - عدم تكفير المشركين أو الشك في كفرهم - الإعراض عن الدين وعدم تعلّمه والعمل به .

وهذه القاعدة تخص المسلم، أما الكافر فيدخل الإسلام بمجرد قولها فإذا قالها طولب بشروطها وأركانها وأن لا ينقضها فإن التزم وإلا اعتبر كافراً.

م (١١) : كلمة التوحيد قول واعتقاد وعمل :

لما كانت لا إله إلا الله من التوحيد والتوحيد من الإيمان، والإيمان قول وعمل، كانت لا إله إلا الله تقوم على ثلاثة أركان .

الأول : قولها باللسان والنطق بها .

الثاني : اعتقاد معناها بالقلب بتصديقها ومحبتها وقبولها واليقين بها .

الثالث : العمل بها والالتزام بمقتضاها وأركانها وعدم ارتكاب ما ينقضها.

هذا وقد ظن الجهال أن حديث : (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة) عند الطبراني بسند ضعيف، ينافي أن تكون قولاً وعملاً ، وجعل المرجئة هذا الحديث عمدتهم فيما أتوا به من الباطل الذي أصلوه وهو أن من قال لا إله إلا الله دخل الجنة مهما ترك ومهما عمل ، ونسوا أن هذه الكلمة قيدت في الأحاديث بالقيود والشروط. هذا وقد نقضت استدلالهم بهذا الحديث وغيره في الرد على المرجئة والأشاعرة.

م (١٢) : شروط كلمة التوحيد : (لا إله إلا الله) :

أحدها : العلم المنافي للجهل .

الثاني : اليقين المنافي للشك .

الثالث : الصدق المنافي للكذب والنفاق.

الرابع : الإخلاص المنافي للشرك .

الخامس : المحبة المنافية للبغض .

السادس : القبول المنافي للرد .

السابع : الانقياد المنافي للترك والإعراض والتولي العملي .

وقد بينت المسائل المتعلقة بهذه الشروط في كتاب مستقل .

م (١٣) : هل لفظ الجلالة (الله) مشتق أو جامد:

القول الأول : أن اسم الجلالة (الله) مشتقاً من الإله المعبود .

قاله سيبويه والخليل والكسائي ونصره ابن القيم ، وهذا ما يفهم من كلام ابن عباسﷺ قال :" **الله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين** " رواه عنه الطبري.

الثاني : أن اسم الجلالة (الله) علم على الذات فهو لفظ جامد وليس مشتق .

م (١٤) : دلالات لا إله إلا الله على الدين :

تدل كلمة التوحيد على التوحيد مطابقة .

وتدل على الإيمان بالله والربوبية والصفات والولاء والبراء تضمناً .

وتدل على بقية أركان الإيمان الخمسة وأركان الإسلام الأربعة الباقية ملازمة.

والمقصود أن لا إله إلا الله تدل على الدين كله بأحد الدلالات الثلاث .

م (١٥) : قيام كلمة لا إله إلا الله وأفعال الألوهية على ثلاثة مقامات :

الأول : النسك والتعبد :

ويقوم هذا القسم على أغلب العبادات الباطنة من المحبة والخوف والرجاء والتوكل وغيرها والظاهرة من الدعاء والصلاة والصيام والسجود والقيام والركوع والطواف والذبح والحج والنذر والصدقة والجهاد والحمد والذكر ويدل لهذا الأصل أدلة منها : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ ﴾ الأنعام: ١٦٢ ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ الجن: ١٨.

الثاني : الحكم والشرع والدين والطاعة :

ويقوم هذا المقام على الحكم بما أنزل الله ﷻ والتحاكم إلى شرعه ورفض ما سواه وطاعة الله ورسوله، وهذا المقام يدخل فيه شهادة أن محمدا رسول الله والتوحيد في متابعته والتسليم لحكمه، ومما يدل على وجوب التوحيد في الحكم والأمر والتشريع والطاعة والتحاكم: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ يوسف: ٤٠ ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦ ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ النساء: ٦٠ ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١ ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ الأعراف: ٥٤.

الثالث : الولاية :

ويقوم هذا المقام على الولاء والبراء في الله بموالاة الله ورسوله ودينه وأوليائه ومعاداة أعدائه والبراءة منهم ومن دينهم ومعبوداتهم، ومما يدل على وجوب التوحيد في الولاء: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ المائدة: ٥٥ ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ الأنعام: ١٤.

مبحث : شهادة أن محمداً رسول الله (توحيد المتابعة)

المسألة الأولى : أسماء شهادة أن محمداً رسول الله :

١- تسمى شهادة أن محمداً رسول الله بتوحيد المتابعة أي متابعة الرسول ﷺ .

وقد ورد اسم المتابعة في مواضع من كتاب الله ﷻ منها : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ﴾ الأعراف: ١٥٧ ﴿ أَتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ النحل: ١٢٣ ﴿ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴾ طه: ٩٠ ﴿ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ﴾ البقرة: ١٤٣ ﴿ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ يس: ٢٠ ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ﴿ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ آل عمران: ٣١ ﴿ وَٱتَّبِعُونِ ﴾ الزخرف: ٦١ .

٢- توحيد الرسول.

٣- توحيد المُرسَل .

وهو يدخل في عموم توحيد الله تعالى لأنه هو الذي أرسله فنوحد رسوله .

م (٢) : ورود مصطلح توحيد المتابعة في الشرع :

مصطلح المتابعة ورد في مواضع من كتاب الله ﷻ ، قال تعالى : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ ﴾ آل عمران: ٥٣.

م (٣) : حقيقة المتابعة والانقياد للرسول ﷺ وكيفيته :

المتابعة هي : أن يمتثل العبد أمر النبي ﷺ وأن يفعل العمل على الوجه الذي فعله ﷺ وعلى وفق أمره ، وتتحقق المتابعة بالإذعان لأمره والالتزام بطاعته، وعدم التولي عنه، واتباع كل ما جاء به، والعمل بسنته وهديه من دون زيادة ولا نقص، مع الرضا والتسليم في كل ذلك، وأن لا نعبد الله إلا بما شرع .

وعصيان الرسول ﷺ والامتناع عن طاعته واتباعه والتولي عنه هو كفر بالله .

م (٤) : معنى شهادة أن محمداً رسول الله:

معناها : الإيمان الصادق الجازم بأن محمداً ﷺ رسول من رب العالمين وأنه تجب طاعته واتباعه وتصديقه ومحبته والرضا به وامتثال أمره وحكمه وعدم تقديم أحد عليه ولا تفضيل هدي غيره عليه، وأنه ﷺ آخر الرسل.

ومما يجب أن يعلم أن الأخذ بهدي النبي ﷺ والمتابعة له داخلة في الإيمان بنبوة الرسول ﷺ وأنه مما يدخل في شهادة أن محمداً رسول الله وتوحيد المتابعة والانقياد والتسليم له ، وأن من ترك هدي الرسول ﷺ آخذاً بهدي غيره أو فضّل هدي غيره على هديه ﷺ فقد نقض توحيد المتابعة وتوحيد الرسول ونقض شهادته وأبطلها فمن مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله ، متابعته وطاعته والانقياد له .

م (٥): مكانة شهادة أن محمداً رسول الله،وكونها تعد مع الشهادة ركنا واحدا:

لا تصح لا إله إلا الله إلا بشهادة أن محمداً رسول الله، ولذلك كانت الشهادتان (لا إله إلا الله محمد رسول الله) تعتبر ركناً واحداً من أركان الإسلام .

م (٦) : الأدلة على وجوب متابعة الرسول ﷺ.

قال تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ النساء: ١١٥.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ الحشر: ٧.

وقال سبحانه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥ .

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ النساء: ٦٤ .

وقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ آل عمران: ٣٢.

وقال النبي ﷺ : (والذي نفسي بيده لا يسمع بي يهودي ولا نصراني من هذه الأمة ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا دخل النار) . رواه مسلم .

م (٧) : ما أرسل من رسول إلا لأجل أن يطاع ويعمل بشريعته ويتّبع ويوحد بالمتابعة ويوحد الله بالعبادة وينقاد أتباعه لأمره:

قال تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ النساء:٦٤ .

قال ابن أبي العز في شرحه للطحاوية: (فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ والانقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان كما وحد المرسِل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة) ص:٢٠٠ .

م (٨) : علاقة المتابعة (شهادة أن محمداً رسول الله) بالإسلام والإيمان :

شهادة أن محمداً رسول الله داخلة في الركن الأول من أركان الإسلام .

وكذلك تدخل في الركن الرابع من أركان الإيمان : الإيمان برسل الله .

والفرق بينهما أن المتعلق بالإسلام هو الاتباع والمتابعة للرسول ﷺ وتصديقه وطاعته وهذا متعلق بالعمل الظاهر والإسلام والانقياد والاستسلام.

أما المتعلق بالإيمان فهو التصديق بالرسل ومحبتهم وهذا متعلق بالباطن والقلب ، وما يستلزم ذلك من طاعتهم والعمل بشريعتهم وهذا الإيمان العملي.

فالاتباع والطاعة للرسول ﷺ تبحث في التوحيد المتعلق بأركان الإسلام .

والمسائل المتعلقة بالنبوات تبحث في أبواب الإيمان والعقائد .

م (٩) : وجه دخول شهادة أن محمداً رسول الله في التوحيد :

لأنها قائمة على توحيد الرسول ﷺ وإفراده بعدم إثبات رسول بعده ولا متبوع غيره إذ معناها لا أتبع ولا أطيع إلا الرسول وهذا هو حقيقة التوحيد .

أدلة دخول التوحيد في المتابعة وتعلق الشرك بها:

قال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ الأعراف: ٣

﴿ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ ﴾ الأنعام: ١٥٣

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ محمد: ٣.

م (١٠) : المتابعة المشروعة ولمن تكون والمتابعة الممنوعة :

جاء الأمر بتوحيد المتابعة في مواضع من كتاب الله ﷻ . وأن المتابعة المشروعة تكون عما جاء عن الله ﷻ من رسوله وكتابه دينه ، وجاء النهي عن ضدها وهي المتابعة الشركية التي تكون لغير ما جاء عن الله .

م (١١) : أقسام المتابعة وآلاتها:

المتابعة العملية : وهي التي تكون عملا بالجوارح .

ومن أدلتها : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾

المتابعة القولية : وهي التي تكون قولاً باللسان . ومن أدلتها : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ النور: ٥١.

المتابعة القلبية الاعتقادية : وهي التي تشملها عقيدة القلب .

ومن أدلتها : ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾.

م (١٢) : الانقياد للرسول ﷺ هو في حقيقته انقياد لله تعالى :

وذلك لأن الرسول ﷺ مبلّغ عمن أرسله وهو الله ﷻ، فأمر الرسول وشرعه وحكمه هو في الحقيقة أمر لمن أرسله وحكمه وشرع له، وإذا كان كذلك فالانقياد للرسول انقياد لمرسله وطاعة له كما قال: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ النساء: ٨٠.

قال ابن القيم في المدارج : (الرضا بنبيه ورسوله يتضمن كمال الانقياد له والتسليم المطلق إليه) .

م (١٣) : مقتضيات شهادة أن محمدا رسول الله :

١ - تصديقه فيما أخبر ٢- طاعته فيما أمر

٣- واجتناب ما نهى عنه وزجر ٤- وألا يعبد الله إلا بما شرع .

قلت ومن طاعته ﷺ الإيمان به ، ومحبته ، والقيام بحقوقه ، وأن لا يبتدع في الدين والشرع ، وأن يعتقد أنه آخر الرسل ، وأنه لا تقدم طاعة أحد على طاعته، ومعرفة سيرته وهديه ودينه ، وأن لا نغلو فيه ولا نرفعه عن منزلته ﷺ .

تنبيه : تقدم معنى شهادة أن محمداً رسول الله وحقيقتها.

م (١٤) : لوازمها وحقوقها :

١- الحكم بما أنزل الله والتحاكم إلى شريعته وتحكيم هديه وسنته في كل شيء.

٢- موالاة أحبابه المؤمنين به ، ومعاداة الكافرين به والمعرضين عن سنته .

٣- اتباعه والاقتداء به، وعدم الابتداع فلا نعبد الله إلا بما شرعه لنا رسوله .

٤- الجهاد في سبيل الله وقتال الكافرين به المنتقصين له ولهديه وقتل سابه .

٥- محبته ﷺ وتقديم محبته على محبة النفس والولد والمال .

٦- الرضا بما شرع مع التسليم والقبول والانقياد، وعدم تقديم شيء عليه.

٧- عدم الوقوع في الغلو فيه أو الشرك به .

٨- كثرة الصلاة والسلام عليه ، والبخيل من ذكر عنده ﷺ ولم يصل عليه.

م (١٥) : نواقض شهادة أن محمداً رسول الله :

١- عدم الإيمان به ﷺ ، وتكذيبه وجحود رسالته، أو الريب والشك في ذلك.

٢- عدم اعتقاد أنه خاتم الأنبياء والرسل ، أو إنكار عموم بعثته للثقلين .

٣- تفضيل هدي غيره على هديه ، أو اعتقاد وجود من هو أفضل منه.

٤- من ظن أنه يسعه الخروج عن شريعته وسنته أو يوجد من يسعه ذلك .

٥- التولي عن طاعته والإعراض عن متابعته وعن سنته وترك الانقياد له .

٦- الاستهزاء به ولمزه أو النيل من عرضه والطعن فيه والقدح في سنته.

٧- بغضه أو بغض أصحابه أو شيء مما جاء به .

٨- منع الناس من اتباع سنته وصد الناس عن هديه .

٩- عدم التحاكم لأمره وحكمه وشريعته أو عدم التسليم له.

١٠- تعمد مخالفته ومعاندته والتقليد المذهبي والتقديم بين يديه .

١١- عبادته والاستغاثة به وطلب الشفاعة منه ورفعه لمقام الألوهية.

١٢- موالاة أعدائه من الكافرين به .

١٣- الابتداع في دينه وعدم الاقتداء به والبدع أعظم ما يعارض المتابعة .

١٤- تنحية الشريعة وعدم الحكم بما أنزل الله يناقض توحيد المتابعة ويعتبر كفراً بأن محمداً رسول الله بلا شك .

م (١٦) : أركان شهادة أن محمداً رسول الله :

الركن الأول : الإيمان بأن محمداً عبد الله :

ويقتضي هذا الركن ألا نغلو في الرسول ﷺ ولا نطريه ولا نرفعه عن منزلته التي جعله الله بها فلا يوصف بصفات الربوبية ولا يعطى حق العبادة، وقد وقع الكثير من هذه الأمة في نقض هذا الركن فعبدوا الرسول ﷺ من دون الله ودعوه واستغاثوا به بعد موته واستنصروه على الأعداء، ورفعه الغلاة إلى أن جعلوه ﷺ يعلم الغيب ويملك الخلق ويتصرف في الكون ويدبر الأمر وانتهكوا نهيه ، حين قال ﷺ : (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبدالله ورسوله) رواه البخاري. وقوله تعالى عنه : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ الكهف: ١١٠ ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ الأعراف: ١٨٨ ، ويمثل هؤلاء المخالفين الصوفية القبورية المشركة .

الركن الثاني : الإيمان برسالته (أن محمدا رسول الله):

ويقتضي الإيمان بهذا الركن طاعة الرسول ﷺ والاقتداء به واتباعه والانقياد لشرعه والإذعان لأمره والاستسلام لحكمه والتسليم لهديه وتصديق أخباره وتوقيره ومحبته ، وعدم التقديم بين يديه ، والدعوة لدينه وتبليغ سنته والدفاع عنه وقتل متنقصيه واعتقاد أنه أفضل الخلق وأنه خاتم الرسل وإمام المتقين وأنه معصوم.

ومما يدل لهذا الركن :﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ الأعراف: ١٥٨ ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ الأحزاب: ٤٠.

ومن نقض هذا الركن المعجبين بالمناهج الغربية الكافرة والمتبعين لها .

م (١٧) : انقسام الناس في النبي ﷺ إلى طرفين ووسط :

فهناك من غلا فيه ووقع في الشرك فيه واتخذه إلها مع الله، فدعاه من دون الله.

ومنهم من استحب زيارة قبره كلما دخل المسجد مع أنه نهى عن اتخاذ قبره عيداً ، وزعم أنه حي في قبره كحياته الدنيوية ، وأنه أول الخلق وأنه خلق من نور.

ومنهم من جفا فيه وفي خصائصه فأنكر ختم الرسالة به، أو جوز تحكيم غيره، أو فضل الأولياء عليه، أو ابتدع عبادات فضلها على هديه وعبادته .

م (١٨) : حقوق الرسول ﷺ خاصة والأنبياء عامة :

١- الإيمان به: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ التغابن: ٨.

٢- طاعته : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ المائدة: ٩٢ .

٣- محبته : ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ التوبة: ٢٤ .

٤- توقيره وتعزيره : ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ الفتح: ٩.

٥- وجوب قتال من لم يؤمن به، بدليل: (أمرت أن أقاتل الناس).

٦- وجوب نصرته : ﴿ وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ الحشر: ٨

٧- اتباع سنته والاقتداء به: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ آل عمران: ٣١.

٨- امتثال أمره: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ الحشر: ٧.

٩- تحكيمه في كل شيء والتسليم والرضا بحكمه بدليل آية : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ ﴾.

١٠- معرفة سيرته وهديه.

١١- قتل سابه ومنتقصه .

باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله (٦)

اسم الباب : أنواع التوحيد

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه: تفسير أنواع التوحيد وبيان فروعه ، وبيان أن التوحيد مرادف للشهادتين ، والواو عاطفة لأن التوحيد هو مرادف لـ(لا إله إلا الله) وتقدم .

مكانه ونوعه : يعد من أهم أبواب الكتاب فمقصوده تحقيق حقيقة التوحيد.

وهذا الباب من تدبر صنيع المصنف فيه علم فضل الله عليه ، فقد جمع أنواع التوحيد بطريقة لم يسبق إليها وفي ذلك دلالة على دقة فهمه وقوة استنباطه وسعة إدراكه لحقيقة التوحيد وما ذلك والله أعلم إلا لإفناء عمره فيه وجهاده لإقامته وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، حيث ذكر خمسة أنواع للتوحيد والشرك فيها :

١- توحيد الدعاء وشرك الدعاء والشفاعة.

٢- توحيد الولاء والبراء والشرك فيها . وأنها: تفسير شهادة أن لا إله إلا الله.

٣- توحيد الحكم والتشريع والطاعة والشرك فيها .

٤- توحيد المحبة والشرك فيها .

٥- الكفر بالطاغوت .

وهذه الأنواع تفريعات لا تخرج عن أنواع التوحيد الثلاثة والتي سنبينها بالمبحث الملحق بهذا الباب، لكنه أفردها لكونها أكثر الأنواع وقوعا .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

مناسبته لما قبله: بعد أن أورد أبواب التوحيد ذكر تفريعات التوحيد.

ترتيبه بين الأبواب : بدأ المصنف كتابه ببيان حقيقة التوحيد وتوضيح عقيدة التوحيد، ثم بين فضل التوحيد ومكانته ، ثم بين كيفية تحقيقه ، ثم بين حقيقة الشرك وخطره ، ثم وجوب الدعوة للشهادتين ، ثم فسر التوحيد وذكر أنواعه.

الوقفة الثانية: علاقته بالتوحيد: أن التوحيد لا يمكن تصوره إلا بضبط أنواعه وفروعه وأقسامه ، وكم من جاهل بفروع التوحيد، وفي جهل عدي ﷺ بدخول الحكم والطاعة في العبادة لدليل على ذلك ، فلا بد من تفسير التوحيد وتبيين أنواعه.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١ – قال ﷻ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾ الإسراء ٥٧.

٢ – ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ الزخرف: ٢٦ .

٣- قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١.

٤ – قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥.

٥- عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله) رواه مسلم.

وهذا الحديث من أعظم ما يبين معنى (لا إله إلا الله)، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصما ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله ، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله .

معنى الواو في قول وكفر:هل هي للمغايرة أو للتفسير ، ومنشأ المسألة هل الكفر بالطاغوت جزء من التوحيد لا يقوم إلا به أو شرط لازم فيه يعقبه.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

مبحث : توحيد الربوبية

المسألة الأولى: تعريف الربوبية :

الربوبية: أصلها مأخوذ من اسم الرب .

وهي مشتقة من الفعل رَبَّ يرب ، والياء والتاء في الربوبية للنسبة .

والمراد بالربوبية: الاتصاف بصفات الخلق والملك والتدبير، وأفعال الرب التي لا تنبغي لغير الله ﷻ. ولا تصلح لمربوب مخلوق مملوك مدبَر .

م (٢) : معنى توحيد الربوبية:

إثبات الربوبية لله وحده الخالق . ونفي الربوبية وأفعالها عن الخلق .

فيعتقد الموحد بالربوبية أنه لا خالق ولا رازق ولا مدبر ولا مالك غير الله .

م (٣) : معنى توحيد الأسماء والصفات :

إثبات أسماء الله وصفاته لله التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله .

ونفي ما نفاه الله عن نفسه . وعدم إثبات شيء من صفات الكمال للخلق .

م (٤) : معنى الرب :

قال الأزهري في تهذيبه: قال ابن الأنباري : الرب يطلق على ثلاثة معاني :

(١- المالك . ٢- السيد المطاع . ٣- المصلح).

وعلى ما تقدم فالربوبية لا تخرج عن ثلاثة معاني : **(الملك، الأمر، التدبير)** :

الأول : المالك .

الثاني : الآمر المشرع الحاكم والسيد المطاع سان الدين والمحلل والمحرم.

الثالث : المدبّر الخالق المصلح المربّي الراعي القائم على غيره والمتصرف فيه .

م (٥) : أسماء توحيد الربوبية :

١- توحيد أفعال الرب . لأن الربوبية حقيقتها أفعال الله وصفاته .

٢- التوحيد الاعتقادي لأن محله الاعتقاد في مقابل العملي الذي هو الألوهية.

٣- التوحيد العلمي القائم على العلم بالله وأفعاله وصفاته .

٤- توحيد المعرفة والإثبات لأنه متعلق بمعرفة الله وإثبات الكمال في صفاته .

٥- التوحيد الخبري : القائم على الخبر والسمع .

٦- توحيد الوسيلة أي الوسيلة إلى توحيد الألوهية الذي هو توحيد الغاية.

م (٦) : أفعال الربوبية والأمثلة لها :

١- الخلق : ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ فاطر: ٣ .

٢- فعل التدبير والتصرف في الأمر: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ يونس: ٣.

٣- الملك وتفرده ﷻ به: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ المؤمنون: ٨٨ .

٤- الإحياء والإماتة : ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ البقرة: ٢٥٨

٥- البعث والحساب: ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ يس ٥٢ ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾

٦- النفع والضر: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ يونس: ١٨ ﴿ لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ الأعراف ١٨٨ .

٧- التصوير والإبراء والفطر: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ الحشر: ٢٤.

٨- النصر: ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ﴾ ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ .

٩- الرزق: ﴿ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾.

١٠- الأمر والنهي والحكم والتشريع وسن الدين والتحليل والتحريم:

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ الأعراف: ٥٤ ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ ﴾ الشورى: ١٣ ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ يوسف: ٤٠ ﴿ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ ﴾ المائدة: ٨٧ ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ الزمر: ٣ .

١١- الإنعام : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ النحل: ٥٣

١٢- الإطعام والتأمين: ﴿ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾.

١٣- علم الغيب: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ النمل: ٦٥.

١٤- القضاء والقدر والهداية والإضلال :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ القمر: ٤٩ ﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ المدثر: ٣١.

١٥- الاغناء والتمليك والإفقار : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ النجم: ٤٨.

١٦- المعافاة والشفاء : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ الشعراء: ٨٠.

ومن أفعال ربوبيته ﷻ الإعزاز والإذلال ، وتصريف الأيام وإنشاء الليل وغشوه وتجلية النهار وتكويرهما وسلخ بعضهما من بعض، وإنزال المطر والإنبات.

وغير ذلك من أفعال الله ﷻ التي لا يحصيها ولا يعلمها إلا هو، والتي مردها لصفة التدبير التي ترجع فيها معظم أفعال الرب ﷻ بما فيها الخلق ، فكل يوم هو في شأن لا معقب لحكمه ولا راد لأمره سبحانه وبحمده .

م (٧) : ما تتضمنه الربوبية والأمور الداخلة في وجوب توحيد الربوبية:

أولاً : وجود الله ﷻ وكمال حياته وقيوميته .

ثانيا: أفعاله من الخلق والتدبير أو الإعداد والإمداد والإعدام وملكه لهم .

ثالثاً : أسماؤه وصفاته وكماله وجلاله وجماله وتفرده بالكمال وحده .

رابعاً : قضاؤه وقدره ، ويرجع هو ومراتبه الأربع في الربوبية.

فقضاء الله وقدره هو فعل الله فهو حكم الله وتقديره وإرادته وخلقه وهذه أفعال راجعة للربوبية القائمة بالله ﷻ ، كما أن مراتب القدر الأربع والتي هي : (العلم ، الكتابة ، المشيئة ، الخلق) هي صفات الله وأفعاله الراجعة للربوبية .

خامساً : شرعه وأمره وحكمه .

يدخل الحكم بما أنزل الله وامتثال أمره والعمل بشرعه في الإيمان بالربوبية، وهذا الأمر لا يخفى، لأن الحكم والأمر وتشريع الدين وسن الشرائع من أخص صفات الله، وجعل الله ﷻ الأمر له وحده وتفرد بالحكم، وجعل من ينازعه في هذه الصفة كافراً مكذباً بربوبية الله مشركاً فيها ، وقد دلت عليه نصوص كثيرة جداً.

فقال سبحانه : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ الأعراف: ٥٤ فلا يأمر ولا يشرع ولا يحكم إلا من يخلق وكان رباً معبودا ، وأخبر تعالى أن الحكم له وحده لا يشترك معه أحد فيه ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦ ، بل وأخبر الله ﷻ أن من عمل بحكم غيره فقد عبده وصيره إلهاً ورباً له ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ يوسف: ٤٠ ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا ﴾ آل عمران٦٤ ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١ ، فانظر كيف سمى الله تعالى الحاكم والمشرّع ومن يسن الدين والقوانين المحللة والمحرمة ربا وليس مجرد إلها وذلك لأنه نازع الله في أعظم خصائصه وادعى بصنيعه هذا الربوبية وجعل نفسه ربا من دون الله يجب أن يطاع ويتحاكم له، وقد فسر الرسول ﷺ لعدي بن حاتم كيف اتخذوهم أربابا وذلك بطاعتهم في التشريع والتحليل والتحريم .

سادساً : إرساله الرسل من الملائكة والأنبياء وإنزال الكتب .

من ربوبية الله وأفعاله المقدسة: إرساله الرسل من الملائكة ومن الناس ليعلقوا الخلق بربهم ويبصرونهم بمراد خالقهم، فإرسال الرسول وبعثة الأنبياء من أفعال الله ومن مقتضيات ربوبيته ولوازم حكمته، وهذا أمر دل عليه العقل والفطرة والشرع .

وذم الله ﷻ من أنكر بعثة الرسل وأخبر أن ذلك في الحقيقة قدح في ربوبيته كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ الأنعام: ٩١.

سابعاً : الإماتة والبعث والحساب :

وإماتته لخلقه ثم بعثه لهم وإحياؤهم بعد إماتتهم والنشور وحسابهم وإثابتهم وإدخالهم الجنة وعقابهم بالنار. من أعظم أفعال الربوبية المتفرد بها لجلاله وعظمته .

ومعرفة الكفار بالله لم تنفعهم، وصار إنكارهم البعث والرسالة كفرا وتكذيبا استحقوا به النار، لأن تكذيبهم بالبعث والرسل كفر وطعن في الربوبية .

هذه أركان الربوبية السبعة والتي لا يصح إيمان العبد إلا بإيمانه الحق بها.

ثامناً : الألوهية صفة من صفات الربوبية .

وبيان ذلك أن الألوهية معناها استحقاق العبادة، فأحقية العبادة من لوازم الربوبية وصفاتها، فالرب لابد أن يعبد والألوهية لا تنبغي إلا للرب الخالق القادر .

م (٨): آثار الإيمان بتوحيد الربوبية ولوازمه:

الإيمان بتوحيد الربوبية حقاً والرضا به يحمل صاحبه على الكمال في عبادة الله وحده وتوحيده في الألوهية وطاعته وتقدير الله حق قدره وتعظيمه والفرار من معاصيه والخوف من سخطه وعقابه، واللجوء إليه والانكسار بين يديه والافتقار له،

والإيمان الحق بالقضاء والقدر، وموالاة أولياء الله ومعاداة أعداء الله، والحكم بما أنزل الله والتحاكم لشرعه ومتابعة رسوله ﷺ .

م (٩) : توحيد الربوبية لا يدخل وحده في الإسلام وليس الغاية :

توحيد الربوبية على علو مكانته وعظيم قدره وكونه حق ولا ينجو العبد بدونه ولا يصح إيمانه إذا انتفى، إلا أنه مع ذلك من أتى به وحده لا يكفي ليعتبر مسلما، وليس هو الغاية التي بعثت بها الرسل، إذ الغاية هي عبادة الله وحده وتوحيده ﷻ في الألوهية والعبادة، أما الإيمان بتوحيد الربوبية فإن المشركين كانوا مقرين بأصله ومع ذلك لم ينفعهم هذا الإيمان لما وقعوا في شرك العبادة والألوهية .

م (١٠) : أنواع الربوبية :

١- الربوبية العامة لجميع الخلق :

وهي المتضمنة لخلقهم ورزقهم وهدايتهم ، وهي ربوبية القدر والقهر.

٢- الربوبية الخاصة بالمؤمنين :

وهي توفيق الله لهم وإعانتهم على طاعته. وهي ربوبية الشرع والدين والأمر.

م (١١) : محل الإيمان بالربوبية ونوع آلته:

الإيمان بالربوبية كله من قبيل الاعتقادي وليس منه عملي ، بخلاف الألوهية .

أما الشرك في الربوبية فمنه الاعتقادي ومنه العملي المتعلق بالجوارح مثل التشريع والحكم بغير ما أنزل الله والتصوير وتعليق الحلقة والتمائم والتشاؤم وسب الدهر والريح والجزع والتسخط على القدر .

م (١٢) : أنواع المخالفات والقوادح والشرك في الربوبية:

١- إنكار وجود الرب ﷻ. وقد حصل من الشواذ كالفلاسفة الملاحدة .

٢- إنكار ربوبية الله وكونه خالقا رازقا وذلك بتعطيله عن أفعاله .

٣- إثبات ربوبية الله من غير توحيد. فيعترف بربوبية الله ولكن يقع في الشرك في أفرادها فيثبت الربوبية للمخلوقين، كما عند غلاة الصوفية الذين يثبتون للأولياء والرسل علم الغيب والنفع والضر والقدرة على كل شيء.

٤- القدح في بعض أفعال الله مثل سب الدهر أو الريح أو التشاؤم أو تنقص خلق الله أو الاعتراض على قدر الله والجزع به وعدم الرضا بالقضاء والقدر .

٥- ترك الحكم بشرع الله وأمره وحكمه والتشريع والتحليل والتحريم .

٦- تشبيه الله تعالى بخلقه ونسبة النقائص له ﷻ، مثل نسبة الولد إليه .

٧- عدم تعظيم الله وتقديره حق قدره.

٨- السحر والتنجيم وادعاء علم الغيب فيها .

٩- إنكار القدرية خلق أفعال العباد وإنكار الجبرية الأسباب .

١٠- إنكار صفات الله وتعطيلها وإنكار معناها بالتحريف والتفويض والتأويل كما هو مذهب الجهمية أو بتمثيلها بصفات الخلق .

١١- من يكون شركه في الربوبية من جهة اللزوم فمن أشرك في الألوهية فقد استلزم شركه فيها الشرك في الربوبية والقدح في ربوبية الله .

م (١٣) : مرد نقض توحيد الربوبية إلى ثلاثة أنواع :

الأول : إنكار ربوبية الله وتعطيل الرب منها ومن أفعاله وهذا شرك التعطيل .

الثاني : إثبات الربوبية الخاصة بالله لغيره وعدم توحيده بالربوبية وتمثيل المخلوق بالخالق في الربوبية ، وهذا شرك التمثيل .

الثالث : القدح في أفعال الرب كسب الريح والدهر أو التسخط على القدر .

م (١٤) :هل يوجد شرك عملي وأصغر في الربوبية ؟

نعم ومن أمثلة ذلك :

١- تعليق التمائم .

٢- سب الدهر وسب الريح .

٣- الجزع والتسخط على القدر .

٤- قول: ما شاء الله وشئت ولولا الله وأنت .

٥- التطير والتشاؤم.

٦- نسبة المطر للكواكب والنوء والنجوم والفصول كالربيع نسبة سبب.

٧- التبرك المبتدع بآثار الصالحين .

٨- التصوير .

٩- الحكم بغير ما أنزل الله في القضية الواحدة، والتحاكم شرك في الألوهية.

١٠- شرك الأسباب ، والقاعدة: أن من جعل ما ليس بسببٍ سبباً وتعلق به ما لم يعتقد فيه التأثير فقد وقع في شرك الأسباب .

كل هذه شركيات عملية متعلقة بالربوبية وهي من الشرك الأصغر .

م (١٥) : التشاؤم والتطير والتبرك وتعليق التمائم : من قبيل شرك الأسباب .

أولاً : هي شرك في الربوبية : ويكون على درجتين حسب معتقد صاحبها :

١- فإن اعتقد فيها مجرد السببية في حصول الحوادث وردها فهو شرك أصغر .

٢- وإن اعتقد فيها التأثير بذاتها أو أن الله ﷻ جعل فيها التأثير والقدرة على الدفع والنفع فهذا شرك أكبر.

ثانياً : وتكون شركاً في الألوهية :

ذلك إن خاف هذه الأمور ورجاها وتعلق بها وأحبها فقد أشرك في الألوهية.

م (١٦) : هل وجد من أقر بتوحيد الألوهية ومع ذلك وقع في شرك الربوبية :

نعم ويوجد ذلك في طوائف :

١- القدرية : القائلون أن العبد يخلق فعله وليس الله بخالق للكفر والشر .

٢- أصحاب التمائم :ممن يلبسها ويعتقد فيها أنها سبب لدفع العين وهذا شرك في الربوبية وإن كان أصغر وإن اعتقد فيها التأثير بنفسها فهو شرك أكبر .

٣- المتبركون التبرك الممنوع بالآثار المبتدعة، والمعتقدون البركة والنفع فيها .

٤- القادح في أفعال الرب كسب الريح والدهر ، والتسخط على القدر .

٥- من أثبت أفعال الرب ﷻ للمخلوق سواءً من باب السبب أو التأثير.

م (١٧) : إقرار المشركين بتوحيد الربوبية في الجملة.

كان المشركون العرب وغيرهم مقرين بربوبية الله وأنه الخالق الرازق المدبر المالك وهذا لاخلاف فيه، وإنما الكلام في توحيدهم بالربوبية هل حصل لهم تحقيقه.

والتحقيق في ذلك: أنهم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية في الأصل والجملة والأساس يدل لذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ الزخرف: ٨٧.

فكان إقرارهم بالله وبربوبيته أمر ثابت بل وحتى ألوهيته أقروا بها لكن خالفوا في توحيد الله بالألوهية فهم لا يقرون به ولا يوحدون الله في العبادة فكانوا يعبدون الله ويعبدون غيره ويريدون أن يعبدوا الله وحده وإنما يريدون الشرك كما في قولهم ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ ﴾ الأعراف: ٧٠ ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ .

لكن هذا التوحيد منهم لم يكن كاملا ولا صحيحاً، فإيمانهم مختلط بالشرك كما أخبر عنهم تعالى في قوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف: ١٠٦.

أما عدم صحته: فلأن من لازم التوحيد في الربوبية التوحيد في الألوهية، فمن أشرك في الألوهية فليس إلا لغلط في الربوبية وقدح فيها، وإلا لو كان حقاً مؤمناً بربه الكريم لما أشرك في عبادته وما اغتر بعبادة الآلهة الباطلة.

وأما عدم كماله فلوجود شرك في بعض أفراد الربوبية :

ومن ذلك قول المشركين ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ هود: ٥٤ ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يس: ٧٤ وتلبيتهم: (لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك) وثبت أنهم كانوا يستغفرون بعدها.

فحصل منهم الشرك بنسبة شيء من التصرف والنفع والضر بعض الأحيان لآلهتهم وأنها تعتري أعداءها بسوء وطلبوا منها النصر وأثبتوا للآلهة نوع ملك .

وهذا القدر هو من الشرك في الربوبية، فهم وإن كانوا قد أقروا و اعترفوا أن الربوبية الحقة المطلقة لله وحده لكن اعتقدوا أنه يوجد لغيره بعض خصائصها.

ومن الأدلة الدالة على إقرار المشركين بتوحيد الربوبية لله:

قول الله ﷻ عن المشركين وإقرارهم بتوحيد الربوبية لله :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾لقمان: ٢٥.

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ المؤمنون: ٣٨ .

وأخبر عنهم اعترافهم أن الله يستحق أن يعبد لكن نازعوا في توحيده بالعبادة:

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ﴾ الأعراف: ٧٠ .

وأخبر عن اعترافهم بالشرك: ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ الأنعام: ١٤٨ .

كما أخبر عن إيمانهم به ﷻ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾يوسف١٠٦.

إقرارهم أن المدبر النافع الضار هو الله وإخلاصهم حال الشدة: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾الأنعام ٦٣.

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ العنكبوت: ٦٥.

ومن الأدلة على اعتراف مشركي العرب بتفرد الرب بالنفع والضر :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾.

﴿ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾.

﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾.

لكن إقرارهم بتوحيد الربوبية لا يعني عدم وجود بعض المخالفات في توحيدهم بالربوبية والقوادح في تفاصيله منها :

١- اعتقاد بعضهم شيئاً من النفع والضر في الآلهة ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ هود: ٥٤.

٢- إنكار الرسالة والإرسال وهو من ربوبية الله .

٣- إنكار البعث وهو من أفعال الربوبية .

٤- التحليل والتحريم والتشريع والحكم بغير ما أنزل الله .

٥- عدم التزامهم بلازم الربوبية الذي هو توحيد الألوهية وعبادة الله وحده .

٦- اعتقادهم أن السحرة والكهان والمنجمين يعلمون الغيب.

٧- تشبيه الله ﷻ بخلقه وتنقصه مثل نسبة الولد إليه أو النوم والتعب.

٨- وقوعهم في سب الله عدوا بغير علم .

٩- التشاؤم والتطير ولبس الحلقة والتمائم والرقى واعتقاد تأثيرها ونفعها والاستقسام بالأزلام والتبرك بالأشجار والأحجار والاستمطار بالنوء .

قال ابن تيمية : (توحيد الربوبية وهذا لم ينازع في أصله أحد من بني آدم وإنما نازعوا في تفاصيله).

وقال في الدرء:(كثير من الطوائف قصر فيه مع إثباته لأصله).

مبحث : تـوحـيـد الألـوهـيـة

المسألة الأولى : اشتقاق الألوهية :

الألوهية والإلهية أصلها منتزع من الإله، وهي مشتقة مـن الفعـل ألَـه بمعنـى عبد، والياء والتاء في الألوهية هي للنسبة أي نسبة الإلهية والعبادة لمستحقها .

والمراد بتوحيد الألوهية : هو إفراد الله بالعبادة المتعلقة بأفعال العباد.

وتقدم تعريف التوحيد .

المسألة (٢) : معنى الإله وصيغته واشتقاقه:

إله على وزن فِعَال بمعنى مفعول فهو إله بمعنى مألوه وهو المعبود .

وصيغة فعال التي بمعنى مفعول في اللغة لها أمثلة كثيرة منها :

كتاب بمعنى مكتوب وإمام بمعنى مأموم وفراش بمعنى مفروش.

والإله كذلك معناه المعبود ووجه ذلـك : أن الإلـه معبـود متألـه ولـيس هـو الفاعل العابد، فالإله ليس هو الذي يقوم بالعبادة ويفعلها ويصرفها وإنما تصرف لـه وتفعل له فهو معبود مألوه والمخلوق هو الآله العابد فاعل للعبادة .

فالإله مشتق من فعل أَلَهَ بفتح اللام على وزن فَعَلَ كفـتح، يألـه إلاهـة وتألهـا وألوهية ، وهو بمعنى عبد يعبد عبادة وتعبداً. وتأله تعبد وألوهية عبودية وأَلَـهَ عَبَـدَ ويأله يعبد وإلاهة عبادة، والمتأله المتعبد والآلِه هو العابد والمألوه المعبود.

ويدل لهذا المعنى : شعر رؤبة بن العجاج :

(لله در الغانيات المدهي سبحن واسترجعن من تألهي) أي من تعبدي .

وقراءة ابن عباس:(ويذرك وإلاهتك) أي يترك عبادتك وكان فرعون يُعبد .

وكل معبود يسمى إلـهاً سواء عُبِد بحق وعدل وهو الله وحده لا شريـك لـه، أو عُبِد بظلم وهذا كل معبود سوى الله إذ عبادته تعتبر باطلة وظالمة ، وقد سـمى الله المعبودات الباطلة آلـهة كالهوى والأصنام.

قال ابن عباس ﷺ : (**الله : ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين**) الطبري.

قال الطبري: فالإله هو المعبود وهو الله سبحانه، وهو على وزن فِعَـال بمعنـى مفعول مثل كتاب بمعنى مكتوب .

م (٣) : **الألوهية والعبادة بمعنى واحـد وهـي مـن المترادفـات :** وأَلَـهَ وعَبَـدَ لفظان مترادفان، ففعل العبادة هو نفسه فعل الألوهية اللذان هما التعبد والتأله .

فحقيقة الألوهية كل عبادة أمر الله بها ويثيب فاعلها .

م (٤) : **الإله اسم جنس لكل ما يعبد :**

قال الزمخشري في الكشاف : (الإله من أسماء الأجناس كالرجل والفرس يقع على كل معبود بحق أو باطل ثم على المعبود بحق) .

وقد سمى الله ﷻ المعبودات آلهة وكل ما عبد إله في آيات كثيرة .

م (٥) : **أسماء توحيد الألوهية :**

١- توحيد الألوهية والإلهية.

٢- توحيد العبادة: والألوهية هي العبودية التي أمر الله بها ولا تنبغي إلا له.

٣- توحيد العباد : لكونه متعلق بأفعال العباد المخلوقين وتعبدهم .

٤- توحيد الإرادة والقصد والنية والطلب: لأنه متعلق بإرادة العبد وتوجهه.

٥- التوحيد الطلبي القصدي : لأنه قائم على طلب العبد وقصده ربه.

٦- توحيد العمل والفعل أو التوحيد العملي الفعلي: لأنه متعلق بأعمال العبد.

٧- توحيد الشرع والأمر والنهي : لكونه متعلقاً بأمر الله للعباد وتشريعه.

٨- توحيد الغاية: الغاية التي من أجله خلقنا ويقابل توحيد الوسيلة الربوبية.

م (٦) : الأقوال في اشتقاق اسم الإله :

١- الإله مشتق من (وِلَاه) وألَه ووله لجأ والتجأ واعتمد عليه وتضرع إليه .

٢- أنه مشتق من (وَلاه) من ولِه ألِه ولاه وتولها و الوله التولع والاشتياق.

٣- الإله مشتق من(ألِـهّتُ) إلى كذا إذا سكنت إليه ، فالقلوب تسكن إليه

٤- أنه مشتق من (لاه) يلوه ، إذا احتجب واستتر .

٥- أنه مشتق من (لاه) يليه إذا ارتفع.

٦- أنه مشتق من (وله) ألِه وهو التحير.

وهذه المعاني بعضها صحيح وداخل في عموم العبادة ، إلا أنها قاصرة في الدلالة على المعنى .

٧- أنه مشتق من (ألَهَ) آله أي قادر على الاختراع ومنه سميت الآلات بذلك، وجعل أصحاب هذا القول الإله بمعنى الفاعل لا المفعول وفسروا الألوهية بالقدرة والخلق والاختراع والربوبية، فالإله هو القادر وهو الرب، وهذا قول مبتدع لا تدل عليه النصوص ولا جاءت به اللغة وهذا القول والفهم أوقعهم في الشرك .

وهذا معنى الألوهية عند المتكلمين والصوفية القبورية . والعبادة عندهم لا تسمى عبادة إلا مع اعتقاد النفع والضر في المعبود وإعطائه بعض صفات الربوبية.

قال ابن تيمية: (الإله هو المألوه أي المستحق أن يؤله أي يعبد ولايستحق أن يؤله ويعبد إلا الله، وقد غلط طائفة من أهل الكلام فظنوا أن الإله بمعنى الفاعل وجعلوا الألهية هي القدرة على الاختراع والربوبية) الفتاوى ١٣/ ٢٠٣ و٣/ ١٠١.

أيضا لا يعتبرون الدعاء من العبادة فالعبادة عندهم فقط السجود والصلاة .

م (٧) : أنواع الألهة :

١- الإله الحق وهو الله ﷻ فهو المعبود وحده بحق .

وهذا حقيقة معنى كلمة التوحيد لا إله إلا الله : أي لا معبود بحق إلا الله فالنفي واقع على العبادة الحقة وعلى المعبود بحق وعلى الإله المستحق للعبادة، والإثبات بهذه الصفة لا يكون الا لله وحده المستحق للعبادة وليس نفي وجود المعبود ، فالآلهة غير الله موجودة وكثيرة ومثبتة غير منفية لكن المنفي استحقاقها العبادة، إذ أن عبادتها باطلة ولا تستحق أن تعبد .

٢- الآلهة الباطلة الظالمة وهي كل ما عبد من دون الله، ومن هذه المعبودات الموجودة الباطلة: الملائكة والأنبياء والأولياء والأموات والملوك والعلماء والجن والشمس والقمر والنجوم والنار والأصنام والأوثان والأشجار والصور والهوى والدنيا. وقد سمى الله كل ما يعبد إلهاً.﴿ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً ﴾ ﴿ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾.

واتصفت الآلهة بالبطلان لأن عبادتها وقعت بدون حق، ومعنى (بدون حق) أي أنها لا تستحق العبادة ولا تنبغي لها، فلا يعبد إلا من يخلق وينفع ويضر وحده .

وكونها آلهة (ظالمة باطلة) لأنها ما اتصفت عبادتها بالعدل كما هو الحال في عبادة ربنا ﷻ الذي تمت كلمته صدقاً وعدلاً وقامت بتوحيده السموات والأرض .

م (٨) : الألوهية صفة من صفات الربوبية :

الألوهية هي صفة من صفات الله ﷻ وحق من حقوقه، فاستحقاق العبادة لله هي من مفردات الربوبية وخصائصها . وبيان ذلك أن الألوهية معناها استحقاق العبادة، ومعلوم أنه لا يستحق أحد العبادة غير الرب الخالق، فأحقية العبادة هي من لوازم الربوبية وصفاتها ومعانيها، فالرب لابد أن يعبد ويطلب ويرجى لكونه القادر على كل شيء، والعكس بالعكس العبادة والألوهية لا تنبغي إلا لمن قدر على النفع والضر والخلق ولا توجد هذه الصفة في أحد غير الله تعالى .

م (٩) : الألوهية صفة للرب وللعبد:

أولاً : الألوهية المتعلقة بالرب : ويقصد بها استحقاق العبادة.

وهي صفة مشتقة من الإله وذلك بكون الله ﷻ مستحق للعبادة وهو المعبود .

ثانياً : ألوهية العبد : وتطلق على فعل العبادة ويقصد بها الفعل نفسه :

فتتعلق الألوهية التي هي العبودية بالعبد من حيث كونه عابدا، فلا بد للمخلوق من ألوهية وعبودية لغيره فهي صفة من صفاته التي لا تنفك عنه .

م (١٠) : قاعدة : تحقيق توحيد الألوهية يحصل بأمرين :

الأول: عبادة الله وحده بما شرع لنا رسوله .

الثاني: البراءة من عبادة غيره والكفر بالطاغوت .

ولا يكفي أحدهما عن الآخر ، ومن تركهما أو أحدهما فهو كافر .

م (١١) : أركان الألوهية وآلاتها :

تتكون الألوهية من أربعة أركان تقوم عليها ولا تتم وتصح إلا بها.

الركن الأول : قول القلب وذلك بمعرفة الله ﷻ وتصديقه .

الركن الثاني : عمل القلب وذلك يتحقق بالإقرار بوحدانية الله ﷻ وإفراده بجميع أنواع العبادة ومحبته ورجائه والخوف منه والخضوع له وتعظيمه والرضا به.

الركن الثالث : قول اللسان ويكون بالنطق بالتوحيد (الشهادتين) وذكره ﷻ وبالثناء عليه وحمده وشكره ودعائه والاستعانة به وسؤاله وطلبه وحده لاشريك له.

الرابع : عمل الجوارح، ويتحقق بالقيام لله والصلاة والسجود والذبح .

فتوحيد الألوهية منه الاعتقادي ومنه القولي ومنه العملي الفعلي .

م (١٢): لا يستقيم توحيد الألوهية إلا بإثبات الصفات لله ﷻ :

من اختل توحيده في الصفات وأخل بنسبة الكمال لله وقع في الشرك في الألوهية لزاماً ، ولا يتم توحيد الألوهية إلا بتوحيد الأسماء والصفات وإثباتها لله على الحقيقة كما جاء في النصوص وعدم تعطيلها . ومن وقع في شرك الأسماء والصفات لا بد له من حصول الخلل في الألوهية، وهذه القاعدة منضبطة لا تنخرم.

م (١٣) : دخول الولاء والبراء في الألوهية :

لا يتم توحيد الألوهية إلا بالولاء لأهلها ومعاداة الكافرين بها المشركين ، ومما يدخل في مسمى العبادة الحب والبغض، والموالاة والمعاداة كما دلت آية إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ .

م (١٤) : دخول الحكم في توحيد الألوهية :

جعل الله الحكم بما أنزل والتحاكم إلى أمره وشرعه وحكمه عبادة يحبها الله ويأمر بها ويجب أن يوحده العبد فيها فلا يحكم إلا بحكم الله ولا يتحاكم إلا إليه، فكل ذلك يدخل في مسمى العبادة. قال تعالى : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ يوسف: ٤٠ ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ الكهف: ٢٦ .

م (١٥) : حاجة الناس إلى توحيد الألوهية :

كما أن العباد في حاجة إلى ربوبية الله فهم في حاجة إلى ألوهيته وعبوديته والتعلق به، ومن لم يفهم هذا الأصل لم يفهم إياك نعبد وإياك نستعين فالأولى نعبد مردها للألوهية ونستعين مردها للربوبية، فنحن في حاجة إلى ربوبية الله وإلى ألوهيته، فالخلق مضطرون مفتقرون إلى اللجوء إلى ربوبية خالقهم وعبادة إلههم .

م (١٦) : أهمية توحيد الألوهية :

هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق ولأجلها أرسلت الرسل وقامت السموات والأرض ويدل لهذا الأصل العظيم قوله ﷻ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات: ٥٦ ، فلأجل توحيد الألوهية خلق الله الإنس والجن والملائكة، ولأجله بعثت الرسل وأنزلت الكتب، وهو دعوة جميع الرسل قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ النحل: ٣٦.

ولأجل التوحيد شرع الجهاد وجردت السيوف وأريقت الدماء وقام الرسل بذلك ولا يعتبر المرء مسلما إلا به ولا يدخل الجنة إلا بتحقيقه .

وبالتوحيد قامت السموات والأرض فهو العدل وما يخالفه هو الظلم قال سبحانه ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ الأنعام: ١١٥ . وبلا إله إلا الله التي هي التوحيد قام الخلق وكل شيء .

وقد دل على توحيد الألوهية الفطرة والعقل قبل نزول الشرع، وقد وهم وأخطأ من ظن أن الفطرة دالة على توحيد الربوبية فقط دون الألوهية .

وصلاح البشر بل جميع الخلق بتوحيد الألوهية فلا غنى لهم عنه فكما أن الناس محتاجون لربوبية الله فهم أشد حاجة إلى عبادته وألوهيته .

قال ابن تيمية : (التوحيد جماع كل خير والشرك جماع كل شر) .

ولا يمكن أن يجتمع شمل الأمة إلا بالتوحيد والجهاد عليه .

توحيد الألوهية أول واجب على العبد وآخر واجب لا يدخل أحد الإسلام إلا به ولا يدخل الجنة وينجو من النار إلا بتحقيقه وهو الذي يعصم الدم أو يهدره.

وأجمع العلماء أن أول ما يدعى إليه الكافر كلمة التوحيد وبها يدخل في الدين.

م (١٧) : أكثر المشركين وقع شركهم في توحيد الألوهية .

معظم المشركين الذين أرسلت لهم الرسل كان دينهم الشرك في الألوهية باتخاذ الوسائط والشفعاء التي يزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم عنده وهذه حقيقة الألوهية التي يفعلونها والآلهة التي سماها الله ﷻ آلهة ليست لهؤلاء المشركين إلا مجرد شافعة يدعونها ويطلبون منها أن تقربهم إلى الله وتشفع لهم وتستغفر لهم وتستنصر لهم وتطلب الرزق لهم، لا أنهم اعتقدوا أنها تخلق وترزق وتملك وتنفع وتضر بذاتها فقد كانوا مقرين بتوحيد الربوبية كما قدمنا عنهم ، وأن حقيقة شركهم

كان في طلب الشفاعة من الأولياء : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨، وهذه الوسائط والشفعاء كانت في الغالب من الأولياء، فعيسى وأمه وود وسواع ويغوث واللات كانوا رجالا صالحين اتخذهم المشركون شفعاء لهم عند الله وآلهة يعبدونهم بدعائهم من دون الله.

بل كان المشركون معترفين بألوهية الله وكانوا يعبدونه ويدعونه ويصلون له ويحجون لكن النزاع كان معهم في إفراده ﷻ بالألوهية وأن يوحدوه في العبادة ويعبدوه وحده كما قال ﷻ عنهم ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ ﴾ الأعراف: ٧٠، فهذه الآية أثبتت أنهم كانوا يعبدون الله ﷻ لكن لم يكونوا يريدون أن يعبدوا الله وحده وإنما يعبدونه ويعبدون معه آلهة أخرى بل فوق هذا كانوا يخلصون له العبادة والدعاء وقت الشدة ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ العنكبوت: ٦٥، ومع ذلك لم تنفعهم هذه العقيدة ولا أدخلهم الله بها في الإسلام .

وفي هذا رد على المتكلمين والقبورية الذين ظنوا أن الاعتراف بتوحيد الربوبية يدخل في الإسلام وأن الشرك هو في الربوبية فقط .

مبحث : العلاقة بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية

المسألة الأولى: الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية :

١- أن الربوبية متعلقة بأفعال الرب ﷻ كالخلق والإحياء فهي فعله وصفته .

والألوهية متعلقة بأفعال المخلوق كالخوف والسجود فهي فعل العبد وصفته.

٢- أن توحيد الألوهية متضمن للربوبية .

وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية وليس متضمنا له.

٣- أن توحيد الربوبية متعلق بالاعتقاد والقول .

وتوحيد الألوهية متعلق بالعمل عمل القلب والجوارح مع الاعتقاد.

٤- أن الربوبية توحيدها معرفة وإثبات .

والألوهية توحيدها إرادة وطلب وقصد .

٥- أن الربوبية متعلقة بالأمور الكونية القدرية كالخلق والتدبير .

والألوهية متعلقة بالشرع والأمر والنهي والمحبة والرضا .

٦- أن الربوبية مشتقة من اسم الرب وهو السيد المربي المتصرف .

والألوهية مشتقة من اسم الإله وهو المعبود .

٧- أن توحيد الربوبية متضمن الإيمان بأن الله رب كل شيء وخالقه .

وتوحيد الألوهية متضمن الإيمان بعبادة الله وحده لا شريك له ونبذ ما سواه .

٨- أن توحيد الربوبية أقر به المشركون غالباً .

وأما توحيد الألوهية فوقعوا في الشرك فيه وأنكروا توحيد الله به .

٩- أن الربوبية دليل على الألوهية والألوهية مدلول للربوبية .

١٠- أن توحيد الربوبية لا يدخل من آمن به فقط في الإسلام .

والإيمان بتوحيد الألوهية يدخل الإسلام لأنه يتضمن غالبا توحيد الربوبية.

١١- أن الألوهية والربوبية من الألفاظ التي إذا اجتمعت في اللفظ افترقت في المعنى وإذا افترقت اجتمعت .

المسألة (٢) : الرد على من زعم أن الألوهية والربوبية متحدة المعنى :

١- أن لفظ الإله غير لفظ الرب، حيث يختلفان في اللفظ والمعنى بإجماع أهل اللغة وأهل التفسير والشرع.

٢- أن الله جمع بين الاسمين (الرب والإله) في كتابه في سورة الفلق وآية مريم وغيرها وعطف بينهما والعطف يقتضي المغايرة .

٣- لو صحت دعواهم أن الألوهية والربوبية معناهما واحد، لكان من قال لا رب إلا الله داخل بذلك في الإسلام ومعلوم أنه لا يدخل الإسلام إلا بلا إله إلا الله.

٤- أن كفار الأمم التي بعثت فيها الرسل كانوا يعلمون أن الرب الخالق هو الله وحده بل ويستحق أن يعبد لكن نازعوا في أنه وحده المستحق للعبادة .

المسألة (٣) : الألوهية والربوبية من الألفاظ المتداخلة عند الاقتران:

أي أنهما إذا اجتمعا في اللفظ واقترنا في جملة واحدة افترقا في المعنى وفسر كل واحد بأشهر معانيه وما يخصه، فالألوهية بالعبادة والربوبية بالخلق والملك والتدبير .

وإذا افترقا في اللفظ اتحدا في المعنى وفسر كل لفظ بالآخر.

فهي مثل الإسلام والإيمان والفقير والمسكين .

قال ابن تيمية: (وإن كانت الإلهية تتضمن الربوبية والربوبية تستلزم الألوهية فإن أحدهما يتضمن الآخر عند الانفراد ولا يمنع أن يختص بمعناه عند الاقتران) . الفتاوى ١٠/ ٢٨٣.

أولاً : اجتماع الألوهية والربوبية والإله والرب :

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ مَلِكِ ٱلنَّاسِ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ الناس: ١-٣ .

وقوله: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ الرعد: ٣٠، فجمع ﷻ بين لفظ الرب الدال على الربوبية والخلق والتدبير ولفظ الإله الدال على الألوهية واستحقاق العبادة مما يدل على افتراقهما في المعنى وإن لكل لفظ معنى يخصه .

ثانياً : ذكر الرب والربوبية ودخول الألوهية فيه :

قال ﷻ: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ أي معبودكم .

ثالثاً : ذكر الألوهية ودخول الربوبية فيه :

قوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء: ٢٥ فالآية دالة على الألوهية ويدخل فيها الربوبية فمعنى الآية لا معبود بحق إلا أنا ولا خالق قادر مدبر مالك إلا أنا .

م (٤) : أوجه دخول توحيد الربوبية في توحيد الألوهية :

١- أن الألوهية تستلزم الربوبية، فالمعبود يلزم أن يكون رباً كاملاً مالكاً مدبراً بيده النفع والضر وإليه يرجع الأمر وله صفات الكمال والجلال .

والمستحق للعبادة من له هذه الصفات والتي مردها للربوبية.

٢- أن الإيمان بربوبية الله وتوحيده بها من العبادة والألوهية التي تقربنا إليه، فإثبات الربوبية لله وحده عبادة من العبادات، وهذه من مقتضيات الألوهية.

٣- أن الله تعالى يجب أن يوصف بالكمال وأن يوحد في الربوبية، فالله ﷻ أمر بذلك ورضيه وأحبه وهذه المعاني كلها من الألوهية والعبادة القائمة بالعبد.

٤- أن الله ﷻ جعل الدخول في الدين بقول كلمة لا إله إلا الله، فلو لم تكن هذه الكلمة دالة على توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية معا، لأتى بعبارة أخرى.

٥- أن اسم (الله) دال على الألوهية بالمطابقة وعلى أسمائه وصفاته وربوبيته جميعاً بالتضمن والملازمة .

٦- أن من وحد الله في الألوهية والعبادة فلابد أن يكون موحداً لله في ربوبيته ومؤمناً بذلك وهذا يدل عليه العقل أن الألوهية متضمنة للربوبية .

م (٥) : أوجه دخول توحيد الألوهية في توحيد الربوبية :

١- أن الربوبية تستلزم الألوهية، فالرب لابد أن يكون إلهاً، ومن كان كاملاً مالكاً للنفع والضر والتدبير والخلق فلابد أن يُعبد، ويستحق العبادة .

٢- أن توحيد الألوهية معناه استحقاق العبادة لله ﷻ، ومعلوم أن هذه الصفة التي هي استحقاق من صفات الكمال المتعلقة بالربوبية.

٣- أن من صفات الله ﷻ الملازمة للربوبية الحب والرضا ، ومما يحبه الله ويرضاه أن يوحد في الألوهية .

٤- أن الألوهية من مقتضيات الفطرة والربوبية ، فلا يصل العبد المربوب المخلوق لربه وخالقه إلا بالعبادة والألوهية ولا يصلح العبد إلا بذلك، وكما أن العبد محتاج للربوبية من الله فهو محتاج حاجة أولوية للألوهية.

م (٦) : تلازم الربوبية والألوهية :

قال محمد بن عبد الوهاب: (لا يغلط في الإلهية إلا من لم يعط الربوبية حقها) .

قال الألوسي العراقي في تفسيره : (ولا أرى أحداً ممن – يدعو غير الله – إلا وهو يعتقد أن المدعو الحي الغائب أو الميت المغيب يعلم الغيب أو يسمع النداء ويقدر بالذات أو بالغير على جلب الخير ودفع الأذى وإلا لما دعاه).

قال الحكمي في المعارج : (وبقية المشركين يقرون بالربوبية باطناً وظاهراً كما صرح بذلك القرآن مع أن الشرك في الربوبية لازم لهم من جهة إشراكهم في الإلهية، إذ أنواع التوحيد متلازمة لا ينفك نوع منها عن الآخر وهكذا أضدادها، فمن ضاد نوعاً من أنواع التوحيد بشيء من الشرك فقد أشرك في الباقي، مثال ذلك في هذا الزمان عباد القبور إذا قال أحدهم للمقبور أغثني ونحو ذلك يناديه من بعيد فدعاؤه إياه عبادة صرفها لمخلوق وهذا شرك في الألوهية، وسؤاله إياه تلك الحاجة من جلب خير أو دفع ضر أو رد غائب و شفاء مريض ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله معتقداً أنه قادر على ذلك فهذا شرك في الربوبية) .

قال : المصنف : (وشرح هذه الترجمة: ما بعدها من الأبواب)

وإليك التفصيل بعدما سبق من إجمال ، نفعنا الله وإياك بهما ورزقنا الإخلاص والقبول .

عدد أبواب الكتاب ويمكن إدراجها تحت أنواع وأقسام لضبطها :

أورد المؤلف في الأبواب الستة الأولى حقيقة التوحيد والعبادة والشرك فيها وخطورة الشرك وفضل التوحيد وكيفية تحقيق التوحيد وتفسيره وأنواعه .

* ثم ثلاثة أبواب في ذرائع الشرك : التمائم ، الرقي ، التبرك .

* ثم تسعة أبواب في العبادات واستحقاق الله لها : الذبح، مكان الذبح، النذر، الاستعاذة، الاستغاثة، حال المدعوين، عظمة الرب، الشفاعة، الهداية.

* ثم خمسة أبواب في وسائل حفظ التوحيد :

الغلو، الصلاة عند قبر، القبور، حماية جناب التوحيد، رجوع الشرك في الأمة.

* ثم سبعة أبواب في السحر والكفر الناقض للتوحيد :

السحر، أنواعه، الكهان، النشرة، التطير، التنجيم، الاستسقاء بالأنواء .

* ثم تسعة أبواب في العبادات القلبية :

المحبة، الخوف، التوكل، االرجاء ، الأمن والقنوط، الصبر، الإخلاص والرياء، إرادة الدنيا، التشريع والطاعة، الحكم .

* ثم بقية الأبواب وهي ثمان وعشرون في تعظيم الله وحفظ التوحيد ، وعدم الوقوع فيما يقدح فيه من الشرك الأصغر :

الأسماء والصفات وعدم جحدها وتعطيلهـا، نـسبة الـنعم للخلـق ، الـشرك الأصغر، القناعة بالحلف، التسوية في اللفظ والمشيئة ، سب الدهر، التـسمي بقـاضي القضاة، احـترام أسـماء الله، الاسـتهزاء بآيـات الله، اعتقـاد اسـتحقاق الـنعم، شرك التسمية، الأَسْمَاء الْحُسْنَى، قول:السلام على الله، تعليق الدعاء بالمشيئة كقول: اللهـم اغفر لي إن شئت، قول: عبدي وربي، عدم رد من سأل بالله، عدم السؤال بوجـه الله، إسناد الحوادث للخلق وما جاء في الّلـو، سـب الـريح، الظـن بـالله، إنكـار القـدر، التصوير، كثرة الحلف وحفظه، ذمة الله، الإقسام على الله، الاستشفاع بالله.

ثم ختم بباب حماية االتوحيد وسد طرق الشرك، وباب تقدير الله وتعظيمه.

باب من الشرك : لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه (٧)

اسم الباب : التمائم

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه: تعليق التمائم ولبسها ، وكون حكمه من الشرك المنافي للتوحيد .

الفرق بين الدفع والرفع للبلاء :

الدفع للشيء يكون قبل وقوعه، والرفع يكون بعد نزوله.

مكانه ونوعه:يعد من الأبواب المبينة لذرائع الشرك والشرك الأصغر.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن التمائم فيها تعلق بغير الله واعتقاد النفع والتأثير فيها كما أن في هذا منافاة للتوكل على الله وهذا مما ينقص كمال التوحيد أو ينقض أصل التوحيد كما سيأتي .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

أورده بعد الأبواب الستة الأولى في الكتاب المقعدة لحقيقة التوحيد والشرك ، فبدأ بالتفصيل بعد الإجمال. ، وبدأ به المصنف لأنه وسيلة للشرك وطريق له وهو أول ما يقدح في التوحيد ولكثرة وقوعه في الأمة مع خفائه على الكثير .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب :

باب التمائم فيه مشابهة لثلاثة أبواب : الرقى ، التبرك ، التطير .

فكلها تخرج من باب واحد ألا وهو الشرك الأصغر العملي والاعتقادي .

كما أن لها تعلق بباب الأسباب.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١- قول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ ﴾ الزمر: ٣٨.

٢- عن عمران بن حصين الخزاعي ﷺ: (أن النبي ﷺ رأى رجلا في يده حلقة من صفر فقال: ما هذه؟ قال من الواهنة. فقال: انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهنا؛ فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا). رواه أحمد بسند لا بأس به.

٣- عن عقبة بن عامر الجهني ﷺ مرفوعا: (من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له) رواه أحمد .

فائدة : في الحديث دليل على الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يتم له.

٤- وعنه قال النبي ﷺ: (من تعلق تميمة فقد أشرك) رواه أحمد.

٥- عن حذيفة أنه رأى رجلا في يده خيط من الحمى، فقطعه وتلا قوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف: ١٠٦ ، أخرجه ابن أبي حاتم .

وفي هذا فوائد :

الإنكار بالتغليظ على من فعل ذلك ويكون باليد وليس هذا خاص بالسلطان.

أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

مبحث : التمـائم

المسألة الأولى : تعريفها :

هي ما يعلقه الشخص على نفسه وما يُعلق على الصبيان والدواب ويوضـع في البيوت ونحو ذلك .

ويقصد من يضع التميمة:أنها ترد العين والمكروهات وكيد الشياطين وأذيتهم أو رفع البلاء بعد حصوله أو دفعه ومنعه قبل نزوله أو لجلب الخير والسعادة.

سميت تمائم : لأن العرب كانوا يعتقدون فيها تمام الدواء والشفاء .

م (٢): أقسام المعلقات :

١- رقى وتعاويذ وآيات من القرآن، وتسمى غالبا: الحجب والتحصين.

٢- الخيوط والخرز والقلائد والشعر والريش والجلود والوتر والـسن والحبـة السوداء وقرن الدابة والنحاس. ومن هذا النوع :

الدبلة: مقصود لابسها تحبيب الزوجين لبعض وهذا شرك وتشبه بالكفار.

الحلقة من صفر: سوارة من نحاس تلبس على اليد، ومثلها سوارة الروماتيزم.

م (٣) : مواضع تعليقها :

تعلـق في الجـسد عـلى الرقبـة أو اليـد أو الوسـط أوتوضـع في الحـزام ودكـة السراويل والأكمام. كما تعلق على رقاب الدواب ، وفي السيارات والبيوت .

م (٤) : أسماؤها :

التميمة والعزيمة والتولة والودعة والحرز والحجب والجامع .

التولة: شيء يصنعونه قيل من السحر يزعمون أنه يحبب المرأة لزوجها.

م (٥) : أدلة تحريم تعليق التمائم ولبس الحلقة والخيط :

١- قال الرسول ﷺ : (من تعلق تميمة فقد أشرك) رواه أحمد . والحديث ورد في رجل أمسك النبي ﷺ عن مبايعته لأن عليه تميمة فلم يبايعه إلا بعد أن قطعها.

٢- قال: الرسول ﷺ: (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) رواه أحمد وأبو داود.

٣- عن عقبة بن عامر الجهني ﷺ مرفوعاً: (من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له) رواه أحمد.

معنى فلا أتم الله له ولا ودع الله له :

هذا دعاء عليه بأن لا تتم أموره وأن لا يكون في دعة وسكون ولا خفف الله عنه ما يخافه . كما أنه يحتمل الإخبار بأن أموره لن تتم ولن يزول خوفه .

٤- عن عمران بن حصين ﷺ أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر فقال: (ما هذه)؟ قال: من الواهنة فقال ﷺ : (أما إنها لا تزيدك إلا وهناً، انبذها عنك فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً) وفي رواية :(وكلت إليها) رواه أحمد والنسائي والحاكم.

ومعنى لا تزيدك إلا وهنا :

إما أن يكون لها تأثير في الوهن حقيقة، وهذا من باب العقوبة كما أن بعض الأمراض عقوبة لبعض المعاصي .

أو أن يكون المعنى بالوهن الكفر والشرك والضلال والبعد عن الله، فالمعنى لا تزيد التمائم صاحبها إلا شركا ،وهذا مثل فزادوهم رهقا .

أو أن معناه : زيادة الشكوك والأوهام والقلق والخوف وضعف القلب.

٥- عن أبي بشير ﷺ أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت. متفق عليه .

٦- عن عبد الله بن عكيم مرفوعا:(من تعلق شيئا وُكل إليه) أحمد والترمذي.

٧- عن رويفع قال: قال لي رسول الله ﷺ : (يا رويفع! لعل الحياة تطول بك، فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وتراً، أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن محمداً بريء منه). رواه أبو داود والنسائي أحمد.

٨- عن حذيفة ﷺ أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه، وتلا قوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف: ١٠٦ ، رواه ابن أبي حاتم .

وقال سعيد بن جبير: (من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة) رواه وكيع.

٩- قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِۦ ﴾ الزمر: ٣٨.

وهذا دليل على أن التمائم لا تدفع ضراً ولا تكشفه بعد نزوله ولا تجلب نفعاً.

واستدل العلماء بالآية على إبطال التمائم ، والسلف كانوا يستدلون بالآيات النازلة في الشرك الأكبر على الأصغر كما فعل حذيفة ﷺ في الدليل السابق .

م (٦) : حقيقة وأنواع تعليق التمائم ونزعها :

يكون التعليق بالجوارح، وذلك في ذات التعليق .

وتكون بالقلب، وذلك باعتقاد نفعها فيتعلق الشخص بها.

كما أن نزعها ونبذها وقطعها يكون : باليد وباللسان بإنكارها ، وبالقلب وذلك بأن ينزعها وينبذها من قلبه ويقطع عقيدته فيها .

م (٧) : وجه دخول التمائم في الشرك وعلة تحريمها :

١- أن فيها تعلقاً بغير الله تعالى، وقيامها على الاعتماد على المخلوق.

٢- منافاتها التوكل على الله. ﴿ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ الزمر: ٣٨.

٣- أن فيها نسبة التأثير لمخلوقات وجمادات لا أثر لها .

٤- جعل ما ليس بسبب سببا.

٥- فيها اعتقاد النفع ودفع الضر في غير الله .

م (٨) : متى تكون التمائم شركاً أكبر : تكون شركاً أكبر في حالتين :

الأولى : إن كان في التميمة شرك أكبر كدعاء غير الله أو كانت صليبا .

الثانية : إن اعتقد أنها تؤثر بذاتها وتستقل بالنفع ودفع البلاء من دون الله، فهذا شرك أكبر وهو متعلق بالربوبية .

أما إن اعتقد أنها سبب للسلامة من العين والجن فهذا من الشرك الأصغر شرك الأسباب .

م (٩) : التمائم والرقى على قسمين :

١- منها ما هو شرك أصغر : وهو الأكثر ، إذا علقها ، واعتقد أن النفع والضر بيد الله عز وجل ، وأن هذه مجرد أسباب نافعة وهذا شرك أصغر .

٢- منها ما هو شرك أكبر : إذا جعل هذه التمائم والرقى تؤثر بذاتها ، وأنها هي المؤثرة بذاتها، فهذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله عز وجل .

ومثلها مثل التطير والتشاؤم .

م (١٠) : نوعية الشرك في التمائم :

١- الشرك في لبس التمائم متعلق بالقلب والجوارح .

فالقلب من حيث الاعتقاد، والجوارح من حيث اللبس .

٢- متعلق بالشرك في الألوهية والربوبية وسيأتي.

م (١١) : حكم تعليق التمائم من القرآن :

إذا كانت التمائم المعلقة من القرآن، فرخص فيها بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيها، ويجعلها من المنهي عنه، منهم ابن مسعود ﷺ.

قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن رواه وكيع وابن أبي شيبة.

ومما يدل على تحريم تعليق التمائم من القران :

١- عموم النهي الوارد في التمائم .

٢- أن نفع القرآن في تلاوته والعمل به، لا في تعليقه على الحيطان والرقاب.

٣- أن تعليق شيء من القرآن والمصحف لو كان مشروعا لبينه الرسول ﷺ لأمته ولفعله الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، كيف وقد نهوا عنه .

٤- أن في تعليق هذا النوع ذريعة لتعليق غيره من التمائم الشركية .

٥- أن تعليق القرآن يفضي إلى امتهانه .

٦- أن في التعليق إعراضاً عن العمل المشروع من قراءة المعوذات ونحوها.

تنبيه : تعليق أكثر الناس لآيات من القرآن إما أن يكون للزينة أو طلبا للبركة وكلاهما محرم وامتهان لكتاب الله.

م (١٢) : علاقة التمائم بالأسباب :

التمائم ليست من الأسباب المشروعة، ولا فائدة فيها أصلا من حيث العقل والعادة، فإثباتها من باب الشرك في الأسباب فضلا عن الشرك فيها المتعلق بالربوبية.

ثم لو فرضنا وجود نفع فيها فإنها غير شرعية مثل الفائدة التي في الخمر .

م (١٣) : القلائد على الدواب والميداليات والمسابح في السيارات:

إن كانت لرد العين كان تعليقها من الشرك .

وإن كانت للعلامة أو الزينة ونحوها فليس هذا من الشرك، إلا أن الأولى تركها سدا للذريعة ومنعا للتشبه.

م (١٤) : وضع القلائد والتمائم لصرف العين إليها وللفت الانتباه :

البعض يضع قلادة جميلة على الدابة لتلهي الناظر عن الدابة ولكي ينشغل بها عن الدابة وتنصرف العين لها لكي تسلم له دابته، كذلك البعض يعلق قلائد أو ريش نعام على السيارات الكبار حتى تنصرف عين الناظر إلى الريش لا إلى السيارة، والمعلق لا يقصد دفع العين وإنما ليصرف الانتباه إليها ولا يعتقد أنها تدفع الضر، وهذا مثل من يحلق رأس الصبي ولا يجمله بل ويتعمد إبقاء القذر عليه تحاشيا عليه من العين .

ومن كانت هذه نيته ففعله ليس بشرك ولكن فيه طعن في التوكل وابتداع في العمل وينبغي له ترك ذلك سدا لذريعة التمائم ومنعا من باب التشبه بالمشركين .

م (١٥) : عقد اللحية وتقليدها لأربعة مقاصد :

الكبر ، التشبه بالكفار رد العين العبث وكلها محرمة لورود النهي في ذلك.

م (١٦) : شبهات في الباب:

١- حديث : (احرثوا فإن الحرث مبارك وأكثروا فيه من الجماجم) :

رواه أبوداود في المراسيل . والجواب عنه :

١- أن الحديث ضعيف لايحتج به ولم يرو للاحتجاج وإنما لبيان العلة.

٢- التمائم لايمكن أن يأمر بها الشرع لأنها مصادمة للتوحيد بل إنه نهى عنها.

٣- أن معنى الجماجم البذر، وقيل خشبة الحرث كالتماثيل يضعها المزارعون لدفع الطير، وليست لدفع العين.

٢- قوله عثمان في الصبي (دسموا نونته).

ليس ما فعله من التعليق المحرم ، لأن حقيقته إزالة ما في الصبي من جمال الذي تقع العين عليه.

م (١٧): القاعدة : في باب التمائم والتبرك والرقى والتشاؤم :

أولاً : هذه الأفعال من قبيل شرك الأسباب .

ثانياً : دخول هذه الأفعال في شركي الألوهية والربوبية :

١- وجه كونها شركا في الألوهية : أنها منافية للتوكل وفيها تعلق بغير الله ولجوء وقصد وتوجه وإرادة للمخلوق وتوكل عليه.

٢- وجه دخولها في شرك الربوبية :

أن فيها اعتقاد التأثير وأنها تنفع وتضر ولها تصرف وتدبير في الكون .

ثالثاً : هذه الأفعال تكون من الشرك الأكبر ومن الشرك الأصغر .

رابعاً : هذه الأفعال تكون بالقلب واللسان والجوارح .

مبحث : الأسباب

م (١) : العقيدة الصحيحة في الأسباب :

١- لا يجعل الشيء سببا إلا بعلم، ، فلا بد من أن تكون الأسباب أسبابا حقيقية شرعا أو قدرا وعادة ، كمن ظن أن النذر سبب لدفع البلاء وليس كذلك ولا يأتي بخير كما في الخبر .

٢- لا يتخذ شيئاً من الأعمال الدينية سببا، إلا أن تكون مشروعة والعبادات مبناها على التوقيف، فلا يدعو غير الله وإن ظن أنه سبب في حصول المقصود أو بعض غرضه ولا يذهب لساحر وكاهن وعراف وإن كان عندهم شيء كما يريده .

٣- اعتقاد أن السبب له تأثير حقيقي لكن لا يستقل بحصول المطلوب بل لابد معه من توفر الشروط وانتفاء الموانع .

٤- عدم الاعتماد عليه بالكلية والتوكل عليها ورجاؤها وخوفها فإن هذا من الشرك، بل يعتمد على الله ويتوكل عليه .

٥- إرجاعها إلى الله فهو الخالق لها الموجد المسبب.

٦- اعتقاد أنها بقضاء الله تعالى وقدره، وقدرته ومشيئته فالله قدرها وهي داخلة في القدر.

٧- يعمل بها ولا يهملها أو يتركها.

م (٢) : الأسباب قسمان :

١- أسباب دينية شرعية . كالاستشفاء بالرقى والقرآن .

٢- أسباب دنيوية عقلية . كالاستشفاء بالعسل والكي .

م (٣) : شروط الأخذ بالسبب والعمل به :

١- أن يكون السبب مأذونا فيه فلا يكون محرما .

٢- أن يكون سببا حقيقياً وليس وهميا .

٣- أن لا يعتمد عليه اعتمادا كليا بحيث لا يلتفت إلى مسببه ومقدره وجاعل التأثير فيه والخالق المدبر له .

م (٤) :حقيقة الشرك في الأسباب :

يكون بالاعتماد عليها والاطمئنان إليها والتوكل عليها والثقة بها ، فيرجوها العبد ويخافها، ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود فهو معرض عن المسبب لها، ويجعل نظره والتفاته مقصورا عليها . قاله ابن القيم في مدارج السالكين ٣/ ٤٠٠ .

م (٥) : منشأ الخلاف في الأسباب والمسببات:

هل إثبات الأسباب ينافي القدر وكونها من خلق الله كما تزعمه الجبرية، وهل إرجاعها إلى خلق الله فيه تناقض أو ظلم أو إنكار لأفعال العباد كما تزعمه القدرية .

القول الاول : مذهب الجبرية والأشاعرة : المنكرون لحقيقة الأسباب وتأثيرها ويجعلون هذا الإنكار من التوحيد، وإثبات تأثير الأسباب عندهم كفر وشرك. ويقولون:الأسباب مجرد علامات يحصل الشيء عندها لا بها وسبب قولهم هذا : أنهم ظنوا أن في إثبات الأسباب قدحاً في صفة الخلق، فلو كانت الأسباب مؤثرة في المسببات لكانت هي الموجِدة بذاتها، ولخرجت عن إيجاد الله وخلقه وإرادته، ولصار هناك موجودات لها خالق غير الله، ومن أجل ذلك أنكروا حقيقة تأثير الأسباب، وسلبوا العبد من الإرادة وأن يكون مؤثراً في أفعاله . فخالفوا بمذهبهم هذا العقل

والشرع، وأنكروا ما خلقه الله من القوى والقدرة المؤثرة في الأفعال فالنار عندهم لا تحرق، بل المحرق هو الله، والإحراق وقع عند وجود النار لا بها .

القول الثاني : مذهب القدرية المعتزلة : الغلاة في إثبات الأسباب :

غلوا في إثبات تأثير الأسباب حتى جعلوها المؤثرة بذاتها من دون الله، والسبب هو المستقل في إيجاد المسبب، وبهذا القول أثبتوا مخلوقات ليست من خلق الله، فأشركوا في توحيد الربوبية فأثبتوا خالقاً غير الله، وبذلك شابهوا المجوس المثبتين خالقين لهذا العالم، ومن فروع مذهبهم أن العبد مسبب لفعله وإرادته ويخلق أفعاله من دون الله والله لا يخلق المعاصي وأفعال عباده حتى لا يكون ظالما لهم.

والمعتزلة بهذا القول شابهوا الفلاسفة الغلاة في إثبات الأسباب، حين قالوا السبب موجد المسبب، والله علة المعلول وسبب المسببات، فانبنى على قولهم إنكار الصفات والقدر وإنكار المعاد والقول بقدم العالم، فكفروا بإجماع المسلمين . ومثلهم القائلين الطبيعة أوجدت نفسها بطريقة الأسباب .

القول الثالث : مذهب أهل السنة :

يثبتون الأسباب وحقيقتها، وأن لها تأثيراً في المسبب ولها وجود وقوة، ولكن كل هذه ليست بذاتها ولكن بما أودعه الله فيها، فالله تعالى خالق السبب والمسبب .

قال ابن القيم: (ليس إسقاط الأسباب من التوحيد ، والقول بإسقاطها هو توحيد الجبرية ... والالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، والإعراض عنها قدح في الشرع ... **فالشرك** أن يعتمد عليها ويطمئن إليها ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود فهو معرض عن المسبب لها.) بتصرف مدارج السالكين ٣/ ٤٩٥ .

قاعدة : شرك الأسباب وإسناد الحوادث لغير الله .

باب يدخل فيه معظم صور الشرك الأصغر.

إما بجعل ما ليس بسبب سببا ، أو بالغلو في السبب والاعتماد عليه .

ومن الأبواب المتعلقة بالأسباب :

التمائم ، الرقى ، التبرك ، التطير ، الاستسقاء بالأنواء.

باب ما جاء في الرقى والتمائم (٨)

اسم الباب : الرقى الشركية

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه: حكم الرقى ، وكون بعضها من الشرك المنافي للتوحيد .

تنبيه : ذكر التمائم في الترجمة لورودها في أحاديث هذا الباب مع أنه تقدمت المسائل المتعلقة بها في الباب السابق فصار فيه شيء من التكرار.

فائدة : لماذا لم يقل هنا في هذا الباب من الشرك كما قال في الباب السابق؟

وذلك لأن المسألة تختلف فالرقى فيها المشروع وفيها الممنوع الذي يدخل في الشرك فلا يصح تعميم الحكم بالشرك في كل الرقى ، إلا أن يقول الرقى الشركية.

أما التمائم فتختلف فمنها ماهو شرك باتفاق وهي الحلقة والخيط ومنها ما هو محل خلاف وهو التمائم من القرآن ، وهذا من أسباب تكرار حكم التمائم هنا.

مكانه ونوعه: يعد من الأبواب المبينة لذرائع الشرك والشرك الأصغر.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن في بعض الرقى تعلق بغير الله واعتقاد النفع فيه والتأثير كما أن في هذا منافاة للتوكل على الله وهذا مما يقدح في التوحيد كما سيأتي .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

أورده بعد باب التمائم لأنها من باب واحد وبينها تشابه كما سيأتي.

كما أن فيه مشابهة لباب النشرة .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب :

باب الرقى فيه مشابهة لثلاثة أبواب : التمائم، التبرك ، التطير .

فكلها تخرج من باب واحد ألا وهو الشرك الأصغر العملي والاعتقادي .

كما أن لها تعلق بباب الأسباب.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١- عن أبي بشير الأنصاري ﷺ: أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره،فأرسل رسولا أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر، أو قلادة إلا قطعت. متفق عليه.

٢- عن ابن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) رواه أحمد وأبو داود.

وذكر تعاريف التمائم والرقى والتولة وستأتي في المسائل .

٣- عن عبد الله بن عكيم الجهني:(من تعلق شيئا وُكل إليه) أحمد والترمذي.

٤- عن رويفع الأنصاري قال: قال لي رسول الله ﷺ : (يا رويفع، لعل الحياة ستطول بك فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وترا، أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن محمدا بريء منه) رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

٥- قال ابن جبير: (من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة) رواه وكيع.

٦- وقال إبراهيم النخعي: (كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن) رواه وكيع في جامعه وابن أبي شيبة في مصنفه.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

مبحث : الرقى

المسألة الأولى: تعريف الرقية :

الرقية هي العوذة ، والعوذ هو الالتجاء والاعتصام والتحصين .

وسميت بذلك لأنه يعتصم بها . كما تسمى عزائم .

وهي الدعاء بطلب الشفاء، أو الذكر الذي يحصن صاحبه ويقيه مما يهمه .

قال ابن تيمية : الرقى بمعنى التعويذ، والاسترقاء طلب الرقية، وهي من أنواع الدعاء.

م (٢) : وجود الرقية قبل الإسلام :

كانت الرقية معروفة قبل الإسلام يدل ذلك قوله تعالى:﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ القيامة: ٢٧، كذلك قصة ضماد بن ثعلبة الأزدي ﷺ في صحيح مسلم ، وكان راقيا، وأراد أن يرقي الرسول ﷺ لما سمع سفهاء مكة يقولون إنه مجنون.

قال ﷺ :(اعرضوا علي رقاكم لا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شرك) مسلم.

م (٣) : الرقية من أبواب الرخص وليست عزيمة :

الأصل ترك الرقية لأن لها علاقة بالشرك إلا أن الرسول ﷺ رخص للناس فيها بشروط يدل لهذا قول أنس ﷺ : (رخص رسول الله ﷺ في الرقية من العين والحُمَة والنملة) رواه مسلم. والحمة السم، والنملة قروح تخرج بالجنب .

وعن جابر ﷺ قال : نهى رسول الله ﷺ عن الرقى فجاء آل عمرو بن حزم إلى الرسول ﷺ فقالوا يارسول الله إنه كانت عندنا رقية نرقي بها من العقرب وإنك نهيت عن الرقى . قال فعرضوها عليه .

فقال:(ما أرى بها بأسا من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه). رواه مسلم.

قال القرطبي في المفهم في شرح صحيح مسلم : (دلت الأحاديث على أن الأصل في الرقى كان ممنوعا كما هو واضح من قوله نهى رسول الله ﷺ عن الرقى، والنهي عن الرقى كان مطلقا لأنهم كانوا يرقون في الجاهلية برقى هي شرك وبما لا يفهم ويعتقدون أنها تؤثر بذاتها ثم إنهم لما أسلموا وزال ذلك عنهم نهاهم النبي ﷺ عن ذلك عموما ليكون أبلغ في المنع وأسد للذريعة، ثم إنهم لما سألوه وأخبروه أنهم ينتفعون بذلك رخص لهم في بعض ذلك وقال : اعرضوا علي رقاكم لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك).

م (٤) : دخول الرقية في الشرك وعلاقتها بأبواب التوحيد:

يدل لذلك قوله ﷺ: (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) رواه أحمد وأبو داود.

م (٥) : أوجه دخول الرقية في الشرك :

١- لما في الرقى من التعلق بغير الله والاعتماد والتوكل عليه.

٢- فيها اعتقاد النفع والضر والتأثير بذاتها .

٣- ربما كان فيها استعاذة بالمخلوق من جن وغيرهم .

٤- ربما كان فيها ادّعاء علم الغيب .

م (٦) : أقسام الرقية :

١- رقية مشروعة جائزة .

٢- رقية ممنوعة : ولها أنواع:

منها المحرمة والبدعية، ومنها الشركية الكفرية .

م (٧) : شروط جواز الرقى :

١- أن تكون باللغة العربية ومن الكتاب أو السنة.

٢- أن تخلو من الشرك والذهاب للسحرة والكهان .

٣- أن لا يعتقد أنها تؤثر بذاتها وأنها تستقل بالنفع والضر أو أن النفع من الراقي .

م (٨) : الرقى توقيفية :

فلا يستحدث شيء فيها بل يرقى بما ورد في الكتاب والسنة.

تنبيه: الحديث الوارد عند الطبراني في رقية الحمة وهي: شجة قرينة ملحة بحر قفطا ، وقوله ﷺ فيها:(لا بأس بها هي مواثيق أخذها سليمان بن داود على الهوام) وفي رواية مواثيق الجن . فهو ضعيف ولا يصح الاحتجاج به.

من الرقى البدعية : ما يسميه بعض العامة رقية ذات السموم والحية، وهو مشتمل على استغاثات شركية .

م (٩) : طرق الرقية الواردة في السنة:

١- النفث مع القراءة وقبلها وبعدها، وتصح الرقية بلا نفث والنفث أفضل.

٢- خلط الريق مع التراب، فينفث في الأصبع ثم يوضع بالتراب ويمسح به المريض.

٣- وضع اليد على موضع الوجع أو يمسح بعد القراءة مع النفث .

٤- أن يقرأ في الماء أو الزيت أو ماء فيه سدر وينفث فيه فيشربه المريض ويتمسح به ويغتسل به .

٥- اغتسال المعيون من غسل العائن . وقول : . وقول : بارك الله ، أو ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

٦- كتابة آيات في ورق ووضعها في الماء وشربها، وثبت ذلك عن ابن عباس، رواه عنه ابن أبي شيبة . وأجازه الإمام أحمد وابن تيمية .

م (١٠) : ما تستعمل له الرقية :

الأمراض العضوية الحسية واللدغ والعين والسحر والصرع والمس .

وتكون قبل الداء تحصنا منه أو وقاية من العين، وتكون بعده.

وأما ما ورد من تخصيصها بالعين كحديث : (لا رقية إلا من عين أوحُمَة)، رواه البخاري ، فإن معناه: لا رقية أولى وأنفع .

م (١١) : أجاز البعض رقية أهل الكتاب أما الكهان فلا تجوز رقيتهم مطلقا .

م (١٢) : ترك الاسترقاء من كمال التوحيد :

يدل لذلك حديث السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب وفي وصفهم أنهم لا يسترقون أي لا يطلبون من أحد أن يرقيهم توكلا على الله، أما الرقية فليست كذلك .

وهناك فرق بين الرقية وبين الاسترقاء الذي هو طلبها والتعلق بالراقي.

م (١٣) : حكم التداوي :

الأصل فيه الإباحة، ويدل لذلك قوله ﷺ : (يا عباد الله تداووا ولا تتداووا بحرام) رواه أحمد.

إلا أن ترك طلب الدواء والسعي في التداوي أكمل .

يدل لذلك قوله ﷺ في وصف السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة من غير حساب : (ولا يسترقون) والتداوي يقاس على الاسترقاء .

كذلك قصة المرأة التي كانت تصرع وتتكشف على عهد رسول الله ﷺ فاشتكت له ﷺ وطلبت أن يدعو لها بالشفاء، فقال لها :(إن شئت دعوت لك وإن شئتِ صبرتِ ولك الجنة) ، فقالت أصبر رواه البخاري.

فائدة : لا يدخل في ترك التداوي : الجراحات وانتقاش الشوك وتجبير الكسور وما في نحوه .

والضابط فيما يترك فيه التداوي : هو في الأمراض الباطنة التي تخفى علتها وعلاجها ، وذلك لاحتمال وجود التعلق بالسبب فيها .

م (١٤) : أدلة دخول الجني في بدن الإنسان وتلبسه به وصرعه له :

قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ البقرة: ٢٧٥.

وجاءت امرأة للنبي ﷺ ومعها صبي به لمم ، فقال النبي ﷺ : (اخرج عدو الله أنا رسول الله) فبرىء الصبي . رواه أحمد .

م (١٥) : علاقة الرقى بالتمائم :

كل منهما يقصد منه رد الشر من عين وغيرها. الرقية قد تعلق فتصير تميمة .

م (١٦) : وصية: مما يجدر الاعتناء به لمن سلك طريق الرقية احتساب الأجر في نفع الناس وتعليقهم بالله تعالى . وأن يتعلم الراقي ما يتعلق بأحكام الرقية وآدابها وطرقها ووسائل السحر والحسد والعين والتشاؤم والأمراض النفسية والعضوية .

وأن لا ينقطع للرقية إذ ليس ذلك من هدي السلف .

باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما (٩)

اسم الباب : التبرك

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه: حكم التبرك بالمخلوقات ، وكيفية منافاته للتوحيد .

مكانه ونوعه:يعد من الأبواب المبينة لذرائع الشرك والشرك الأصغر.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن التبرك فيه تعلق بغير الله واعتقاد النفع فيه والتأثير كما أن في هذا منافاة للتوكل على الله وهذا مما يقدح في التوحيد كما سيأتي .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً: مناسبته لما قبله: أورده بعد باب الرقى لأنها من باب واحد وبينها تشابه.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب :

باب التبرك فيه مشابهة لثلاثة أبواب : الرقى ، التمائم، التطير .

كما أن له تعلق باب الغلو في الصالحين والمواضع والقبور .

كما أن لها تعلق بباب الأسباب.

فكلها تخرج من باب واحد ألا وهو الشرك الأصغر العملي والاعتقادي .

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١- قول الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ النجم: ١٩ - ٢٠.

٢- حديث أبي واقد الليثي في طلبهم من النبي ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط .

تنبيه : طلب الصحابة من النبي التبرك وهو من الشرك الأصغر وليس الأكبر.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

(مبحث : التبرّك)

المسألة الأولى : تعريفه :

أصله من الفعل برك الدال على الثبوت والبقاء، ومنه بروك الجمال وبركة الماء، كما يدل على النماء والزيادة والعلو، وعلى السعادة وعلى اليمن ضد الشؤم .

وتبارك الله : تقدس وتعالى وتعاظم وكثر خيره .

وهذه اللفظة لا تطلق إلا لله تعالى.

والتبريك الدعاء بالبركة . والتبرك طلب البركة .

وللتبرك أصل في الشرع ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ آل عمران: ٩٦ ﴿ مُنزَلًا مُّبَارَكًا ﴾ المؤمنون: ٢٩ ﴿ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ ق: ٩ ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا ﴾ مريم: ٣١ ﴿ بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الأعراف: ٩٦ ﴿ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ الإسراء: ١ .ومنه (اللهم بارك على محمد وآل محمد).

م (٢) : عقيدة أهل السنة في التبرك : نعتقد أن البركة من الله تعالى، وقد جعلها سبحانه في بعض مخلوقاته، فلا تطلب البركة إلا منه أو مما جعله الله سببا لنيل البركة، ولا نثبت البركة في شيء إلا بدليل من الشرع.

م (٣) : أقسام التبرك : تبرك مشروع . تبرك ممنوع .

م (٤) : مقاصد التبرك:

الأولى : أن يقصد نفع نفسه وحصول البركة فيه.

الثانية : أن يقصد التقرب إلى الله بذلك، لظنهم أنه يحبه.

م (٥) : أنواع وصور الأمور المباركة :

١- القرآن كلام الله تعالى جعله الله مباركا : وتبركنا به يكون عن طريق قراءته والعمل به والرقية والاستشفاء به، أما تقبيله والتمسح به فبدعة .

٢- الرسل وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ :

وكيفية تبركنا به يكون بمحبته والإيمان به وإتباعه وطاعته وطلب الدعاء منه وقت حياته لا بعد موته فذلك شرك أكبر والعياذ بالله .

كما أنه يتبرك بجسده وريقه وشعره وعرقه في حياته وبعد موته حين كانت آثاره باقية قبل فنائها وفقدانها .

تنبيه: من ادّعى بقاء شيء من آثار النبي ﷺ في زمننا، فهو كاذب ويجب تعزيره.

٣- الصالحون : بمحبتهم وموالاتهم ودعائهم للناس وانتفاع الناس بعلمهم وانتفاع آبائهم بهم بعد موتهم .أما التبرك بآثارهم وأجسادهم فأمر مبتدع ولا يجوز .

٤- الكعبة : جعلها الله مباركة فتحصل البركة باتخاذها قبلة للصلاة والدعاء عندها والطواف بها لله وتعظيمها وتنظيفها وتقبيل الحجر الأسود واستلام ركنها اليماني طاعة لله وليس لا أن اليد تنال البركة بهذه المماسة .

وليس من التبرك بها التمسح بحيطانها وتقبيلها كما يفعله بعض الجهلة والمبتدعة أو اعتقاد أن الصلاة والطواف يكون لها وأنها تنفع بمجرد تقبيلها ولمسها .

تنبيه : قال عمر ﷺ : (والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك) متفق عليه ، فالحجر الأسود تقبيله عبادة لا أن في ذاته بركة والبركة في العبادة المتعلقة بمسحه لا بالمسح نفسه .

٥- المساجد الثلاثة وغيرها : من مواطن البركة وفيها تنزل البركات، وذلك بسبب الصلاة وذكر الله فيها والاعتكاف بها واجتماع المسلمين بها والسعي في بنائها وعمارتها. وليس معنى التبرك بها التمسح بها وتقبيلها وأخذ ترابها وفرشها طلبا للبركة فإن هذا من صنيع الجهال بالدين والمبتدعة الضالين .

٦- بعض الأمكنة كعرفة ومنى والحرم والمدينة، جعل الله هذه البقاع مباركة فيستحب الدعاء فيها، ومن البركة فيها تأمين ساكنها والبركة في ثمارها وصاع المدينة ومطعومها وتمرها ، وليست البركة في التمسح بهذه المواضع أو أخذ شيء من ترابها .

كذلك دعاؤه ﷺ بالبركة للمسلمين في الشام واليمن .

٧- شهر رمضان : جعله الله مباركا وذلك لما فيه من الصيام والقيام وتكاثر العبادات ومضاعفة الحسنات .

٨- بعض الأزمان جعل الله فيه بركة : من ذلك ليلة القدر وعشر ذي الحجة ووقت السحر والفجر للعبادة والبكور في الأعمال كما روى صخر بن وداعة الغامدي ﷺ قال: قال النبي ﷺ : (بورك لأمتي في بكورها) رواه الترمذي .

٩- التبرك بماء زمزم بشربه والتشافي به .

١٠- التبرك بماء المطر في الشرب منه والسقي منه .

١١- التبرك بوجبة السحور للصائم .

١٢- البركة ببعض الأطعمة كالعسل واللبن والتمر والزيتون .

١٣- البركة في الغنم والخيل .

١٤- التبارك بذكر الله وعبادته وطاعته .

م (٦) : التبرك الممنوع :

١- التبرك بالآثار النبوية، فلا يشرع التبرك بقبر الرسول ﷺ ولا التمسح بترابه لو أمكن ذلك ولا بموضع مولده إن صح تعيينه ولا بغار حراء ولا بالقبور ولا بالأماكن التي مر ﷺ بها أو صلى فيها غير ما دلت السنة عليه كمسجد قباء.

٢- التبرك بآثار الصالحين .

٣- التبرك بالقبور .

٤- التمسح بجدران الكعبة وفرش المسجد الحرام وتراب الحرم .

٥- التبرك بشجر أو حجر ونحوها .

م (٧) : أقسام الأشياء المباركة :

منها المباركة حسيا ومنها المباركة معنويا .

منها المباركة دنيويا ومنها المباركة دينيا وأخرويا .

م (٨) : وجود بركة في الشيء لا يقتضي التبرك به وطلب البركة منه .

التبرك بما فيه بركة منضبط بالشرع وفعل السلف في القرون المفضلة، لا بما يزعمه الجهلة ويفعله أهل التصوف والخرافة من فتح باب البدعة على مصراعيه، فطالما تمرغوا بالمخلفات وعفروا أنوفهم بالأتربة وتقلبوا على الأضرحة كل ذلك طلبا منهم للبركة.

م (٩) : علاقة التبرك بالشرك وأيهما الأصل المؤثر في إيجاد صاحبه :

التبرك قد يكون سببه وجود الشرك أصلا .والعكس فقد يكون الشرك إنما حصل من المشرك قاصدا نيل البركة ، فيكون وجود الشرك سببه طلب التبرك .

م (١٠) : علاقة التبرك الممنوع بالشرك ووجه مخالفته للتوحيد :

١- فيه تعلق بغير الله ﷻ واعتماد عليه وتوكل عليه . وهذا شرك في الألوهية.

٢- أن فيه اعتقاد النفع والضر بالمخلوق . وهذا شرك في الربوبية .

٣- نسبة السببية لما ليس بسبب .

م (١١) : حالات كون التبرك شركا أكبر :

الحالة الأولى : إن اعتقد أن في المخلوق البركة استقلالا وأن النفع وكشف الضر يحصل من المتبارك به من دون الله.

الثانية: إن طلب البركة بطريق شركي كدعاء الأموات والطواف بالقبور .

م (١٢) : أسباب التبرك الممنوع :

١- الجهل بالدين، والتقليد. كما في حديث : (ونحن حدثاء عهد بكفر) .

٢- الغلو في الصالحين وقد قال الرسول ﷺ : (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) متفق عليه.

٣- تعظيم الآثار ورعايتها . كما عظمت ذات أنواط .

٤- التشبه بالكفار . كما قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ الأعراف: ١٣٨ .

م (١٣) : آثار التبرك الممنوع :

١- أنه من أعظم الوسائل المؤدية للشرك والطرق المفضية إليه .

٢- الوقوع في الشرك وعبادة غير الله تعالى .

٣- إضاعة السنن والإعراض عنها ومزاحمة سنة الرسول ﷺ .

٤- فعل المنكرات واقتراف المعاصي في كل مكان يحصل التبرك عنده .

م (١٤) : أدلة التبرك الممنوع :

قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ النجم: ١٩. يستدل بعض العلماء بالآيات على التبرك لأن اللات وغيرها ما عبدت إلا طلبا للبركة وقد أكذب الله ظنهم ورد زعمهم ، وأن هذا سببه الجهل والظن الكاذب والهوى .

فائدة : حقيقة اللات : قيل سميت اللاتّ بالتشديد من لت السويق، وكان رجلاً صالحاً يطعم الناس وقيل من الإله كما أن العزى من العزيز. قال ابن عباس: اللات كان رجلا يلت السويق فلما مات عكفوا على قبره. رواه البخاري .

ذكر الفاكهي عن ابن عباس: أن اللات لما مات قال عمرو بن لحي: إنه لم يمت ولكنه دخل الصخرة فعبدوها وبنو عليها بيتا وصنما ، وعبدت الصخرة التي على قبره وعظمت تبعا لا قصدا فالعبادة أرادوا بها صاحب القبر الصالح، والصنم رمزه. فتأمل فعلهم وقارنه مع فعل مشركي زماننا من بناء القباب على قبور الصالحين.

عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله ﷺ: (الله أكبر! إنها السنن، قلتم ـ والذي نفسي بيده ـ كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ الأعراف: ١٣٨ (لتركبن سنن من كان قبلكم). رواه الترمذي .

ومعنى اجعل لنا ذات أنواط : أي شجرة ننوط ونعلق عليها أسلحتنا، لتتبارك الأسلحة، ونعكف حولها، وظنوا أن هذا أمر محبوب لله فقصدوا التقرب إليه بذلك .

م (١٥) : أقوال أهل العلم في التبرك :

قال الشيخ سليمان في التيسير شرح كتاب التوحيد: فإذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة والعكوف عندها اتخاذ إله مع الله مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها، فما الظن بما حدث من عباد القبور من دعاء الأموات والاستغاثة بهم والذبح والنذر لهم والطواف بقبورهم وتقبيلها وتقبيل اعتابها وجدرانها والتمسح بها والعكوف عندها وجعل السدنة والحجاب لها ؟

قال الإمام الطرطوشي المالكي في كتاب البدع: فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها .

قال أبو شامة الشافعي في البدع والحوادث : ومما عم الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد وسرج مواضع مخصوصة في كل بلد يحكي لهم حاكي أنه رأى مناما بها أحدا ممن شهر بالصلاح والولاية ويحافظون على ذلك مع تضييعهم الفرائض .

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان : (فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو كانت ما كانت، ويقولون هذا الحجر وهذه الشجرة تقبل النذر أي تقبل العبادة من دون الله فإن النذر عبادة) .

م (١٦) : شبهة التبرك بآثار الصالحين :

استحب بعض المتأخرين التبرك بآثار الصالحين كالريق والعرق والشعر وسؤرهم ولباسهم ونحو ذلك، ويقيسون الصالحين بالنبي ﷺ في مشروعية التبرك بآثاره، وهذا باطل ونرد عليهم بما يلي :

١- أنه لا توجد مساواة ولا تماثل بين النبي ﷺ وغيره في الفضل والبركة، بل لا توجد أصلا حتى المقاربة في ذلك .

٢- أن معرفة الصلاح أمر لا يمكن القطع به لأن الصلاح لا يتحقق إلا بصلاح القلب وهذا أمر لا نطلع عليه وإن كان لنا الظاهر والظن الحسن.

٣- أن الصالح لا تؤمن له الخاتمة السيئة فلا يكون أهلا للتبرك بآثاره .

٤- أن فعل التبرك بغير النبي ﷺ لايؤمن أن يفتن ويعجب بنفسه .

٥- أن التبرك بغير النبي ﷺ لم يفعله أحد من الصحابة ولا التابعين فهل تبركوا بالصديق وعمر وعثمان وعلي وغيرهم وهل وقع في القرون المفضلة من تبرك بأئمة التابعين كابن المسيب والحسن البصري وغيرهم ، وهذا الجواب هو العمدة في الباب.

تنبيه : التبرك عبادة لأن الإنسان لا يفعله إلا لأجل الحصول على الأجر والخير من الله ، ولوجود التعلق فيه والرجاء ، وهذه من العبادة ، ولذلك النبي ﷺ جعل فعلهم من العبادة واتخاذ الشجرة المتبارك بها إلها وكانوا كبني إسرائيل لما قالوا: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا ﴾ ، وأن كان طلبهم للتبرك من الشرك الأصغر .

فائدة : التبرك ضد التشاؤم.

باب ما جاء في الذبح لغير الله (١٠)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : عبادة الذبح ووجوب إفراد الله بها وكفر من أشركها وصرفها لغير الله .

مكانه ونوعه: يعد من الأبواب المبينة للشرك الأكبر في العبادات.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن الذبح لغير الله ينافي التوحيد من أصله ويبطله وينقض الإسلام .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

ذكر باب الذبح بعد باب التبرك لأن من يتبرك بشيء يطلب البركة بالذبح له.

وكذا من يخاف من الجن ويعلق التمائم لرد شرهم يقع بعد ذلك في الذبح لهم.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب : فيه مشابهة للأبواب بعده في شرك العبادات البدنية ويشبه أبواب العبادات القلبية باب المحبة رقم (٣١) وما بعده.

ثالثاً : الرأي في ترتيبه بين الأبواب :

كان الأفضل تبويبا لو جعل المصنف هذا الباب بعد الأبواب الستة التي قعدت مسائل التوحيد ثم يبدأ بسرد أبواب الشرك الأكبر وأبواب العبادات البدنية ثم القلبية ، ثم الأبواب المتعلقة بالشرك الأصغر ووسائل الشرك .

الوقفة الرابعة: فات المصنف أن يذكر بقية أنواع العبادات أو على الأقل لم يذكر لهذا الباب قاعدة يندرج تحتها أمثلة وأدلة الذبح وبقية العبادات البدنية .

الوقفة الخامسة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد المصنف أربعة أدلة آيتين وحديثين وسنوردها في المسائل.

وقفة مع حديث طارق بن شهاب (ودخل النار رجل في ذباب)رواه أحمد:

الأولى : معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين :

فانظر كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طلبهم، مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر.

الثانية : معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم، حتى عند عبدة الأوثان.

وهذا يظهر جليا فترى الكفار يريدون تعظيم معبوداتهم والاعتراف بها ولو بالقلب .

الثالثة : كيف دخل الرجل النار مع أنه مكره على الذبح :

ولأهل العلم عن هذا ثلاثة أجوبة :

١- منهم من ضعف الحديث وحكم بنكرانه ولا يسلم لهم .

٢- منهم من قال عذر المكره خاص بهذه الأمة ، كما جاء في الحديث الصحيح كان الرجل قبلكم يوضع المنشار على مفرق رأسه لا يرده ذلك عن دينه وحديث : (إن الله تجاوز عن أمتي ما استكرهوا عليه) رواه ابن ماجة والحاكم.

٣- يحتمل أن هذا الرجل لم يكفر بالطاغوت بقلبه ولم يبغضه ويكفر به بل رضي بالفعل أو استهان به واستحله .

الوقفة السادسة : المسائل العقدية في الباب :

عبادة : الذبح

م (١) : تعريفه : هو إسالة الدم .

م (٢) : الذبح عبادة فيها ضوابط العبادة :

الذبح أمر الله به وأحبه ورضيه.

وهذا ضابط العبادة فهي : كل ما أمر الله به وأحبه.

والله ﷻ يحب أن يذبح له من البهائم والكفار وهو من خير العبادات .

م (٣) : وجود حقيقة العبودية في الذبح :

تقوم عبادة الذبح على الذل والتعظيم لمن ذبح له كما أن المقصود منها الاستعانة والإرادة والقصد ممن يذبح له . وهذه الحقائق توجد في الذبح وهي روح العبادة ولهذا كان الذبح من أعظم العبادات وأحبها لله.

م (٤) : شرك الذبح : هو إسالة الدم لغير الله .

تنبيه : لا يشترط في المذبوح أن يكون مأكول اللحم.

م (٥) : الأدلة عليه :

الأدلة قسمان:أدلة على العبادة عموما والذبح منها ، وأدلة خاصة بهذه العبادة:

١ - قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الأنعام: ١٦٢.

والنسك هو الذبح .

٢- قال تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ الكوثر: ٢.

٣- قال تعالى في شرك الذبح :﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ المائدة: ٣.

٤- قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ الأنعام: ١٢١.

٥- عن علي ﷺ قال :قال النبي ﷺ :(لعن الله من ذبح لغير الله) رواه مسلم .

٦- عن طارق بن شهاب البجلي: أن النبي ﷺ قال : (دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب) قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: (مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً، فقالوا لأحدهما قرب قال: ليس عندي شيء أقرب قالوا له: قرب ولو ذباباً، فقرب ذباباً، فخلوا سبيله، فدخل النار، وقالوا للآخر: قرب، فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله ﷻ، فضربوا عنقه فدخل الجنة) رواه أحمد.

م (٦) : عبودية ذبح البشر :

من أفضل العبادات عند الله قتل الكفار تقربا إلى الله ﷻ وجهادا في سبيله، بل إنه يؤجر في ذلك القاتل ومن صنع السلاح للقاتل ومن باعه .

قال الجبار ﷻ في عبودية ذبح البشر وكونه شرعها وأمرنا بها في حق الكفار :

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ التوبة: ٥.

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الأنفال: ٦٧.

وقال النبي ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله) متفق عليه .

كما أمر الله به إبراهيم: ﴿ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ الصافات: ١٠٢ .

وأمر به قوم موسى: ﴿ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ البقرة: ٥٤ .

م (٧) : أقسام الذبح :

١- ذبح العبادة لله تعالى: كالأضاحي والصدقة وقتل الكفار المحاربين.

٢- ذبح العادة: وهو الذبح الذي يكون للحم أو الولائم أو إكرام الضيف .

٣- الذبح الشركي: ماكان لغير الله كالذبح للأوثان والقبر والجن والمعظمين.

م (٨) : أنواع الذبح لغير الله :

١- أن يذكر غير اسم الله عليه فيقول مثلا: باسم الجن .

٢- أن يقصد بالذبيحة غير الله ولو ذكر اسم الله عليها .

وقوله تعالى : ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ المائدة: ٣. يشمل النوعين جميعا.

م (٩) : لا يجوز الأكل من الذبائح التي تذبح لغير الله تعالى وتعد أخبث من الميتة ، فيحرم الأكل منها كما أمر الله ﷻ بقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الأنعام: ١٢١ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ المائدة: ٣ .

ولا يعتبر الآكل منها كافرا أو مشركا لكن يعتبر عاصيا ولا يكفر إلا إذا استحل الأكل وقامت عليه الحجة .

تنبيه: الأطعمة التي عند الأضرحة والأوثان ونذرت للقبور غير الذبائح، مثل العسل والسمن لا تأخذ حكم الذبائح فيجوز أكلها ويغنمها المسلم ويتصدق بها.

م (١٠) : الذبح لغير الله لا يكون إلا من الشرك الأكبر ولا يكون أصغر :

وقد أخطأ الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله في شرحه التيسير على كتاب التوحيد حين جعل بعض صور الذبح من الشرك الأصغر.

فصل العبادات البدنية والنسك

المسألة الأولى : المقصود بعبادات التنسك :

الصلاة والقيام والركوع والسجود والاعتكاف والمجاورة والطواف والتقبيل والتمسح والتبرك والذبح والنذر والتجرد من الملابس وحلق الشعر والصيام .

كل هذه الأمور والأفعال عبادات يحبها الله تعالى ويرضاها وكلها مقربة إليه وفيها صفة التعظيم للرب والخضوع من العبد ولذلك أمر الله بها وأثنى على المتصفين بها وذم من صرفها لغير الله وحكم بكفره وشركه .

معنى النسك : هو التعبد وأكثر ما يطلق على الذبح والحج .

الثانية : الجامع لهذه العبادات : الخضوع والتذلل والتعظيم .

الثالثة : كل عبادة أمر الله أن يعبد بها فعلها المشركون مع آلهتهم ومعبوداتهم:

ومن ذلك الاعتكاف والمجاورة والطواف والتجرد من اللباس وحلق الرأس والإحرام والحج للمشاهد والقبور والصدقة والنذر والذبح لمعبوداتهم والقيام لها والركوع والسجود لها، بل وحتى الصيام والإمساك عن المباحات والتبتل وترك الطعام والنكاح كلها تحصل عند المشاهد لأجل المعبودات .

وقد رأينا عباد القبور اليوم يفعلون ذلك كله للأموات من دون الله.

المسألة الرابعة : النهي عن عبادة الله في أماكن الشرك ومظانه:

ومن ذلك جاء النهي عن الذبح في الأماكن التي يذبح فيها لغير الله تعالى، أو مضنة لأن يكون الذبح والعبادة لغيره كالذبح لله عند القبور والصلاة عندها .

المسألة الخامسة : الذبح والنذر والسجود لا تكون إلا من الشرك الأكبر.

المسألة السادسة : العبادات الخاصة :

الطواف لا يشرع لغير الكعبة ، والتقبيل لا يشرع لغير الحجر الأسود، وكذا استلام الركن اليماني من غير تقبيل، وإلصاق الصدر بالملتزم ولا يتمسح به ولا يشرع التمسح بجدران الكعبة وتقبيلها ولا تقبيل المصحف وكل ذلك تعبدا وامتثالا وليس للتبرك بذوات هذه الأشياء كما أن السجود لله وليس لذات الكعبة .

قال ابن تيمية : (والتمسح بالقبر وتقبيله وتمريغ الخد عليه من أنواع الشرك) . الفتاوى ٢٧/ ٩١ .

كذلك حلق الرأس والتجرد من الثياب وكشف الرأس لا تشرع لغير الحاج. وحلق الرأس تنسكاً وقصداً لله ﷻ ولا يجوز لغيره، والمشركون يحلقون رؤوسهم لمعبوداتهم نسكا ويكشفون رؤوسهم قصدا وتعظيما لها وتذللا لها، وهذا شرك أكبر .

قال ابن القيم في المدارج : (ومن أنواع الشرك حلق الرأس والتوبة للشيخ) .

المسألة السابعة : دخول هذه الأعمال في الشرك الربوبي :

شرك التنسك متعلق بالألوهية وقد يدخل في شرك الربوبية ويستلزمه:

ووجه ذلك أن هذه عبادات، الله أمر بها وأحبها وأثاب فاعلها، فهي متعلقة بأفعال العباد وتألههم وخضوعهم له، وعليه فمن صرفها لغير الله كان مشركاً في ألوهيته لا في ربوبيته، ولكن قد يتعلق في قلب القائم لغير الله والمنحني والساجد والمعتكف والطائف والذابح للمخلوق والمقبل عليه الملتجئ إليه أن هذا المخلوق الذي عظمه وخضع له وصرف له أحد هذه العبادات أنه يقدر على كل شيء ويتصرف في الخلق بما يشاء فيقع في الشرك في الربوبية من هذا الوجه، وليس من

أجل ذات العبادة، وإنما من أجل اعتقاد الربوبية في المخلوق. ومثل ذلك يقال في بقية أنواع الشرك كشرك المحبة والخوف والرجاء والدعاء، وكل عبادة هي في أصلها متعلقة بالألوهية وقد تدخل في الشرك في الربوبية من جهة ما يقارنها ويلازمها ويخالطها من اعتقاد الربوبية في المخلوق وليس أن الربوبية في ذاتها ومضمونها.

المسألة الثامنة : حكم ترك العبادات البدنية بالكلية :

من ترك العبادات بالكلية بحيث لا يقوم بأي عبادة بدنية مطلقا فهذا كافر خارج من ملة الإسلام التي تقوم على الاستسلام والانقياد والتذلل لله تعالى .

قال ابن القيم في الصلاة : (من أمحل المحال أن يقوم بقلب العبد إيمان جازم لا يتقاضاه فعل طاعة ولا ترك معصية).

وقال فيه : (إذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح). إلى آخر كلامه .

قال ابن تيمية في الإيمان الأوسط عن المرجئة : (أخطئوا أيضاً لامتناع قيام الإيمان بالقلب من غير حركة بدن) .

وقال أيضا في الإيمان : (لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح).

وقال في شرح العمدة :(فإذا خلا العبد عن العمل بالكلية لم يكن مؤمناً) .

المسألة التاسعة : ارتباطها بالعبادات القلبية :

العبادات البدنية لها علاقة وثيقة بأعمال القلوب وعباداته من المحبة والخضوع والتعظيم والخشية والرهبة والرغبة والرجاء وغيرها .

المسألة العاشرة : أصناف هذه العبادات وأدلتها:

العبادة الأولى : السجود والركوع والانحناء:

قال تعالى : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ فصلت: ٣٧.

فأمر تعالى بتوحيده بالسجود فلا يسجد إلا لله تعالى .

وقال ﷺ " لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله " رواه الترمذي وأحمد .

تنبيه : نوع الشرك في السجود للمخلوق : هو شرك من الساجد شرك في الألوهية، وشرك من المسجود له شرك في الربوبية إذا رضي بالسجود له.

تنبيه : لو سجد المسلم للمخلوق كقبر وشيخ تعظيما له أعتبر بمجرد ذلك السجود كافرا مشركا ولا يعذر بجهله وتأويله ، ومثله لو دعا الأموات وشرع القوانين. ولو ادعى أن فعله السجود والدعاء ليس بسجود وليس بعبادة .

قال ابن القيم :(ومن أنواع الشرك سجود المريد للشيخ، فإنه شرك من الساجد والمسجود له، والعجب أنهم يقولون ليس هذا سجود، وإنما وضع الرأس قدام الشيخ احتراما وتواضعا، فيقال لهؤلاء : ولو سميتموه ما سميتموه فحقيقة السجود وضع الرأس لمن يسجد له، وكذلك السجود للصنم وللشمس وللنجم وللحجر كله وضع الرأس قدامه .ومن أنواعه ركوع المتعممين بعضهم لبعض عند الملاقاة وهذا سجود في اللغة كقوله ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾) المدارج ١/ ٣٤٤ .

قال أبو علي عفا الله عنه : ومن الصور المعاصرة في هذا الشرك :

ما يفعله من يخرج للقاء الجمهور في المسارح والتماثيل فينحني لهم، وكذا الركوع في بعض الألعاب القتالية، وكذا عند التقابل، أو السلام على المعظمين.

وعن أنس ﷺ قال رجل: يا رسول الله الرجل يلقى أخاه أو صديقه أينحني له قال: " لا " رواه الترمذي.

مسألة : نسخ سجود التحية : كان في شرع من قبلنا جواز سجود التحية من دون تعظيم وعبادة، كما سجد يعقوب وأبناؤه ليوسف عليهم السلام وكسجود الملائكة لآدم وقد نسخ ذلك وصار السجود لله تعالى ولا يسجد لغيره ألبته .

مسألة : عدم ثبوت سجود معاذ للنبي ﷺ :

حديث سجود معاذ عند ابن ماجة وغيره لا يثبت لا سندا ولا متنا ، لأن مداره على القاسم بن عوف الشيباني وهو ضعيف . ثم إن معاذاً لم يذهب للشام في حياة النبي ﷺ. ثم كيف يليق بمعاذ ﷺ الذي قال النبي ﷺ عنه أنه أعلم الأمة بالحلال والحرام ، أن يجهل الشرك الذي هو أعظم المحرمات ، وأن سجود التحية منسوخ في شريعة محمد ﷺ .وعلى ذلك فمن سجد لمخلوق فهو كافر مشرك بمجرد السجود ولا يعذر بجهله وتأوله أن السجود بقصد التحية .

العبادة الثانية : القيام :

الأدلة عليه :قال ﷻ: ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ البقرة: ٢٣٨.

وقال ﷺ : (من أحب أن يتمثل له الناس وقوفاً بين يديه فليتبوأ مقعده من النار) رواه أحمد والترمذي وأبو داود.

وقال أنس ﷺ : (لم يكن شخص أحب إليهم من النبي ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك) رواه أبو داوود .

وهذا الحديث يدل على النهي عن تعظيم المخلوق .

مسألة : القيام الجائز للمخلوق :

يجوز أن يقام للمسافر إذا قدم من سفر وكذا المسلم المصافح الواقف إذا أراد مصافحة الجالس إذا لم يقارنه تعظيم وخضوع له، ويدل لذلك .

حديث : (قوموا لسيدكم) يعني به سعد بن معاذ رواه البخاري .

وكقيام الرسول ﷺ لابنته فاطمة إذا دخلت عليه . رواه الترمذي وأبو داوود .

العبادة الثالثة : الاعتكاف والمجاورة:

تعريفه :هو في اللغة: اللزوم والإقامة .

واصطلاحا: لزوم موضع معين أو المجاورة عنده بقصد التقرب إلى الله .

وهي عبادة لا تصح في غير المساجد .

حالاته :

الأولى : من اعتكف عند قبر أو بقعة معينة طالبا البركة والنفع أو ثواب الله كان مبتدعا واقعا في الشرك الأصغر .

الثانية : أما إن قصد المعتكف عند القبر التقرب لنفس الميت بهذا الاعتكاف والمجاورة لينال من خيره وبركته وشفاعته عند الله فإن هذا شرك أكبر والعياذ بالله .

دليله: قال تعالى في عبادة الاعتكاف: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ البقرة: ١٨٧ .

وقال في شرك الاعتكاف : ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ الأنبياء: ٥٢ .

وقال ﷺ : (لعنة الله على اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) متفق عليه.

العبادة الرابعة : الطواف:

تعريفه وحقيقته وخاصيته:هو عبادة أمر الله بها لا تفعل إلا عند الكعبة ومن طاف بغير الكعبة قاصدا للتعبد والطاعة فهو كافر مشرك .

الأدلة عليه :

دليله :قال تعالى : ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ الحج: ٢٩ .

قال عمر ﷺ :(والله إني أعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك) رواه البخاري .

وأنكر الزبير بن العوام ﷺ على رجل تمسح بالمقام، وقال: (لم تؤمر بهذا) أخرجه ابن أبي شيبة .

وأنكر ابن عباس على معاوية لما رأه يقبل الركنين الشاميين من الكعبة .

حالات الطواف :

الأولى :الطواف إذا كان بالقبر ويقصد الطائف التقرب إلى الله فهذا حصل فيه الخلاف فقيل بدعة وهذا رأي ابن باز ، وهو كمثل من يصلي لله عند القبر، ويرد هذا أن الصلاة مشروعة في كل مكان أما الطواف فلا يشرع لغير الكعبة، والصحيح أنه ردة مطلقا حتى لو قصد الله بالطواف ولم يقصد صاحب القبر وهذا قول ابن تيمية.

الثانية : إذا كان يريد بالطواف أنه للميت متقربا به إليه قاصدا له فهذا شرك أكبر ، وهو مثل من يسجد للقبر ويدعوه ويقصده ويرجوه ويرغب إليه .

قال ابن تيمية: (من اتخذ الصخرة قبلة يصلي إليها فهو كافر مرتد يستتاب فإن تاب وإلا قتل – مع أنها كانت قبلة لكن نسخ ذلك – فكيف بمن يتخذها مكانا

يطاف به كما يطاف بالكعبة ... وكذلك من قصد أن يسوق غنما وبقرا ليذبحها هناك ويعتقد أن الأضحية فيها أفضل وأن يحلق فيها شعره في العيد أو أن يسافر إليها ليتعرف بها عشية عرفة فهذه الأمور التي يُشبه بها الكعبة بيت المقدس في الوقوف والطواف والذبح والحلق من البدع والضلالات ... ومن فعل شيئا من ذلك معتقدا أن هذا قربة إلى الله فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل) .

الرسائل الكبرى ٢/ ٦١. الفتاوى ١٧/ ٤٨٢ و ٢٧/ ٧٩ و ٢٦/ ٩٢،،١٢١.

وقال ابن باز: (وأما الطواف بقبر النبي ﷺ فهذا لا يجوز، وإذا طاف بقصد التقرب إليه فهذا شرك بالله ﷻ،فالطواف عبادة لحول الكعبة لا تصلح إلا لله وحده، فمن طاف بقبر النبي ﷺ أو قبر غيره يتقرب إليهم بالطواف صار مشركا بالله، وإن ظن أنه طاعة لله وفعله من أجله يتقرب به إليه صار بدعة) فتاوى الحج ١٨٢.

العبادة الخامسة: الصيام :

عبادة الصيام : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ البقرة: ١٨٣ .

والمشركون يصرفونه لمعبوداتهم ، فيصومون لها وقد ظن البعض أن الصيام لا يمارسه المشركون ولا يتصور وقوعه إلا لله ، والحق أن كل عبادة أمر الله أن يعبد بها قد فعلها المشركون مع آلهتهم ومعبوداتهم، ومن ذلك الحج والطواف واللباس والحلق والاعتكاف والصيام والإمساك والتبتل وترك الطعام والنكاح وكلها تحصل عند المشاهد لأجل المعبودات . وقد رأينا عباد القبور اليوم يفعلون ذلك كله .

قال ابن تيمية:(يدعو الشمس كما يدعو الله ويصوم لها وينسك لها ويتقرب إليها) درء التعارض ١/ ٢٢٧ .

العبادة السادسة: الحج :

قال تعالى :﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ آل عمران: ٩٧.

الحج قصد البيت ، ويقوم على الإحرام والامتناع عن بعض الأعمال وهي المحذورات ، وعلى التجرد من اللباس وحلق الشعر والطواف والسعي والنحر والحلق والمبيت والوقوف والإقامة بالمشاعر في أيام معدودة .

وهو مشروع في أوقات معينة وأماكن مخصصة .

وقد صرفه المشركون القبورية للقبور وسموها المشاهد وجعلوا لها حجا وزيارة واعتكافا .

قال ابن القيم : (وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجا ووضعوا لها مناسك، حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتابا سماه مناسك حج المشاهد، مضاهاة منه بالقبور للبيت الحرام، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام ودخول في دين عباد الأصنام) إغاثة اللهفان ١/ ١٧١ .

العبادة السابعة : الذبح.

العبادة الثامنة :النذر .

ويلحق بالعبادات البدنية والقلبية العبادات التي من جنس اللجوء والتذلل والتعظيم . وسنبينها بالمبحث القادم .

مبحث عبادة الإنابة واللجوء والخضوع والتعظيم

المسألة الأولى : أقسام هذه العبادات :

العبادات القلبية التي من جنس اللجوء والتذلل لله :تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- التعظيم والتوقير والتقدير والإجلال . ويدخل فيه حفظه ومراقبته .

٢- الذل والخضوع . ومما يدخل في هذا الجنس :

الذل لله، الخضوع له، الإخبات له، السكينة، الخشوع له، الخنوع، الاستكانة، التضرع، التواضع، الاستخذاء، الخنوع، التقوى، السكون، الاطمئنان، الصبر .

ومما يستلزمه هذا المعنى : الانقياد والإذعان والامتثال والالتزام والطاعة والإسلام والاستسلام والتسليم والاتباع والانصياع والتدين والعمل والاستقامة والاستجابة والأخذ بالشيء. والأصل أن هذا الجنس من العبادات العملية .

قال ابن تيمية : (والدين يتضمن معنى الخضوع والذل) ١٠/ ١٥٣ .

أيضا يستلزم : ذكر الله والأنس به وحفظه ومراقبته وترك الشيء لأجله.

٣- التوبة والرجوع إليه واللجوء .ومما يدخل في هذا الجنس :

التوبة، الإنابة، الإوابة، الإواهة، الرجوع والإقبال عليه، وما في هذا المعنى.

الإنابة تزيد عن التوبة أن فيها إقبال وعمل بعد التوبة فهي أكمل .

والإنابة ضربان: إنابة لربوبية الله وهذه يشترك فيها كل الخلق ويدل لها:﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ الروم: ٣٣. وإنابة ألوهية:دليلها:﴿ وَأَنِيبُوٓا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ الزمر: ٥٤ ،وهذه هي المتعلقة بالمؤمنين بألوهية الله وعبادته.

ومن العبادات المستلزمة للتوبة:الرغبة والرهبة والتضرع والصبر والرضا.

فائدة : العبادات محصورة في أجناس وقد ذكرت ذلك في أول الكتاب.

الثانية : الفروق بين هذه العبادات : محله كتب الرقائق كمدارج السالكين .

كالتفريق بين الخضوع والخشوع والإخبات . والتفريق بين الإوابة والإواهة والتوبة . والتفريق بين الخوف والخشية والرهبة والتقوى . وغير ذلك .

الثالثة : العبادات المتعلقة بأصل التذلل والطاعة والانقياد :

الانقياد والإذعان والامتثال والالتزام والطاعة والإسلام والاستسلام والتسليم والاتباع والانصياع والتدين والعمل والاستقامة والاستجابة والأخذ بالشيء والمسابقة والمسارعة والتنافس في الخير. هي متعلقة بالجوارح .

الرابعة : درجات هذه العبادات وأقسام أحكامها:

منها الأصل الذي لا يقبل الإسلام إلا به ويكفر تاركه .

ومنها الواجب ومنها الكمال الذي يستحب ولا يأثم من لم يأت به .

فتارك أي عبادة من هذه العبادات بالكلية كفر أكبر .

فتارك التوبة بالكلية أو تارك الخضوع والتذلل بالكلية أو تارك التعظيم بالكلية فهو كافر ما لم يأت بالركن منه وأصل كل عبادة أوجبها الله ﷻ على عباده .

الخامسة : مدار العبودية على هذا القسم من العبادات :

هذه العبادات هي أصل كل عبادة وتتعلق بجميع العبادات بلا استثناء القولية والعملية والقلبية ، حيث لا توجد عبادة افترضها الله علينا إلا وهي مرتبطة بالتذلل والتعظيم والتوبة والرجوع واللجوء والإقبال . فتنبه لهذا الأصل العظيم واستمسك به تفلح وتعرف السر في الأوامر والنواهي ومدار رحى العبودية وعلة كل كفر .

السادسة : ما يضاد هذه العبادات :

الكبر والإعراض والتولي والامتناع .وتعتبر هذه من الشرك في الربوبية .

السابعة : الجامع لهذه العبادات:الذل والخضوع والتعظيم والالتجاء لله تعالى .

الثامنة: لماذا استحق الله هذه العبادات:لكماله وعظمته وقدرته ورحمته وعقابه.

التاسعة : أحكام الذل للمخلوق والخضوع له:

كل ذلك من الشرك والعياذ بالله، ولا يدخل في ذلك التذلل العادي الغير تعبدي كتوقير الوالدين وخفض الجناح لهما وكذا توقير العلماء وكبار السن .

العاشرة : التوبة والالتجاء لا تصلح إلا لله ولا تنبغي لغيره :

وعلة ذلك : لأنها تنشأ من الذل والخضوع والمحبة .﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾.

وحين قال الأسير للرسول ﷺ : (اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب لمحمد)، فقال النبي ﷺ : (عرف الحق لأهله) رواه أحمد .

تنبيه : معنى قول عائشة : (أتوب إلى الله ورسوله) رواه البخاري :

أن هذه ليست من العبادة فهي من التوبة اللغوية بمعنى الرجوع لا العبادة، أيضا التوبة للرسول والرجوع توبة لله كما أن طاعته طاعة لله والانقياد له انقياد لله.

الحادية عشر : حكم تارك هذه العبادات بالكلية :

الذل لله والخضوع له وتعظيمه والتوبة إليه عبادة لله يجب أن تصرف له، والذي لا يوجد عنده شيء من أصل هذه العبادات من مطلق التذلل والتعظيم والالتجاء، أي أنه لا يتذلل لله مطلقا ولا يخضع له بالكلية أو لا يعظمه أصلا أو لا يتوب إليه أو لا يلتجئ إليه بالكلية ولا يلتفت إليه مطلقاً، فهذا كافر والعياذ بالله .

وهذا بخلاف من قصّر في التذلل لله وتعظيمه لله أو توبته ولجوئه لربه وفرط، فهو وإن كان لم يأت بالواجب فضلا عن المطلق والكامل إلا أنه يوجد عنده الأصل، وهو مع هذا عاصٍ في فعله متوعد بالعقوبة .

الثانية عشر : ينقسم الشرك في هذه العبادات إلى أكبر وأصغر :

الأصل أن صرف هذه العبادات لغير الله سبحانه من الشرك الأكبر .

وقد تكون من الشرك الأصغر ، كأن يترك المسلم بعض ما يجب عليه تعظيما ومهابة للناس أو يفعل بعض المنكرات من باب التذلل لهم أو يعظم من لا يستحق التعظيم رغبة في دنياه واتباعا لهواه .

الثالثة عشر : دخول هذه العبادات في شرك الربوبية :

شرك الخضوع والتذلل والتعظيم والتوبة متعلق بالألوهية لكن قد يدخل في شرك الربوبية ويستلزمه: ووجه ذلك أن هذه عبادات أمر الله بها وأحبها، فهي متعلقة بأفعال العباد وتألههم، عليه فمن صرفها لغير الله كان مشركاً في ألوهيته لا في ربوبيته من حيث الأصل، ولكن قد يتعلق في قلب المعظم والمتذلل للمخلوق والمقبل عليه الملتجئ إليه أن هذا المخلوق الذي عظمه وخضع له يقدر على كل شيء ويتصرف في الخلق بما يشاء فيقع في الشرك في الربوبية من هذا الوجه، وليس من أجل ذات العبادة، وإنما من أجل اعتقاد الربوبية في المخلوق، ومثل ذلك شرك المحبة والخوف والدعاء والرجاء وغيرها فهي في أصلها متعلقة بالألوهية وقد تدخل في الشرك في الربوبية من جهة ما يقارنها ويلازمها ويخالطها من اعتقاد الربوبية في المخلوق، فتأمل هذه القاعدة فهي نافعة في الفرق بين شرك الألوهية والربوبية .

باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله (١١)

اسم الباب وعنوانه المناسب : عبادة الله في أماكن يعبد فيها غيره .

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : عبادة الله في أماكن يعبد فيها غيره .

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب الكاشفة لذرائع الشرك والمبينة لوسائل حفظ التوحيد .

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

مناسبة هذا الباب للتوحيد من جانبين :

أن هذا من تعظيم غير الله تعالى ، كما أنه ذريعة للشرك .

مواضيع هذا الباب:

الأول : تعظيم المشاهد ورعاية الآثار وزيارتها والسفر لها.

الثاني : عبادة الله في مواضع الشرك أو توقع حصوله فيها.

الثالث : اتخاذ القبور مساجد.

ومن هذا الباب وجوب إزالة آثار الشرك وبقايا الأصنام : ومن ذلك أمر الرسول ﷺ للصحابة ﷺ بهدم الأوثان ، وهدم يوم فتح مكة ٣٦٠ صنماً على الكعبة .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

أورده بعد باب الذبح فالسابق من المقاصد وهذا من الوسائل التي تحفظ المقاصد.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

فيه مشابهة لباب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر ، رقم:(٢٠) .

وهذا في الذبح وذاك في الصلاة في القبور.

كما أن له علاقة بأبواب ذرائع الشرك التي في الغلو والقبور .

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أدلة تحريم عبادة الله في أماكن الشرك ومظانه:

١- قال الله تعالى: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ التوبة: ١٠٨.

والآية نزلت في مسجد الضرار وقصته: أن أبا عامر الفاسق كان راهبا مطاعا في الجاهلية فلما هاجر النبي ﷺ للمدينة كفر به فسماه الفاسق ، ثم ذهب للشام يؤلب الروم عليه وكتب لبعض قومه المنافقين أن يبنوا مسجدا ليتم لهم الاجتماع فيه بقصد تفريق المؤمنين وحرب الدين وليكون مأوى لكل عدو ماكر، وطلبوا من النبي ﷺ أن يصلي فيه وكان على سفر لتبوك ووعدهم إذا رجع إلا أن الوحي نزل فيه فأمر بهدمه.

٢- عن ثابت بن الضحاك الخزرجي الأنصاري ﷺ قال: نذر رجل أن ينحر إبلا ببوانة، فسأل النبي ﷺ فقال : هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟ قالوا: لا. قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ : أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم) رواه أبو داود.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١) : أمثلة للمسألة:

١- عبادة الله بالصلاة والذبح وغيرها في معابد الوثنيين .

٢- عبادة الله في المقابر.

٣- الصلاة إلى صورة وتمثال والسجود بين يدي الرجل .

٤- الصلاة في الكنائس .

٥- تتبع آثار الأنبياء والصالحين وتقصد مواضع معينة بعبادة الله فيها، كحراء وأحد والمساجد السبعة والطور ، ومن هذا الباب قطع عمر شجرة بيعة الرضوان.

٦- عبادة الله في الأوقات التي يعبد فيها المشركون أوثانهم كالصلاة عند طلوع الشمس وغروبها.

٧- الصلاة إلى النار وإلى حجر وعمود إلا إذا تجانب عنه والصلاة إلى صورة والصلاة إلى وجه إنسان لما في ذلك من ذرائع الشرك .

م (٢) : علة تحريم عبادة الله في أماكن يعبد فيها غيره أو في المقابر :

١- أن في ذلك أعظم ذريعة لوقوع الشرك .

فمن رأى من يذبح ويصلي في المواضع الشركية أو المقبرة ، فقد يظن الجاهل أن الذبح والصلاة للوثن وللقبر أو أنها للموضع طلبا للبركة.

٢- التشبه بالمشركين.

٣- تعظيم غير الله من المخلوقات من البقاع والأماكن والأموات.

٤- معاندة الله بتعظيم ما نهي عنه ومضاهاة شرعه بتعظيم ما لم يعظم الله .

٥- إحياء سنن الجاهلية ولذا قال ﷺ له:(في قلبك من الجاهلية شيء) البيهقي.

م(٣):حرمة دخول أماكن الشرك والمنكرات والمحل الذي نزل فيه غضب الله.

مثل أماكن المعذبين كديار ثمود .

وأيضا المجالس التي يظهر فيها الاستهزاء بالله وآياته.

ودور الربا وبيوت البغايا والدعارة ومحلات الفجور والغناء والسينما ومجامع السحرة والكهان والمنجمين والمحافل البدعية والمهرجانات الوثنية وأعياد المشركين.

والبرلمانات والمجالس التشريعية التي يكفر فيها بالله .

يدل لذلك الأصل قوله تعالى: ﴿ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ النساء: ١٤٠ ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ الأنعام: ٦٨.

ومن هذا الباب أيضا : قول النبي ﷺ: (هذا مكان حضرنا فيه الشيطان) فلما تجاوزه صلى . رواه مسلم.

ونهى النبي ﷺ عن دخول مدائن صالح بقوله: (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا إن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم ما أصابهم). متفق عليه.

م (٤) : حالات العبادة في المواضع الشركية:

١- يتعبد الله في الموضع قصدا له بعينه ، فيعتقد في هذا الموطن البركة أو أنه أقرب وأحب إلى الله ، وهذا يحرم ويعتبر من الشرك الأصغر.

٢- أن يعبد الله فيها وفاقا من غير قصد، وهذه الحالة تحرم وإن كانت أقل درجة من السابقة في الخطورة والإثم.

م (٥) : أقسام الأماكن المقصودة بالعبادة :

١- أن يعبد الله في مواطن الشرك ومعابد الوثنيين .

٢- ما كان فيه مظنة لعبادة غير الله ويخشى أن يعظم إذا عبد فيه ، كالمقبرة.

م (٦) : طرق تعظيم المواضع :

الطريق الأول : الوثن .

أن يكون مقرا للشرك وموضعا للمعبودات أو ما هو مظنة للشرك كالقبور.

الطريق الثاني : العيد .

أن يكون الموضع معظماً ويعتقد فيه البركة فيعتاد قصده وزيارته.

وهذان الطريقان هما مقاصد الباب الذي منه نهي عن الذبح والصلاة كما في حديث النحر في بوانة وأحاديث النهي عن الصلاة في المقبرة.

وهذا سر لطيف في ذكر النبي ﷺ الوثن والعيد ووجه الفرق بينهما.

م (٧): بقاء حكم تحريم النسك في مواطن الشرك (وثن،عيد) ولو بعد زوالها.

م (٨) : الجاهلية نوعان : زمانية وحالية .

م (٩): عدم مشابهة الكفار في عيدهم ولو لم يقصد ، وسيأتي مبحث الأعياد.

م (١٠) : تحريم الوفاء بالنذر في مواطن الشرك: إذا كان في البقعة شرك ومحل لوثن أو عيد واعتباره نذر معصية ، بنص الحديث (لا وفاء في نذر معصية).

م (١١) : يدخل في هذا الباب النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وغروبها:

لأنها تطلع وتغرب بين قرني شيطان فيسجد لها الكفار فنهانا الرسول ﷺ عن الصلاة في هذا الوقت كما روى مسلم ، وذلك قطعا لمادة التشبه بالكفار وعباد الشمس، ولسد باب الشرك حيث قد يظن الجهال أن الصلاة للشمس .

مبحث : حكم رعاية الآثار والمشاهد وتعظيمها

الآثار : المقصود بها مخلفات الأمم السابقة والمواقع التي تعلق بها تواريخ قديمة كالبنايات والجبال والقبور.

ورعايتها تعني الاهتمام والعناية بها ولفت الناس لها وجعلها مزاراً .

وهذه دعوة إلحادية جديدة، مصدرها الوثنية بثوب جديد، وهدفها إحياء الشرك وتقديس الوثنية ونشرها، فأقاموا المتاحف لحفظ هذه الخرافات والشركيات .

وإذا كان الرسول ﷺ كسّر الأصنام وأمر بإتلافها وحرم بيعها كما في الحديث المتفق عليه، فإن هؤلاء ينهون عن ذلك ويجرّمون من يفعله، وما فعله عباد الأصنام في زماننا من أدعياء الإسلام من أذناب الغرب الوثني حين قامت طالبان بهدم أوثان بوذا بأفغانستان عنا ببعيد، حتى أرسلوا لجنة تضم من علماء المسلمين لثنيهم عن هدمها فأي جهل بالتوحيد بعد هذا وأي كفر بملة إبراهيم الهادم للأصنام فوق هذا، وإن من أعظم أهداف هذه الدعوة الجاهلية نشر الشرك والخرافات، وتمزيق وحدة المسلمين وهدم باب الولاء والبراء وإحياء القوميات والدعوات الشركية الجاهلية .

ونهى النبي ﷺ عن دخول مدائن صالح في الحجر:

وقال: (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا إن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم ما أصابهم) ثم زجر فأسرع حتى خلفها . متفق عليه.

ومن نظر في حال دعاة القبورية الجدد في بلاد التوحيد مع مدائن صالح وغار حراء ومطالباهم الحثيثة بإحيائها وجلب السياحة الشركية لها، عرف ما يحيكه لنا أعداء الإسلام وشدة مكرهم وخفاء حيلهم ودسهم للإسلام وأهله وعدم فتورهم.

المسألة الأولى: ما فعله الصحابة بعد موت الرسول ﷺ من سد ذرائع الشرك وإغلاق أبوابه وقطع السبل المفضية إليه في باب المواضع الشركية :

١- ما فعله الفاروق عمر ﷺ من قطع الشجرة التي حصلت بيعة الرضوان عندها لما رأى بعض المسلمين يتعمد قصدها والذهاب لها .

وقد أخرج فعله هذا سعيد بن منصور في سننه وابن سعد في الطبقات.

٢- دفنه ﷺ للجذع الذي كان يخطب الرسول ﷺ عنده.

٣- نهيه ﷺ عن تتبع آثار الرسول ﷺ .ومن ذلك ما أخرجه عبد الرزاق وغيره عن عمر ﷺ قال: (إنما أهلك من كان قبلكم إتخاذهم آثار أنبيائهم بيعا).

٤- ما أفتى به ابن عمر قزعة بن يحيى لما أراد الذهاب للطور فقال له لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد دع عنك الطور لا تأته) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات.

٥- إنكار أبي بصرة الغفاري على أبي هريرة لما زار الطور فقال له: لا تشد الرحال الحديث، ولم يكن الحديث قد بلغ أبا هريرة ثم رواه بعد ذلك عنه وأقر به . روى فعل أبي بصرة أحمد والبزار والطبراني .

٤- إخفاء الصحابة ﷺ لقبر دانيال في عهد عمر لما فتحوا تستر. أخرجه ابن إسحاق في المغازي عن أبي العالية، وذكر الخبر ابن كثير في تاريخه ٢/ ٤٠.

قال ابن القيم : (ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره لئلا يفتتن به، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به ، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف ولعبدوه من دون الله) . إغاثة اللهفان ١/ ٢٢٢.

٥- إنكار الحسن بن الحسن وعلي بن الحسين أبناء علي بن أبي طالب على الرجل الذي زار قبر الرسول ﷺ.

فعن علي بن الحسين: أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: (لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم). رواه ابن أبي شيبة وأبو يعلى والبخاري في تاريخه والضياء المقدسي في المختارة وغيرهم.

وروى سعيد بن منصور في سننه عن عبد العزيز بن محمد عن سهيل بن أبي سهيل قال : رآني الحسن بن الحسن بن علي عند القبر ، فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى ، فقال: هلم إلى العشاء ، فقلت: لا أريده ، فقال: ما لي رأيتك عند القبر ، فقلت: سلمت على النبي ﷺ ، فقال : إذا دخلت المسجد فسلم، ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: (لا تتخذوا قبري عيداً، ولاتتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم، لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ما أنت ومن بالأندلس إلا سواءٌ .

٦- عدم إظهار التابعين لقبور الصحابة وهي متفرقة في البلدان أيام الفتوحات، وإن جهلنا بقبورهم أعظم دليل على عدم التفات المسلمين من السلف لقبور الصالحين. وأن وضع القباب والمشاهد والبناء والكتابة عليها ورفعها ليس إلا من دين القبورية المشركين من الصوفية والروافض بعد القرون المفضلة.

٧- إنكار الإمام مالك رحمه الله على من يزور البيوت والمساجد النبوية ويتبرك بآثار النبي ﷺ.وقد ثبت تركه التحديث عن عطاء الخرساني لما كان يمسك بالمنبر الذي كان يخطب عليه الرسول ﷺ وذلك قبل إزالته كما ذكر ذلك القاضي عياض في الشفاء وغيره ، وكذلك أنكر الإمام أحمد هذا الفعل، مما يدل على أن الأمر كان مسلما عند الصحابة والتابعين والقرون المفضلة وأنهم كانوا ينكرون على من يظهر مثل هذه الأفعال لجهل أو تأويل.

وكان الإمام مالك من أشد العلماء نهيا عن الوقوف عند قبر الرسول ﷺ ومثله الإمام أحمد كما هو مروي عنهم .

تنبيه : إذا كان الوثن أو الشيء المتبرك به شجرة سدر :

فتقطع ولا تدخل في النهي عن قطع السدر ولعن قاطعها ، على أن الأحاديث في النهي عن قطع السدر لا يصح فيها شي.

الثانية: الرد على من استنكر هدم الآثار النبوية وإزالتها وادّعى أن الصحابة كانوا يزورون البيوت والمساجد ويتبركون بآثار النبي ﷺ.

و يجاب عن هذا بما يلي :

١- هذا من الكذب على الصحابة رضوان الله عليهم حيث عملوا على إخفاء كل ما فيه ذريعة لشرك وسدوا باب كل وسيلة مفضية إليه ومن ذلك إزالتهم الشجرة التي حصلت بيعة الرضوان عندها وكذا الجذع الذي كان يخطب الرسول ﷺ عنده كذلك نهيهم عن هذا . ومن ذلك ما أخرجه عبد الرزاق وغيره من قول عمر ﷺ: (إنما أهلك من كان قبلكم اتخاذهم آثار أنبيائهم بيعا).

٢- أن التبرك بالرسول ﷺ أمر ثابت ولكن بشعره وعرقه وريقه ونحو ذلك، أما أنهم كان يتبركون بالجلوس في أماكن جلوسه ويتمرغون بالتراب الذي يمر عليه ويتمسحون بالفرش التي يجلس عليها أو يزورون البيوت التي دخلها أو الأماكن التي صلى بها كما هو فعل هؤلاء فإن هذا كله لم يحصل منهم وهو من الافتراء عليهم، كما أنه لم يثبت سنية الصلاة في مسجد غير الثلاثة ومسجد قباء ومن زعم غير ذلك فعليه بالدليل وأنّى لهم ذلك .

٣- أن ما ثبت من فعل ابن عمر حيث كان يتحرى الصلاة في المواضع التي صلى فيها الرسول ﷺ فإذا صادفت طريقه مر بها لا أنه يتعمد الذهاب لها استقلالا، ومع هذا أنكر عليه والده عمر ونهاه عن هذا الفعل بمشهد من الصحابة . وعمر أفقه من ابنه وقد أُمرنا بالاستنان بهدي عمر فهو الملهم وصاحب السنة المتبعة .

٤- ما ثبت من إنكار السلف لهذا الفعل ومن ذلك إنكار الإمام مالك لمن يفعل ذلك بل قد ثبت تركه التحديث عن عطاء الخرساني لما كان يمسك بالمنبر الذي كان يخطب عليه الرسول ﷺ وذلك قبل إزالته كما ذكر ذلك عنه القاضي عياض في الشفاء وغيره ، وكذلك أنكر الإمام أحمد هذا الفعل مما يدل على أن الأمر كان مسلما عند الصحابة والتابعين والقرون المفضلة وأنهم كانوا ينكرون على من يظهر مثل هذه الأفعال لجهل أو تأويل.

٥- ثم مع هذا كله لم يعد هناك شيء ثابت من عهد الرسول ﷺ بل كله ذهب وفني وتحول ولم يعد يعرف شيء منه، وبذلك ينقطع دابر عباد الأحجار والأشجار والمتمرغين على التراب من الرافضة والصوفية ورثة المجوس.

إذا تقرر ذلك فأي الفريقين أحق بالاتباع الصوفية ومن أراد مماشاتهم وإرضاءهم ومتابعتهم في بدعهم ومن هو على شاكلتهم أو الخليفة الراشد عمر ومن معه من الصحابة والتابعين والقرون المفضلة.

المسألة الثالثة: الرد على من جوز السفر إلى القبور وشد الرحال إليها :

زعم البعض أن حديث أبي هريرة وأبي سعيد أن النبي ﷺ قال : **(لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد)** متفق عليه . لا يفهم منه تحريم السفر لزيارة القبور.

وقالوا : أول من فهم ذلك من الحديث هو ابن تيمية.

والجواب عن هذه الشبهة من أوجه :

١- أن تحريم شد الرحال للقبور والاستدلال عليه بالحديث السابق ليس من ابتداع ابن تيمية ولا أنه أول من فهم هذا الفهم من الحديث كما زعم البعض بل هو فهم السلف وهو الذي كان عليه عمل الصحابة ومما يدل لذلك: ما أفتى به ابن عمر قزعة بن يحيى لما أراد الذهاب للطور قال :(لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد دع عنك الطور لا تأته) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات. كذلك ما رواه أحمد والبزار والطبراني من إنكار أبي بصرة الغفاري على أبي هريرة لما زار الطور فقال له: لا تشد الرحال الحديث، ولم يكن الحديث قد بلغ أبا هريرة ثم رواه بعد ذلك عنه وأقر به . كذلك أيضا إخفاء الصحابة لقبر دانيال في عهد عمر، وكذلك عدم إظهار التابعين لقبور الصحابة المتفرقة في البلدان أيام الفتوحات.

٢- أن مالك من أشد العلماء نهيا عن هذا ومثله أحمد كما هو مروي عنهم .

٣- أن علماء بغداد أيدوا فتوى ابن تيمية وأرسلوا للسلطان الناصر قلوون بأن ما قاله في تحريم شد الرحال للقبور هو الحق الذي لاشك فيه كما في الفتاوى .

٤- أن مما يؤكد تحريم السفر للقبور أن الاستثناء في الحديث مفرغ، بدأ بنفي وحذف المستثنى منه وهذا من صيغ العموم فالرحال لا تشد لا لمسجد ولا لغيره من

البقاع ، ولم تخص المساجد في النهي عن الشد فلم يقل: (لا تشد الرحال لمساجد إلا لثلاثة) كما هو فهمهم الذي خالفوا به فهم الصحابة لا فهم ابن تيمية وحده.

٥- وأما دعواهم أن الرسول ﷺ قد زار قبر أمه فهذا تدليس منهم وتعامي عن الحق وتقليد للغير، ذلك أن الكلام عن شد الرحال والسفر للقبور وليس زيارتها، ومن المعلوم أن الرسول ﷺ لم يسافر لقبر أمه وإنما مر عليه وهو في طريقه في السفر فزيارة قبرها كان منه تبعا لا استقلالا .

٦- أما معارضة الحديث بالسفر لطلب العلم وصلة الرحم فإن هذا لاوجه له لأن الكلام يدور حول زيارة البقاع والأراضي والأماكن التي يحصل الغلو عندها.

مبحث الأعياد

م (١) : تعريفه :

قال ابن تيمية في الاقتضاء : العيد اسم لما يعود من الاجتماع على وجه معتاد عائد إما بعود السنة أو الأسبوع أو الشهر أو نحو ذلك .

م (٢) : العيد يجمع أموراً وضوابطا:

١- يوم عائد . ٢- واجتماع فيه . ٣- أعمال تتبع من العادات والعبادات .

م (٣) : ينقسم العيد إلى :

١- زماني كعيد المولد والوطني.

٢- مكاني كاتخاذ بعض القبور عيدا وتعظيم الأوطان والأمكنة.

م (٤) : دخول العيد في الشرع والدين والعبادة :

العيد من الشرع والدين الذي شرعه الله وأمر به ومن خصائص العبادات، ولا يجوز تشريع الأعياد وابتداعها وذلك من تشريع دين لم يأذن به الله .

م (٥) : المخالفة في الأعياد يكون على ثلاثة أوجه:

١- ابتداع عيد لم يشرعه الله وتشريعه للناس .

٢- مشاركة الكفار في أعيادهم :

وذلك بحضورها والأكل معهم فيها وتهنئتهم بها وتعطيل الأيام من العمل فيها واللعب فيها والهدايا لهم وقبولها منهم وإعانتهم على إقامتها وإظهار الفرح .

٣- ابتداع أعمال غير مشروعة في الأعياد الشرعية .

م (٦) : من مفاسد الأعياد المبتدعة :

١- أنها من التشريع الشركي فهي داخلة في عموم الشرك .

٢- فيها مضاهاة الأعياد الشرعية التي أمر الله بها ومحادة الله ورسوله ومناقضة شرعه.

٣- صد الناس عن شعائر دينهم والقيام بما يجب في الأعياد وتعطيل ما شرعت له.

٤- التشبه بالكفار.

٥- إماتة السنن وإحياء البدع.

م (٧) : أمثلة لأعياد بدعية :

عيد الميلاد، النيروز، المهرجانات، رأس السنة، الأولمبيات، عيد الحب، والأم، والأيام الدولية: كيوم الصحة والطفل والتعليم وأسبوع الشجرة والمرور وهكذا .

إحياء المولد النبوي والهجرة والإسراء .

الأعياد الوطنية وأيام الثورة والاستقلال والاعتلاء على الحكم وغيرها.

وهي محرمة سواء سميت بالعيد أو اليوم أو الاحتفال أو الفرح أو غير ذلك .

تنبيه : شبهات متعلقة بهذا الباب ستأتي .

في باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رقم:(٢٠).

باب من الشرك: النذر لغير الله (١٢)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : عبادة النذر ووجوب إفراد الله بها وكفر من أشركها وصرفها لغير الله .

مكانه ونوعه:يعد من الأبواب المبينة للشرك الأكبر في العبادات.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن النذر لغير الله ينافي التوحيد من أصله ويبطله وينقض الإسلام .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

ساقه بعد باب الذبح لأنهما من العبادات البدنية وصرفها للمخلوق شرك أكبر، والنذر عبادة بدنية قولية معاً .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب :

فيه مشابهة للأبواب المتعلقة بشرك العبادات البدنية والقولية ويشبه أبواب العبادات القلبية باب المحبة رقم : (٣١) وما بعده.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد المصنف ثلاثة أدلة آيتين وحديث واحد وسنوردها في المسائل .

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

عبادة : النذر

م (١) : تعريفه : هو الإيجاب والإلزام، وهو أن يوجب العبد على نفسه أمرا من العبادة المستحبة لله بقوله: لله علي أن أذبح أو أتصدق أو أزور فلان .

م (٢) : النذر عبادة فيها ضوابط العبادة :

أمر الله به وأحبه ورضيه.

وهذا ضابط العبادة فهي : كل ما أمر الله به وأحبه.

م (٣) : وجود حقيقة العبودية في النذر :

تقوم عبادة النذر على الذل والتعظيم لمن نذر له كما أن المقصود منها الاستعانة والإرادة والقصد ممن يذبح له . وهذه الحقائق توجد في النذر وهي روح العبادة .

م (٤) : شرك النذر : هو النذر لغير الله .

م (٥) : الأدلة عليه :

الأدلة قسمان:أدلة على العبادة عموما والذبح منها ، وأدلة خاصة بهذه العبادة:

قال تعالى في عبودية النذر خاصة والوفاء به:

١ - ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ﴾ البقرة: ٢٧٠ .

٢ - ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ ﴾ الإنسان: ٧ .

٣- ﴿ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ ﴾ الحج: ٢٩.

٤- عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: (من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه) رواه البخاري ومسلم.

م (٦) : شروط النذر: أن يكون النذر في عبادة مشروعة وإلا كان بدعة .

م (٧) :حكم النذر :

النذر لا يستحب ابتداءً ، ويجب الوفاء به ، ويكره ما كان من باب المجازاة والمعاوضة، كما في الحديث: (إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل).

م (٨): أقسام النذر :

١- نذر الطاعة لله تعالى والنذر المباح سواء كان معلقا أو مطلقا .

٢- نذر المعصية وهذا لا يجوز الوفاء به وفيه الكفارة .

٣- النذر الشركي وهو أن ينذر للولي والوثن بأن يقول الناذر للولي علي نذر إن صار كذا .

م (٩): مما يدخل في النذر الصدقة له وأن يتقرب إليه بالمال .

ويوجد من يتصدق للميت ويتقرب إليه .

ومن البدع المحرمة والوسائل المفضية للشرك توزيع الصدقات عند القبور بل ووضع صناديق لذلك عندها وجعل الأوقاف لها وكل ذلك محرم .

م (١٠) : النذر لغير الله لا يكون إلا من الشرك الأكبر ولا يكون أصغر :

وقد أخطأ الشيخ سليمان بن حمدان رحمه الله في شرحه الدر النضيد على كتاب التوحيد حين جعل النذر من الشرك الأصغر مثل الحلف .

وغاب عنه سر الفرق بينهما الذي هو التعظيم والتذلل المقارن للنذر واعتقاد القدرة على جلب النفع ودفع الضر وهذا بخلاف الحلف ، ولو قارن الحلف من التعظيم مثلما يقارن النذر عادة لصار الحلف بهذه الصورة شركا أكبر .

م (١١): الفرق بين الحلف والنذر وسر كونه النذر من الشرك الأكبر :

١- أن الناذر لم ينذر لغير الله إلا لاعتقاده في المنذور له أنه يضر وينفع ويعطي ويمنع إما بطبعه أو بقوة سببه فيه ويجلب الخير ويدفع الشر ولذلك ينذرون لمعبوداتهم وقت الشدائد . توضيح الخلاق ٣٨٢.

٢- أن النذر يقارن التعظيم والتذلل للمنذور له ، بخلاف الحلف فقد يقارنه هذه العقيدة فيكون الحلف شركا أكبر كالنذر ، وقد لا يقارنه وهو الغالب فيكون شركاً أصغر من باب شرك الألفاظ .

م (١٣): إن من المصائب وجود علماء السوء المجوزين للشرك، ومن ذلك ما طلع به علينا مفتي مصر علي جمعة في تجويزه النذر للمخلوق والأموات، وزعمه أن المقصود من النذر للميت جعل الثواب له وأن ذلك من باب الصدقة للميت، وقد خالف بفتواه الفاسدة الباطلة هذه إجماع العلماء. ولكن هذا يؤكد أن دعاة الشرك لا يزالون يقاتلون في سبيل الطاغوت ويتفانون في شركهم .

م (١٢) : أقوال أهل العلم فيه :

قال ابن تيمية : (وأما النذر للموتى من الأنبياء والمشايخ أو لقبورهم أو المقيمين عند قبورهم فهو نذر شرك ومعصية) الفتاوى ١١/ ٥٠٤. وقال : (وإذا كان الحالف بغير الله قد أشرك فكيف بالناذر لغير الله والنذر أعظم من الحلف) ، (اتفق العلماء على أنه لا يجوز لأحد أن ينذر لغير الله لا لنبي ولا لغيره وأن هذا شرك لا يوفى به) الفتاوى ١/ ٨١- ٢٨٦ ، (فمن نذر لغير الله فهو مشرك كمن صام لغير الله وسجد لغير الله ومن حج إلى قبر من القبور فهو مشرك) منهاج السنة ٢/ ٤٤٠.

قال الصنعاني: (النذر بالمال على الميت ونحوه والنحر على القبر والتوسل به وطلب الحاجات منه هو بعينه الذي كانت تفعله الجاهلية وإنما كانوا يفعلونه لما يسمونه وثنا وصنما وفعله القبوريون لما يسمونه وليا وقبرا ومشهدا والأسماء لا أثر لها) تطهير الاعتقاد ١٩.

وأفتى علماء الحنفية بكفر أصحاب النذور الشركية .

قال قاسم بن قطلوبغا وتبعه ابن نجيم في البحر الرائق والرملي في الفتاوى الخيرية وعمر بن نجيم في النهر الفائض والحصكفي في الدر المختار وابن عابدين في رد المحتار وغيرهم: «وأما النذر الذي ينذره أكثر العوام، فيأتي في بعض قبور الصالحين ويقول يا سيدي فلان إن قضيت حاجتي أو عوفي مريضي فلك من الذهب كذا .. فهذا النذر باطل لوجوه: منها أنه نذر لمخلوق والنذر للمخلوق لا يجوز لأنه عباده والعبادة لا تكون للمخلوق. ومنها إن ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله تعالى واعتقاده ذلك كفر».

وزاد الحصكفي في درء المختار: «وقد ابتلي الناس بذلك ولا سيما في هذه الإعصار».قال ابن عابدين: «ولا سيما في مولد السيد أحمد البدوي».

قال صديق خان :" هذه النذور الواقعة من عباد القبور تقربا بها إليهم ليقضوا لهم حوائجهم أو ليشفعوا لهم شرك في العبادة بلا ريب " الدين الخالص ٢/ ٢٦١.

قال العجلي :(النذر عبادة فإذا صرفت العبادة لغير الله كان شركا) .

تحقيق التجريد ١/ ١٦٨.

باب من الشرك: الاستعاذة بغير الله (١٣)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : عبادة الاستعاذة ووجوب إفراد الله بها وتكفير من أشرك فيها وصرفها لغير الله .

مكانه ونوعه: يعد من الأبواب المبينة للشرك الأكبر في العبادات.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن الاستعاذة بغير الله ينافي التوحيد من أصله ويبطله وينقض الإسلام .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله: ساقه بعد باب النذر لأنهما من العبادات القولية والتي صرفها للمخلوق يعتبر من الشرك الأكبر.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب : فيه مشابهة للأبواب المتعلقة بشرك العبادات البدنية والقولية ويشبه أبواب العبادات القلبية باب المحبة رقم : (٣١) وما بعده.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد المصنف دليلين آية وحديث.

١- قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ الجن: ٦.

٢- عن خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من نزل منْزلا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من منْزله ذلك) رواه مسلم.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١) : **تعريف الاستعاذة وعلاقتها بالدعاء والفرق بينهما:**

الاستعاذة طلب العوذ واللجوء إلى الله ﷻ، والالتجاء إلى الله بدفع كل شر، وضدها اللواذة، والاستعاذة نوع من الدعاء المطلق فكل استعاذة دعاء لا العكس.

والليادة واللواذة قيل بمعنى العوذ، وقيل هي الالتجاء بجلب النفع والخير، فتكون مقابلة للاستعاذة التي هي الالتجاء بدفع شر، والدعاء يشمل العوذ واللوذ.

تعلق الاستعاذة بالشرور وإبليس.

م (٢) : **دخول الاستعاذة في الدعاء وسيأتي الكلام عنه في الباب القادم.**

م (٣) : **المناذير** : كان العرب يستعيذون بالجن فأبدلوا بالتعوذ بالله . ومن هذا الباب ما يسمى بالمناذير وهو شرك مرده لدعاء الجن والاستعاذة بهم والخوف منهم .

م (٤) : أمر الله بالاستعاذة به فقال:﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ .

م (٥) : **تعلق الاستعاذة بالقلب واللسان والجوارح .**

م (٦) : قول بعض العلماء الاستعاذة لا تكون إلا مع مصاحبة التجاء القلب فلا تكون إلا شركا أكبر غالبا ، وهذا القول فيه نظر.

م (٨) : **أقسام الاستعاذة بالمخلوق:** سيأتي الكلام عنه في باب الدعاء.

وتكون شركا أصغر وأكبر ، ويجوز طلبها من القادر كالدعاء والدليل :

قول غلام أبو مسعود البدري : (أعوذ برسول الله) رواه مسلم.

واستعاذت عائشة بالرسول ، والحديث رواه الإمام أحمد.

م (٩) : العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة. قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك.

باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره (١٤)

اسم الباب : شرك الدعاء

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه:

عبادة الدعاء ووجوب إفراد الله بها وكفر من أشرك بصرفها لغيره.

وعطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص.

والفرق بين الدعاء والاستغاثة :

الاستغاثة طلب الغوث والتخلص من الشدة والكرب، والدعاء أعم منها.

مكانه ونوعه:

يعد من الأبواب المبينة للشرك الأكبر في العبادات.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن دعاء غير الله والاستغاثة بالمخلوق والتعلق به تنافي التوحيد من أصله وتبطله وتنقض الإسلام .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

ساقه بعد باب النذر والاستعاذة لأنهما من العبادات القولية التي لا تكون إلا لله وحده ، ودعاء المخلوق يعتبر من الشرك الأكبر. وهذا الباب يدخل فيه الباب السابق لأن الاستعاذة من الدعاء .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب :

فيه مشابهة للأبواب المتعلقة بشرك العبادات البدنية والقولية ويشبه أبواب العبادات القلبية باب المحبة رقم : (٣١) وما بعده.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد المصنف خمسة أدلة سنوردها مع غيرها في المسائل.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

مبحث : شرك الدعاء

م (١) : تعريف الدعاء :

هو النداء والطلب والسؤال، ويكون الطلب بياء النداء أو بما يقوم مقامها .

والدعاء في المصطلح الشرعي: هو التضرع إلى الله والافتقار إليه بطلب تحقيق المطلوب أو دفع المكروه ، بصيغة السؤال والخبر .

والمراد بدعاء الله أن يقول الداعي مثلاً : يا الله اغفر لي وعافني ويا رحمن ارحمني ويا رزاق ارزقني فيطلب الله ويسأله حاجته ومراده من أمور الدنيا والآخرة.

والمراد بدعاء غير الله: أن يدعو الداعي المخلوق الميت الغير قادر، كأن يقول : يا محمد اشفع لي ويا عيسى استغفر لنا ويا اللات استنصري لنا واطلبي الله لنا النصر والغفران ويا سيدي الحسين أو البدوي أفعل كذا وكذا .

وبهذا الفعل يكون الداعي مشركاً بالله في الدعاء والعبادة كافرا بالله غير مسلم.

م (٢) : صور الشرك في دعاء غير الله ﷻ :

١- دعاء الأموات من الأولياء والأنبياء ، كقول النصارى: يا عيسى اشفع لنا عند الله، وكقول مشركي هذه الأمة: يا نبي الله اشفع لنا عند الله، والشفاعة يا محمد أو أغثني يا رسول الله، ومثله دعاء أصحاب القبور .

وكل هذا شرك في الألوهية ويلزم منه الشرك في الربوبية .

٢- يا نبي الله أغفر لي وارزقني وانصرنا، وهذا شرك في الربوبية صريح .

٣- يا نبي الله ادع الله لي واستغفر لي عند الله ، وهذا شرك أكبر في الألوهية .

وظن كثير من الجهال أن هذه الصورة ليست بشرك أكبر.

٤- يا الله ويا محمد أعطنا ، وهذا أيضاً شرك أكبر .

٥- دعاء الجن والملائكة ، كأن يقول: يا جن افعلوا واتركوا ويا ملائكة السماء ارفعي فلان واخسفي بفلان ، وهذا أيضاً شرك أكبر .

٦- دعاء الإنسان الحي الغائب الذي ليس بحاضر مما يقدر على فعله لو كان حاضراً وهذا شرك أكبر كقول يا فلان أنقذني من الغرق .

٧- دعاء الحي الحاضر فيما لا يقدر عليه كأن يقال: يا فلان أنزل المطر ونلتمس منك الرزق ورد الموت عنا.

م (٣) : أسماء الدعاء ومرادفاته :

للدعاء ألفاظ مقاربة لمعناه وصفات ومسميات في اللغة وفي الشرع دالة عليه وداخلة في عموم الدعاء وهي: الذكر الصلاة الاستعانة الاستعاذة اللواذة الاستغاثة الاستجارة الاستغفار الشفاعة السؤال النداء المناجاة الجؤار الابتهال السلام .

فائدة الفرق بين الذكر والدعاء :الذكر أشمل من دعاء المسألة لأن الذكر يشمل الدعاء والثناء والتسبيح كما أنه يكون بالقلب والقول وعمليا بالفعل والدعاء يكون باللسان فيكون الذكر أعم من الدعاء، أما دعاء العبادة فهو أعم من الذكر .

م (٤) : أقسام الدعاء :

ينقسم الدعاء إلى : دعاء مسألة ودعاء عبادة .

قال تعالى : ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ غافر: ٦٠ .

قيل: اعبدوني أثيبكم ، وقيل: أسألوني استجب لكم، والمعنيان صحيحان .

م (٥) : دخول الدعاء في العبادة :

الدعاء من أعظم مقامات العبادة وأهمها .

وقد سمى الله تعالى الدعاء عبادة في مواضع من كتابه كما في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر: ٦٠.

بل إن الرسول ﷺ جعل العبادات مبناها على الدعاء حين قال: (الدعاء هو العبادة) رواه احمد والترمذي .

وجاء بأسلوب الحصر في الحديث لأن الدعاء يدخل في جميع العبادات وكذا العكس فالعبادات داخلة فيه . فكأنه لا عبادة غير الدعاء .

فالعبادات قائمة عليه وهو أصل مقصودها فمن صلى وصام وزكى وحج فما فعل ذلك إلا تقربا إلى الله ولسان حاله يقول: يارب صليت وصمت وعبدتك لتغفر لي وهذه حقيقة الدعاء، ومن أجل هذا تسمى أي عبادة بدعاء العبادة، فالدعاء منقسم إلى دعاء عبادة ودعاء مسألة.

وكذلك دعاء المسألة يقوم على جميع العبادات وتوجد فيه، فالدعاء قائم على الخضوع والتذلل والخشوع والافتقار والالتجاء وإعلان الحاجة والفقر والضعف والمسكنة للمدعو كما أنه متضمن للرجاء والخوف والمحبة والتوكل والرغبة.

فداعي الله لاجئ إليه خاشعاً خاضاً متذللاً له مفتقراً إليه ومعظماً له خائفاً منه راجياً له متوكلاً عليه محباً له .

ومن دعا غير الله فلا بد أن تقوم به هذه الصفات والأحوال ويكون بذلك عابدا للمدعو مشركا به مؤلها له مع الله.

م (٦): أوجه ودلالات كون الدعاء عبادة وأن دعاء غير الله شرك :

١- ما جاء في القرآن من النهي عن دعاء غير الله تعالى بأساليب كثيرة ومتنوعة وأن الدعاء عبادة، والعبادة لا تصرف لغير الله، وأن دعاء غير الله شرك، وفاعله كافر خاسر ظالم وأنه غير مستفيد شيئاً، وأن النافع هو الله، وأن المشركين معترفون بتوحيد الربوبية وبتفرد الله بالخلق والملك والتدبير، وأن عبادتهم لآلهتهم ليست إلا مجرد دعائهم وطلب شفاعتهم عند الله، وأنهم يخلصون دعاءهم لله إذا نزلت بهم شدة وكرب، وأن دعوة الله هي الحق وما سواها هي الباطل، وأن كل مدعو غير الله جاهل غافل لا يقدر على شيء وليس له من الأمر شيء، وأن الله غني عن الوسائط والشفعاء، وأن الشفاعة ملك لله .

وأوجه الاستدلال من الآيات المتعلقة بالدعاء أكثر من أن تحصر، وكل من تدبر من أهل التوحيد فيها لابد وأن يفتح عليه.

٢- ما جاء في السنة من وجوب إخلاص الدعاء لله وترك دعاء غيره فيما يجوز ومن باب أولى ما لا يجوز وما لا يقدر عليه أحد، كقوله ﷺ " أنه لا يستغاث بي " رواه الطبراني، وقوله ﷺ : (إذا سألت فسأل الله) رواه الترمذي ، وغضب الله ممن لا يدعوه وسد الرسول ﷺ وسائل الشرك والذرائع المفضية إليه .

٣- أن حقيقة شرك المشركين وعبادتهم للأوثان إنما كانت في اتخاذ الشفعاء عند الله لتقربهم إلى الله، فظنوا أنه بشفاعتهم يندفع الضر والعقاب وبتوسطهم وتقريبهم يجلب النفع والثواب، وكان هؤلاء المشركون يعبدون الله مع عبادة غيره وكانوا أهل نسك وصلاة وحج وصدقة وإطعام للحجيج والفقراء، ولم تقبل أعمالهم

لحصول الشرك منهم في الدعاء وكانوا مقرين بأن الله هو الرب سبحانه بل كانوا يوحدونه في الخلق والملك والرزق والتدبير والنفع والضر فعندهم توحيد الربوبية ، وإنما كان شركهم ومخالفتهم في توحيد الألوهية والعبادة بدعاء غير الله.

٤- أن الله تعالى سمّى الدعاء عبادة وجعل دعاء غيره عبادة له.

كما في قوله تعالى : ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مريم: ٤٨-٤٩ وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ الأحقاف: ٥-٦ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ غافر: ٦٠ وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ يونس: ١٨ ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الأنعام: ٥٦ ، فانظر كيف سمّت الآيات الدعاء عبادة وجعلت دعاء المشركين للأموات والأصنام عبادة لهم .

وأيضاً الرسول ﷺ سماه عبادة بل وحصر العبادة في الدعاء في قوله ﷺ : (الدعاء هو العبادة) رواه احمد والترمذي فكأنه لا عبادة إلا الدعاء.

٥- سمّى الله المدعو معبودا، في قوله ﴿أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الأنعام: ٥٦ وكما في قوله تعالى في سورة مريم عن إبراهيم : ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾ وقوله بعد ذلك: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ .

٦- سمى الله تعالى المدعو ومن تطلب منه الشفاعة إلها ، كما في قوله تعالى : ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هود: ١٠١ ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن

يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ يس: ٢٣ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ الفرقان: ٦٨ ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ القصص: ٨٨ ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ المؤمنون: ١١٧.

٧- جعل الله تعالى دعاء غيره شركا، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الجن: ٢٠،وقوله: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ فاطر: ١٤ ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٥ أي يشركون في الدعاء.

٨- أن الله ﷻ سمى الداعي لغيره كافرا ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ المؤمنون: ١١٧.

كما حكم الرسول ﷺ بكفر من يدعو غير الله وأخبر أنه من أهل النار (من مات وهو يدعو غير الله دخل النار) متفق عليه .

٩- أن الله تعالى سمى الدعاء دينا وأمر بالإخلاص فيه : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٥ ﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ غافر: ١٤.

١٠- أن الله أمر به وأحبه كما في قوله: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ الأعراف: ٥٥. وما أمر الله به فهو عباده.

١١- أن الله توعد تارك الدعاء بالنار كما في قوله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر: ٦٠ .

١٢- أن الله تعالى أمر رسوله أن يعلم الناس وجوب توحيده في الدعاء ولايشركون فيه كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الجن: ٢٠.

١٣- أن الله نهى عن دعاء غيره، كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ الشعراء: ٢١٣ ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ القصص: ٨٨ ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الأنعام: ٥٦. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يونس: ١٠٦ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ الجن: ١٨.

١٤- اختص الله به وحصر الدعاء الحق به ودعاء غيره باطل ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ الرعد: ١٤ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ الحج: ٦٢.

١٥- أن الله ﷻ أخبر أن الصلاة والشفاعة ملك له وأمرنا بالإخلاص فيهما والدعاء يشملهما: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الأنعام: ١٦٢ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ الزمر: ٤٣ - ٤٤ ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ الزخرف: ٨٦.

١٦- أن الأصل في دعاء المخلوق التحريم . وأنه إذا كان دعاء المخلوق ما يقدر عليه مكروها والأولى تركه كما جاءت به السنة فكيف بدعائه فيما لا يقدر عليه.

والرسول ﷺ نهى عن سؤاله وفضل من لا يسأله شيئا، وبايع بعض أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئا.

١٧- أن الدعاء يشتمل على جميع أنواع العبادات من المحبة والخوف والمهابة والرهبة والرغبة والطمع والرجاء والخشوع والذل والانكسار والإخبات والإنابة والتوبة والتضرع واللجوء والتعلق والتوكل والاعتماد والذكر والتعظيم وغير ذلك .

١٨- أن الداعي لا بد وأن يكون راغبا متذللا لمن يدعوه خاضعا له متعلقا به متوكلا عليه معظما له وهذه عين العبادة .

١٩- أن في دعاء غير الله سوء ظن بالرب الرحيم وعدم تقدير له وهضم لمقام الربوبية وظلم عظيم، كما يلزم منه أن الله لا يرحم ولا يقدر ولا يعلم إلا بالوساطة .

٢٠- أن الله حكم بأن أشد الناس ظلما وضلالا وكفرا من يدعو غيره :﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ الأحقاف: ٥.

٢١- أن الله نفى إجابة المدعوين وسماعهم وأثبت غفلتهم وجهلهم كما في الآية السابقة، كما أثبت في آيات أخرى صفات المدعوين وأنها قائمة على النقص.

م (٧) : الفرق بين الدعاء والعبادة :

العبادة تفسر بالدعاء . والدعاء على قسمين : دعاء مسألة ودعاء عبادة :

دعاء المسألة هو الطلب مثل أن يقول الإنسان : اللهم اغفر لي وارزقني .

ودعاء العبادة ، وذلك أن كل عبادة دعاء وفي الحديث : (الدعاء هو العبادة) رواه احمد والترمذي والحاكم وغيرهم .ووجه ذلك : أن الصلاة والصوم والركوع والسجود وبقية العبادات أدعية، فمن صلى وصام كأنه يدعو الله ويقول: يارب عبدتك لتغفر لي وتدخلني جنتك.والدعاء والعبادة من الألفاظ الوجهية، ويقال فيها ما يقال في الإيمان والإسلام والربوبية والألوهية والفقير والمسكين .

م (٨): مكانة الدعاء : مما يدل على أهمية الدعاء ومكانته أمور منها :

١- أنه يشتمل على جميع العبادات فهو مخ العبادة بل هو العبادة، فهو أعظم المقامات وأجل العبادات .

٢- محبة الله له وغضبه ﷻ على من لا يدعوه ويعرض عنه .

٣- فيه اللجوء والتقرب والخضوع والذل والافتقار .

٤- أن تاركه بالكلية كافر مستكبر بنص القرآن .

٥- الدعاء فيه التذلل لله مع التعظيم والإجلال .

والقاعدة: أن كل فعل مبناه على الذل والتعظيم والمحبة فهو عبادة صرفه لغير الله من الشرك . ومن ذلك الدعاء والشفاعة والذبح والنذر فهذه لا تكون إلا مع إجلال وتعظيم ولذلك صرفها لغير الله كفر وشرك أكبر.

قال الحليمي : (والدعاء من جملة التخشع والتذلل، لأن كل من سأل ودعا فقد أظهر الحاجة والفاقة لمن يدعوه ويسأله فكان ذلك في العبد نظير العبادات التي يتقرب بها إلى الله عز اسمه ولذلك قال : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾غافر: ٦٠، فأبان أن الدعاء عبادة والخائف فيما وصفنا كالراجي لأنه إذا خاف خشع وذل لمن يخافه وتضرع إليه وطلب التجاوز عنه) المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٥١٧ .

وقال الرازي في تفسيره : (الدعاء أهم مقامات العبودية).

فائدة : دين المشركين وملتهم هو الشرك بالله بوضع الوسائط بينهم وبين الله لتشفع لهم بزعمهم ودعاء المخلوقين من دون الله.

م (٩) : دعاء غير الله شرك في الألوهية مستلزم للشرك في الربوبية :

الدعاء شرك في الألوهية لأنه عبادة وتوجه وقصد ومتعلق بأفعال العباد .

وشرك أيضا في الربوبية من جهتين :

الأولى : من جهة اللزوم وما يقتضيه دعاء المخلوق من إعطاء المخلوق المدعو بعض خصائص الربوبية وأفعال الرب ، وذلك باعتقاد النفع والضر في المدعو والقدرة على ما لا يقدر عليه إلا الله ، فدعاء الأموات ومن هو غائب يستلزم أنهم يعلمون الغيب ويسمعون كلام من يدعوهم ويقدرون على كل ما يطلبه الداعي منهم وإلا لما دعاهم هؤلاء المشركون .

الثانية : من جهة ما قد يحصل فيه من شرك في الربوبية، فالأصل أن الدعاء من العبادة التي يريدها الله ﷻ وصرف أي عبادة لغير الله شرك في الألوهية، فتوحيد العبادة أن يصرف العبادة لله وحده والشرك فيها بأن تصرف العبادة لغير الله ﷻ، عليه فدعاء غير الله شرك في الألوهية، إلا أنه إذا دُعي غير الله ﷻ فيما لا يقدر عليه غير الله من أفعال الرب المختصة به كان شركاً في الربوبية، كأن يقول يا محمد يا نبي الله أنزل المطر وأغثنا وارزقنا وعافنا وانصرنا وأعطنا ولداً ومددا ونحو ذلك فهذا شرك في الربوبية حيث أدخل في دعائه أمور من خصائص الربوبية والتي لا يقدر عليها غير الله ، واعتقد أن المدعو متصف بها قادر عليها.

م (١٠) : أهمية بيان شرك الدعاء والكلام فيه وخطورته:

وضح الله سبحانه هذا النوع من الشرك في كتابه في آيات كثيرة وحذر منه أيما تحذير لكثرة من يقع فيه وقد بينه العلماء في مصنفاتهم وحذروا منه وكشفوا حقيقته.

م (١١): يعد شرك الدعاء وعبادة الموتى نصف الشرك وأصله وأكثره رواجا:

١- نصف الشرك من جهة كونه مقابلا لشرك الفلاسفة وعباد الكواكب.

٢- نصف الشرك من جهة كون شرك الدعاء وعبادة الأموات والقبور مقابلا لشرك التشريع والحكم وعبادة الأحياء وطاعة أصحاب القصور والدستور .

قال ابن تيمية : (الشرك في بني آدم أكثره على أصلين :

أولها : تعظيم قبور الصالحين وتصوير تماثيلهم للتبرك بها ، وهذا أول الأسباب التي بها ابتدع الآدميون وهو شرك قوم نوح .والثاني: عبادة الكوكب) .

الرد على المنطقيين ٢٨٥ ، قاعدة التوسل والفتاوى ١٧/ ٤٦٠.

م (١٢): وجوب توحيد الله بالدعاء وإفراده به :

إذا كان الدعاء بهذه المنزلة والمكانة والمرتبة من الدين، وجب أن يوحّد الله به وإلا يدعى غيره ولا يسأل أحد سواه، ومن دعا غير الله كان مشركاً ناقضاً للتوحيد .

والناس في عبادة الله والاستعانة أربعة أقسام: منهم من يعبد الله ويستعينه ومنهم من لا يعبده ولايستعينه ومنهم من يعبده ويستعين بغيره ومنهم العكس.

م (١٣) : تارك دعاء الله :

ترك دعاء الله بالكلية كفر مخرج من الإسلام ، لأن تاركه تارك للعبادة خارج عنها مستكبر معرض عن طاعة ربه، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر: ٦٠ .

وقال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾ الأعراف: ١٨٠.

وقال النبي ﷺ في ابن جدعان أنه في النار لأنه ما قال: رب اغفر لي .

م (١٤) : أحكام الدعاء :

١- الدعاء التعبدي الواجب: وهذا ركن في الدين يجب فيه التوحيد وتارك الدعاء بالكلية كافر ، فدعاء الله واجب يأثم من يعرض عنه ولا ينظر الله للعبد ولا يعبأ به إذا ترك دعائه، وتارك الدعاء داخل في الإلحاد .

٢- الدعاء المحرم: وهو دعاء الله بالإثم وقطيعة الرحم .

٣- الدعاء المباح: دعاء الله بمصالح الدنيا، ودعاء المخلوق في أمر يقدر عليه .

٤- الدعاء البدعي: كدعاء الله بالتوسل المبتدع أو دعائه في مكان مخصوص .

٥- الدعاء الشركي الكفري: وهو دعاء المخلوق في أمر لا يقدر عليه إلا الله .

م (١٥) : ضابط الدعاء الشركي وأقسامه : وهو قسمان :

الأول : الطلب من الميت أو الغائب ودعاؤه وسؤاله.

الثاني : الطلب من الحي في ما لا يقدر عليه إلا الله من الربوبية كإنزال المطر.

م (١٦) : شروط جواز دعاء المخلوق :

١- أن يكون المخلوق حياً حاضراً يسمع .

٢- أن يكون قادراً على ما طُلب منه فلا يكون خارجاً عن قدرة الخلق .

ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ القصص: ١٥.

فإذا طلب من المخلوق حال موته أو غيابه أو سأله الشفاعة عند الله بعد موته كل ذلك أمور غير مقدور عليها بالنسبة للمخلوق المدعو، كذا لو طلب من حي أمرا لا يقدر عليه كان ذلك من الشرك . وطلب الشفاعة من الرسول ﷺ يوم القيامة هو من جنس سؤاله أن يستسقي حال حياته .

قاعدة : وجه كون الدعاء شركا : ١- أن فيه طلب ما لا يقدر عليه إلا الله.

٢- ما فيه من اللجوء لغير الله والخضوع والتذلل والتعظيم والذل والافتقار .

م (١٧) : تغيير اسم شرك الدعاء عند مشركي زماننا لا يغير حكمه :

يسمي مشركو زماننا شرك الدعاء التوسل بالأولياء وتعظيمهم وغير ذلك .

ويسمون الإله المدعو ولياً وسيداً. وهذا لا يغير حكمه وكونه كفرا وشركا.

م (١٨) : ترك سؤال الناس مطلقاً من كمال التوحيد:

ترك سؤال الناس هو الأصل والموافق للفطرة، لأن كل مخلوق حاجته عند ربه الذي خلقه وهو العالم بما يصلح له ويحتاجه وهو القادر وحده على تحقيق حوائجه، وهذه الصفة غير موجودة في أي مخلوق كان، لذا وجب أن يسأل كل عبد ربه كل حوائجه وأن يترك سؤال المخلوقين مطلقا، وهذا يحمل المرء على التعلق بالله في كل شؤونه وأن يكون اعتماده وتوكله عليه وافتقاره إليه، وهذا ما يريده ربنا منا وهو الذي خلقنا لأجله ألا وهو تحقيق عبادته. ويدل لذلك أحاديث ذكرتها في محلها.

م (١٩) : دعاء غير الله أصل شرك العالم ودين جميع المشركين:

كل الأمم وقعت في شرك الدعاء ومخاطبة غير الله من المخلوقين واستعاذوا بهم، سواء كان المدعو من الأموات وهذا الأصل أو من الملائكة أو الجن أو النار أو الكواكب والشمس أوالأحجار والأصنام والأوثان والتماثيل أو صور لهؤلاء.

قال ابن القيم في المدارج: (ومن أنواع الشرك : طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم وهذا أصل شرك العالم فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً عمن استغاث به وسأله قضاء حاجته) .

م (٢٠) : لماذا حصل الشرك في الدعاء، ولم دعا المشركون غير الله؟

السبب هو قياس المشرك ربه ﷻ بملوك الدنيا في الشفاعة . ذلك أن كل شرك حصل من الأولين والآخرين بدعاء غير الله تعالى لأنهم قاسوا الملك الجبار سبحانه وتعالى بملوك الأرض، فظنوا أنه كما أن لملوك الأرض حجاباً ووسائط وشفعاء يوصلون لهؤلاء الملوك دعاءهم وشفاعتهم وطلباتهم وحوائجهم لأنفسهم، فكذلك الله ﷻ مثل الملوك المخلوقين، فصاروا يتخذون بينهم وبين الله ﷻ وسيطاً يقربهم إلى الله ويشفع لهم فيما يريدون، وهذا في الحقيقة هو ظن سيء بالله ﷻ وافترى على الله الكذب وقدح في الله وعدم تقديره، إذ كيف يشبه مالك الملك ﷻ مالك الرقاب بعبيده المخلوقين من تراب ويشبه من له الغنى المطلق بالفقير المسكين المحتاج .

ثم إن ملوك الأرض محتاجون لشفاعة الشافعين وذلك لجهلهم وعدم معرفتهم وإحاطتهم بما هو تحتهم ولعجزهم وعدم قدرتهم على تصريف أمور ممالكهم بأنفسهم ، أما الملك الحق ﷻ فليس بمحتاج لذلك، فهو لا يغيب عن علمه شيء وليس له مكره فيما يعطي ويؤتي، وهذا بعكس هؤلاء الملوك فإنه يشفع عندهم الشافع ويدعون من غير أن يستأذنوا، فيوصلوا إليهم طلباتهم.

م (٢١) : لماذا كان دعاء غير الله أعظم الذنوب وأشد من إنكار الرسالة:

الحكمة في ذلك لأن فيه مساواة بين الخالق والمخلوق ، حيث يضع المشرك ربه ﷻ الملك الحق بمنزلة الملك البشري المخلوق الفقير المحتاج الجاهل بمن خلفه، فشبه الله سبحانه مالك الملك بملوك الأرض الذين يخفى عليهم الشيء الكثير ويخفى عليهم ما دونهم ويجهلونه .

باب قوله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (١٥)

اسم الباب : أدلة التوحيد والبراهين على بطلان الشرك

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : البراهين الدالة على التوحيد وقبح الشرك، ومنها تلك الأدلة على حقيقة الآلهة الباطلة وبيان حقيقة المدعو من دون الله .

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب الدالة على التوحيد وبطلان الشرك .

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن الله ﷻ أمر بالتوحيد وبينه لعباده وبعث الرسل بالدعوة إليه ونصب الأدلة عليه وأبطل حجج المشركين به .

فأورده المصنف هذا الباب الأدلة ليرد بها على القبورية ومشركي زمانه ، ويرد على من يشرك بالله في عبادته الشرك الأكبر وينكر أن يكون فعله من الشرك، وأن الشرك الذي كفر الله فاعله وبينه في كتابه وقع فيه الكثير من المتأخرين لجهلهم بحقيقة الشرك وغلوهم في النبي ﷺ والصالحين .وأن الواقع في الشرك يجب تكفيره .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله: بعد أن أورد أبواب التوحيد في العبادة وكفر الإشراك فيها ، ذكر الأدلة على التوحيد وإبطال الشرك .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب : فيه مشابهة لثلاثة أبواب :

الباب الذي بعده ، والباب الأخير ، وباب حماية النبي ﷺ جناب التوحيد .

كما أن له تعلق بالأبواب الستة الأولى في الكتاب.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١- قول الله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ الأعراف: ١٩١ - ١٩٢.

٢- قوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ فاطر: ١٣ - ١٤.

٣- قال أنس: شُج النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته، فقال: (كيف يفلح قوم شجوا نبيهم) فنزلت: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ آل عمران: ١٢٨ . متفق عليه .

٤- عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: اللهم العن فلانا وفلانا، بعد ما يقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد، فأنزل الله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ الآية. رواه البخاري.

وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية، وسهل بن عمرو، والحارث بن هشام.

٥- عن أبي هريرة ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ الشعراء: ٢١٤ فقال: (يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئا. يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئا. يا صفية عمة رسول الله ، لا أغني عنك من الله شيئا. ويا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئا) متفق عليه.

أورد الشيخ هذه الأدلة ليقر قاعدة أن الإله المعبود لابد أن يكون متصفا بست: خالقا، مالكا، قادرا على النفع، يرد الأمر له، يغني من رجاه، يجيب من دعاه.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

م(١): أدلة التوحيد وبطلان الشرك:

أولا: الأدلة العامة:

١- ضرب الأمثــال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ﴾ الرعد: ١٤. ومن الأمثلة تمثيل الآلهة بالعبيد بعدة آيات.

٢- قياس الأولى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ النحل: ٦٠ فالله أولى بالكمال وأن يعبد.

٣- نفي الـدليل والحجـة: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ ﴾.

٤- السبر والتقسيم: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾ الطور: ٣٥-٣٦.

٥- دلالة الأثر على المؤثر والخلق على الخالق والفعل على الفاعل.

٦- الجدال والحجة وكشف الشبهات.

٧- إفحام المشركين بالأسئلة التقريرية الإلزامية والاستنكار عليهم.

٨- دلالة معجزات الأنبياء.

٩- دلالة الفطرة. ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ إبراهيم: ١٠

١٠- دليل الميثاق: ﴿ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ ﴾ الأعراف: ١٧٢.

ثانياً: الأدلة الفرعية على توحيد الله أو الربوبية بالخصوص:

١- دلالة الخلـق: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾ الطور: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ﴾ فصلت: ٥٣ ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ ﴾ الأعراف: ١٨٥.

٢- دلالة العناية عناية الرب بخلقه من ذلك جعله الأرض مهادا وجعل فيها منافع وقدر أقواتها، أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴾ النبأ: ٦.

٣- دلالة الإتقان والتسوية وإحسان الخلق وعدم الخلل في نظام الكون:

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ السجدة: ٧.

٤- دلالة التقدير: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾.

٥- دلالة التسخير والتدبير: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾.

٦- دلالة الهداية: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ الأعلى: ٢-٣.

٧- دلالة الاختصاص والقدرة على غيره: ﴿ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾.

٨- دليل التمانع: وهذا دليل على توحيد الربوبية والألوهية معا.

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ ﴾ المؤمنون: ٩١. ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ الأنبياء ٢٢. ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ الإسراء: ٤٢. قيل سبيل لمغالبته ومنازعته وتكون بمعنى ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾. وقيل سبيل للتقرب والزلفى فتكون بمعنى ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ﴾.

٩- دلالة الانفراد بالكمال: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ الحشر ٢٣.

١٠- دليل افتقار كل الخلق له وصمودهم له وحاجتهم إليه وغناه عنهم وأن النفع والضر بيده. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ فاطر: ١٥.

فكل هذه الأدلة تدل على توحيد الله ﷻ في ربوبيته وألوهيته أيضا.

ثالثا : أدلة توحيد الألوهية : إضافة على الأدلة السابقة :

١- إلزام المشركين باعترافهم بتوحيد الربوبية وأنه وحده المتفرد بالخلق والملك والتدبير والنفع والضر. وتفرد الله بالكمال والخلق والتدبير والملك.

٢- دليل الإخلاص حال الخوف والشدة .

٣- إثبات العجز والنقص لكل الآلهة الباطلة: كنفي الخلق عنهم والملك والقدرة والرزق والنصر والشفاعة والسمع والكلام والحركة والحياة وحاجتها.

٤- مطالبة المشركين بالدليل على فعلهم وحجة لشركهم .

٥ - أمره بعبادته دون غيره والكفر بالشرك وبيانه لمفاسد الشرك وعقوباته.

رابعاً: القياسات في التوحيد والعقيدة وما يصح منها في حق الله ﷻ:

١- قياس الأولى : ومثاله أن يقال أي كمال فالله ﷻ أولى به .

٢- قياس العلة : وهو ما حذف منه إحدى المقدمات لدلالة المقام عليها.

مثاله: إذا جاز خلق آدم من غير أب فكذا عيسى فكليهما مخلوق ولا تصح عبادتهم .

٣- قياس الدلالة (التمثيلي) : وهو ما جمع بين أصل وفرع بعلة جامعة :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فصلت: ٣٩. والله ﷻ يستخدم في حقه: قياس الأولى، لا قياس الشمول الذي تستوي أفراده، ولا قياس التمثيل .

٤- قياس الشبه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ الأعراف: ١٩٤.

٥- الخلف: إثبات الأمر ببطلان نقيضه: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ .

٦- قياس الشاهد على الغائب : كقياس البعث بإحياء الأرض الميتة

٧- السبر والتقسيم ومثاله آيات سبأ ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾: ٢٢ - ٢٣.

م (٢) : الأدلة على بطلان الشرك وبيان عجز ما يعبد من دون الله تعالى :

وصف الله ﷻ المعبودين المدعوين من دون الله وعابديهم الداعين لهم وحال الدعاء بصفات تنبئ عن بطلان وخسارة أعمالهم وأنهم خسروا الدنيا والآخرة ولم يستفيدوا شيئاً لا استجيب لدعائهم ولم يسلموا من الكفر والشرك .

فأثبت الله ﷻ بطلان وضياع دعائهم وتشفعهم، وأن ضرره أقرب من نفعه، وبين أوجه الضر فيها وهي كثيرة . كما وصف حال المعبود المدعو بأنه لا يستجيب ولا يسمع ولا يملك شيئاً وأنه مخلوق وأنه غافل أو ميت، ووصفهم الله بأنه ليس لهم إذن في الشفاعة وليس لهم ملك ولا مشاركة ولا إعانة، وأنهم لا ينفعون ولا يضرون ولا يغيرون ما قدره الله وأنهم يصيرون أعداء لهم يوم القيامة ويتبرؤن من عبادهم، كما وصف الله ﷻ الداعي بالخاسر الغير مستفيد والضائع الهالك . وهذه الصفات تجعل دعاء غير الله في بطلان وخسارة وضياع فيجب تركه عقلا وشرعا .

قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ فاطر: ١٣ - ١٤ ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ الأحقاف: ٥ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ الأعراف: ١٩٤ ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ الأعراف: ١٩٧. ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ الزمر٣٨ ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ النحل٢٠ ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ﴾ الروم: ٤٠.

م (٣) : الأدلة على بشرية النبي ﷺ وأنه لا يبلغ منزلة الإله المدعو القادر :

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ الأعراف: ١٨٨.

قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ ﴾ يونس: ٤٩ .

قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرًّا وَلَا رَشَدٗا ﴾ الجن: ٢١ .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ القصص: ٥٦.

قوله: ﴿ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴾ التوبة: ٨٠.

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾ الزمر: ١٩ .

قوله: ﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ الزخرف: ٤٠.

وقوله: ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾ آل عمران: ١٢٨.

﴿ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴾ الطلاق: ١

قوله تعالى : ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ الأعراف: ١٨٧.

قوله تعالى : ﴿ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡ ﴾ التوبة: ١٠١.

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ ﴾ الأحقاف: ٩.

قوله: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ .

وآيات عامة تبين أنه لا تملك نفس لنفس شيئا وأنه لا كاشف للضر إلا هو، وأنه لا يملك الشفاعة أحد ولا تغني شفاعته شيئا. منها :

قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ الزمر: ٤٣ – ٤٤.

وقوله ﷺ : (إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله) ، (إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله)، (أجعلتني لله ندا) لما قيل له ما شاء الله وشئت ، وقوله لابنته : (لا أغني عنكم من الله شيئا) ، (استأذنت ربي أن استغفر لأمي فلم يأذن لي)، (والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي) البخاري، (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل) مسلم، (إنما أنا بشر وإنه يأتي الخصم فأحسبه أنه صدق) البخاري، وقول الملائكة للنبي ﷺ: (لا تدري ماذا أحدثوا بعدك) البخاري، وقالت عائشة: (من حدث أنه يعلم الغيب فقد كفر) البخاري، وقول عائشة له : (نحمد الله ولا نحمدك) ، وقول الاعرابي له : (أتوب الى الله ولا أتوب اليك)، قصة الإفك وحرص النبي ﷺ على معرفة الحق .

فائدة : أحاديث فيها رد على القبورية الذين يعبدون النبي ﷺ :

(إن لله ملائكة سياحين يبلغوني من أمتي السلام) ، رد الروح للرسول إذا سلمنا عليه ، عرض الأعمال عليه ، (اسألوا لي الفضيلة):فيها رد على القبورية الذين يزعمون أن الرسول ﷺ يُدعى وأنه حي يسمع حيث لو كان كذلك لما احتاج لمن يبلغه ويعلمه ولسمع السلام بذاته مباشرة، كيف يدعى من يطلب أن يدعى له.

ومن الأدلة في هذا الباب: أن دعاء الميت والغائب لم يأمر الله به ولا رسول ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين ولا استغاث أحد من الصحابة بالرسول ﷺ بعد موته ولم يقف أحد منهم عند قبره يسأله مع ما نزل بهم من الشدائد والكروب بل والثابت ضد ذلك كما فعل عمر من الاستسقاء بدعاء العباس. ولو كان أفضل كما تزعم القبورية فكيف يخفي على القرون الثلاثة المفضلة ويظفر به الخلوف .

م (٤) : الأدلة على إقرار المشركين بتوحيد الربوبية لله واعترافهم بالله:

قال الله ﷻ حاكياً منهج المشركين وإقرارهم بتوحيد الربوبية لله وكونه خالقهم ورازقهم وأنه عزيز حكيم في مواضع منها قوله ﷻ:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الزخرف: ٩.

والآيات التي فيها إيمانهم بالله مع إنكارهم أن تكون الرسالة من البشر:

﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ يس١٥

الآيات التي تحكي اعتراف المشركين بالشرك وأنهم كانوا مقرين بعبادة الله مخالفين في توحيده وإفراده وأنه كانت لهم صلاة وحج وعبادات كثيرة لله.

﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ الأنعام: ١٤٨.

الآيات التي تثبت أن كفار الأمم التي بعثت فيها الرسل كانوا يعلمون أن الرب الخالق هو الله وحده بل ويستحق أن يعبد لكن نازعوا في توحيده بالعبادة:

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ ﴾ الأعراف: ٧٠ .

كما أخبر عن إيمانهم به ﷻ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾يوسف١٠٦.

كذلك تلبيتهم: (لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك) .

إقرارهم أن المالك المدبر النافع الضار هو الله وحده كما أخبر ﷻ:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ يونس: ٣١ .

ما ذكره ﷻ وهو يبين بسؤال الحجة والتقرير هذا الأصل أن النفع والضر بيده وحده وأن شركاءهم المعبودات لا تملكه ولا تكشف الضر ولا يستطيعون نصركم:

﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ الأنبياء: ٦٦ ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ﴾ فاطر: ١٣ - ١٤ ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾.

وغيرها من الآيات التي يسأل فيها المشركون سؤال تقرير وإنكار الشرك وتقريرهم على أنه النافع وحده، والآيات التي فيها ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾. والآيات التي فيها أسئلة تقريرية واستنكارية مثل: ﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ في سورة النمل وغيرها.

الآيات التي فيها أن الكفار يعبدون الله ويدعونه ولكن يدعون معه غيره:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ٤١ ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ العنكبوت: ٦٥ ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ يوسف: ٣٩ ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣ ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ﴾ ص: ٥ ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾ الأنفال: ٣٢ ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ الزمر ٤٥ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ .

ففي هذه الآيات دلالة صريحة على أن المشركين مقرون بأن الله هو المالك للنفع والضر وبيده الخير والشر وأن الآلهة إنما تشفع عند الله وتقرب فقط، وأن عبادتهم لها كانت في مجرد طلب الشفاعة منها ودعائها مع الله أو من دونه.

م (٥) : المقارنة بين استدلال القرآن على التوحيد وأدلة المتكلمين :

ذكرنا طريقة القرآن في الأدلة. أما استدلال الصوفية والمتكلمين على التوحيد فهي فاسدة لأمور:

أولاً : أنهم أعرضوا عن طريقة القرآن في الاستدلال على التوحيد ، الذي يوافق الفطرة والعقل ومعروف حتى في الجاهلية : (البعرة تدل على البعير) .

ثانياً : أنهم استدلوا بها على وجود الله ، والله تعالى لا يحتاج وجوده إلى دليل .

يقول الشاعر : **وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد**

وما أحسن قول العجوز في الرازي لما بلغها عنه أنه يحفظ ألف دليل على وجود الله ، قالت: لو لم يكن لديه ألف شبهة لما احتاج أن يحفظ ألف دليل .

ثالثاً:أنهم أنكروا بهذه الأدلة الصفات، بل هي التي أوقعتهم في شرك العبادة .

م (٦) : من الفوائد المتعلقة بأدلة الباب:

جواز الدعاء على الكفار عامة ولعنهم والقنوت عليه في الصلوات في النوازل خلافا لما قاله بعض الجهال في زماننا لا يجوز الدعاء على عامة اليهود والنصارى .

مع أن الرسول ﷺ قال قبل موته : (لعنة الله على اليهود والنصارى).

أن بعض الذين آذوا الرسول ﷺ وأدموه ودعا عليهم ، قد أسلموا وتاب الله عليهم وصاروا من أصحابه وأنصار الدين، وهذا يؤكد من جهتين أن النبي لا يملك من الأمر شيئا أصيب وما أجيب، فكيف أجازت الصوفية دعاءه من دون الله.

أن بعض قرابة النبي ﷺ مات كافرا مع حرص النبي على هدايته مما يؤكد أنه لا يغنى عنهم شيئا ولا يملك لهم هداية ونفعا ، فبطل بهذا مزاعم عباده المشركين.

باب قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ (١٦)

اسم الباب : أدلة التوحيد والبراهين على بطلان الشرك

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : البراهين الدالة على تفرد الله بكماله ووحدانيته في العظمة والكبر واستحقاق العبادة، وأن هذه الصفات ليست في أحد سواه ﷻ.

مكانه ونوعه:يعد من الأبواب الدالة على التوحيد وتفرد الله بالعبادة والكمال.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن الله ﷻ أمر بالتوحيد وبين لعباده صفاته وكمال عظمته التي استحق بها أن نوحده سبحانه وتعالى، وضعف الخلق من الملائكة والرسل فمن دونهم.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله: هذا الباب والسابق في أدلة التوحيد إلا أن الأول في بيان صفات الآلهة الشركية الباطلة ، وفي إبطال الشرك ، وهذا الباب في بيان صفات الإله الحق الخالق الآمر الواحد سبحانه ، وفي إثبات استحقاق التوحيد لله تعالى .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب :

فيه مشابهة لبابين : الباب الذي قبله ، والباب الأخير من الكتاب .

كما أن له تعلق بالأبواب الستة الأولى في الكتاب، والأبواب المبينة لعظمة الله والتأدب مع الربوبية ، والأبواب التي أوضحت حماية النبي ﷺ جناب التوحيد.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١ – آية: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ سبا٢٣.

٢ – عن أبي هريرة الدوسي ﷺ عن النبي ﷺ قال: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، – ووصفه سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه – فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن. فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة. فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء) رواه البخاري.

٣ – عن النواس بن سمعان العامري قال: قال النبي ﷺ: (إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة – أو قال رعدة – شديدة خوفا من الله، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا، وخروا لله سجدا. فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد. ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل قال الحق وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله) رواه ابن خزيمة أبو زرعة في تاريخه وابن أبي عاصم وابن جرير وغيرهم.

هذه الأدلة تبين عظمة الله وقوة صوته وحصول خوف الملائكة مع عظم خلقها منه تعالى وهذا يوجب على عبيده أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئا .

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١) : أوجه استحقاق الله تعالى العبادة دونما سواه :

الأول: لكماله .

الثاني: لجمال صفاته وجلاله تقدس ﷻ .

الثالث : لإنعامه ﷻ على خلقه وتفضله على عباده .

الرابع : لأنه ﷻ النافع الضار وحده.

الخامس : لكمال غناه ﷻ وفقر كل مخلوق إليه .

السادس : لكمال رحمته بخلقه ولطفه بهم ولعلمه بما يحتاجونه وما ينفعهم.

ولا يمكن أن توجد هذه الصفة ولا ما سبقها من الصفات في غير الخالق .

م (٢) : مفاسد عبادة غير الله :

١- أن فيها التجاء وتوجه وافتقار لغير الله .

٢- أن فيها إهانة العبد لنفسه حين يترك عبادة الله إلى عبادة مخلوق مثله.

٣- تضييع لمعنى العبودية لله التي هي أشرف صفات العبد وأعلى مقاماته .

٤- أن فيها هضم لحق الربوبية وإبطال لمقتضياتها وترك تعظيم الرب وسؤاله.

٥- نسبة الألوهية للمخلوق ووصفه بالربوبية والكمال واستحقاق للعبادة .

٦- تنقص جناب الربوبية وذلك بترك عبادته لأن غيره أنفع وأقدر وأجوب.

٧- أن فيه إساءة الظن بالله وعدم تقديره.

٨- أن فيها تشبيه الخالق بالمخلوق وذلك باعتقاد أنه محتاج لواسطة تشفع عنده، وفيها تشبيه المخلوق بالخالق وذلك بإعطائه صفات الألوهية وأنه يدعى.

م (٣) : إثبات صفة صوت الله تقدس وتعالى إذا تكلم بالوحي :

وقد جاء أنه كصوت جر السلسلة على صفوان وكصلصلة الحديد على الصفا ووقعها على الصخر الصلب الأملس ، وذلك من حديث أبي هريرة عند البخاري، وحديث عبد الله بن مسعود، وحديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهم وقد وردت الأحاديث بعدة روايات وبأكثر من طريق منها:.

(كأن قوله سلسلة على صفوان) . (لقوله صوت كصوت السلسلة على الصفا) . (إذا تكلم الله سمع لكلامه صوت كجر السلسلة على صفوان) . (لكلامه بالوحي صلصلة) . (فلما تكلم ربنا بالوحي كان صوته كصوت الحديد على الصفا) .

وهذه الروايات تدل على أن لصوت الله تعالى إذا تكلم بالوحي صلصلة كصلصة السلسلة من الحديد إذا ضرب بها أو جرت على صفوان وهو الصفا الصخر الصلب الأملس. فهي تبين صراحة أنه يسمع لكلام الله سبحانه وتعالى صوتاً كصوت جر السلسلة من حديد إذا جرت على الصخر .

قال الإمام أحمد في حديث ابن مسعود " إذا تكلم الله سمع له صوت كجر السلسلة على صفوان" : (وهذا الجهمية تنكره . وقال : هؤلاء كفار يريدون أن يموهوا على الناس ، من زعم أن الله لم يتكلم فهو كافر إلا أنا نروي هذه الأحاديث كما وردت) . رواه عنه ابنه في السنة.

قال ابن تيمية : (قوله إذا تكلم الله تعالى بالوحي سمعه جبريل : يدل أنه تعالى يتكلم به حين يسمعونه وليس أزليا ، وأيضا فما يكون كجر السلسلة على الصفا يكون شيئا بعد شيء) الفتاوى ٦/ ٢٣٤ .

فيجب عليك يا أخا التوحيد الإيمان بهذا الحديث وما جاء فيه من إثبات صفة الصوت لله عز وجل وأنه كصوت السلسلة على صفوان من دون تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تكييف .ولا تلتفت بعده إلى تأويلات بعض أهل العلم لهذا الحديث حيث شابهوا الجهمية من حيث لم يشعروا ، وظن هؤلاء المتأولة أن في إثبات هذا الحديث على ظاهره والإيمان بحقيقته يلزم منه تمثيل للرب سبحانه بخلقه وأنه مشكل مع قوله تعالى : (ليس كمثله شيء) .

فقالوا : إن صوت السلسلة على صفوان هو صوت السماء أو الارتجاج في السماء الناجم عن صوت الله كصوت الصدا المرتج وصوت أزيز الحديد ونحوه.

وقال بعضهم أنه صوت الملائكة إذا ضربت بأجنحتها .

وقال بعض هؤلاء أن هذا التشبيه للفزع في قلوب الملائكة .

وقال بعضهم المراد بالتشبيه بصوت السلسلة التتابع في كلامه .

وقال بعضهم هو تشبيه لسمع الملائكة بسمع السلسلة لا أنه تشبيه لصوت الله فهو تشبيه للسمع بالسمع لا المسموع بالمسموع مثل ما يقال في الرؤية للقمر تشبيه للرؤية لا المرئي .

وكل ذلك باطل حيث زعموا أن التشبيه الوارد في الأحاديث ليس لصوت الله تعالى ، وقد أبطلت أقوالهم وتأويلاتهم من ثلاثة عشر وجها في رسالة مستقلة .

باب الشفاعة (١٧)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : الشفاعة وكونها ملك لله لا تطلب إلا منه بإذنه ورضاه ، ولا تطلب من المخلوق والرسول ﷺ بعد موته وأن ذلك من الشرك .

مكانه ونوعه: يعد من الأبواب المبينة لحقائق الشرك الناقض للتوحيد .

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن الطلب من المخلوق الشفاعة عند الله يعتبر ناقضا للتوحيد ، وأن باب الشفاعة هي سبب الشرك عند المشركين كما قال تعالى عنهم :﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ .

فأورده المصنف هذا الباب ليرد على القبورية ومشركي زمانه المتمسكين بها.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله: أورده بعد الأبواب التي في سياق إبطال عبادة غير الله ومتعلق المشركين في معبوداتهم وأنها في الحقيقة لا تملك ولا تخلق ولا تشفع .

كما جاء بعد أبواب العبادات التي تفرد الله بها الدعاء وغيره والشفاعة منها.

ثانياً : مناسبته لغيره : له علاقة بباب شرك الدعاء والاستغاثة ، رقم : (١٤).

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد خمسة أدلة في الشفاعة وسنأتي بها وغيرها في الأدلة . كما أورد نقلا عن ابن تيمية في أسباب الشرك الأربع التي في آية سبأ: الملك والشرك والإعانة والشفاعة.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

مبحث : الشفاعة الشركية

م (١) : تعريف الشفاعة :

الشفع في اللغة ضد الوتر والفرد فهو بمعنى الزوج والاقتران والجمع والضم والطلب . والاستشفاع : طلب الشفاعة .

اصطلاحا : طلب الخير للغير والتوسط له والسؤال في التجاوز عن الذنوب .

م (٢) : الاستغاثة أعم من الشفاعة :

وبيانه أنه إذا كان المدعو شفيعا كانت شفاعة وإن كان مستقلا لم تكن شفاعة .

فقول المشرك : يا محمد أغثنا فهذه استغاثة وليست بشفاعة .

أما قوله: يا محمد اشفع لي عند الله يغيثني أو يقول استغث لنا، فهذه الشفاعة.

فالشفاعة ما جعل فيها الداعي واسطة بينه وبين الله تقرب له وتشفع عنده .

م (٣) : الشفاعة يدخلها التوحيد والشرك :

يجب أن نوحد الله بالشفاعة ونوحد الله في طلبها منه وحده لأنها ملك لله ، ولأن الدعاء عبادة لا يجوز أن تصرف إلا لله .

والشفاعة يدخلها الشرك .

وبذلك يصح أن يقال : توحيد الشفاعة وشرك الشفاعة والشفاعة الشركية .

م (٤) : الشفاعة شرك من جهتين :

١- فيها دعاء غير الله .

٢- فيها مشاركة الله في الشفاعة ومنازعته في أمر ملك له ولذلك سمّى الله ﷻ الشفعاء بالشركاء، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ ﴾ الروم: ١٣.

م (٥) : أدلة الشفاعة :

أدلة الشفاعة من القرآن :وقد ورد موضوع الشفاعة في أربع وعشرين آية .

أولاً : أدلة شروط الشفاعة :

١- قال تعالى:﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ البقرة: ٢٥٥.

٢- قال:﴿ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ النجم: ٢٦.

٣- قال تعالى:﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ طه: ١٠٩ .

ثانياً : أدلة الشفاعة المنفية :

٤- قال تعالى:﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ الأنعام: ٥١.

٥- قال تعالى:﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ غافر: ١٨ .

٦- قال:﴿ يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ البقرة: ٢٥٤.

٧- قال تعالى:﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ البقرة: ١٢٣ .

ثالثاً:نفي الشفعاء وبطلان شفاعتهم وإثبات الشفاعة لله وأنها ملك لله وحده:

٨- قال تعالى:﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الزمر: ٤٤.

٩- ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾الروم ١٣.

١٠- قال تعالى:﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ مريم: ٨٧.

٢٠- ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا ﴾ الزمر: ٤٣ .

٢١- قال:﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الزخرف: ٨٦ .

وهذا استثناء منقطع يفيد أن الشفاعة لا يملكها أحد ، ولا ينافي ذلك إذنه فيها للبعض، وهذا ما رجحه ابن تيمية وهو الصحيح.

أدلة الشفاعة من السنة المطهرة :

١- عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قلت يا رسول الله : من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : (لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه) رواه البخاري .

٢- حديث الشفاعة الطويل المتفق عليه عن أبي هريرة وفيه قال ﷺ : (فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي ، ثم يقال:يا محمد ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول: يا رب أمتي أمتي) . وفي رواية : (فيأتونني ، فأستأذن على ربي فيؤذن لي ، فإذا أنا رأيته وقعت ساجدا فيدعني ما شاء الله فيقول لي) .

٣- حديث أبي سعيد في شفاعة الشافعين في أهل النار:(فيقول الله ﷻ شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين) متفق عليه .

٤- عن أنس يرفعه:(شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي) أبو داود والترمذي .

م (٦) : أركان الشفاعة :

١- الشفاعة : وهي الفعل نفسه والطلب الذي يقوم به الشافع.

٢- الشافع (الشفيع والمشفّع) وهو الطالب والمتوسط .

٣- المشفوع له : وهو صاحب الذنب وطالب الشفاعة المنتفع بها .

٤- المشفوع عنده وإليه:وهو المتصرف في الأمر والمالك للعقوبة والعفو عنها.

٥- المشفوع فيه : وهو الذنب الذي استحق فاعله عليه العقوبة .

م (٧) : مذاهب الفرق في الشفاعة :

القول الأول: أن الشفاعة جميعها منفية إلا القليل اليسير ؛ فنفوا الشفاعة للعصاة يوم القيامة وهذا قول الخوارج والمعتزلة والزيدية .

القول الثاني: من غلا في إثباتها وجعل الشفاعة مطلقة في الدنيا وفي الآخرة، فأثبت الشفاعة لمحمد ﷺ والصالحين، وهذا مذهب الصوفية والرافضة والقبورية.

الثالث: وهو قول من توسط بين هؤلاء ، وهم أهل السنة والتوحيد الذين لم ينفوا الشفاعة بالكلية ، ولم يثبتوها بالكلية بل توسطوا فيها فأثبتوها بشروط وإذا انتفت الشروط انتفت الشفاعة ، فقالوا : الشفاعة تثبت بإذن الله ورضاه يوم القيامة.

م (٨) : أقسام الشفاعة :

١- تنقسم الشفاعة إلى شفاعة لجلب خير وشفاعة لدفع شر .

الأولى في قبول الحسنات والتقريب ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ الزمر: ٣.

والثانية في تكفير السيئات ودليلها : ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ .

٢- كما تنقسم الشفاعة إلى شفاعة مثبتة وشفاعة منفية .

٣- شفاعة في الدنيا وشفاعة في الآخرة .

٤- الشفاعة عند الله والشفاعة عند الناس .

وتنقسم الشفاعة إلى :

١- شفاعة مخلوق عند مخلوق : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ النساء: ٨٥ . وقال ﷺ: (اشفعوا تؤجروا) رواه مسلم .

٢- شفاعة الخالق عند المخلوق وهذه غير موجودة وأنكر الرسول ﷺ على من أثبتها واعتقد وجودها.

٣- شفاعة المخلوق عند الخالق وهي قسمان مثبتة ومنفية .

ولها أنواع من جهة طلبها :

١- أن تطلب من الله وهذا جائز. اللهم شفع رسولك فينا .

٢- أن تطلب من الرسول ﷺ زمن حياته وهذا جائز وقد ثبت ذلك عن أنس.

٣- أن تطلب من الرسول ﷺ بعد موته وهذا الكفر الأكبر .

٤- أن تطلب من الرسول يوم القيامة وهذا جائز إن رضي الله ﷻ، وقد أخبر النبي ﷺ أن الناس في الموقف يطلبون الشفاعة من الرسل.

م (٩) : الشفاعة المثبتة والمنفية :

الشفاعة المثبتة : تطلب من الله ﷻ بإذنه ورضاه وهي خاصة لأهل التوحيد.

الشفاعة المنفية : وهي التي تطلب من غير الله أو تطلب من الله لكن بدون إذنه ورضاه ، وقد ذكرها الله ﷻ في آيات في مثل قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ البقرة: ٢٥٤.

م (١٠) : ضابط الشفاعات التي نفاها الله ﷻ وأقسامها :

أن تطلب الوسائط المخلوقة وتدعى من دون الله لتقرب الداعي إلى الله وتشفع له عنده سبحانه في جلب نفع أو دفع ضر . ومن ذلك ما يفعله عباد القبور المشركون من طلب الأموات أن يشفعوا لهم ويتقربون بهم إلى الله تعالى.

والشفاعة المنفية المحرمة لها قسمان :

القسم الأول: الشفاعة الشركية أن تطلب من غير الله ﷻ.

الثاني:أن تطلب من الله ﷻ لكن بغير إذنه ولا رضاه ، فلا يتوفر فيها الشروط.

ومن صور الشفاعة المحرمة : الدعاء للمشرك، ومن هذا الباب نهى الله نوحاً عن الدعاء لابنه وإبراهيم لأبيه ومحمدا ﷺ من الدعاء لأمه وعمه ولأبي ابن سلول .

م (١١) : شروط الشفاعة :

١- الشرط الأول : الإذن من الله تعالى للشافع .

٢- الشرط الثاني : رضا الله تعالى عن الشافع وعن المشفوع له .

والدليل على هذين الشرطين قوله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾ النجم: ٢٦.

فالشفاعة لا تتم إلا بإذن من الله ﷻ وهذا الإذن راجع إلى الله وإلى ربوبيته.

م (١٢) : الفرق بين الشفاعة عند الخالق والشفاعة عند المخلوقين :

الأول : أن الشفاعة عند الله ﷻ لا تحصل إلا بإذنه ورضاه وما هذا إلا لكماله.

أما الشفاعات عند المخلوقين فقد تحصل الشفاعة بدون إذنهم ولا رضاهم .

وهذا عمدة الفروق ومرجعها حيث ترد كل الفروق الباقية إليه .

فالله ﷻ لا يقبل شافع عنده إلا بإذنه، وهذا من تمام ملكه، ويقبل الشفاعة من غير رجاء لأحد أو خوف من أحد، وهذا بعكس غيره فيشفعون للناس فيقبل ملوك الأرض شفاعة الشفعاء إما رغبة في خير لهم أو رهبة أو خوف، وهذا دليل على نقصهم وضعفهم، فكيف تسوى بعد ذلك الشفاعتين شفاعة الله وشفاعة المخلوق، فتطلب من الله الشفاعة كما تطلب من ملوك الأرض، وما هذا إلا من عظم الظلم .

الثاني: البشر والملوك محتاجون للشفاعة إما لجهلهم برعاياهم أو لعجزهم وعدم قدرتهم بتدبير أمورهم أو لقسوتهم فيحتاجون من يسترحمهم ويستعطفهم .

أما الرب ﷻ فليس محتاجاً إلى أحد وكل الخلائق يصمدون إليه بحوائجهم .

الثالث : قد يكره المخلوق على الشفاعة وتحصل بدون رضاه واختياره وذلك لقوة الشافع ومهابة الملك له أو لمحبته له أو غير ذلك. أما الرب ﷻ فلا يخاف من أحد ولا يرجو ما عند أحد وهو العلي الكبير ويرجع هذا للفرق الأول .

الرابع: أن الشفاعة والشافع والمشفوع له كل ذلك ملك لله تعالى، أما المشفوع عنده من ملوك الدنيا فليست الشفاعة ملك لهم ولا أيضا الشافع بل هم شركاء فيها ليست ملكاً لأحد منهم .

الخامس : أن الشفاعة عند المخلوق مؤثرة والشافع مؤثر وآمر فيها وله تأثير في تحصيلها، بخلاف الشفاعة عند الخالق ﷻ فالشافع ليس آمراً ولا مؤثراً فيها وإنما هو مأمور من الله بالشفاعة عبداً عنده وهو مجرد سبب .

السادس : أن الله سبحانه وتر والمخلوق شفع .

فالشافع كأنه آمر وفاعل ومؤثر مع المشفوع عنده، أي أن له تأثير في الطلب والأمر، فكأن الشافع جزء من المشفوع عنده والمشفوع له ويمثل مكانهما، فالشافع يشفع المشفوع عنده والمطلوب منه وينضم معه في أمره وكأنه مشارك له في الحكم والعفو، كما أنه يشفع المشفوع له .بخلاف الرب ﷻ فهو وتر وهو وحده الحاكم الآمر لم يشفعه أحد، ولم يشاركه الشافع في الحكم.

م (١٣) : الشفاعة ملك لله تعالى ولا ينافي ذلك الإذن بها :

ومعنى أنها ملك لله تعالى أي خاصة به وله وحده، فهو المالك لها لا يشاركه أحد فيها ، وليس لأحد أن يشفع للخلق عنده ابتداءاً من دون استئذانه تعالى.

ومما يدل على أن الشفاعة لا يملكها غير الله قوله ﷻ : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ الزمر: ٤٤، ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ مريم: ٨٧، ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ الزخرف: ٨٦، ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا ﴾ الزمر: ٤٣.

فالخلق لا يملكون الشفاعة وهذه عقيدة أهل التوحيد في الشفاعة أنها ملك لله وحده لا يملكها أحد ولا يتصرف فيها غيره ، وليس لأحد أن يشفع عنده إلا بعد إذنه ورضاه مما يدل على أن الشافع مأذون له في الشفاعة وليس بمالك لها واللام في قوله ﴿ لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ ﴾ للملك والاستحقاق فهي ملك لله وحق له وحده .

وأما قوله: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فإن هذا استثناء منقطع يفيد أن الشفاعة لا يملكها أحد ، ولا ينافي ذلك إذنه فيها للبعض فإن شفاعتهم من غير أن يملكوها وإنها بعد إذن الله، فيكون المستثنى بقوله إلا من شهد بالحق حصول الشفاعة لا ملكها ، وهذا ما رجحه ابن تيمية كما تقدم.

قال ابن تيمية : (فأما إذا أذن له في أن يشفع لم يكن مستقلا بالشفاعة بل يكون مطيعاً له أي تابعا له في الشفاعة) الفتاوى ١/ ١١٨ .

وشفاعة الرسول ﷺ يوم القيامة عند الله فإنها لا تكون إلا بإذن الله له ابتداء ولا يشفع أي شافع الرسول وغيره ابتداءً، ولذلك لا يشفع الرسول ﷺ حتى يسجد

ويحمد الله، ثم يقول الله وتعالى له يا محمد ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع، فالله ﷻ أمره بالشفاعة ابتداء ثم هو يقول أمتي فيشفع لنا نسأل الله من فضله.

فتأمل هذا الموقف فهو رأس التوحيد وعماده فلم يقل الرب لمحمد ﷺ ماذا تريد ويقول أريد الشفاعة، بل الله الذي يأمره بأن يشفع فهذا معنى كون الشفاعة ملك لله وتحت إذنه لمن شاء أن يشفع إذا رضي، وقد لا يرضى فلا تقبل الشفاعة .

ومما يدل أن الله الذي يأمره بأن يشفع وأن يشفع في خلق معينين حديث أبي سعيد الخدري في مسلم : (حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة فجيء بهم) .

وحديث أنس في الشفاعة في مسلم : (اشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي، ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة) .

وحديث: (ربي قوم من أمتي قد أمرت بهم إلى النار، قال فيقول:انطلق فأخرج من شاء الله أن تخرج) وفي سنده إسماعيل بن عبيد تُكلم فيه ووثقه الدارقطني .

ولو أراد الرسول ﷺ الشفاعة وطلب من الله أن يشفع لأحد فإنه لن يفعل ذلك إلا إذا أذن الله له، ألا ترى أن الله ﷻ قد رد شفاعة الرسول ﷺ حين شفع ودعا لابن سلول حين صلى عليه يوم مات، كذلك لم يؤذن له في الاستغفار لأمه، وكذا إبراهيم في أبيه ونوح في ابنه، بل لامهم الله على شفاعتهم، وكل هذا يقطع بأن الشفاعة ملك لله، وإذا كان هذا حال أفضل الخلق فكيف بغيرهم ومن دونهم، وكيف بعد هذا يقول من يقول من مشركي هذه الأمة أن الرسول ﷺ يشفع ويملك الشفاعة والله أعطاه مطلق الشفاعة ابتداء فنطلبها منه مباشرة .

ومن الأدلة الدالة على أن الشفاعة تكون بأمر الله ولا ينالها إلا من شاء الله وأن أفضل الخلق وأعلاهم منزلة وأعظمهم مكانة عند الله قد ردت شفاعتهم في مواضع:

قوله ﷺ: (يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئا) (يا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً) رواه مسلم.

وقوله ﷺ: (لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول يا رسول الله أغثني فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك) . رواه البخاري ومسلم .

وقول الله تعالى له مخبرا بأنه لن يقبل شفاعته وناهيا له عن الشفاعة :

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ التوبة: ٨٠.

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ المنافقون: ٦.

ولما أراد النبي ﷺ أن يستغفر لأبي طالب نهاه الله ونزلت عليه الآيات في سورة التوبة: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ ﴾ .

وقال ﷺ : (استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي) رواه مسلم.

كما لام الله نوحا لما أراد أن يشفع في ابنه وعاتبه : ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ هود: ٤٦ – ٤٧.

كما أنكر الله تعالى على خليله إبراهيم لما أراد أن يشفع لأبيه ويستغفر له بقوله :

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ التوبة: ١١٤

بل إنه لا يقبل شفاعته فيه حين يشفع فيه يوم القيامة: فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر فترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم : يارب أنت وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله عز وجل: إني حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقال انظر ما تحت رجليك، فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار) . رواه البخاري .

م (١٤) : باب الشفاعة من أجله أرسلت الرسل :

الرسل بعثت لتوحيد العبادة لله وأن الشفاعة كلها ملك لله ولتقول الرسل للمشركين ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ الزمر: ٤٤ ومن أجل ذلك حصلت العداوة وجرد السيف، والمشركون جعلوا الشفاعة شرك بين الله وبين آلهتهم فتعلقوا بالشفاعة وكانوا يقولون ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ . فأثبتوا الشفاعة لمعبوداتهم ودعوها وسألوها أن تشفع لهم عند الله، فكان طلب الشفاعة شركا لأن التشفع والدعاء من العبادة التي لا تصرف إلا لله، ولذلك صاروا بطلب الشفاعة من المخلوق وسؤاله عبيداً لغير الله وواقعين في الشرك فاستباح الرسول ﷺ دماؤهم.

وتأمل حين ألقي الشيطان في قراءة الرسول ﷺ تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى وهو يقرأ في سورة النجم، سجد كفار قريش معه آخر السورة، وظنوا أن الرسول وافقهم في دينهم .كل هذا يدل على أن أصل الخلاف هو في باب الشفاعة، وأنها سبب ضلال جميع الأمم المشركة، وحجة وذريعة كل مشرك.

م (١٥) : شرك الدعاء والشفاعة اجتمع عليه كل مشرك: وتقدم .

م (١٦): الذي يطلب الشفاعة من غير الله جمع بين أمرين وتشبيهين باطلين :

الأمر الأول : قياس الله تعالى بخلقه وتمثيل الخالق بالمخلوق، حيث جعل هذا المشرك ربه سبحانه محتاجا للشافع مثل ملوك الدنيا .

الأمر الثاني : قياس المخلوق بالخالق ﷻ وتشبيه له، وذلك بجعله يدعى مع الله تعالى وأنه يشفع ويملك الشفاعة ويقدر أن ينفع ويكشف الضر مثل الرب .

م (١٧) : الشفاعة أحد أسباب الشرك الأربع : المشرك إنما أشرك مع الله غيره ممن يرجو حصول منفعة فيه، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة وسبب من أربع :

١- أن يكون مالكاً للمطلوب .٢- شريكاً للمالك .٣- معيناً وظهيراً له.٤- شفيعاً.

هذه الأسباب الأربعة نفاها الله ﷻ عن كل معبود بالتدرج وأثبت الشفاعة بشرطها في آية سورة سبأ:﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ .

قال ابن القيم في المدارج: (قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع ، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع إما مالكاً لما يريده عابده منه ، أو شريكاً للمالك ، فإن لم يكن شريكاً كان معيناً له وظهيراً فإن لم يكن كان شفيعاً عنده، فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً متنقلاً من الأعلى إلى الأدنى ، فنفي الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة).

قال ابن تيمية : (نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عونا لله. ولم يبق إلا الشفاعة. فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب).حقيقة الإسلام والإيمان ١١٩ .

م (١٨) : سبب الشرك عدم التفريق بين الشفاعة عند الخالق وعند المخلوق:

أعظم سبب أوقع المشركين في دعاء غير الله ﷻ هو سوء الظن بالله سبحانه وعدم تقديره وعدم معرفة صفاته التي وصف الله تعالى بها نفسه وبيّنها لخلقه .

وعدم تفريقهم بين الخالق والمخلوق في هذا الباب العظيم، ومرجع ذلك كله إلى اعتقاد أنه محتاج لمن يشفع عنده مثل ملوك الدنيا.

وبيانه: أن في إدخال الوسائط بين الله تعالى وبين خلقه كما هو عند المخلوقين تمثيل شنيع وتشبيه باطل، حيث مثّل الخالق بالمخلوق فالواسطة لا تكون إلا لمحتاج لها والله تعالى ليس في حاجة لها كما هو حال ملوك الأرض، ثم في إثبات الوسائط نفي لرحمة الله فكأن الله تعالى لا يرحم إلا بالواسطة فهو تعالى عن ذلك محتاج لمن يستعطفه ويسترحمه على خلقه وهذا أعظم الظلم، يسلب الرحيم من رحمته والذي هو أرحم الراحمين والذي وسعت رحمته كل شيء، ولذلك من نفى رحمة الله بهذا الأسلوب استحق ألا يرحم ويطرد ولا يكتب في رحمة الله ﷻ ، كما أن في إثبات الشفعاء عند الله وكونها تملك الشفاعة لمن دعاها فيه تمثيل وتسوية لمن خلق من التراب برب الأرباب ﷻ وللعبد الفقير العاجز الضعيف بالملك تعالى مالك الرقاب ومن له الصفات والأفعال، وهذا تناقض من المشرك وتنقص منه لربه وعدوان على مقامه وسوء ظن بخالقه ﷻ شاء أم أبى علم ذلك أو لم يعلم.

فالمشرك مثل الخالق بالمخلوق وما علم معنى الشفاعة، وما فقه كيف يسيء لربه حين يطلب الشفاعة من غيره، يطلب الشفاعة من ملك و نبي أو نحو ذلك فيجعل الله عز وجل كأنه يقول : يا رب لم نطلبك وإنما نطلب غيرك لأنك لا تعلم

بحالنا، وإنما الذي يعلم بحالنا هم الوسطاء، وأنت بعيد عنا لا تعلم حالنا، ولا يوجد منك الرحمة الكافية التي نستعطفك بها وإنما نستعطف الأولياء الذين قربوا منك فيستعطفونك، وهذا هو الكفر البواح والعياذ بالله والشرك الأعظم، وهذا السر في كون من طلب الشفاعة من غير الله ﷻ أعظم الشرك والكفر .

ولا ينفع هذا المشرك بعد كل ذلك أن يدّعي أنه ما وضع الوسائط إلا تعظيماً لله تعالى وتأوله وظنه هذا بربه وجهله بحقيقة عمله، فما كل كافر عالم عنيد .

م (١٩) : طلب الشفاعة من المخلوق سبب حرمانها وعدم حصولها :

وبيان ذلك أن الشفاعة لا ينالها أحد إلا بالتوحيد، وطلبها من غير الله وسؤال المخلوق الشفاعة شرك في الدعاء والعبادة والشرك يحرم صاحبه الشفاعة .

وبهذا يُعلم أن المشركين بدلوا قولاً غير الذي قيل لهم، حين طلبوا الشفاعة بما هو سبب لمنعها وهو الشرك ودعاء غير الله . ولذلك الشفاعة التي أثبتها المشركون لأوثانهم صرح القرآن ببطلانها ونفيها ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ البقرة: ٢٥٥.

ومصداق ذلك قول النبي ﷺ: (أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله خالصا من قلبه) البخاري . فتجريد التوحيد أعظم الأسباب التي تنال بها الشفاعة، وقد عكس المشركون ذلك فجعلوا الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم فقلب النبي ﷺ ما في ظنهم بالشفاعة وأنها قائمة على الإذن والرضا ولا يرضى إلا التوحيد.

قال ابن القيم في الإغاثة والمدارج: (تأمل هذا الحديث كيف جعل الأسباب التي تنال بها شفاعته: تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين أن الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم، فقلب النبي ما في زعمهم الكاذب ...) .

وقال ابن تيمية : (الملائكة وغيرهم لا يملكون الشفاعة فليس توليهم والاستشفاع بهم هو الذي يوجب أن يشفعوا ... فالذين عبدوا الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين ليشفعوا لهم ودعوهم من دون الله كانت عبادتهم إياهم ودعاؤهم وإشراكهم بربهم الذي به طلبوا شفاعتهم به حرموا شفاعتهم وعوقبوا بنقيض قصدهم لأنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً) الفتاوى ١٤/ ٤١٢ .

ولو تأمل هؤلاء الجهال ما هم عليه من سيرة الكفار الأولين الذين عبدوا ودا وسواعا واللات والعزى وعيسى وأمه وغيرهم من المشركين الذين كان أصل قولهم: ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣. كما أخبرنا تعالى عنهم، ومع ذلك جاء مشركو أمة محمد بمثل ما قاله أولئك فقالوا: ما نعبد محمداً إلا ليقربنا إلى الله ونحن ندعوه ونشركه مع الله في الدعاء ليشفع لنا عند الله، فلو أن لهم عقل لعلموا أنهم يسعون في أن يحرموا شفاعة الرسول ﷺ وجنات الخلد ورضوان الرحمن لكفوا عن شركهم وتبريرهم إياه.

أما وإنه سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون وحينها يوقنون أن سؤالهم الشفاعة من محمد ﷺ بعد موته هو الذي سيحرمهم نيلها وسيخلدهم ذلك في نار جهنم إن ماتوا على ذلك الشرك العظيم ويقول الله لهم : ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ الأنعام: ٩٤ بل ويكفرون بهم ويتبرؤون منهم ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ الروم: ١٣، وذلك لأنهم لم يرتدعوا في الدنيا من طلب الشفاعة والله يقول لهم : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾

الزمر:٤٣ وأن هذه الشفاعة لا تغني من الله شيئاً والرسل أقاموا الحجة وأنـزل القـرآن ليحذر الناس من عبادة غيره ودعاء المخلوق كائنا من كان وأن الـدعاء لله وحـده لا يصرف لغيره، فمن آمن بعد كل هذا فله الجنة ومن أشرك فالنـار موعـده ولا يعـذر بتأوله وجهله، نعوذ بالله من الشرك والضلال والخذلان .

م (٢٠) : كفر من اعتقد جواز الشفاعة ولو لم يطلبها .

م (٢١): هناك شبهات في باب شرك الدعاء وباب الشفاعة ، نقضتها في كتـابي كشف الشبهات وكتاب الشرك .

نختم باب الشفاعة بكلام نفيس للإمام ابن القيم في إغاثة اللهفان ص:٢٤٦ .

قال رحمه الله: (فصل في الفرق بين زيارة الموحدين للقبور وزيارة المشركين :

زيارة الموحدين فمقصودها ثلاثة أشياء : تذكر الآخرة والاعتبار والاتعـاظ . والإحسان إلى الميت بالدعاء له . وإحسان الزائر إلى نفسه باتباع السنة .

والزيارة الشركية فأصلها مأخوذ عن عبّاد الأصنام . قالوا: الميت المعظّم الذي لروحه قرب ومنزلة ومزية عند الله، لا تزال تأتيه الألطاف من الله تعالى وتفيض على روحه الخيرات، فإذا علق الزائر روحه به وأدناها منه فاض من روح المزور على روح المزار، قالوا: فتمام الزيارة على هذا الوجه أن يتوجه الزائـر بروحـه وقلبـه وقـصده للميت، وبهذا السر عبدت الكواكب واتخذت الأصنام المجسدة لها، وهذا بعينـه هـو الذي أوجب لعباد القبور اتخاذها أعيـادا وتعليـق الـستور عليهـا وإسراجهـا وبنـاء

المساجد عليها، وهذا الذي نهى الرسولﷺ عنه وحذر منه وأراد إبعاد أمته عنه، وهذه هي الشفاعة الشركية التي بعثت الرسل بالنهي عنها وتكفير فاعلها، والقران مملوء بالرد على أهلها وإبطال مذهبهم: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾ الزمر: ٤٣. فأخبر أن الشفاعة لمن له ملك السموات والأرض ، فهو الذي يشفع لنفسه عند نفسه ليرحم عبده، فيأذن لمن يشاء أن يشفع فيه فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ السجدة: ٤، فأخبر أنه ليس للعبد شفيع من دونه، والشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه ولا الشافع شفيع من دونه بل شفيع بأمره وإذنه.

والفرق بين الشفاعتين كالفرق بين الشريك والعبد المأمور والخالق والمخلوق، فنفى شفاعة الشريك وأثبت شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه وربه حتى يأذن له، فمن أثبت شفاعة الشركاء الشركية وأشرك بهم المشرك واتخذهم شفعاء من دونه ظنا منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله فهو من أجهل الناس بحق الرب وما يجب له تعالى، فإن هذا ممتنع وشبيه قياس الرب على الملوك والكبراء حيث يتخذون من خواصهم من يشفع عندهم في الحوائج، وبهذا القياس عبدت الأصنام واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي، والفرق بين الشفاعتين هو الفرق بين الرب والعبد والخالق والمخلوق والغني والفقير والذي لا حاجة له بأحد والمحتاج من كل وجه إلى غيره، فالشفعاء عند المخلوقين هم شركاؤهم فإن قيام مصالحهم بهم وهم أعوانهم وأنصارهم ولولاهم لما انبسطت أيديهم وملكهم على الناس فلحاجتهم إليهم يحتاجون لقبول شفاعتهم ولو لم يأذنوا

أو يرضوا عن الشافع والمشفوع له لأنهم يخافون إن ردوا شفاعتهم أن تنقص طاعتهم لهم ويذهبون لغيرهم وهذا خلافا للرب المالك الغني القاهر وحده سبحانه، وهذه الشفاعة التي نفاها الله وهي الشفاعة الشركية .

وسر الفرق بين الشفاعتين أن شفاعة المخلوق للمخلوق وسؤاله للمشفوع عنده لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده لا خلقا ولا أمرا ولا إذنا بل هو سبب محرك له من الخارج كسائر الأسباب وقد تكون الشفاعة مع كراهية المشفوع عنده وعدم رضاه عنها ويقبلها كرها... وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه فانه ما لم يخلق شفاعة الشافع ويأذن له فيها ويحبها منه ويرضى عن الشافع لم يمكن أن توجد، والشافع لا يشفع عنده لا لحاجة الرب إليه ولا رهبة منه ولا رغبة فيما لديه وإنما يشفع عنده مجرد امتثال لأمره وطاعة له فهو مأمور بالشفاعة فالرب هو الذي يحرك الشفيع من ملك ورسول ونبي وغيرهم ... ومن وفقه الله لفهم هذا الموضع ومعرفته تبين له حقيقة التوحيد والشرك والفرق بين ما أثبته الله تعالى من الشفاعة وبين ما نفاه وأبطله) .

مبحث الوسائط

م (١) : تعريف الواسطة : توسط الشيء إذا صار بين طرفين .

والواسطة الشيء الذي يتم به الانتقال لطرف آخر ويقرب إليه .

والتوسط هو ابتغاء الواسطة إلى الله أي الاجتهاد في فعل ما يقرب إليه .

م (٢) : أسماء الواسطة والألفاظ المرادفة لها :

الشفاعة ، الزلفى ، التقريب، الوسيلة ، الدعاء ، المنزلة ، السبب ، القبلة .

م (٣): أقسام الواسطة بين الله وبين خلقه عند أهل السنة:

١- واسطة التبليغ والرسالة : الواسطة التي من الله إلى عباده وهم الرسل.

٢- واسطة العبادة والقربة من العباد إلى الله بفعل الطاعات وترك المحرمات.

٣- الواسطة الشركية : وهي أن يجعل بين الله تعالى وبين خلقه ما يقربهم إليه زلفى ويشفع لهم عنده من المخلوقين، فيتوسل بها العبد إلى الله بدعاء الله بها وهذا التوسل البدعي أو بدعائها من دون الله وطلبها أن تقرب داعيها إلى الله وتشفع له عنده، وهذا هو الشرك الأكبر والكفر البواح .

م (٤): المراد بالواسطة عند المشركين :

بالغ المبتدعة والمشركون في اعتقاد الوسائط والغلو فيها حتى اختلقوا حديثا مكذوبا وضعوه على الرسول ﷺ : (لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه) . فتعلقوا بالأحجار والقبور والأوثان وسألوها كل شيء وطلبوا منها دفع الضر وجلب النفع ورجوها في حصول الخير ودفع الشر فتعلقوا بالأموات وعبدوهم من دون الله بدعوى التقريب والشفاعة عند الله وهذا حال جميع المشركين .

م (٥) : عمدة مشركي زماننا في الواسطة :

يستدل مشركو زماننا على كفرهم وطلبهم الوسائط بقوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ المائدة: ٣٥ وقوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ الإسراء: ٥٧.

ويزعمون أن الوسيلة هي الوسائط من الأولياء والأموات ونحوهم وهي التي تشفع لهم عند الله تعالى . ولا حجة في الآيتين على ماذهبوا إليه من الكفر وتجويز الشرك، والجواب عن قولهم الفاسد واستدلالهم الباطل :

لأن معنى الآيات المرجع فيه لقول السلف:فمعنى الوسيلة عندهم في الآية الأولى هي الطاعة وعبادة الله وليس الشركاء والآلهة ودعاء الأموات كما زعموا .

وفي الثانية أن من يشرك به من الملائكة وعيسى والأولياء هم أنفسهم يبتغون الوسيلة والقربة إلى الله فهم يرجون رحمة الله ويخافون عذابه فأنتم أيها المشركون أولى بأن تخافوا الله فاعبدوا الله وحده واتركوا عبادة هؤلاء الصالحين .

قال ابن تيمية في الواسطة بين الحق والخلق : (من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه، كالحجاب الذين بين الملك ورعيته بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه فالله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم، فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس لقربهم منهم، فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل وهؤلاء مشبهون لله شبهوا المخلوق بالخالق وجعلوا لله أنداداً).

م (٦) : أقسام الواسطة الشركية وطرق المشركين فيها :

١- طريقة مشركي العرب: دعاء الوسائط والألهة وطلب الشفاعة منهم .

٢- طريقة الفلاسفة والصابئة وعباد الكواكب: الإفاضة :يقولون :إذا توجه المستشفع إلى من يعظمه فإنه يتصل بذلك المعظم المستشفع به فإذا فاض على ذلك ما يفيض من جهة الرب فاض على المستشفع من جهة شفيعه.

م (٧) : الشفاعة في الآخرة هي من الوسائط الشرعية :

الشفاعة في الآخرة هي من الوسائط الشرعية وهذا بخلاف طلب الشفاعة في الدنيا من الأولياء والأموات والنبي ﷺ بعد موته فإن هذه من الوسائط الباطلة والشفاعة المنفية المنكرة الشركية، وذلك لأنها طلب من المخلوق أمراً لا يقدر عليه ولا يملكه ولم يأذن الله في ذلك ويرضاه.وهذه الحجة الباطلة حجة كل مشرك طلب الشفاعة من الألهة﴿ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

م(٨) : سبب وجود الوسائط الشركية القياس الفاسد: قاس المشركون الله ﷻ بملوك الدنيا، في حاجتهم للواسطة والشفاعة ، وبينت ذلك في مبحث الشفاعة .

م (٩) : أنواع الشرك في الوسائط :

١- وسائط تأله تعطى صفات الألوهية:

وذلك بدعائها وسؤالها الشفاعة عند الله فيشرك بها في الألوهية .

٢- وسائط تعطى صفات الربوبية وأفعال الرب تعالى:

وذلك بسؤالها مع اعتقاد أنها تملك النفع والضر وأن لها التصرف والقدرة الكاملة مطلقاً واستقلالها بذلك فيشرك بها في الربوبية .

باب قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ (١٨)

اسم الباب : الهداية

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : تفرد الله بالهداية فلا يهدي ولا يضل غيره، وأن الهداية من خصائص الربوبية وأن الرسول ﷺ الذي يعبده الغالون فيه لا يملكها ولم يقدر أن ينفع عمه ويهديه مما يوجب ترك سؤاله وسؤال الرب وحده الخير ودفع الشر.

مكانه: يعد من الأبواب الدالة على التوحيد وتفرد الله بالربوبية والألوهية.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن الهداية داخلة في الربوبية ولا بملكها الرسول ولا غيره والقاعدة أن من تفرد بالربوبية لا بد أن يفرد بالألوهية والعبادة ، فكأن الباب من الأبواب الدالة على التوحيد وإبطال الشرك . وأورده المصنف للرد على عباد محمد ﷺ المتعلقين به.

الوقفة الثالثة : مناسبة هذا الباب لما قبله ولغيره من أبواب كتاب التوحيد:

بعد أن بين تفرد الله بالشفاعة وملكه لها ذكر تفرده بالهداية وملكه لها وأن هذا يوجب أن يوحد في الألوهية كما تفرد بالربوبية .

كما أن له تعلق بالأبواب القدرية وتوحيد الربوبية في الكتاب.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١ - قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

القصص: ٥٦.

٢- عن ابن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، فقال له: يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله. فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعادا. فكان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله. فقال النبي ﷺ : لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك. فأنزل الله :﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ ﴾ التوبة: ١١٣. متفق عليه.

وأنزل الله في أبي طالب: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

م(١) : تعريف الهداية والضلال في اللغة :

أصل الهداية في اللغة بمعنى الدلالة بلطف والإرشاد، تقول هديته الطريق إذا دللته وأرشدته وعرّفته وبيّنت له، وكل الهدايات فيها البيان والدلالة .

م (٢) : مراتب الهداية :

المرتبة الأولى : الهداية العامة هداية المعاش والتقدير :

وهي هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها .

ودليلها : قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ .

المرتبة الثانية: هداية الدلالة والبيان والإرشاد والدعوة: وهذه خاصة بالمكلفين وهي وظيفة الرسل والمصلحين، وهي لا تستلزم حصول التوفيق واتباع الحق .

دليل هذه المرتبة: قوله تعالى :﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ فصلت:١٧. وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾الشورى: ٥٢ .

وهذه المرتبة أخص من الهداية الأولى وأعم من المرتبة الثالثة التالية.

المرتبة الثالثة : هداية التوفيق : وهي الهداية المستلزمة للاهتداء .

وعرفها ابن القيم بقوله : وهي هداية التوفيق والإلهام والإعانة وخلق المشيئة المستلزمة للفعل .وهذه المرتبة هي التي زلت فيها أقدام الفرق القدرية .

ودليل هذه المرتبة : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾. ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾.

وهذه المرتبة تستلزم وتقوم على أمرين وفعلين :

أحدهما: فعل الرب تعالى: وهو الهدى والإهداء .

الثاني: فعل العبد:وهو الاهتداء وهو أثر فعله ﷻ فالله الهادي والعبد المهتدي.

قال تعالى:﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾الكهف:١٧وقال:﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى ﴾محمد١٧.

المرتبة الرابعة : الهداية إلى الجنة أو النار يوم القيمة :ودليلها قوله تعالى : ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾.. وقوله تعالى في الجنة : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾.

م (٣) : أنواع الهداية من حيث الخاص بالله وما هو عام:

١- الهداية العامة : وهي التي يفعلها الله تعالى كما يفعلها المخلوق من نبي وغيره، وهي هداية الدلالة والإرشاد والبيان، ودليلها قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ﴿ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

٢- هداية خاصة : لا تكون إلا لله وحده ولا يشترك معه أحد فيها، وهي هداية التوفيق والإلهام والتأييد، ودليلها قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ . ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾.

م (٤) : الجمع بين آية نفي الهداية عن الرسول وآية إثباتها له :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

الأولى: الهداية المثبتة للرسول ﷺ، هي هداية الدلالة والبيان والإرشاد .

الثانية: الهداية المنفية عن الرسول ﷺ والمثبتة لله، هي هداية التوفيق والإلهام .

م (٥) : معنى أحببت في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ :

أي أحببت يا محمد هدايته، والمقصود هو أبو طالب عم النبي ﷺ .

وقال بعض أهل التفسير أحببته حبا طبيعيا وهو حب القريب لقريبه .

وهذا القول لا يصح ،لأن الله حرم موادة ومحبة الكافر مطلقا ولو كان والدا أو ولدا أو زوجة ، وإنما أباح الله معهم البر والإحسان .

والدليل قوله تعالى :﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ المجادلة: ٢٢.

باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين (١٩)

اسم الباب : الغلو

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه: النهي عن الغلو .

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة ببيان ذرائع الشرك وطرقه.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن الغلو من أعظم أسباب الوقوع في الشرك وترك التوحيد .

وحقيقة الغلو في كل الأبواب (القبور المواضع الصالحين التصوير) يقوم على تعظيم غير الله .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله: لما ذكر المصنف أبواب الشرك في عبادة الأموات وغيرهم بدعائهم والذبح والنذر لهم وطلب الشفاعة والهداية منهم بيّن سبب ذلك الشرك وهو الغلو في الصالحين وتعظيم القبور.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

له علاقة بأبواب أسباب الشرك. ومنها :

القبور والتصوير وتعظيم المخلوقات وأماكن الشرك والتعبد لله فيها والتبرك.

ثالثاً:الرأي في ترتيبه:الأنسب لو جعله بعد أبواب الشرك مع أبواب الذرائع.

الوقفة الرابعة: ما فات المصنف من أدلة ومسائل :لم يدرج المصنف أنواع الغلو وصوره المتعلقة ببقية المعبودات المعظمة وكل ما يغلى فيه.

الوقفة الخامسة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ النساء: ١٧١ .

٢- قال ابن عباس في قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ نوح: ٢٣:

(هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا،ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبدت) رواه البخاري.

٣- قال ابن القيم: (قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم) إغاثة اللهفان ١/ ٢٠٣.

٤- عن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم؛ إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله) متفق عليه.

٥- عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو) رواه أحمد وغيره.

٦- عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: (هلك المتنطعون) قالها ثلاثا . رواه مسلم.

وهناك أدلة أخرى في باب الغلو منها :

١- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ ص: ٨٦.

٢- قال تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ الحج: ٧٨.

٣- قال النبي ﷺ : (عليكم بما تطيقون فوالله لا يمل حتى تملوا) متفق عليه.

٤- قال النبي ﷺ : (أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة) رواه البخاري.

٥- عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : (إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا) رواه البخاري .

٦- عن أنس مرفوعاً : (يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا) متفق عليه .

٧- أنكر النبي ﷺ على من ترك النكاح والفطر والأكل والنوم تنسكا .

٨- كما نهى النبي ﷺ عن الغلو في أحد من الخلق : فقال ﷺ : (إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب) رواه مسلم عن المقداد.

٩- لما أثنى رجل على رجل عند النبي ﷺ قال : (ويلك قطعت عنق صاحبك) متفق عليه.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١) : تعريف الغلو :

مشتق من الفعل غلا ، وهو مجاوزة الحد .

ومن الألفاظ المقاربة له :

التنطع والإطراء والتشدد والتطرف .

م (٢) : أقسام الغلو وآلاته :

١- غلو قلبي: مثل التعظيم والإفراط في الخوف من المخلوق أو محبته.

٢- غلو قولي لفظي : مثل المبالغة في المدح .

٣- غلو عملي : مثل القيام للقاعد ورمي الجمار بحجارة كبيرة.

٤- غلو اعتقادي منهجي: كغلو الخوارج والمرجئة والقدرية والمعطلة .

م (٣) : أنواع المغلو فيهم وصور الغلو وأمثلته :

البشر: ومنهم الرسل والصالحين والملوك والأموات . الملائكة . الجن .

الجمادات من الآثار والمشاهد والبقاع والأمكنة ، ، والأوثان . والأسباب .

القبور بتعظيمها والبناء عليها وإسراجها وتنويرها وكسوتها.

م (٥) : حكم الغلو ودرجاته :

غلو كفري مخرج من الدين كغلو النصارى في عيسى وغلو الرافضة في آل البيت وغلو الصوفية في النبي ﷺ والأولياء وصرف العبادة لهم .

غلو معصية ويدخل في الشرك الأصغر ويعتبر وسيلة للشرك ، كالغلو في المدح والقيام للخلق.

م (٦) : الأدلة على تحريم الغلو: وتقدم في المقدمات .

م (٧) : علاقة الغلو بالشرك ونقض التوحيد:

الغلو من أعظم أسباب الوقوع في الشرك وترك التوحيد .

والغلو متعلق بأبواب كثيرة مثل: (الغلو في الصالحين تعضيم المواضع والقبور التصوير والتمائم والتبرك) والجامع فيها تعظيم غير الله .

تنبيه : أعظم أسباب الغلو : الجهل بحقيقة الدين .

م (٨) :التطرف هو أطراف الغلو بين الإثبات والنفي والإفراط والتفريط :

١- فأطراف الغلو في الرسل يكون بين من يكذب بهم أو يسخر من سننهم أو يبغض ما جاءوا به ويحارب دينهم ، وبين من يرفعهم لدرجة الربوبية والإلهية كصرف العبادة لهم أو أنهم يتصرفون في الكون أو أنهم أبناء الله .

٢- الغلو في صفات الله بين المعطلة الجهمية والممثلة بين تكييفها وتمثيلها بصفات الخلق ، وبين إنكارها وجحدها وتعطيلها وتأويلها.

٣- الغلو في القدر إثباتا ونفيا ، بين القدرية والجبرية.

٤- الغلو في الصحابة وآل البيت بين الروافض والنواصب ، وبين من يعبدهم ومن يطعن فيهم ويسبهم.

٥- الغلو في التكفير والأسماء والأحكام والإيمان بين الخوارج والمرجئة، بين التكفير بالمعاصي وبلازم القول والتسلسل وشعوب المسلمين ، وبين ترك تكفير من كفره الله من المشركين والمرتدين أو قصر الكفر بالاعتقاد والاستحلال .

٦- الغلو في الأسباب بين إثبات استقلالها بإيجاد المسبب وتأثيرها والاعتماد عليها ، وبين إنكارها والإعراض عن الأخذ بها.

٧- الغلو في العلماء بين تقليدهم ونسبة العصمة لهم وعدم رد خطئهم ، وبين من يقدح فيهم ولا يقدرهم ويعرف لهم حقهم.

٨- الغلو بين الخوف والرجاء وبين الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله.

٩- الغلو في الولاء والبراء بين من يوالي الكفار أو يظلمهم ويحرم معاملتهم.

م (٩) : أسباب النهي عن الغلو ومفاسده:

١- لأنه من أسباب الشرك وذرائعه وطرقه وليس هو السبب الوحيد.

٢- الغلو مناقض لوسطية الإسلام وسماحته ويسره .

فائدة: الغلو سبب لترك الدين مع أن مقصود صاحبه التمسك بالدين وحبه:

فالغلو في النبي ﷺ قد يؤدي إلى عبادته من دون الله فيترك الغالي الإسلام.

م (١٠) : تنبيه : من آثار الغلو التقليد والتبعية المطلقة .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ الزخرف: ٢٣.

قال ابن عباس ﷺ : (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول قال الله ورسوله وتقولون قال أبو بكر وعمر) رواه أحمد .

م (١١) : مناقضة القبورية لما جاء من الشرع في أبواب الغلو والقبور :

العجيب من علماء المشركين قراءتهم الأحاديث الناهية عن الغلو والبناء على القبور وسبب شرك قوم نوح ومع ذلك اعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات، وزين لهم الشيطان أن البناء على القبور والعكوف عليها من محبة الصالحين وأن الدعاء عندها أرجى في الإجابة من الدعاء في المسجد الحرام.

م (١٢) : فائدة : أول شرك حدث في الأرض كان سببه شبهة الصالحين والغلو فيهم وفي تعظيم قبورهم، أول من أظهر الشرك وفعله في أمة محمد هم الرافضة لعنهم الله وسبب وقوعهم في الشرك الغلو في الصالحين وتعظيم قبورهم .

م (١٣) : سبب حصول الشرك : الغلو في الصالحين والتصوير : وبيان ذلك :

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ نوح: ٢٣ قال: (هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم، عبدت) رواه البخاري.

وقال ابن جرير رحمه الله في تفسير الآية : (كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم) .

وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.

فهذا يدلنا على كيفية حصول الشرك ومراحله .

أولاً : موت خمسة رجال صالحين .

ثانياً : قام الناس بتصويرهم ليتذكروهم ويعبدوا الله إذا رأوهم .

ثالثاً : بعد أن هلك الجيل المصور وجاء الجيل الذين بعده سوّل لهم الشيطان أن آباءهم الذين كانوا قبلهم كانوا يعبدون هذه الصور والتماثيل والنصب فعبدوها فأرسل إليهم نوح عليه السلام يدعوهم ولبث ألف سنة إلا خمسين، فما آمن معه إلا قليل فأهلك الله الكفار بالطوفان وأبقى الله المؤمنين الموحدين .

ثم رجعت عبادتهم في العرب في الجزيرة بعد إبراهيم بعد أن بقوا أزمنة طويلة على التوحيد حتى غير دين إبراهيم والملة الحنيفية عمرو بن لحي الخزاعي وجاء بالأصنام من الشام أو جدة إلى مكة فعبدت وأطاعوه، ورجع الشرك في العرب والجزيرة العربية مرة أخرى.

قال الرسول ﷺ : (رأيت عمرو بن لحي الخزاعي يجر قصبته في النار وكان أول من سيب السوائب) رواه البخاري، وعند أحمد " وغيّر دين إبراهيم " وعنده : " إنه كان أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان " .

روى الفاكهي عن ابن الكلبي قال: كان لعمرو بن لحي رئي من الجن ، فأتاه فقال : ائت جدة تجد بها أصناما معدة ، ثم أوردها تهامة ولا تهب وادع العرب إلى عبادتها تجب ، فأتى عمرو ساحل جدة فوجد بها وداً وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا ، وهي الأصنام التي عبدت على عهد نوح ثم إن الطوفان طرحها هناك فسفى عليها الرمل، فاستثارها عمرو وخرج بها لتهامة وحضر الموسم ودعا إلى عبادتها فأجيب.

وبقي الناس على الشرك في الجزيرة العربية حتى بعث الرسول ﷺ .

وهذا يدل على خطورة الشرك وسرعة حصوله وصعوبة ذهابه.

لكل ذلك جاءت النصوص متظافرة في النهي عن كل ذريعة قد تؤدي إلى الشرك وتقدح في التوحيد ، ولو كان سببها خاف لكثير من الناس.

م (١٤) الغلو في الرسول ﷺ وفي الأنبياء والأولياء والصالحين في المتأخرين :

نهى النبي ﷺ عن الغلو فيه وإطرائه ورفعه فوق منزلته والمبالغة في مدحه .

قال ﷺ : (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله) متفق عليه .

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى النبي ﷺ فقلنا: أنت سيدنا، فقال: (السيد الله تبارك وتعالى). قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: (قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان) رواه أبو داود.

وعن أنس رضي الله عنه ، أن ناساً قالوا: يا رسول الله: يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال ﷺ: (يا أيها الناس، قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد، عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل) رواه النسائي.

ولما قالت الجواري: وفينا رسول الله يعلم ما في غد. قال ﷺ : (لا يعلم ما في غد إلا الله) رواه البخاري وابن ماجة .

وقال ﷺ : (إنه لا يستغاث بي) قاله لما قال بعض الصحابة: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من المنافق الذي كان يؤذيهم. رواه الطبراني وحسن إسناده الهيثمي .

وعند أحمد في مسنده:(إنه لا يقام لي ولكن يقام لله) وضعّف إسناده ابن مفلح.

وقال أنس: لما شُجَّ النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته، فقال: (كيف يفلح قوم شَجُّوا نبيهم) ؟ نزلت: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ آل عمران: ١٢٨ متفق عليه.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ الشعراء: ٢١٤ قال: (يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً) متفق عليه.

هذه النصوص وغيرها تدل على عبودية الرسول ﷺ لله، وأنه بشر ليس له شيء من خصائص الله تعالى ، وأنه لا يجوز الغلو فيه ورفعه إلى درجة الألوهية.

إلا أنه ومع هذا كله فقد وصل الغلو في الرسول ﷺ عند الصوفية إلى الكفر البواح فنقضوا أوامره وخالفوا شرعه. ومن هذا ما قال البوصيري المشرك :

دع ما ادعته النصارى في نبيهم * واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

ومن صور غلو المشركين في النبي محمد ﷺ :

١- زعمهم أنه يعلم الغيب .

٢- أنه ﷺ يتصرف في الكون وأن خزائن السموات والأرض بيده .

٣- أنه يجيب من دعاه ويكشف الكرب ويغفر ويرزق ويعافي وينصر .

٤- أنه يستغاث به ويدعى من دون الله .

٥- أنه حي في قبره كحياتنا الدنيا .

٦- أنه خلق من نور .

م(١٥):مثال لغلو المتأخرين ووقوعهم في الشرك الأكبر في الألوهية والربوبية:

بيان بالكفر الذي تضمنته قصيدة البردة الكفرية للبوصيري (يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك) التي يتغنى بها الصوفية في المولد النبوي:

١- زعم هذا المشرك أنه ليس له ملاذ عند حلول الحوادث إلا النبي ﷺ .

٢- أنه ناداه ودعاه بالتضرع وإظهار الفاقة والاضطرار إليه.

٣- طلب الشفاعة من الرسول ﷺ كما كان يطلبها المشركون من آلهتهم ولم يطلبها من الله الذي لا يملكها غيره ، كما أخبر أنه لن يضيق جاه الرسول الله ﷺ به.

٤- زعم أن له عند الله ورسوله ذمة لكون اسمه محمد .

٥- صرح هذا المشرك بشركه في زعمه أنه إن لم يكن الرسول ﷺ في المعاد آخذاً بيده فسيهلك وهذا ليس مجرد طلبٍ للشفاعة وإنما اعتقد أن الرسول ﷺ ينقذ بنفسه.

٦- اعتقاده أن ما في اللوح المحفوظ من الغيب قد علمه الرسول ﷺ .

٧- زعم أن الدنيا والآخرة ما خلقت إلا بجود الرسول ﷺ .

وغيرها كثير مما صدر من هذا المشرك من إثبات خصائص الربوبية للنبي ﷺ .

م (١٦) : الأبواب المتعلقة بالغلو :

الغلو في المدح والفخر والذم ، والغلو في القوميات والعصبيات الحزبية، التبرك، التطير، الأعياد، الأسباب، الشرك بالمخلوق بدعائه وطاعته والقيام له.

وجه كون الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب والكبر من الشرك الأصغر :

لأن فيها تكبرا على الخلق وتعالياً وتعاظماً وعُجْباً وهذا منافٍ للعبودية من الذل لله والتواضع ، كما أن فيه طعن في خلق الله ، كما أن فيها منازعة الله صفته الكبر.

م (١٧): المنافقون رموا المتدينين بالغلو والتشدد وسموا الموحدين بالخوارج:

إن تسمية الطائفة المنصورة أهل التوحيد والجهاد أهل السنة بالخوارج سنة إرجائية جهمية متبعة، قد رمي بها شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم والإمام محمد بن عبد الوهاب وأتباعه وهاهم اليوم خصوم التوحيد في زماننا يسمون الموحدين بالخوارج التكفيريين الغلاة المتشددين الضالين.

قال ابن القيم في من رماه وابن تيمية ودعاة التوحيد وأهل السنة بالخوارج:

من لي بمثل الخوارج قد كفّروا ... بالذنب تأويلاً بلا إحسان

ولهم نصوص قصروا في فهمها ... فأتوا من التقصير في العرفان

وخصومنا قد كفرونا بالذي ... هو غاية التوحيد والإيمان

قال عبد الرحمن بن حسن: (فصار من هؤلاء المشركين من يكفّر أهل التوحيد بمحض الإخلاص وإنكارهم على أهل الشرك والتنديد فلهذا قالوا أنتم خوارج مبتدعة وكفرتم أمة محمد كما أشار ابن القيم إليهم في زمانه) الدرر ١١/ ٤٤٨.

قال عبد اللطيف بن عبد الرحمن : (وقد غلط الكثير وظنوا أن من كفّر من تلفظ بالشهادتين فهو من الخوارج..) الدرر ١٢/ ٢٦٣.

قلت ما أشبه الليلة بالبارحة فهاهم المرجئة اليوم يرمون الموحدين بالخوارج ويحاربونهم لما كفروا المرتدين ومن أظهر نواقض الإسلام.

باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر ، فكيف إذا عبده (٢٠)

اسم الباب: عبادة الله في مواضع الشرك ومظانة كالمقبرة

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : حكم عبادة الله في المواطن الشركية والقبور وخطر البناء عليها واتخاذها مساجد.

نوعه: يعتبر من الأبواب المبينة لذرائع الشرك والمبينة لوسائل حفظ التوحيد .

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

المناسبة للتوحيد جانبان :

أن هذا من تعظيم غير الله تعالى .

ذريعة للشرك .

تنبيه : تقدمت أغلب مواضيع الباب ومسائله في باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله رقم: (١١) ، منها:

١- حرمة دخول أماكن الشرك والمنكرات والمحال التي نزل فيه غضب الله.

٢- حالات العبادة في المواضع الشركية، أقسامها ، طرق تعظيم المواضع .

٣- تعظيم المشاهد ورعاية الآثار وزيارتها والسفر لها ، وما يتبعها من مسائل.

٤- مسألة: ما فعله الصحابة من سد ذرائع الشرك في باب المواضع الشركية .

٥- مسألة: الرد على من جوز السفر إلى القبور وشد الرحال إليها .

٦- مسألة : الرد على من استنكر هدم الآثار النبوية وإزالتها .

٧- مبحث الأعياد المكانية والزمانية.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

أورده في سياق الأبواب المتعلقة ببيان ذرائع الشرك وحماية جناب التوحيد .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

فيه مشابهة لباب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله رقم: (١١) .

والأول في الذبح وهذا في الصلاة في القبور.

كما أن له علاقة بأبواب ذرائع الشرك التي في الغلو والقبور .

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد أربعة أحاديث في الباب :

١- (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا) متفق عليه.

٢- (لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) أخرجاه.

٣- (ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد).

٤- (شرار الناس من تدركهم الساعة ، والذين يتخذون القبور مساجد).

وسنأتي بها في أدلة الباب .

كما أورد قول ابن تيمية وابن القيم في ذريعة الشرك التي وقع فيها من سبق:

قال : **(فهؤلاء جمعوا بين فتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل).**

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١) : صور المسألة:

١- عبادة الله بالصلاة والذبح وغيرها في معابد الوثنيين .

٢- عبادة الله في المقابر.

٣- الصلاة إلى صورة وتمثال وإلى النار والسجود بين يدي الرجل .

٤- تتبع آثار الأنبياء والصالحين وتقصد مواضع معينة بعبادة الله فيها.

٥- عبادة الله في الأوقات التي يعبد فيها المشركون أوثانهم .

م (٢) : علة تحريم عبادة الله في أماكن يعبد فيها غيره أو في المقابر :

١- أن في ذلك أعظم ذريعة لوقوع الشرك. فمن رأى من يذبح ويصلي في الموضع الشركية أو المقبرة ، فقد يظن الجاهل أن ذلك للقبر أو أنها طلبا للبركة.

٢- عدم التشبه بالمشركين.

٣- تعظيم غير الله من المخلوقات من البقاع والأماكن والأموات.

٤- معاندة الله بتعظيم ما نهي عنه ومضاهاة شرعه بتعظيم ما لم يعظم الله .

م (٣) : تنبيه : علة النهي عن الصلاة في المقبرة :

لكون الصلاة فيها مظنة لعبادة غير الله وذريعة لوقوع الشرك فيها ، وليس لأجل أنها نجسة كما قال بعض الفقهاء.

م (٤) : علة عدم إبراز قبر النبي ﷺ :

لكي لا يتخذ قبره مسجدا وعيدا كما كانت تفعل اليهود والنصارى من اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، وقد جاء التنصيص على هذه العلة في قول عائشة : (يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا) .

م (٥) : أدلة تحريم الصلاة في المقابر وبناء المساجد عليها :

١- عن عائشة أن أم سلمة ذكرت للنبي ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة ومافيها من الصور، فقال:(أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك الصور؛ أولئك شرار الخلق عند الله) متفق عليه.

٢- قالت عائشة: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها فقال:(لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا. متفق عليه. وعن أبي هريرة:(قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) .

٣- عن جندب البجلي قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: (ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد؛ ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك). رواه مسلم.

٤- عن ابن مسعود مرفوعا:(إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد) رواه البخاري معلقا وأحمد بسند جيد.

٥- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم) رواه أبو داود.

٦- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ : (اللهم لا تجعل قبري وثنا، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) رواه أحمد وغيره بسند صحيح.

٧- قال ابن عباس: (لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج) . رواه أحمد وأصحاب السنن.

٨- عن أبي مرثد الغنوي أن النبي ﷺ قال: (لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها) رواه مسلم .

٩- قال ﷺ: (لا تصلوا إلى قبر ولا تصلوا على قبر) رواه الطبراني.

١٠- عن أبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال : (الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام) رواه أحمد وأصحاب السنن وأعله الترمذي وصححه ابن حزم.

١١- قال عبدالله بن عمرو: نهى ﷺ عن الصلاة في المقبرة . رواه ابن حبان.

١٢- قال أنس : (أن النبي ﷺ نهى أن يصلى بين القبور) .

١٣- لما رأى عمر أنس يصلي عند قبر قال منكرا:القبر القبر. رواه البخاري.

م (٦) : كل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدا، وكل موضع يصلى فيه يسمى مسجدا، كما قال ﷺ: (جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا).

م (٧) : الرافضة أول من أحدث الشرك وعبادة القبور وبنى عليها المساجد.

م (٨) : فائدة : لمح النبي ﷺ في خطبته قبل موته لفرقتين:

في حديثه يتبين الرد على الطائفتين الرافضة المبغضين لأبي بكر والصحابة والواقعين في الشرك والجهمية المعطلين للصفات ومنها المحبة والخلة.

م(٩): لفتة لطيفة في تعلق تجرد النبي ﷺ من الخلة للخلق وإفرادها بالحق تعالى من كمال التوحيد الذي أمر به ووفق إليه ، لأجل لذلك لم يتخذ من الخلق خليلا.

م (١٠) : تعلق أبواب (الغلو، المواضع الشركية، القبور) بموضوع التبرك:

التبرك بما لم يشرعه الله : كالتبرك بالأحجار والأشجار والمواضع وآثار الصالحين وتراب الحرم، والآثار والأماكن التي مر عليها الرسول ﷺ.

م (١١) : درجات الصلاة في المقبرة وعند القبر :

١- إن قصد القبر بالعبادة فهذا شرك أكبر .

٢- إن قصد الله بالعبادة لكن ظن أن المقبرة مباركة والأجر فيها أعظم. فهذا شرك أصغر وبدعة منكرة محرمة.

٣- إن صلى في القبر وفاقا من غير قصد ، ففعله مكروه وصلاته باطلة.

م (١٢) : بطلان الصلاة في المقبرة :

من صلى الفريضة في المقبرة فصلاته لها باطلة وتجب عليه إعادتها ، لأنه جاء النهي عن الصلاة في المقابر والنهي يقتضي الفساد .

م (١٣) : تسمية القبر وثناً وطاغوتا :

القبر إذا عُبد سمي وثناً بنص الحديث ويعتبر طاغوتا ، أما صاحبه الميت فيه إن كان صالحا فلا يسمى طاغوتا كما سميت صنم اللات طاغوتا دون الذي نسبت له الرجل الصالح .

م (١٤) : تنبيه : كل الأحاديث المتعلقة بزيارة قبر النبي ﷺ باطلة ولا تصح .

وقد فند ردها ابن عبد الهادي في الصارم المنكي في الرد على السبكي .

م (١٥) : حكم الصلاة في الكنائس ودخولها :

الأصل في دخول معابدهم المنع إلا بشرطين: الحاجة وخلوها من المحذور .

ويدل لذلك قول عمر ﷺ : (لا تدخلوا على المشركين في معابدهم فإن السخطة تنزل عليهم) رواه البيهقي .

وذهب بعض أهل العلم من الشافعية وغيرهم إلى تحريم دخولها مطلقا.

م (١٦) : شبهات متعلقة بالباب:

١- الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ الكهف: ٢١.

الجواب: الذين بنوا المسجد لم يذكروا من باب الإقرار لفعلهم ولا المدح لهم بل أخبر الله تعالى عن فعلهم القبيح الغير موافق لدين الله ، ويصدق ذلك ما أخبر به النبي ﷺ عنهم من أنهم يبنون على القبور ويتخذون على قبور أنبيائهم مساجد ، وليس هذا من شرع من قبلنا كما توهم البعض. يدل لذلك ما جاء في الصحيحين:

قال ﷺ:(أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك الصور؛ أولئك شرار الخلق عند الله) .

وقال ﷺ :(لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد).

٢- أن مسجد الخيف بمنى بني على قبر سبعين نبيا :

الصحيح الذي روي عن ابن عمر وأبي هريرة أنه صلى فيه سبعون لا أنه قبروا فيه وكيف جاز أن تداس قبورهم لو صح ذلك ، ثم إنه لم يثبت أن أحدا من الأنبياء عاش ومات بمكة غير إسماعيل .

أما أثر ابن عباس عند الدارقطني في أن الملائكة دفنت آدم في مسجد الخيف فباطل سندا ومتنا ، ففي سنده عبدالرحمن بن مالك متروك كما قال الدارقطني، ومنهج الدارقطني كما هو معروف عند المحدثين أنه لا يورد كثيرا من الأحاديث للاحتجاج بها كما فهم الجهال وإنما لبيان علتها ومنها هذا الحديث ، كما أن فيه ابن هرمز وهو ضعيف. وهو مع هذا مخالف للصحاح من لعنة فاعل ذلك .أيضا فلم يكن هناك مسجد في منى وإنما بني بعد ذلك بأزمان بعد ذهاب المعالم والتقادم .

٣- بناء المسجد النبوي على قبور المشركين بعد نبشها :

الجواب: أن هذا دليل على أصل المسألة فالنبي ﷺ لم يبن مسجده إلا بعد أن نبشت القبور فلم يبن المسجد عليها مع أنها قبور محتقرة وغير معظمة.

٤- أمر النبي ﷺ أن يبنى مسجد الطائف مكان طاغوت اللات .

الجواب: أن هناك فرق بين المقصدين ، فبناء المسجد مكان الشرك القصد منه لإزالة أثره وصورته من الموضع ليزول تعلقه من النفوس ، أما من يبني مسجداً أو يتعبد في معابد الوثنيين مع بقاء معبوداتهم أو قبورهم أو آثار شركهم فهذا هو المحذور ولو لم يقصد العابد هذه الأوثان وكذا لو زالت آثارها مع بقاء ذكراها وأطلالها لم تغير فالنهي يبقى على أصله سدا لذريعة الشرك.

٥- المسجد النبوي فيه قبر الرسول ﷺ :

الجواب : أن مسجد النبي ﷺ بني قبل وجود القبر ، والقبر بعد ذلك كان خارج المسجد في بيته ، ثم أدخل الوليد بن عبد الملك لا جزاه الله خيرا في توسعة المسجد دون إقرار أهل العلم بل ثبت إنكار سعيد بن المسيب له وأبان وغيرهم والواجب إرجاع بناء المسجد من جهة القبر كما كان زمن الصحابة .

٦- صلاة الصحابة في الكنيسة ودخولهم معابد أهل الكتاب.

هذا الفعل يجوز من باب الحاجة بشرط خلوها من المحاذير .

قال البخاري : (كان ابن عباس يصلي في بيعة إلا بيعة فيها تماثيل).

قال عمر لما دعاه النصارى للطعام في الكنيسة:(لاندخل كنائسكم من الصور التي فيها) رواه عبد الرزاق. وقال لعلي:(امض بالناس فليتغدوا ودخلوا الكنيسة).

والأصل في دخول معابدهم المنع إلا بشرطين: الحاجة وخلوها من المحذور .

ويدل لذلك قول عمر ﷺ : (لا تدخلوا على المشركين في معابدهم فإن السخطة تنزل عليهم) رواه البيهقي .

وذهب بعض أهل العلم من الشافعية وغيرهم إلى تحريم دخولها مطلقا.

باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله (٢١)

اسم الباب : بدع القبور وشرك القبورية

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه : القبور وتحريم الغلو فيها وتعظيمها وما يتعلق بها من بدع وشرك، وأن الغلو في قبور الأولياء يؤول بالغالي إلى عبادتها، وأنها إذا عبدت سميت أوثاناً.

مكانه: يعتبر أهم الأبواب المتعلقة بتوضيح ذرائع الشرك ، وحماية التوحيد.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن البدع المتعلقة بالقبور والغلو فيها وتعظيمها تعتبر أعظم وسيلة أوقعت المشركين في عبادة الصالحين .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

أورده في سياق الأبواب المتعلقة ببيان ذرائع الشرك وحماية جناب التوحيد .

فأولها باب الغلو عموما ، والثاني في الغلو في المواضع وعبادة الله في مواطن الشرك ، وهذا الباب الثالث في الغلو في القبور خصوصا وتعظيمها ، والباب القادم الرابع في نفس الموضوع متعلق بحماية التوحيد وسد طرق الشرك في القبور وغيرها ، ثم بعده الخامس في بيان رجوع الشرك في الأمة ، وهذا تبويب جيد وتدرج لطيف .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

له علاقة بأبواب ذرائع الشرك التي في الغلو والقبور ومواطن الشرك.

كما أن أبواب (الغلو، المواضع الشركية، القبور) لها تعلق بموضوع التبرك.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١- قال الرسول ﷺ: (اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) .

وقد رواه مالك وغيره مرسلا عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار. ورواه البزار في مسنده موصولا عن أبي سعيد الخدري بسند صحيح.

وله شاهد عند أحمد وغيره بسند صحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ : (اللهم لا تجعل قبري وثنا، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) .

٢- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج) رواه أهل السنن.

٣- قال ابن عباس في اللات: (كان يلت السويق للحاج).

٤- قال مجاهد: (كان يلت لهم السويق فمات، فعكفوا على قبره) رواه الطبري.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

يتعلق بهذا الباب ثلاثة مباحث :

الأول: الصلاة في القبور واتخاذها مساجد ، وتقدم بيانه في الباب السابق.

الثاني : بدع القبور .

الثالث : عقيدة القبورية وشرك القبور .

المبحث الأول : بدع القبور المحرمة

١- اتخاذ القبور مساجد:

ذكرت الأدلة الناهية عنها في باب عبادة الله في المواضع الشركية.

منها:(لعنة الله على اليهود والنصارى،اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) أخرجاه.

٢- الصلاة في المقبرة والصلاة إلى قبر:

والنهي عام يشمل إن قصد المصلي البركة أولم يقصد ، وإن قصد البركة فهو أشنع وهي عين المحادة لله ورسوله ومخالفة دينه، وقد ذكرت بضعة عشر دليلا،منها:

قال النبي ﷺ: (لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها) رواه مسلم .

٣- الدعاء عند القبور وعبادة الله عندها أو التبرك بها:

ويدل لذلك أحاديث الواردة في المسألة الأولى ومنها :

قوله ﷺ: (لا تصلوا إلى قبر ولا تصلوا على قبر) رواه الطبراني.

٤- اتخاذ القبور أعياداً ، وخصوصاً قبر النبي ﷺ:

قال الرسول ﷺ: (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) رواه مالك وغيره مرسلا عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار. ورواه البزار في مسنده موصولا عن أبي سعيد الخدري بسند صحيح.

وله شاهد عند أحمد وغيره بسند صحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ : (اللهم لا تجعل قبري وثنا، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) .

وقال النبي ﷺ : (لا تجعلوا بيوتكم قبورا ولا تجعلوا قبري عيدا وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم) رواه أحمد .

٥- البناء على القبور ورفعها:

والنهي عن هذه البدعة المنكرة يشمل : بناء المسجد عليها، رفعها، والزيادة على ترابها، أو تجصيصها، أو وضع القباب عليها ، وكل هذا داخل في البناء عليها:

عن جابر قال ﷺ : (نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه) رواه مسلم . وزاد أبو داود: (أو يكتب عليها) .

٦- ترك هدم القباب والمشاهد والمساجد المبنية على القبور، والقبور المشرفة المرتفعة عن الأرض، وهذا الترك محرما فكيف بمن يفعل هذه القباب والتشييد.

قال علي لأبي الهياج الأسدي : (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ : ألا تدع صورة إلا طمستها ولا قبراً مشرفاً إلا سويته) رواه مسلم .

٧- السفر للقبور وشد الرحال إليها وإعمال المطي فيها.

قال ﷺ: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد) متفق عليه .

وقد استدلوا به على تحريم السفر للقبور .

وقال النبي ﷺ : (لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد) رواه مالك والنسائي.

وقال : (لا ينبغي للمطي أن تشد رحالها إلى مسجد يبتغي فيه الصلاة) الحديث رواه أحمد.

كما أنكر أبو بصرة على أبي هريرة زيارته جبل الطور بهذا الحديث ، رواه أحمد والبزار والطبراني .

٨- الكتابة عليها :

روى أبو داود: (نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر أو يكتب عليها) .

٩- إسراج القبور وتنويرها :

قال ابن عباس: (لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج) . رواه أحمد وأصحاب السنن.

والعلة من تحريم البناء على القبور وإسراجها حتى لا تعظم ثم تعبد.

١٠- زيارة النساء للقبور:

قال ابن عباس كما في المسند والسنن: (لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور).

فائدة: العلة من تحريم زيارة النساء للقبور :

قيل لضعفهن وجزعهن وعدم صبرهن .

والأظهر عندي والله أعلم أنه لتعظيم النساء المشاهد والقبور وسرعة الشرك في النساء ومما يدل لذلك ما جاء في الصحيحين من قوله ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس حول ذي الخلصة) ، ومن شاهد نساء الروافض والصوفية رأى ذلك جلياً مما يؤكد شدة تعلقهن بالقبور.

تنبيه: مسألة الصلاة في القبور واتخاذها مساجد وما يتعلق بها من مسائل، منها:

أدلة تحريم الصلاة في المقابر وبناء المساجد عليها علة النهي عن الصلاة في المقبرة ، علة عدم إبراز قبر النبي ﷺ ، تسمية القبر وثناً وطاغوتا إذا عُبد، وأن كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدا، درجات الصلاة في المقبرة ، وبطلان الصلاة فيها وبطلان الأحاديث المتعلقة بزيارة قبر النبي ﷺ، والشبهات المتعلقة بالمسألة .

كل ذلك تقدم بيانه في الباب السابق.

المبحث الثاني : القبورية وشرك القبور

م (١) : تعريف القبورية :

القبورية نسبة للقبر، وهذا مصطلح يطلق على عبادة القبور والغلو فيها وتعظيمها وجعلها أوثناً تعبد من دون الله وصرف جميع العبادات لها.

والقبورية كما أنها تطلق على الأفعال الشركية ، كذلك تطلق على أصحاب هذه الأفعال ، مثل ما يقال في اللغة الطهور فعل الطهارة والماء المتطهر به .

والقبوري : يطلق على من اتصف بهذه الصفة القبورية. وذلك إذا وقع في الشرك بالقبور وعبدها من دون الله ﷻ.

و غلاة القبورية : الذين يشركون في الربوبية ويعتقدون أن للقبور القدرة والتدبير .

م (٢) : أسماء أصحاب هذا الدين والمذهب :

عبّاد القبور - القبورية – القبوريون – المقابرية - مشركو القبور .

م (٣) : القبورية دين :

القبورية دين المشركين بالقبر العابدين له، الذين اتخذوه إلهاً ومعبوداً ووثناً يصرف له كل العبادات من دون الله تعالى، وكل عبادة عُبِد الله بها فقد عبد بها القبوريون القبر.

م (٤) : المقارنة بين دين الله وتوحيده ﷻ وبين دين القبورية :

القبورية دين يضاد دين الله ﷻ ويضاد الملة الحنيفية الإبراهيمية القائمة على توحيد الله بالربوبية والألوهية وينقض الشريعة والسنة المحمدية ، فالقبورية دين يقوم على الشرك ويضاد التوحيد وينقضه من أصله من جميع الوجوه .

م (٥) : الفرق بين القبورية وعبادة غير الله والشرك:

عبادة غير الله تكون على أوجه متنوعة ولمعبودات مختلفة كلها داخل في الشرك الذي منه القبورية والوثنية ، فعبادة غير الله تشمل عبادة القبور والأوثان والأصنام.

وقد جعل البعض كل عبادة من دون الله قبورية وهذا فيه نظر والصحيح ما ذكرته من كون القبورية نوع من أنواع الشرك ووجه من أوجه عبادة غير الله .

والشرك كما ذكرنا أعم من قولنا عبادة غير الله :لأن الشرك منه ما هو متعلق بعبادة غير الله وهو ما يسمى بشرك الألوهية والعبادة، ومنه ما هو شرك في ذات الرب ﷻ إما بتعطيله عن ربوبيته وصفاته أو بتمثيله بخلقه ونسبة النقص له .

م (٦): القبورية نصف الشرك : يمكن تقسيم الشرك إلى قسمين :

الأول : شرك الأموات والقبور : وذلك بالشرك فيها بعبادتها ودعائها.

الثاني : شرك الأحياء والقصور والدستور : وذلك بطاعة العلماء والأمراء والطواغيت في تحليل الحرام وتحريم الحلال وتشريع الدين والأحكام.

قاعدة : يعد شرك الدعاء وعبادة الموتى نصف الشرك من جهتين:

١- نصف الشرك من جهة كونه مقابلا لشرك التشريع والحكم والدستور .

٢- نصف الشرك من جهة كونه مقابلا لشرك الفلاسفة وعباد الكواكب.

قال ابن تيمية : (الشرك في بني آدم أكثره على أصلين :

أولها : تعظيم قبور الصالحين وتصوير تماثيلهم للتبرك بها ، وهذا أول الأسباب التي بها ابتدع الآدميون وهو شرك قوم نوح .والثاني: عبادة الكوكب) .

الرد على المنطقيين ٢٨٥ ، قاعدة التوسل والفتاوى ١٧/ ٤٦٠ .

م (٧) : طرق ومراتب وأوجه عبادة البشر:

١- عبادة الأحياء بتعظيمهم وإثبات الربوبية والألوهية لهم والتحاكم إليهم.

٢- عبادة الأموات ودعاؤهم من دون الذهاب لقبورهم ولا جعل أوثان لهم.

٣- عبادة الأموات بوضع التماثيل لهم وصورهم، من دون الذهاب لقبورهم.

٤- عبادة الأموات عند القبور وهذا بدعة في هذه الأمة أول من فعلها الرافضة لعنهم الله في القرن الرابع الهجري في عهد البويهية والفاطمية والقرامطة .

م (٨) : دعاء الأموات أصل شرك العالم :

مخاطبة الأموات وسؤال حوائجهم هو أصل شرك العالم وعند الأمم جميعاً، وزادت هذه الأمة بعبادة الأموات عند قبورهم .

قال ابن القيم في المدارج: « طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة وهي أصل شرك العالم وجعلوا قبورهم أوثاناً تعبد ، وهؤلاء أعداء الرسل والتوحيد ».

وقال ابن تيمية :(أصل الشرك في بني آدم كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين، فإنهم لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهم، فهذا أول شرك كان في بني آدم وكان في قوم نوح) المجموع ٦/ ٢٥٥ .

قال ابن كثير في تاريخه: (أصل عبادة الأصنام من المغالاة في القبور وأصحابها وقد أمر النبي ﷺ بتسوية القبور وطمسها وعدم المغالاة في البشر) ١٠/ ٢٦٢ .

قال ابن القيم : (وضع الصنم إنما كان في الأصل على شكل معبود غائب، فجعلوا الصنم على شكله وهيأته وصورته ليكون نائبا منابه، وقائما مقامه وإلا فمن المعلوم أن عاقلا لا ينحت خشبة أو حجرا بيده ثم يعتقد أنه إلهه) الإغاثة ٢/ ٢٢٠ .

م (٩) : القبورية واقعة لشيئين:

١- القبر ذاته ، بترابه وحجارته، وكم من قبر يعبد وليس فيه إلا كافر وربما حيوان، وهناك قبور عبدت وليس فيها ميت، ومن ذلك قبر الحسين في ثلاثة بلدان.

٢- المقبور فيه ، وهو المقصود بالمخاطبة والمناجاة والدعاء .

م(١٠) : أن عبادة صاحب القبر عند قبره يعتبر عبادة للقبر :

الدليل: على ذلك قوله ﷺ: (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد) رواه مالك.

القبر الذي يعبد صاحبه يصير هذا القبر وثناً كما في الحديث.

و يطلق على عابد الميت عابداً للقبر لأن الميت في الحقيقة لا يسمع من يدعوه.

م (١١) : حماية الله تعالى لقبر الرسول ﷺ فلا يعبد قبره:

لا شك في أن الرسول ﷺ يُعْبَد من دون الله، وذلك حين يدعى من دون الله ويشرك به ويعتقد أنه ينفع ويضر، ولكن نفس قبره لم يعبد، لأنه لا يمكن الوصول إليه وقد أحيط بجدار وضعه عمر بن عبدالعزيز حين جدد بناء المسجد وأدخل الحجرات فيه، واستجاب ربه دعاءه حين قال ﷺ :(اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد).

قال ابن القيم : وأجاب رب العالمين دعاءه فأحاطه بثلاثة الجدران

م (١٢) : القبورية توصف بأنها شرك تعطيل وشرك في التمثيل :

أما كونها شرك تعطيل : فلأن فيها تعطيل الله ﷻ من عبادته ومعاملته .

وأما كونها شرك تمثيل : فلأن فيها تمثيل الرب الخالق ﷻ بالمخلوق، الذي يحتاج لواسطة، فلا يقدر إلا بالواسطة ولا يعلم إلا بها ولا يرحم إلا بها .

وتمثيل الميت بالرب المعبود ﷻ وأن هذا المخلوق يستحق أن يعبد ويدعى .

م (١٣) : تقع القبورية في شرك الألوهية والربوبية:

الأول : من يقع في شرك الألوهية : وذلك بصرف العبادة للقبور من دعاء.

الثاني : شرك الربوبية : وذلك بنسبة التصرف والخلق والتدبير للقبور.

حتى قال كفّارهم : (لا يدق مسمار إلا بعد أن يأذن صاحب القبر البدوي) .

م (١٤) : درجات مخالفات وبدع القبورية : بدع القبور على قسمين :

منها الكفرية المخرجة من حظيرة الإسلام ومنها البدعية المحرمة .

الأولى : منها المخرج من الملة كالذبح لها والطواف بها ودعائها والسجود لها .

الثانية : منها ما هو شرك أصغر كالبناء على القبور ووضع القباب والأنوار.

م (١٤) : مراتب البدعة عند القبور :

١- دعاء الأموات وهذا شرك وكفر .

٢- أن يتوسل بهم وهذا بدعة .

٣- أن يظن أن الدعاء عند قبورهم مستجاب ، وهذا أيضا بدعة.

م (١٤) : العبادات التي يصرفها المشركون للقبور :

١- الدعاء دعاء القبر وصاحبه من دون الله وهذا أعظم العبادات وأكثرها .

٢- السجود للقبر والركوع له والقيام له والصلاة له .

٣- إرادته وقصده والتوجه إليه والخشوع عنده والخضوع والتذلل له .

٤- الاستغاثة بها وسؤالها والتوجه لها والافتقار والمسكنة والإخبات .

٥- الذبح للقبر.

٦- النذر للقبر والتصدق له .

٧- الخوف من القبر وصاحبه والرهبة منه وخشيته.

٨- رجاء القبر والرغبة إليه.

٩- التوكل على القبر .

١٠- محبة القبر والمحبة فيه والبغض فيه والموالاة والمعاداة لأجله .

١١- التوبة إليه .

١٢- تعظيمه وإجلاله وعدم رفع الصوت عنده .

١٣- ذكره وحمده وشكره وتسبيحه وتهليله .

حتى قال بعض القبورية: لا يحصل شيء إلا بإذن صاحب هذا القبر ولا يستحق العبادة غيره وعبادته عبادة لله، وقول أحدهم مخاطباً صاحب القبر وقد مات ابنه : أما الله فرأيت ما فعل ولم يبق لي إلا أنت فأنا في حسبك.

فلازم قولهم لا إله إلا هذا الميت ، ولا يستحق العبادة أحد سواه.

١٤- الحج للقبر وجعله منسكاً وسموه بحج المشاهد مضاهاة لحج المشاعر.

١٥- الطواف به .

١٦- الاعتكاف عنده ومجاورته والإقامة عنده .

١٧- التبرك بالقبر والتمسح به وتقبيله وتمريغ الوجه بترابه والأخذ منه للاستشفاء به .

١٨- حلق الرأس والتقصير عنده .

١٩- لبس نوع من الملابس مثل لباس الإحرام عند زيارة القبر.

٢٠- الطهارة عند زيارة القبور .

٢١- جعل أرض القبور كالحرم لا يصاد فيها ولا يقطع شجر حولها .

٢٢- التحاكم إليها والإقسام بها والاقتراع عندها والاستقسام بها وعندها .

٢٣-إخراج الصدقات وتوزيعها عندها .

٢٤- البناء على القبور ووضع القباب عليها ورفعها.

٢٥- تزيينها وتعطيرها وتبخيرها .

٢٦- وضع الأنوار والسرج والكهرباء عليها.

٢٧- تلبيسها وكسوتها وإسبال الستر عليها .

٢٨- بناء المساجد عليها .

٢٩- التبرك بالصلاة عندها .

٣٠- تقصد دعاء الله عندها .

٣١- مداومة زيارتها وجعلها عيداً مكانياً وزمانياً.

٣٢- الحلف بها .

٣٣- اعتقاد أنها تعلم الغيب وتسمع وتبصر كل شيء .

٣٤- اعتقاد أنها تنفع وتضر وتملك النفع والضر والخير والشر.

٣٥- اعتقاد أنها تدبر الأرض والسماء وتتصرف في الخلق .

٣٦- اعتقاد أن الرب منحهم خزائن رحمته ومقاليد حكمه وأمره ونهيه.

والقاعدة :

أن كل شرك وقع في الأرض فالقبوريون فعلوه مع القبور .

وأن كل عبادة أمر الله تعالى أن يعُبد بها فقد عبد بها القبوريون القبر.

م (١٥) : نشأة عبادة الأموات :

عبادة الأموات ودعاؤهم هو أول شرك وقع على الأرض وذلك في زمن نوح حين عبدوا ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا ودعوهم من دون الله وجعلوا التماثيل والأصنام والنصب لكل واحد منهم فعبدوا تلك الأصنام التي يعتقدون أنها صور أولئك الصالحين .

وفي كل الأمم حصلت عبادة الأموات حتى عند اليهود والنصارى، بل واتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وهم أول من أحدث هذه البدعة ولم تفعل قبلهم فكانوا يبنون المسجد على قبور الصالحين ويصلون في تلك المساجد ويتبركون بها فاتبعتهم هذه الأمة وفعلوا مثل ما فعل هؤلاء مع تحذير الرسول لهم ونهيه عن اتباعهم: (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) متفق عليه.

إلا أن أولئك كانوا يبنون على القبور مساجد ولا يدعون القبور وهؤلاء غلوا في الشرك وعبدوا تلك القبور فزادوا في الكفر . ولم يثبت والله أعلم أن من سبق عبدوا القبور مثل هذه الأمة .

م (١٦) : نشأة القبورية في أمة محمد ﷺ :

الذي أحدث بدعة عبادة القبور هم الرافضة عليهم لعائن الله، وهم الذين أدخلوا الشرك في هذه الأمة بعد مضي القرون المفضلة الثلاثة بعد قيام دولهم ، دولة القرامطة في البحرين واليمن والعبيدية الباطنية في المغرب ومصر والبويهية في إيران والعراق وبقية الدول الرافضية، وبعد قيامهم نشروا ما سموه بالمشاهد التي هي

القبور وبنوا القباب عليها ودعوا المسلمين لعبادتها، ونشروا ذلك وبعد سقوطهم قامت على إثرهم دول تأثرت بهم فأتت بالصوفية القبورية والعياذ بالله .

قال ابن تيمية :(وكان ظهور المشاهد وانتشارها وتعظيمها حين ضعفت خلافة بني العباس وتفرقت الأمة وكثر فيهم الزنادقة وفشت كلمة البدع وذلك من دولة المقتدر في أواخر المائة الثالثة فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة) الفتاوى ٢٧/ ٤٦٥ .

وقال (كما أن بني بويه الرافضة ظهر في دولتهم بناء المشهد على قبر علي ﷺ المزعوم بناحية النجف ولا يزال يعبد ويدعى ويطاف به) رأس الحسين ١٦٨ .

م (١٧) : طوائف القبورية :

الأولى : الرافضة وبعض الزيدية . الثانية : الصوفية .

ولا يوجد قبورية عند المسلمين إلا في هاتين الطائفتين، كما أنه لا يوجد رافضي ولا صوفي إلا وهو قبوري يدعو غير الله ويستغيث بالأولياء والأموات .

م (١٨) : درجات ومراحل تشريع وقوع الشرك وتسويغه :

١- ما زال الشيطان يوحي إلى الجهال ويلقي إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين وأن الدعاء عندها مستجاب .

٢- ثم ينقلهم الشيطان من هذه المرتبة إلى الدعاء بهم والتوسل والإقسام بهم.

٣- ثم ينقلهم إلى دعائهم وعبادتهم وسؤالهم الشفاعة .

وجعل القبور وثناً يعلق عليه القناديل والستور ويذبح عندها .

٤- ثم ينقلهم إلى دعاء الناس إلى عبادتهم واتخاذه عيداً ومنسكاً .

٥- ثم ينقلهم إلى أن من نهى عن ذلك فقد تنقص أهل الرتب ومنزلتهم .

م (١٩) : المقارنة بين سنة الرسول ﷺ وحال القبورية مع القبور :

المقارنة بين دين الله وتوحيده وسنة الرسول ﷺ وهديه في القبور وما أمر به وشرعه وهدي أصحابه والسلف في المساجد والقبور وبين ما عليه عباد القبور وبيان سنتهم وحقيقة ديانتهم ، وبيان أن هدي القبورية يناقض ويضاد هدي النبي ﷺ :

١- فالرسول ﷺ نهى عن الصلاة إلى القبور وهؤلاء يصلون عندها .

٢- ونهي عن اتخاذها مساجد وهؤلاء يبنون عليها المساجد ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيت الله ، ويعظمون المشاهد الشركية ويهجرون المساجد والشعائر الدينية.

٣- ونهى عن إيقاد السرج عليها وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل.

٤- ونهى أن تتخذ عيداً وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ويجتمعون عندها .

٥- ونهي عن تجصيصها وأن يبني عليها وهؤلاء يبنونها بالآجر والجص والأحجار بل ويلبسونها الحرير حتى يضاهون بها الكعبة .

٦- ونهى أن يزاد عليها غير ترابها وهؤلاء يزيدون التراب والأحجار.

٧- وأمر بتسويتها وهؤلاء يرفعونها ويبنون عليها القباب والبيوت والمباني.

٨- ونهى عن الكتابة عليها وهؤلاء يكتبون عليها الأسماء والرقاع والدعاء .

وهدي القبورية قائم على عبادة القبور وصرف عبادة أمر الله أن يعبد بها،منها: تعظيم القبور وتفضيلها على المساجد، النذر لها، الاعتكاف والعكوف عندها،الخشوع والبكاء عندها، تعليق الستور واتخاذ السدنة لها، البناء عليها وتجصيصها، وضع السرج والطيب عليها، زيارتها والصلاة عندها، والتبرك بها، عبادتها بالطواف بها، ودعاء أصحابها، والذبح لهم، حجها وقصدها وتقبيلها .

فانظر إلى هذا التباين بين ما أمر الله وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه، فالقبوريون وقعوا في كل ما نهى الله ورسوله عنه وتركوا كل ما أمروا به .

كما أن السلف لا يلتفتون للقبور ويظهرونها، ودليل ذلك الجهل بمواقع قبور الصحابة والتابعين والأئمة وهذا يدلنا على مخالفة منهج القبورية لدين المسلمين.

م (٢٠) : حال عباد القبور ومنهجهم وسنتهم :

قال ابن القيم : (فلو رأيت هؤلاء المتخذين للقبور عيدا وقد نزلوا عن الدواب إذا رأوها من مكان بعيد فوضعوا لها الجباه وقبلوا الأرض وكشفوا الرؤوس وارتفعت أصواتهم بالضجيج وتباكوا حتى يسمع لهم النشيج ورأوا أنهم أربوا في الربح على الحجيج فاستغاثوا بمن لا يبديء ولا يعيد ونادوا ولكن من مكان بعيد، حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين وتراهم حول القبر ركعا سجدا يبتغون فضلا من الميت ورضوانا، وقد ملؤوا أكفهم خيبة وخسران، فلغير الله بل للشيطان ما يراق هناك من العبرات، ويطلب من الميت من الحاجات ويسأل من تفريج الكربات، ثم انثنوا حول القبر طائفين تشبيها لهم بالبيت الحرام، ثم أخذوا بالتقبيل والاستلام كما يفعل للحجر الأسود، ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود والتي لم تعفر بين يدي الله في السجود، ثم كملوا مناسك حج القبر والتقصير والحلق وقربوا لذلك الوثن القرابين وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين، فلو رأيتهم يهنئ بعضهم بعضا وإذا رجعوا سألهم المخلفين أن يبيعوه ثوب حجة القبر، ولم نستقص جميع بدعهم إذ هي فوق الخيال ولا تخطر ببال وهذا كان مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح ومن بعدهم ...) إغاثة اللهفان ١/ ٢٢٠ .

م (٢١) : طرق عبادة القبور وطلب شفاعتها :

الطريق الأول: طريق العوام وهم من يطلب من القبر وصاحب القبر أن يشفع له عند الله ويقربه عنده ويتوسط له ويتقبل منه حسناته وهذا حال معظم المشركين من عباد القبور وغيرهم .

الطريق الثاني : طريق الفلاسفة ممن يعتقد أن القبر والصنم يحصل النفع منه والشفاعة بمجرد التقرب إليه والقرب منه، فالولي والقبر ينزل فيه بركة الله والفيض من الإله، والأرواح تفيض على من زارها لطلب الشفاعة والإغاثة والنفع منها، وذلك بحسب يقين وتعلق الزائر وفنائه في المزور، واستعداد نفسه لتقبل ذلك الفيض، وهي بدورها تتلقى من الإله الأعظم ، وأن ذلك مثل الشعاع الذي ينعكس في المرآة من نور الشمس إذا وقع على جسم صقيل كالمرآة والماء ونحوه .

م (٢٢) : زيارة القبور قسمان شرعية وبدعية شركية الفرق بينهما:

قال ابن القيم: (زيارة الموحدين مقصودها ثلاثة أشاء :تذكر الآخرة والاعتبار والاتعاظ والإحسان إلى الميت بالدعاء له وإحسان الزائر إلى نفسه باتباع السنة .

والزيارة الشركية فأصلها مأخوذ عن عبّاد الأصنام . قالوا الميت المعظّم الذي لروحه قرب ومنزلة ومزية عند الله، لا تزال تأتيه الألطاف من الله، فإذا علق الزائر روحه به وأدناها منه فاض من روح المزور عليه، قالوا فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه وقصده للميت، وبهذا السر عبدت الكواكب والأصنام المجسدة لها، وهذا بعينه هو الذي أوجب لعباد القبور اتخاذها أعيادا وتعليق الستور عليها وإسراجها وبناء المساجد عليها، وهذا الذي نهى الرسولﷺ عنه). الإغاثة ٢٤٦.

م (٢٣) : وسائل الشرك :

الذرائع التي سدها الشارع والتي تفضي إلى الشرك قسمان :

الأولى : عامة كالتصوير والغلو في الألفاظ .

الثانية : خاصة بالقبور .

قال ابن القيم : (غالب شرك الأمم كان من جهة الصور والقبور) .

زاد المعاد ٤/ ٤٥٨ ، وإغاثة اللهفان ١/ ١٤٥ .

قال ابن تيمية في الرد على المنطقيين ٢٨٥ :(الشرك في بني آدم أكثره على أصلين : أولها : تعظيم قبور الصالحين وتصوير تماثيلهم للتبرك بها ، وهذا أول الأسباب التي بها ابتدع الآدميون وهو شرك قوم نوح . والثاني : عبادة الكوكب) .

م (٢٤) : مفاسد اتخاذ القبور أعياداً ومفاسد فعلهم :

١- أن ذلك أعظم وسيلة للشرك والوقوع فيه وعبادة أصحاب القبور .

٢- مشابهة اليهود والنصارى في اتخاذ المساجد عليها وعباد الأصنام.

٣- الوقوع في الشرك الأكبر.

٤- الدخول في لعنة الله ورسوله باتخاذ المساجد عليها والسرج .

٥- محادة الله ومناقضة شرعه.ومخالفة أمر الرسول وهديه .

٦- إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون عندها.

٧- عمارة المشاهد وخراب المساجد.

٨- تعظيم ما لم يأمر الله بتعظيمه حتى يحصل الإفتتان بذلك .

وغير ذلك من السنن الشركية الكفرية والمفاسد.

م (٢٥) : العلة من النهي عن تعظيم القبور واتخاذها مساجد :

قال ابن تيمية: (أن هذه العلة تعظيم القبور وابتداء النهي عن زيارتها والبناء عليها والصلاة عندها التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ القبور مساجد ، هي التي أوقعت كثيرا من الناس إما في الشرك الأكبر (كدعاء الأموات والذبح لهم ونحوه) أو فيما دونه من الشرك، فإن الشرك بقبر الرجل أكثر من الشرك بالشجر والحجر ولهذا تجد عباد القبور يعبدون القبور ويتضرعون ويخضعون بما لا يفعلون مثله في بيوت الله). اقتضاء الصراط المستقيم ٦٧٤ ونقله ابن القيم في الإغاثة ٢٠٣.

وقفه : مع حديث : (إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد) .

قلت : بأبي هو وأمي كيف لو رأى عباد القبور ومتخذيها مساجد فيصلون عندها بل ويطوفون بها ويعكفون عليها وينذرون لها ويذبحون لها ومع هذا يزعمون أن هذا دين الله تعالى وشرع محمد ﷺ وأمره ومن تعظيمه ومن لم يفعل فعلهم فليس بسنته مهتدي ولا لدينه مقتفي ولا له ولأوليائه محب فيا لله ما أشد الغربة .

م (٢٦): سبب عبادة القبور: اعتقاد أن أصحاب القبور من الأولياء، وغلوهم في الصالحين، وأنهم أقرب لله من الأحياء وأفضل، وأنهم يشفعون عنده ويقربون إليه ويستجيب الله لهم ويقبل واسطتهم وشفاعتهم وأنهم يسمعون كل شيء ويقدرون على كل شيء ويملكون جلب النفع ودفع الضر، والله أعطاهم كل ذلك كرامة لهم .

وشبهتهم هذه هي عين شبهة كل المشركين في جميع الأمم كما قال الله ﷻ عنهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣ . وقال: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ .

باب حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك (٢٢)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه: صيانة التوحيد وسده طرق الشرك .

مكانه: حفظ التوحيد من وسائل الشرك ، والباب مرجعاً لأبواب الكتاب.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن التوحيد لا يحفظ ولا يصان إلا بإغلاق الطرق المفضية للشرك وسد ذرائعه، ولا يحمى جنابه إلا بعد حفظ بابي الوسائل والغايات معاً.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لأبواب الكتاب: هذا الباب يعتبر أصلا جامعا لأبواب الكتاب، لأنها كلها جاءت في حماية التوحيد وسد الطرق المفضية للشرك ، والباب أورده في سياق الأبواب المتعلقة ببيان ذرائع الشرك، ويعتبر شاملا لما سبقه، فأولها باب الغلو ثم باب مواطن الشرك ، ثم باب التعلق بالقبور ، وكلها تدخل فيه.

تنبيه : كرر المؤلف هذا الباب حيث سيأتي في آخر الكتاب رقم (٦٦) .

والتكرار للتأكيد ، إلا إن هذا جاء في سد الطرق الفعلية والأخير في القولية.

تنبيه : أخطأ المصنف رحمه الله حين قال : (الرابعة : نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص ، مع أن زيارته من أفضل الأعمال) .فزيارة قبر النبي ﷺ ليست من أفضل الأعمال، ولا يوجد حديث صحيح في فضل زيارة قبره كما قال ابن عبدالهادي في الصارم المنكي، أما من يستدل على مشروعية زيارته بحديث: (زوروا القبور) ، فيرده أن الصحابة لم يثبت عنهم زيارة قبره، بل أنكر الحسن بن الحسن وعلي بن الحسين على الرجل الذي زار القبر مستدلين بهذا الحديث (لا تتخذوا قبري عيدا) .

الرابعة: ما فات المصنف: لم يدرج المصنف الصور المتعلقة بحماية التوحيد .

الخامسة الوقفة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١- قول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ التوبة: ١٢٨ - ١٢٩.

٢- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبري عيدا، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم) رواه أبو داود.

٣- عن علي بن الحسين: أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: (لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم). رواه ابن أبي شيبة وأبو يعلى والبخاري في تاريخه والضياء المقدسي في المختارة وغيرهم.

وروى سعيد بن منصور في سننه عن عبد العزيز بن محمد عن سهيل بن أبي سهيل قال : رآني الحسن بن الحسن بن علي عند القبر ، فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى ، فقال: هلم إلى العشاء ، فقلت: لا أريده ، فقال: ما لي رأيتك عند القبر ، فقلت: سلمت على النبي ﷺ ، فقال : إذا دخلت المسجد فسلم، ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: (لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم، لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ما أنت ومن بالأندلس إلا سواءٌ .

الوقفة السادسة: المسائل العقدية في الباب :

أولاً : حصر الأمثلة والصور التي جاءت به النصوص في الوسائل المفضية للشرك . وستأتي في باب رقم (٦٦) إن شاء الله تعالى.

ثانياً:مسألة الباب: (ما يتعلق بالقبور) فتقدم الكلام عنه في الباب السابق لهذا.

ثالثاً تفسير الآية : دلت على حرص نبينا محمد ﷺ علينا ورأفته ورحمته فسد طرق الشرك وبصرنا بها وأبعد أمته عن هذا الحمى الخطير غاية البعد ، وكل ذلك من حرصه وخوفه ومحبته لنا فجزاه الله عنا خيرا.

رابعاً : فوائد من حديث : (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم) رواه أبو داود.

١- كراهية المداومة على زيارة القبور وقبر نبينا ﷺ خاصة حتى يصير كالعيد.

٢- عدم هجر البيوت من الصلاة حتى تصير كالمقبرة ، وفي الحديث دلالة على تحريم الصلاة في القبور.

٣- أن الصلاة عليه تبلغه حيث كان المصلي وإن بعد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب، فلا مزية لمن صلى وسلم عليه من جانب القبر .

ومن المسائل في هذا الباب :

م (١) : تعلق الغلو بالحماية:فالنهي عن الغلو يدخل في الحماية فهذا عام .

م (٢) : وجوب تحذير الناس من الغلو والمدح والإطراء.

م (٣) : أنواع رفع النبي ﷺ في قوله: (ما أحب أن ترفعوني فوق منْزلتي) .

١- رفعه بمعنى توقيره واحترامه هذا واجب. وترك حقه تواضعا.

٢- رفعه بالغلو فيه ﷺ وهذا أمر محرم.

م (٤) : نهيه ﷺ كما فهم الصحابة وآل بيته عن الإكثار من زيارة قبره.

والعجيب من القبورية الغلاة معاندتهم وتفسيره للحديث بخلاف ما قصد النبي ﷺ ، حين زعموا أن مقصوده الإكثار من زيارته ولا تجعل زيارته كالعيد في السنة مرة ، وفهم الباطل هذا من أعظم ما يرده آخر الحديث وعمل الصحابة والتابعين في عدم زيارة قبره كما نقلنا عنهم .

م (٥) : مقصود الشارع من المنهيات في هذه الأبواب :

العلة فيها أتى حسما لمادة التشريك والتشبيه بين الخالق والمخلوق.

من أعظم مقاصد الشريعة كل ما فيه تعظيم الرب ﷻ والبعد عن تشبيهه بالخلق وتشبيه الخلق به ورفعهم والغلو فيهم .

وهذا من باب حماية الرسول ﷺ لجناب التوحيد فقد بلغ أمته كل ما فيه نفع ونهاهم عما ينقص دينهم فلا خير إلا دلهم عليه ولا شر إلا نهاهم عنه خصوصا ما يقرب من الشرك لفظا وإن يقصد المعنى .

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان (٢٣)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : وقوع الشرك في من ينتسب للإسلام وأن النبي ﷺ أخبر بأن الشرك سيرجع مرة أخرى في الجزيرة بعد دخولهم في التوحيد.

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بالشرك وخطره ووجوب الحذر منه.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أنه سيوجد في هذه الأمة الإسلامية في الجزيرة وخارجها من سيشرك بالله في عبادته الشرك الأكبر ويكفر به ويتشبه بمن سبق من كفار الأمم ويتبع سننهم مع نطقه بالشهادتين وانتسابه للمصلين المسلمين كما أخبر النبي ﷺ مما يوجب الحذر من الشرك، وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ فوقع الكثير في الشرك واتبعوا سنن الكفار قبلهم وأنكروا أن يكون فعلهم من الشرك وكذبوا بهذه الأخبار وأنكروها.

فأورد المصنف هذا الباب ردا على القبورية ومشركي زمانه الذين يقعون في الشرك ويزعمون أنه لا يقع في هذه الأمة.

وأن الواقع في الشرك من المسلمين يجب تكفيره ولا ينفعه نطقه بالشهادتين.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله: أورده في سياق الأبواب المتعلقة ببيان ذرائع الشرك وحماية جناب التوحيد لأن الشرك الذي وقع فيه المسلمون كان بعد ظهور أسبابه من الغلو وتعظيم قبور الأولياء فكان وجود تلك الطرق بوادر للوقوع في الشرك.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب: فيه مشابهة لباب الخوف من الشرك رقم:(٤).

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١- ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ .

مناسبة الآية للباب : أن أهل الكتاب وقعوا في الشرك ونصرة أصحابه وأنهم أهدى وأفضل طريقاً من المؤمنين ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ مع انتسابهم للرسل وكونهم من أهل الكتاب ، فكذلك سيكون من علماء السوء هذه الأمة من يبرر أفعال المشركين والمرتدين ويفضلونهم على أهل التوحيد.

٢- قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ المائدة: ٦٠ .

٣- قوله تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ الكهف: ٢١.

٤- عن أبي سعيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لتتبعن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟) أخرجاه.

٤- عن ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها. وأعطيت الكنْزين الأحمر والأبيض. وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا). رواه مسلم .

وزاد البرقاني في صحيحه: (وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة. ولا تقوم. وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون؛ كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي. ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى).

اشتمل هذا الحديث على آيات عظيمة، منها: إخباره بأن الله زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك، فوقع كما أخبر، بخلاف الجنوب والشمال. وإخباره بأنه أعطي الكنْزين. وأن الله أجاب دعوة نبيه لأمته في الاثنتين. وإخباره بأنه مُنع الثالثة. وإخباره بوقوع السيف، وأنه لا يرفع إذا وقع. وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة. وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة. وكل هذا وقع كما أخبر.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١) : وقوع الشرك في أمة محمد ﷺ وأول من فعله:

أول من أظهر الشرك وفعله في أمة محمد هم الرافضة لعنهم الله وذلك بعد مضي القرون الثلاثة المفضلة وقد أظهروا الشرك وأمروا به ودعوا إليه حين أقاموا دولة القرامطة في البحرين واليمن ودولة البويهيين في إيران والعراق ودولة العبيديين في المغرب ومصر فحكموا المسلمين في زمن متقارب ونشروا الشرك وغالوا في القبور وبنوا عليها القباب وسموها المشاهد والله المستعان.

ثم تأثر بهم الكثير وسار على طريقهم الصوفية والمتكلمون حتى عم الشرك .

قال ابن تيمية :(وكان ظهور المشاهد وانتشارها وتعظيمها حين ضعفت خلافة بني العباس وتفرقت الأمة وكثر فيهم الزنادقة وفشت كلمة البدع وذلك من دولة المقتدر في أواخر المائة الثالثة فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القداحية بأرض المغرب ثم جاءوا بعد ذلك إلى أرض مصر) الفتاوى ٢٧/ ٤٦٥ .

وقال (كما أن بني بويه الذين كانوا على عقيدة الرافضة ظهر في دولتهم بناء المشهد على قبر علي ﷺ المزعوم بناحية النجف ولا يزال يعبد ويدعى ويطاف به) رأس الحسين ١٦٨ .

وقد قيض الله علماء ينكرون عليهم ويجاهدونهم في السابق واللاحق وهم الطائفة المنصورة جعلنا الله منهم بفضله وقد جاءت البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال تقاتل عليه طائفة. وأنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم وهم باقون إلى قيام الساعة.

م (٢) : أدلة رجوع الشرك في أمة محمد ﷺ:

١- حديث ثوبان وفيه أن الرسول ﷺ قال : (ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان) رواه مسلم.

٢- وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً : (لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس حول ذي الخلصة).

وقد وقع ذلك وأزيل هذا الصنم عام ١٢٣٠هـ .

٣- وعند مسلم من حديث عائشة مرفوعاً : (لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى) .

وقيل أن القبر الذي كان ينسب لابن عباس في الطائف أنه قبر اللات وكان أهل الطائف قبل الدعوة السلفية يعبدونه ويسألونه حوائجهم ويطوفون به .

٤- وفي الصحيحين عن أبي سعيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه).

فكل شرك وكفر في الأمم السابقة سيحصل ويقع في هذه الأمة لا محالة.

م (٣) : بعض الصور القديمة للشرك في الأمة :

١- غلاة الرافضة أتباع عبدالله بن سبأ حين ألهوا علياً فحرقهم .

٢- القدرية الأولى أنكروا القدر وعلم الله بالأمور في آخر عصر الصحابة.

٣- الجهمية حين عطلوا الله عن صفاته وأسمائه .

٤- القبورية من الصوفية والرافضة عباد القبور .

٥- المشرعون والحاكمون بغير ما أنزل الله .

م (٤) : كل شرك وقعت فيه الأمم السابقة وقع في هذه الأمة :

كل شرك وقع فيه الأولون منذ أن خلق الله الخلق ستقع فيه هذه الأمة لعموم حديث : (لتتبعن سنن من كان قبلكم) .

فكما أن أقواما قالوا أن عيسى ابن الله ففي هذه الأمة من قال أن علياً ابن الله، ومن ادّعى النبوة منهم فقد وجد في هذه الأمة من ادعاها، ومن أنكر وجود الخالق منهم فإنه وجد في هذه الأمة من فلاسفة الإسلام والشيوعية وغيرهم من أنكر وجود الله، ومن سب الله سبحانه ورسله فيهم فإنه وجد في هذه الأمة من يفعل مثل ذلك، ومن عبد الأوثان والصالحين والقبور في الأمم السابقة فكذلك وجد في هذه الأمة من يفعل ذلك، ومن استباح الحرام وحرم الحلال وشرع من الدين ما لم يأذن به الله وحكم بغير ما أنزل الله في الأمم السابقة فإنه وجد في هذه الأمة من يفعله، ومن عظم وأطاع واتخذ المخلوق ربا من دون الله من السابقين فكذلك وجد في هذه الأمة من يفعله، وهكذا كل مخالفة وقعت في الأمم السابقة وكل كفر وشرك حصل منهم فإنه وقع مثله إذ لم يكن أعظم منه في هذه الأمة أو أنه سيقع ولا محالة .

تنبيه: وقوع أهل الكتاب اليهود والنصارى في الشرك:

اليهود القائلون إن عزيرا ابن الله، والذين عبدوا العجل وقالوا اجعل لنا إلها .

والنصارى القائلون بالتثليث وأن المسيح ابن الله أو أنه هو الله أو ثالث ثلاثة وعبدوه واستغاثوا به واتخذوه إلها من دون الله .

وعندهم شرك الحكم والتشريع والطاعة والتحليل والتحريم وتغيير الدين.

وشرك في الصفات وتعطيلهم وتمثيلهم فيها وتحريف كتبهم وقتلهم الأنبياء .

م (٥) : أهمية دراسة أحوال المشركين السابقين :

ذكر العلماء رحمهم الله مناهج المشركين وأحوالهم لكي يحذر العاقل من كفرهم ويخالف طريقهم، وحقيقة الشرك وكيفية وقوعه وكيف راج ووجه مشابهة المشركين المعاصرين في زماننا بالمشركين الأولين .

فائدة : أقسام فترات الشرك :

الفترة الأولى: الشرك في الأمم السابقة: ابتداء بالمشركين في قوم نوح وانتهاء بالمشركين في عهد عيسى عليهم السلام قبل بعثة الرسول ﷺ.

الفترة الثانية : فترة المشركين العرب الذين بعث فيهم الرسول ﷺ .

الفترة الثالثة : الشرك في أمة محمد ﷺ ورجوعه في المسلمين كما أخبر ﷺ .

وله مراحل :

الأولى : زمن خروج الفرق الضالة الجهمية والقدرية والفلاسفة والزنادقة .

الثانية : بعد ظهور الرافضة والصوفية المتبعين للمجوس والنصارى في تعظيم القبور والأموات وعبادتهم والاستغاثة بهم .

الثالثة : يمكن أن يقال أنها فترة ما كان في زمن الشيخ محمد مؤلف النواقض والرسائل التي في التوحيد .

الرابعة : فترتنا المعاصرة هذه التي انتشر فيها الشرك في الحكم بالقوانين وموالاة المشركين ، إضافة للشرك في عبادة القبور. ووجه جعلنا زماننا هذا مرحلة رابعة وتفريقنا بينها وبين التي كانت في زمن الشيخ محمد لوجهين:

الأول : لوجود الشرك في التشريع والتحليل والتحريم وتحكيم غير ما أنزل الله وتنحية الشريعة وانتشار هذا الشرك وحدوثه في زماننا ، وكذا ظهور موالاة الكفار ومظاهرتهم وحرب الدين وأهله بصور لم تكن من قبل .

الثاني : أن هذا الشرك والكفر حصل بتأييد كثير ممن ينتسب للدين والعلم بل وممن يدعي أنه على منهج الشيخ محمد بن عبدالوهاب وطريقته وهذا سر تخصيصنا .

نكتة لطيفة:كل فترة تكفّر المرحلة التي تسبقها وتنكر أن تكون على منهاجها :

فقد كان كفار العرب ومنهم قريش يدعون أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام وأنهم من أبنائه وأن ما يفعلونه مع معبوداتهم لا يعد أن يكون بدعة حسنة.

والمشركون المنتسبون للإسلام يظنون أنهم على دين الله وشريعة محمد ﷺ وأنهم ليسوا على منهج كفار العرب الذين بعث فيهم محمد ﷺ.

والمشركون في زماننا من الذين يدعون انتسابهم للشيخ محمد رحمه الله وأنهم على طريقته في محاربة الشرك، وأنهم ليسوا على منهج القبورية والصوفية والرافضة والجهمية والمرجئة الذين حاربوا إمام الدعوة وصدوا الناس عن دعوته، مع أن أولئك مثل هؤلاء في الطريقة والدعوى ووقوعهم في الإرجاء بل والشرك والردة .

وقد جمعت بفضل الله الصور المعاصرة والأمثلة الحادثة في زماننا في الشرك والنواقض في رسالة مستقلة تبصيرا للناس وتحذيرا لهم من الوقوع فيها أو الاغترار بشبهات المخالفين والمغرر بهم .

فتأمل هداك الله هذا الباب العظيم واحذر من الوقوع في حبائل الشرك والكفر والنفاق ودخول الردة من أوسع مصارعها وأبوابها .

م (٦) : شرك المتأخرين أشد وأعظم من شرك الأولين لأمور منها :

١- أن المشركين الأولين يدعون الله ويوحدونه في حال الخوف ويشركون في حال الرخاء: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٥ ، أما المتأخرون فلا تشتد دعوتهم لغير الله إلا في حالة الخوف.

٢- أن الأولين يدعون أقواماً صالحين ، فاللات وود وسواع رجال صالحون، والمتأخرون يدعون صالحين وطالحين أمثال ابن عربي الباطني، والبدوي الرافضي.

٣- أن مشركي زماننا وقعوا في الشرك في الربوبية فزعموا أن الأولياء يخلقون ويرزقون ويملكون ويدبرون ويتصرفون ويعلمون الغيب أما الأولون فكانوا مقرين بتوحيد الربوبية كما أخبر الله عنهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ الزخرف: ٨٧.

٤- وأيضاً من تعظيم شرك المتأخرين على شرك الأولين انتشار التشريع بصفة لم تكن عند الأولين ، مع أنه بعث لهم خير الرسل وأنزل لهم خير الكتب وفيهم دعاة الخير ومع ذلك وقعوا في الشرك، وهذا دليل على أنهم أخبث وأشد شركاً .

٥- أن الأولين يعلمون معنى لا إله إلا الله والمتأخرون لا يعلمون معناها .

٦- أن الأولين لا ينكرون علو الله ولا صفاته بخلاف المتأخرين .

٧- وجود من ينكر الله تعالى من مشركي زماننا .

٨- وجد في مشركي زماننا من يعبد الشيطان .

٩- من المشركين المتأخرين يقول أن كل شيء هو الله وأنه حل في كل مكان .

١٠- وجد منهم من يمثل الله بخلقه والخلق بالله سبحانه .

م (٧) : تنبيه : إبطال شبهة متعلقة بالباب :

أن من يقول الشرك لن يرجع في هذه الأمة ولا في جزيرة العرب ويستدل بحديث :(يئس الشيطان أن يعبد في جزيرة العرب) .

ملخص الرد أن الشيطان لا يعلم الغيب ويأسه من رجوع الشرك لما رأى الدين ظاهر والتوحيد قائم فظن أنه لن يرجع مرة أخرى،وهو من جنس يأس الخلق الجاهلين بالغيب كالرسل الذين استيأسوا النصر﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ ، فيأس إبليس مثل يأس الرسل، ثم إن الذي أخبرنا بيأسه هو الذي أخبرنا برجوع الشرك.

ومما يؤكد الردة والشرك ظهور مسيلمة وأتباعه من بني حنيفة وردة أكثر العرب ، وإخبار النبي ﷺ عن رجوع الشرك ومنه ذو خلصة بدوس في الصحيحين.

باب ما جاء في السحر (٢٤)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه: حقيقة السحر، وحكم الساحر وكونه كافرا ووجوب قتله.

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بنواقض التوحيد والشرك .

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن السحر يعد مناقضا للتوحيد من أصله ، لأنه لا يقوم إلا على الشرك .

والسحر ينقض التوحيد من ثلاث جهات سنذكرها في المسائل .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله: بعد أن أورد الأبواب المتعلقة بوسائل حفظ التوحيد وذرائع الشرك وحتمية رجوعه في الأمة ذكر أبواب الشرك الأكبر والكفر وبدأ بأبواب السحر لانتشاره في الأمة ثم أعقبه بأبواب الشرك في العبادات القلبية .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

له علاقة بأبواب الشرك الأكبر .

الوقفة الرابعة: ما فات المصنف ذكره في هذا الباب :

لم يذكر كفر ادعاء علم الغيب وهو قريب من معنى الباب.

الوقفة الخامسة: الأدلة والشواهد الواردة في الباب:

أورد المصنف آيتين وحديثين وأربعة آثار للصحابة .

الوقفة السادسة: المسائل العقدية المتعلقة بالباب :

ذكرنا مسائل السحر في شرحنا للنواقض بشيء من التوسع ونختصرها هنا.

المسألة الأولى : تعريف السحر :

في اللغة : هو كل ما خفي ولطف سببه ودق مأخذه . ويطلق السحر على الصرف فمن صرف على شيء قيل مسحور . ومن ذلك سمي آخر الليل سحراً لخفائه والبيان لكونه قد يصرف عن الحقيقة.

تعريفه اصطلاحاً : عزائم ورقى وعقد يقوم بها الساحر لتؤثر عن طريق الشياطين في الأبدان والقلوب أو بطريق التخييل في العيون .

والصواب أن تعريف السحر لا يمكن ضبطه . وإلى هذا ذهب الشنقيطي فقال: (السحر في الاصطلاح لا يمكن حدّه ، لكثرة الأنواع المختلفة الداخلة فيه، ولا يتحقق قدرٌ مشترك بينهما يكون جامعاً لها مانعاً لغيرها). أضواء البيان٤/ ٥٥٥ .

ومن أسماء السحر : الجبت . التولة . العضة .

المسألة الثانية : حقيقة السحر :

يقوم على : الاستعانة بالشياطين بعد طاعتهم وعبادتهم والوقوع في الشرك والكفر من الساحر وتقديم القرابين لهم وفعل ما يطلبونه ليفعلوا له ما يريد .

والمقصود الأكبر من عمل السحر: تعبيد الناس لغير الله وتطويعهم للشيطان وإخراجهم من الدين في الشرك، فدعوة السحرة على الضد تماما من دعوة الرسل.

فائدة : سحرة الجن : كما أن من الإنس سحرة كذلك من الجن سحرة ، واسم ساحر الجن الغول والساحرة سعلية وقد جاءت الآثار بذلك .

المسألة الثالثة : أدلة السحر وكفر فاعله :

١ - قال تعالى ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ١٠٢.

اختلف العلماء في الآية وفهمها وفي حقيقة هاروت وماروت مصدر السحر.

أوجه كفر الساحر من الآية :

الأول: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾.

فأثبت سبحانه كفر الشياطين لتعليم الناس السحر وأن سليمان عليه السلام مبرأ من هذا الوصف الكفري وهو السحر الذي يترتب عليه كفر فاعله .

الثاني: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ البقرة: ١٠٢.

وهذا الشاهد من الآية نص في كفر تعلم السحر وأن المتعلم للسحر يكفر بمجرد تعلمه ولو ادعى صاحبه أنه لم يشرك ولن يشرك ولن يكفر .

الثالث: قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴾ .

ومن ليس له في الآخرة خلاق ولا نصيب ولا حظ لا يكون إلا خالداً في النار وليس ذلك لأحد غير الكافر والعياذ بالله .

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ طه: ٦٩ ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ يونس: ٧٧. ونفي الفلاح بالكلية لا يكون إلا لمن لا إيمان معه ولا دين وهو الكافر .

٣- قال تعالى: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ يونس: ٨١ فأخبر أن السحر من عمل المفسدين، وأنه تعالى سيبطله .

٤- قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ الفلق: ٤.

٥- قال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ طه ٦٦ ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ الأعراف ١١٦.

٦- وقال تعالى عن سحرة فرعون وإقرارهم أن السحر من الكفر وتوبتهم منه ومن جميع كفرهم : ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ طه: ٧٣.

٧- وقال تعالى عن كفر اليهود: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ النساء: ٥١.

قال عمر ﷺ: (الجبت السحر، والطاغوت الشيطان) رواه ابن أبي حاتم.

وقال جابر: (الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد).

والأدلة من السنة على كفر الساحر :

٨- عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (من أتى عرَّافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ). رواه الأربعة والحاكم . ولأبي يعلى عن ابن مسعود مثله موقوفا. وهذا الحكم في من يأتي السحرة والكهنة فكيف بالساحر نفسه.

٩- عن جندب بن كعب الغامدي ﷺ قال قال رسول الله ﷺ :(حدّ الساحر ضربةٌ بالسيف) رواه الترمذي وغيره بطرق عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب وقد ضعف البخاري إسماعيل كما في علل الترمذي . وروي موقفا عليه .

وروي في : (ضربه بالسيف) بالهاء والتاء، والتاء أبلغ .

١٠- عن ابن عباس قال : قال ﷺ : (من اقتبس شعبة - علماً - من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد) . رواه أحمد وأبو داود، وإسناده صحيح.

١١- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: (من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك. ومن تعلق شيئا وكل إليه) رواه النسائي وغيره.

وفي لفظ (من عقد عقدة فيها رقية فقد سحر ومن سحر فقد كفر)

١٢- عن ابن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الرقى والتمائم والتِّوَلَة شرك) رواه أحمد وأبو داود. والتولة نوع من السحر.

وإذا كان من تعلق التميمة والرقية مشرك بنص هذا الحديث وغيره كقوله ﷺ : (من تعلق تميمة فقد كفر أو أشرك) فكيف بالذي يكتبها ويأمر الناس بتعليقها.

١٣- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:(اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) .متفق عليه.

١٤- ولما سأل معاوية بن الحكم السلمي النبي ﷺ عن أناس يأتون الكهان فقال: (فلا تأتهم). رواه مسلم .

١٥- وعن عائشة أن النبي ﷺ قال عن الكهان: (ليسوا بشيء) متفق عليه .

١٦- إجماع الصحابة على كفر الساحر وقتله : يدل له أمر عمر ﷺ بقتل كل ساحرٍ وساحرة . ولم يخالفه أحد من الصحابة فصار إجماعا.

١٧- قصة المرأة التي جاءت لعائشة بعد كفرها بتعلمها السحر .

الرابعة : تفسير آية السحر ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴾ :

أخبر سبحانه عن اليهود لعنهم الله أنهم تركوا اتباع الرسول ﷺ واستبدلوا ذلك باتباع ما تتلوه الشياطين وتدعوا إليه من الكفر والسحر، وهذا السحر تنسبه الشياطين إلى سليمان، وذلك أنه حين مات سليمان عليه السلام قد دفن كتب السحر تحت كرسيه، فلما مات أمرت الجن الناس وزعموا أن سليمان كان ملكه قائما عليها فصدق اليهود، لكن الله برّأ سليمان عليه السلام من هذه التهمة وأنه لم يكن ساحراً ولا كافراً، وإنما ذلك السحر من عمل الشياطين يعلمون من يريد السحر.

ومعنى: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ :

الإذن الكوني القدري وليس الشرعي إذا لم يشرع الكفر ويأذن به .

ومعنى ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ﴾ الصحيح أن ما موصولة لا النافية، وأن هاروت وماروت ملكان من الملائكة كما نصت الآية. وبابل بالعراق.

وقد ورد عن الملكين هاروت وماروت أخبار وإسرائيليات لا ينبغي أن تصدق وأصح ما جاء بها من الخبر ما أخرجه الإمام أحمد في عصيانهما ونزولهما الأرض ، والحديث اختلف فيه فحسن سنده ابن حجر ، والصحيح أنه ضعيف وقد تكلم في روايات القصة النابلسي في برهان الثبوت .

وهذان الملكان الموكلان بتعليم السحر لا يعلمان أحداً السحر حتى يقولان له إنما جعلنا الله فتنة للإنس فلا تكفر بتعلم السحر فإذا أبى إلا أن يتعلم ويكفر بذلك تعلم من هذين الملكين السحر الحاصل بإذن الله فيه قدراً فيتعلم الساحر ما يضره من علم السحر ولا ينفعه ذلك في دنياه ودينه ، في الآخرة كافر خاسر والعياذ بالله.

المسألة الخامسة : النقولات من كلام العلماء في كفر الساحر :

قال الحسن : (يقتل السحار ولا يستتابون) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه .

قال الإسماعيلي في اعتقاد أهل الحديث : (ويؤمنون أن في الدنيا سحرا وسحرة وأن السحر واستعماله كفر من فعله معتقدا له نفعا وضرا بغير إذن الله) .

وقال النووي في شرحه لمسلم : (قال مالك الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب ولا تقبل توبته). انظر قول مالك في الموطأ.

قال ابن قدامة : (قال أصحابنا يكفر الساحر بتعلمه وفعله).

قال ابن القيم : (وقلما يتأتى السحر بدون نوع عبادة للشيطان وتقرب إليه .. والساحر وإن لم يسم هذا عبادة بل يسميه استخداما فإن الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه لا لاسمه ولفظه) بدائع الفوائد ٢/ ٢٣٥ .

وقال الذهبي في الكبائر :(الساحر لابد وأن يكفر وما للشيطان غرض في تعليمه الإنسان السحر إلا ليشرك به).

قال سليمان في التيسير: (لما كان السحر من الشرك إذ لا يتأت السحر بدونه أدخله المصنف في كتاب التوحيد تحذيراً منه كما ذكر غيره في أنواع الشرك).

قال محمد بن عبد الوهاب : الطواغيت كثيرة ورؤوسهم خمسة: الذي يدعي علم الغيب من دون الله، والدليل قوله تعالى :عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا).

قال الإمام أحمد: ثبت قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ .

المسألة السابعة : أنواع السحر :سيأتي الكلام عنه في الباب القادم .

المسألة العاشرة : أوجه كفر السحر :

السحر كفر من جهتين وعلتين :

الأولى : أن في السحر استعانة شركية بالشياطين : ووجه ذلك أن المرء لا يمكنه تعلم السحر إلا بعد عبادة الشياطين ودعائهم من دون الله والذبح لهم .

الثانية : أن الساحر غالباً يدعي القدرة التامة الكاملة ويدعي علم الغيب وأنه يعلم ماذا يريد المريض وأنه مطلع على ما في القلوب وأنه يعلم ما يصير في المستقبل وأن ذلك كرامة من الله له أو أن الشياطين تخبره والشياطين تعلم الغيب بذاتها .

والعلة الثانية حوت سببين فصارت ثلاث علل ، وهذه العلل الواحدة منها تخرج المتصف بها من ملة الإسلام فكيف إذا اجتمعت وغالباً تجتمع في الساحر .

وهناك الأمور المكفرة لدى الساحر غير ما ذكر ومن ذلك :

١- ما يصاحب تعلم السحر من الكفر المغلظ بالتلفظ بالكفر أو سب الله ﷻ أو الرسول ﷺ أو الحديث وترك الصلاة وجحدها أو إهانة المصحف أو كتابة آيات من القرآن بالنجاسة كالبول ودم الحيض بل والتبول على المصحف أو رميه في الحمام أو دعسه ونحو ذلك مما يفعله أكثر السحرة بل ويأمرون به كثيرا ممن يأتيهم .

٢- ما يأمرون به من يأتيهم من الشرك كالذبح للجن والنذر لهم وترك الصلوات وفعل الفواحش واستحلالها .

٣- ما يفعله أكثر السحرة من عداء الإسلام والكفر بالله وموالاة الكافرين واتخاذ الصليب شعاراً ومظاهرة الكفار على المسلمين .

المسألة الثانية عشر : وجه كون الساحر طاغوتا:

الساحر يعتبر طاغوتاً لأمرين :

الأول : لتعبيد الناس لغير الله وتطويعهم للشيطان وإخراجهم عن عبادة الله وحده وإيقاعهم في الشرك وعبادة غير الله تعالى والإيمان بالطاغوت وهذا المقصود الأكبر من عمل السحر ودعوة السحرة، وهم بذلك على الضد تماما من دعوة الرسل ومقصود الرسالة وهو عبادة الله وحده وترك الشرك وعبادة من سواه والكفر بالطاغوت ، لهذه العلة كان الساحر والكاهن من أعظم الطواغيت وكان السحر والكهانة من أفراد الطاغوت وأحد أنواعه بل ورؤوسه.

الثاني: لكونه يدعي مشاركة الله ﷻ في خصوصياته في قدرته المطلقة الكاملة على التأثير في الأشياء، فزعم أنه ينزل الضر فيمن يشاء ويرفعه عمن يشاء، كما أنه يدعي علم الغيب وهاتان الصفتان من أخص خصوصيات الله تعالى، ومع ذلك فكثير من الناس لجهلهم بالتوحيد وحق الله عليهم يعبدون السحرة .

وجه كون الساحر كافرا :

فلكونه لا يأتي إلا بالشرك والكفر يدل لذلك قوله تعالى:﴿ فَلَا تَكْفُرْ ﴾.

وجه كون الساحر مشركا:

فلأن السحر لا يقوم إلا على الاستعانة بالشياطين بعد طاعتهم وعبادتهم والوقوع في الشرك والكفر من الساحر وتقديم القرابين لهم وفعل ما يطلبونه .

ودليل كون السحر شركا قوله ﷺ : (من سحر فقد أشرك) رواه النسائي .

المسألة السادسة عشر : حكم تعلم السحر :

السحر كفر وصاحبه لا يتعلمه إلا بعد أن يكفر ويعبد الشياطين.

قال تعالى ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡ﴾ البقرة: ١٠٢.

وقد ذهب بعض الشافعية إلى جواز تعلم السحر وعلى رأسهم الرازي.

وقد رد الطبري في تفسيره على من خالف في المسألة كما رد ابن كثير في تفسيره مزاعم الرازي في كون السحر علم من العلوم المستحب تعليمها . قال الذهبي في الميزان عن الرازي : (له كتاب السر المكتوم سحر صريح فلعله تاب منه تأليفه) .

وقد استدل المخالفون لإباحة تعلم السحر بأدلة نقضتها في شرح النواقض.

وأخطأ من قال أن السحر الذي بالأدوية والتدخين لا يكفر صاحبه .

وهذا من التوهم والتخبط والدعوى الكاذبة المخالفة للحقيقة إذ لا يمكن أن يتعلم أحد السحر إلا بعد وقوعه في الكفر بالشرك وغيره وبعد طاعة الشياطين وعبادتهم والشرك بهم ثم لو فرضنا وتصورنا وسلمنا إمكانية تعلم السحر من دون عبادة الشياطين وطاعتهم في فعل الكفر بالله، فإن هذا لا يخرج المتعلم له من دائرة الكفر، لأن الله عز وجل نص على كفر متعلم السحر مطلقاً وهذا أصل بذاته وعلة مستقلة قارنها حصول كفر آخر وتلبس المتعلم له بناقض آخر أم لا .

مسألة : أخطأ الشافعي رحمه الله في قوله: (فيقال للساحر صف لنا السحر الذي تسحر به فإن كان كلام كفر صريح استتيب منه، وإن كان ما يسحر به كلاما لا يكون كفرا وكان غير معروف ولم يضر به أحدا نهي عنه) . الأم ١/ ٢٥٥.

المسألة السابعة عشر : حكم تكفير الساحر وقتله:

الساحر كافر يقتل ردة بسحره ولا يعذر بجهله وتأويله استباحة تعلم السحر سواء عمل بسحره أو لم يعمل به ، والساحرة كالرجل تقتل مرتدة ولا تستتاب.

ويجب قتلهم : بأمر الرسول ﷺ فعن جندب بن كعب الغامدي ﷺ أن النبي ﷺ قال:(حد الساحر ضربه بالسيف)رواه الترمذي.

وأمر عمر ﷺ بقتلهم حيث كتب إلى ولاته في الأمصار: (أن اقتلوا كل ساحر وساحرة) رواه البخاري وأبو داود واللفظ له .

كذلك إجماع الصحابة : يدل له أمر عمر ﷺ : بقتل كل ساحرٍ وساحرة . ولم ينكر حكمه أحد من الصحابة ولا خالفه أحد منهم فعد إجماعا .

قال ابن قدامه في المغني : (وهذا اشتهر فلم يُنكر، فكان إجماعاً)٨/ ١٥٣ .

وقد قتل جندب الغامدي ساحراً في مجلس الوليد بن عقبة دون استتابة كما رواه الحاكم في المستدرك وابن أبي شيبة في مصنفه والبيهقي والدارقطني وابن عساكر في تاريخه والبخاري في تاريخه وذكر خبره ابن عبدالبر.

وكذا قتلت حفصه جارية لها سحرتها رواه مالك في الموطأ . دون استتابة .

وترك الرسول ﷺ قتل ابن صياد ولبيد أمر خاص به أو أنه قبل الأمر بقتلهم.

تنبيه : اختلف العلماء في استتابة الساحر إذا قدر عليه: والصحيح أنه يجب قتل الساحر من دون استتابة، فيقتل ولا تقبل منه توبته ظاهرا كما هو عمل الصحابة.

فالساحر يجب أن يقتل مباشرة متى ظفر به وتيقنا أنه ساحر .

تنبيه : أخطأ من ظن أن السحر لا يكفر فاعله حتى تُقام عليه الحجة.

المسألة السادسة : تاريخ السحر :

السحر تعرفه جميع الأمم قبل الإسلام وبعده وقد جاء تحريمه في جميع الشرائع. وقد قص الله علينا تكذيب ثمود قوم صالح واتهامهم لنبيهم بالسحر.

ومن الأمم التي كانت لديها السحر قوم إبراهيم أهل بابل حيث كانوا من المنجمين السحرة عباد الكواكب ثم بقي السحر في العراق.

ومن أشهر الأمم في السحر الفراعنة بمصر ولذلك كانت معجزة موسى من جنس أفعالهم السحرية ليبطل سحرهم ويعجزهم ولهذا آمن السحرة وعلموا أن ما عنده ليس بسحر وإنما معجزة إلهية وبرهان رباني لا يقدر على مثله البشر ولا الجان .

كما أن السحر وجد عند شعوب الفرس والإغريق والفلاسفة والهند والصين وكانوا يدعون أنهم يستعينون به في الطب، ولدغ الأفاعي كما جمعوا بين السحر والكهانة التنجيم وعبادة الكواكب .

كما وجد في اليهود والنصارى خصوصاً بعد سليمان . كما وجد عند العرب قبل الإسلام وصار هو الكهانة لها عندهم مدارس ويسألونهم ما أشكل عليهم.

وبعد الإسلام بقي السحر في الكفار ويتعلمه المرتدون من أهل الإسلام.

والأمم المعاصرة التي تدعي التحضر كأمريكا لا تسلم من ألوان السحر والكهانة بل البيت الأبيض يعتمد على السحرة والكهنة والمنجمين.

المسألة الثامنة : السحر له حقيقة وتأثير :

السحر له حقيقة مؤثرة فقد يصل السحر بالمسحور إلى الموت والمرض والأذى والبغض والمحبة والتفرقة بين الزوجين.

فالسحر يؤثر على القلب بالحب والبغض . وعلى البدن بالأمراض والقتل والربط . وعلى العقل والدماغ بالتصور الخاطئ والتخييل والجنون .

ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ .

فأثبت الله لهم الإضرار ولكن هذا الإضرار لا يكون إلا بإذن الله .

ومن حقيقة تأثيرهم : ما أخبر به تعالى عنهم من فعلهم : وأخبر الله تعالى أنه يفرق بين الزوجين ، وأمر الله أن يتعوذ من شرهم وما ذاك إلا لأن للسحر حقيقة مؤثرة ، والنبي ﷺ أثبت أن للسحر ضررا في حديث أكل التمرات.

كذا العقل والحس تثبت أفعال السحرة وطيرانهم وقتل الإنس وهذا لا يخفى.

قال ابن القيم في البدائع : (وقد دل قوله :ومن شر النفاثات، وحديث عائشة على تأثير السحر وأن له حقيقة، وأنكر ذلك المعتزلة، وإنما ذلك تخييل لأعين الناظرين لا حقيقة له سوى ذلك).

وذهبت المعتزلة إلى إنكار السحر وأنه مجرد تخييل فقط لا حقيقة له ولا تأثير.

واستدلوا بقوله تعالى: (يخيل إليه من سحرهم) (وسحروا أعين الناس) .

وأخطؤوا فيما ذهبوا إليه إذ أن السحر ثبت تأثيره في الشرع والعقل كما تقدم.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : (هذه الآية عمدة من زعم أن السحر إنما هو تخييل ولا حجة لهم بها لأنها في قصة سحرة فرعون ، وكان سحرهم كذلك،ولا يلزم منه أن جميع أنواع السحر تخييل)١٠/ ٢٣٥.

عليه فالسحر ينقسم إلى قسمين :

منه ماله حقيقة وله تأثيرات على البدن والقلب ، ومنه ما هو تخييل .

المسألة التاسعة : الرد على من زعم قدرة الساحر على قلب الأعيان بسحره .

زعم بعض المتكلمين كالباقلاني والرازي في تفسيره. أن الساحر يقدر أن يقلب الأعيان فيجعل الشاة كلباً والماء تراب والإنسان حماراً حقيقة.

وهذا القول باطل إذ لازمه أن الساحر يقدر على الخلق والربوبية .

قال ابن الجوزي : (وقد نقص قوم من رتبة السحر فقالت المعتزلة ليس السحر إلا الشعبذة والدهشة ورفعه قوم فجعلوه زائدا على المعجزات وربما توهم جاهل أن الساحر يقلب الصور فيجعل المرأة طائرا) . نزهة الأعين النواظر ٣٥٤ .

الفرق بين السحر والمعجزة والكرامة:

أولاً: من جهة المتصف بها فالفرق بين النبي والولي والساحر مثل الفرق بين الليل والنهار والعقل والجنون .

ثانياً : من جهة ذاته وحقيقتها فالسحر لا يصل إلى درجة المعجزة ولا يكون خارقا ومعجزة الإنس والجن والحيوان فالسحر يطيقه كثير من الإنس بسحر وبغيره ويطيقه الجان والحيوان وقد بينا ذلك في ردنا على الأشاعرة والمتكلمين .

مسألة : مصدر السحر :

الصحيح أن السحر من العلوم الضارة المذمومة المحرم على البشر تعلمها، وجعل الله تعلمه مقدوراً لهم مع منعه لهم ابتلاء لهم وفتنة .

والسحر هو من العلوم التي أنزلها الله على خلقه وجعل مفاتيحها بيد الملكين (هاروت وماروت) وهما الموكلان بتعليم السحر وقد أنزل معهما، فيعلم الملكان مريد السحر مع إخبارهم للمتعلم بكفر السحر وفاعله والله أعلم.

المسألة الحادية والعشرون : سحر الرسول ﷺ :

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت : سحر رسول الله ﷺ رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي لكأنه دعا ودعا، ثم قال : (يا عائشة شعرتُ أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل؟ فقال مطبوب - أي مسحور - قال: من طبه؟ قال: لبيد ابن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطه وجف طلع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر أروان) .

فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه فجاء فقال : (يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين قلت يا رسول الله أفلا استخرجته قال قد عافاني الله فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً فأمر بها فدفنت) .

وفي رواية: فأنزل الله المعوذتين وأمر أن يتعوذ بهما فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد النبي ﷺ خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة فكأنما أنشط من عقال .

وفي رواية: فأتاه جبريل بالمعوذتين فعوذه بهما فخرج إلى أصحابه صحيحا .

وفي رواية: فأرسل النبي ﷺ عليا إليها فنزحوا ماء البئر فاستخرجها فجاء به فأمر أن يحل العقد ويقرأ آية فجعل يقرأ ويحل وكلما حل عقدة وجد لذلك خفة .

وفي رواية : قال الصحابة أفلا نأخذه فنقتله فقال أما أنا فقد شفاني الله وأكره أن أثير على الناس شرا وفي أخرى وما وراءه من عذاب الله أشد .

وجاء عند ابن سعد والطبراني أن النبي ﷺ احتجم حين سحر .

وحقيقة سحره:أنه كان يخيّل إليه أنه يأتي الشيء ولم يأته ويأتي نساءه ولم يأتهم.

وهذا السحر لم يكن يؤثر على تبليغه الدين أو يختلط عليه في الوحي أو فعل منكرا أو أثر على عقله أو عبادته .

وقد كان السحر لما رجع من الحديبية في آخر السادسة ولبث ستة أشهر .

وقد أخطأ من أنكر سحر النبي بشبهة عقلية كلامية في مقابل حديث صحيح.

قال الشنقيطي:(ما وقع من تأثير السحر في النبي ﷺ لايستلزم نقصا ولا محالا شرعيا حتى ترد الروايات الصحيحة لأنه من نوع الأعراض ولم يؤثر في التبليغ) .

المسألة الثالثة عشر : أوجه عبادة الناس للسحرة :

من جهة الاعتراف لهم بمقدرتهم على التأثير في الأشياء نفعا وضرا .

ومن جهة الخوف والخشية والرجاء، حيث يرجونهم في أن يفعلوا لهم كذا وكذا، أو أن يرفعوا عن مريض ما أصابه من ضر وغير ذلك .

من جهة طاعتهم في فعل الظلم والفواحش والفسق وترك الصلوات بل والكفر والشرك كالذبح لغير الله أو إهانة المصحف .

لذا فالساحر طاغوت كافر مشرك،حده في الإسلام ضربة بالسيف على العنق.

المسألة العشرون : حكم الذهاب للسحرة: سيأتي في باب الكهان .

تنبيه : تفسير الجبت والطاغوت، والفرق بينهما ، تقدم.

تنبيه : مسائل السحر يندرج فيها المنجم والكاهن والعراف والرمال وغيرهم.

مسألة : كفر إدعاء الغيب ذكرته في موضعه.

باب بيان شيء من أنواع السحر (٢٥)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : أنواع السحر.

وقد ذكر المصنف ثمانية أنواع وسنذكر غيرها . والتي ذكرها :

١) الطرق ٢) العيافة ٣) الطيرة ٤) العقدة والنفث فيها ٥) التنجيم ٦) رنة الشيطان ولها علاقة بالكهانة ٧) النميمة ٨) البيان.

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بنواقض التوحيد والشرك .

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن السحر بأنواعه ينقض للتوحيد من أصله ، لأنه لا يقوم إلا على الشرك .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

لما ذكر باب السحر من حيث الأصل ذكر بعد ذلك فروعه وأنواعه .

وقد أورده في سياق الأبواب المتعلقة بالسحر لأن علتها واحدة وهي الشرك والاستعانة بالشياطين وادعاء الغيب والقدرة وتعبيد الناس لغير الله .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب : له علاقة بأبواب الشرك الأكبر .

الوقفة الرابعة: فات المصنف في هذا الباب أن يستوعب فروع السحر.

الوقفة الخامسة: الأدلة والشواهد الواردة في الباب:

أورد المصنف خمسة أحاديث ، سنوردها في المسائل في هذا الباب وغيره.

الوقفة السادسة: المسائل العقدية المتعلقة بالباب :

م (١) : أقسام السحر:

الأول : السحر .

الثاني : التنجيم .

الثالث : الكهانة .

الرابع : العرافة . ويدخل في السابق .

الخامس : الرمال والطرق ، وهو الخط على الرمل والضرب بالحصى.

هذه الأقسام الخمسة هي أصول السحر .

وقد أفرد المصنف لكل قسم منها باباً وستأتي تبعا .

تنبيه :الفرق بين السحر والكهانة والعرافة والتنجيم سيأتي .

م (٢) : أنواع السحر:

تنبيه : السحر حقيقي ومجازي والحقيقي إلى مؤثر وتخييلي ومن التخييلي سحر الأعين بتحرك الساكنين وهو لم يتحرك وكليهما فيه استعانة بالشياطين وهو كفر .

وقد يكون السحر عن طريق الطلاسم والنفث والعقد والتمتمة الكفرية وقد يكون بالأدوية والمواد والعقاقير وقد لا يكون لا بهذا ولا بهذا .

كما أن السحر يكون في الأنس بأذيتهم أو علاجهم أو التلاعب بمشاعرهم ونفسياتهم وهذا هو الأصل، وقد يكون بدون ذلك كله فيتعلم السحر ليستكشف الكنز أو ليطير ويظهر الدجل والخوارق أو يستمتع بالجن ويحققوا له رغباته المادية والجسدية من غير أن يؤذي الناس أو ليخبروه بما يغيب عنه وهذا القسم الثاني من السحر وهو نادر إذ الأول هو الأصل ومع ذلك فهو كفر كله والعياذ بالله .

تنبيه : كثر كلام أهل العلم في أنواع السحر ومما قيل في ذلك :

قيل يتنوع إلى سحر : العطف (التولة) ، الصرف ، الجنون ، التخييل ، الخمول ، الهواتف الأحلام ، الإمراض ، النزيف ، الربط .

أنواع السحر عند الرازي سحر مخاطبة الكواكب ، سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية ، سحر الاستعانة بالجن ، سحر التخيلات والأخذ بالعيون ، سحر التراكيب والنسب والمواد والعناصر وخواص الأدوية والعقاقير .

وأنواعه عند الشنقيطي: الكيمياء والسيمياء والهيمياء والعزائم والطلاسم والموالد والموسيقى وعلم الكتف والرعديات .

والصحيح عندي أن السحر ينقسم إلى :

١- سحر النجوم عن طريق الكواكب ومخاطبتها وادعاء تأثيرها في الأرض ومعرفة الغيب بالنظر في مطالعها وأسرارها وأنها هي المدبرة لهذا العالم السفلي ومنها تصدر الخير والشر والسعادة والنحس وهذا سحر الكلدانيين وقوم إبراهيم وهذا يسمى التنجيم وهو كفر مستقل خارج عن السحر وليس منه وسيأتي الكلام عنه وقد يكون فيه استعانة بالشياطين واستخبارهم فيكون مثل الكهانة والعرافة وقد يكون بدونه وهو لا يكون معه أذية للبشر وإنما ادعاء للغيب وتأثير في حوادث الأرض وهذا الذي يفارق به السحر .

٢- سحر الاستعانة بالشياطين والجن في التأثير على الناس وادعاء معرفة الأمور أو علاجهم، وذلك بطريق العقد أو الرُقى أو الطلاسم أو الأدوية أو غير ذلك مما هو عن طريق الاستعانة الشركية بالجن. وإذا قيل السحر قصد به هذا .

٣- سحر استخدام الأرض بالخط على الرمل والطير بالتطير والتشاؤم، ونحو ذلك وهذا كفر مستقل سيأتي الكلام عنه ، وصاحبه إما أن يكون مستعينا بالجن أو أنه متخرص كاذب . وهذا يسمى بالرمل والعراف والمتطير .

٤- السحر المجازي وهذا ليس بسحر وإنما يقال له سحر مجازاً لتشبهه بالسحر وهو أنواع أشهرها نوعان :

الشعوذة وخفة اليد والتخييل والأخذ بالعيون والألعاب البهلوانية والخدعة البصرية واستخدام مواد كيميائية كالزئبق ودهون لا تحرقها النار ونحو ذلك ، فربما يرى المتحرك ساكن والعكس ، وهذا يعتمد على الخداع البصري وخفة اليد وتسمى الشعوذة.

سحر الأدوية والمواد والعقاقير والبخور والكيمياء التي تؤثر على بدن المسحور بإضعافه حتى يهلك ، وعلى عقله فربما أدى به إلى الجنون .

وهذان النوعان هما على قسمين ما كان فيه استعانة بالجن في تحضير وتأثير وتخييل فهو سحر وكفر وما لم يكن كذلك فليس بسحر .

والكلام في القسم الأول وهو السحر الحقيقي الذي يتم باستخدام الجن وادعاء القدرة والعلم وهو مناط الكفر .

م (٣) : صور السحر :

الأول : الطلسم :

هو عبارة عن كتابة ألفاظ أعجمية وعبارات غير مفهومة ورموز وأرقام ورسومات وجداول وهي في حقيقتها استغاثات شركية وكلمات كفرية ودعاء للشياطين بأسمائهم وتقديس لهم ، تكتب في أوراق أو جلود أو قماش وفيها طلب من الجن بتحقيق ما يريده الساحر والمسحور له .

وهي أحد وسائل السحرة التي يستخدمونها .

ومثلها العقد والنفث فيها وحقيقتها : أن يربط الساحر خيوطا وحبالا أو شيئا من لباس المسحور أو شعره ثم ينفث الساحر فيه بعد تعاويذ وقراءات وطلب ونداء للشياطين فتخرج نسمته الخبيثة .

ومثلها التمائم : جمع تميمة وهي شيء من الخرز أو الحجب أو الطلاسم يعلقها الشخص على نفسه أو ولده أو سيارته لرد العين أو السحر ونحوه .

الثاني : الشعوذة : (بالواو والباء) :

ذكر زاده في مفتاح السعادة أنها سميت باسم الرجل الذي اخترعها .

والشعوذة ليست سحر في الحقيقة وإنما هي من باب الخداع وخفة اليد وسرعة الحركة والاستعانة بالمواد الكيميائية والعناصر التي لها خصائص خافية على الناس، ويكثر هذا فيما يسمى بالألعاب البهلوانية وهي الكيمياء قديما فالكيمياء في القدم كانت تطلق على مثل ذلك ومثلها النيرنجات .

الثالث : الاستحضار :

يطلق لفظ الاستحضار على أمرين :

الأول : تحضير الجن وإحضارهم وذلك بطلب الساحر أو من يتعلم السحر ويقوم بالإستغاثات أو بدعائهم والاستغاثة الشركية الكفرية وعبادتهم فيحضر الشيطان مجلس الساحر ويخاطبه ويطلب منه ما يريد بعد أن يقدم الساحر له القربان والطاعة والشرك وقد يطلب الساحر من الشيطان حضوره بصورة شخص ميت ويدعي أنه أحياه أو استحضر روحه .

الثاني : إحضار أرواح الموتى ومخاطبتها وسؤالها، وهذا الأمر يدعيه طوائف : السحرة ، أصحاب مذهب الروحية الحديثة ، أرباب التناسخ .

الرابع : التنويم المغناطيسي :

هو من أحد الطرق الدجلية التي تمارس في زماننا ويقوم بها أناس يدعون ما يدعيه السحرة من القدرات وقد يكون فعلهم فيه استعانة بالشياطين .

وقد يكون من شخص يجيد دلك العصب وتدليكه حتى يتخدر ويضعف الإدراك والإحساس فيحصل النوم غالباً .

ومما يقارن التنويم محاولة مخاطبة النائم وسؤاله والحديث معه بعد نومه وغالبا ما يكون ذلك بطريق الشعوذة أو الاستعانة بالشياطين والسحر .

وقد يستخدم الساحر والمستعين بالجن التنويم المغناطيسي فيدعي أنه يحضر روح أحد الأموات فيسألها ويخاطبها وكل ذلك من الشياطين والدجل .

الخامس : الألعاب البهلوانية والسيرك :

ومن أمثلتها رمي السكين على بطن شخص وطعنه وضرب رأس الغير بالسيف واخراج النار من الفم وابتلاع الجمر والمشي من شاهق على حبل دقيق وغير ذلك، وهي تدور بين السحر الحقيقي والشعوذة وما كان مبنياً على التدرب وقوة الجسد فيأتي البهلواني وصاحب السيرك أمام الناس مظهراً مهارته وقدرته على ما لا يقدر عليه غيره في الغالب .

وما يقوم به هؤلاء إن كان سحرا حقيقيا فهم كفار وإن كان من غير سحر وإنما شعوذة فهم ليسوا كفارا إلا أنه يجب منعهم بل وتعزيرهم تعزيراً بالغاً لكف شرهم وردعاً لغيرهم وسداً للذريعة، وإن مما ينبغي للمحتسب على هؤلاء أن لا ينظر إلى ادعاء هؤلاء أن أفعالهم ليست إلا مجرد خداع وشعوذة وليست بسحر فإن هذا أمر أغلبه غير معلوم التفريق فيه عندنا فيغرر بالجهال.

السادس : الروحية الحديثة وعقيدة تحضير الأرواح :

هذا المذهب أول نشأته في أمريكا عام ١٢٦٦م ثم تلقفه بعض العرب في مصر عام ١٣٥٧هـ ، يدعي أصحابه أنهم يستطيعون إحضار أرواح الموتى بوسائل يدعونها ومن ثم يسألونها ويخاطبونها ويأمرونها ويطلبون منها ما يريدون ويدعون أن فعلهم هذا ليس سحراً ولا فيه استعانة بالشياطين ولا حضور لها . وكل هذا من الكذب فلا يمكن لشخص تحضير روح الميت، والحقيقة أن الذي يخاطبهم الشياطين ويستدرجون عقولهم البلهاء ومن ينخدع بأفكارهم البسيطة الساذجة .

وهذا المذهب مذهب كفري حوى كفريات ويشبه عقيدة تناسخ الأرواح .

السابع : الدنبوش : هذا عمل من السحر يستخدمه أهل اللهو واللعب في ألعابهم ومسابقاتهم وفيها استعانة بالشياطين .

الثامن : الأخذة : نوع من السحر هو الأخذ عن الأهل ويحبس فلا يستطيع الوصول لهم . وتطلق على أخذ العين إذا تخيلت الشيء على غير حقيقته .

التاسع : الصرف والعطف :

الصرف: أن يُبعد المسحور عن شيء كان يحبه كزوجة أو ولدٍ أو دار أو غيرها.

العطف : أن يُحبب ويتقرب المسحور إلى شيء كان يبغضه كزوجة أو غيرهما .

العاشر : قراءة الكف والفنجان وعلم الأسارير:

وهو البحث عن أسرار الإنسان وطباعه وأمراضه ومستقبله عن طريق الخطوط الموجودة في الأكف والأقدام والجبهة والاستدلال بخطوط يد هذا الشخص على المغيبات التي ستحصل له .

الحادي عشر : النظر في الجمل والحروف والأرقام وحساب الجمل (أبجد) ، والاستدلال بها على الغيب . ويسمى بعلم الحروف والرموز . يدخل في التنجيم.

ومن ذلك ما يسميه الرافضة والباطنية أسرار الحروف والتفسير الإشاري .

ومنه كتاب الجفر المزعوم والمزور على علي وجعفر الصادق .

ومن هذا الدجل إدعاء وقت نهاية العالم والساعة بحساب الجمل والنجم.

قال ابن عباس في ذلك : (إن قوما يحسبون أبا جد وينظرون في النجوم ولا أرى لمن فعل ذلك من خلاق) رواه عبدالرزاق في المصنف .

م (٤) : صوره وبعض الأمور المقاربة للسحر في المعنى مسألة :

أمور تسمى سحراً لتشبها به مع كونها في الحقيقة ليست منه :

العيافة والتطير والنميمة والبيان .

وسميت سحرا لأمور :

لخفائها ولوجود الإفساد فيها والتباس الحق بالباطل وصرف الناس فيها .

م (٥) : من أعمال السحرة وطرق السحرة في تحضير الجان:

ادعاء الطب والعلاج ، علم الغيب وهداية الناس لمستقبلهم ، الطيران في الهواء والمشي على الماء وركوب المكنسة لإبهار الناس ، إظهار تقطيع الرؤوس والطعن بالسكين ، ثني الحديد والملاعق وحمل ما لا يقدر عليه ، إخراج النار من الفم ، ابتلاع الجمر والزجاج والآلات الحادة، إظهار صورة المخفي والبعيد والغائب ، السؤال عن اسم المريض وأمه وطلب شيء من شعره ولباسه وتبخيره ، الدعوة للفواحش وممارستها ، الرقص والزار لاستحضار الشياطين والأرواح أو لفك السحر ، ادعاء تحضير الأرواح، ضرب الساحر نفسه للجن وسجوده لهم وإهانة المصحف والذبح لهم .

مبحث : الرّمّال (الطّرْق)

م (١) : يسمى الضرب بالحصى والخط على الرمـل ، وفاعلـه يـسمى الرمـال والطرق وهو من يدّعي معرفة علم الغيب بالخط في الرمل .

وقد يكون الرمل من بـاب العبـث دون ادعـاء الغيـب ومثلـه مثـل التـشاؤم والتطير فيكون شركاً أصغر .

م(٢) : قال ﷺ:(كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك) رواه مسلم.

الجواب عنه :

١- أن خط النبي بوحي من الله وليس ذلك لأحد بعده بخلاف من يخط بعده فليس إلا تخرصاً .

٢- أن موافقة خط النبي مما لا يعلمه أحد .

فيبقى الحكم على أصله وهو التحريم وإن قارنه دعوى الغيـب فيكفـر فاعلـه ومصدقه ومقره .

م (٣) : يدخل الرمال (الطرق) في السحر .

قال النبي ﷺ : (العيافة والطيرة والطَّرق من الجبت) رواه أبو داود .

والجبت هو السحر .

م (٤): مما يدخل في الطَّرق قراءة الكف .

باب ما جاء في الكهان ونحوهم (٢٦)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه: حقيقة الكهانة وحكم الكهان وكونه كافرا يجب قتله.

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بنواقض التوحيد والشرك .

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن الكهانة تعد مناقضة للتوحيد من أصله ، لأنها لا تقوم إلا على الشرك .

والكهانة تنقض التوحيد من جهتين: الاستعانة بالجن، وادعاء علم الغيب.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

لما ذكر باب السحر من حيث الأصل ذكر بعد ذلك فروعه وأنواعه .

وقد أورده في سياق الأبواب المتعلقة بالسحر، لأن علتها واحدة وهي : الشرك ، والاستعانة بالشياطين ، وادعاء الغيب ، والقدرة ، وتعبيد الناس لغير الله .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب : له علاقة بأبواب الشرك الأكبر .

الوقفة الرابعة: ما فات المصنف ذكره في هذا الباب :

لم يذكر كفر ادّعاء علم الغيب وهذا الباب داخل فيه .

الوقفة الخامسة: الأدلة والشواهد الواردة في الباب:

أورد المصنف أربعة أحاديث في حكم إتيان الكهان وأثر ابن عباس في تعلم النجوم وأبجد ، وتعريف البغوي وابن تيمية للكاهن والعراف .

الوقفة السادسة: المسائل العقدية المتعلقة بالباب :

الكهانة

م (١) : تعريفها : الكهانة هي ادّعاء علم الغيب والحوادث المستقبلية .

والكاهن هو من يدعي معرفة الغيب : سواء كان ممن يتلقى الأخبار من مسترقي السمع وهذا الغالب، أو من غيرهم ممن يخبره بما يقع في الأرض، أو يدعي ذلك بطريق الشعوذة كالخط في الأرض ومحوه أو عن طريق النظر في النجوم .

قال في الجامع : العرب تسمي كل من أذن بشيء قبل وقوعه كاهنا .

قال ابن حجر: والكهانة ـ بفتح الكاف ويجوز كسرها ـ ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب . الفتح (١٠/ ٢١٦).

م (٢) : ما يدخل في اسم الكاهن :

الكاهن يشمل العراف والمنجم والرمال والذي يضرب بالحصى. ومما يدخل في مسمى الكهانة ، قارئ الفنجان، والكف، والرمل، والذي يخبر عما في الضمير علم الأبراج والكواكب الذي تُصدَّر به الصحف، ووسائل الإعلام المرئية وغيرها، فكل ذلك من الكهانة الذي يعتبر ضربا من إدعاء الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

وإن كان يقصد بالكاهن عند الإطلاق من تأتيه الشياطين المسترقة للسمع من كلام الملائكة فيلقيه في أذن الكاهن .ويخبرونه ببعض المغيبات .

الكاهن: من يدعي المعرفة عن الكوائن في مستقبل الزمان ، ومعرفة الأسرار وعلم الغيب فيصيب بعضها ويخطئ في أكثرها ، وذلك عن طريق الجن وغيره .

والعرَّاف: هو الذي يدعي علم ما مضي ، كمعرفة السارق ومكان السرقة ، واسم من يأتيه ومكانه ، وذلك من خلال اتصاله بالجن . قاله البغوي في السنة.

م (٣): العلاقة بين الساحر والمنجم والكاهن والعراف والرمال والفرق بينهم:

يجتمع في هؤلاء صفتان :

ادّعاء علم الغيب ، والاستعانة بالشياطين بعد الشرك بهم وطاعتهم في الكفر.

جعل البعض هؤلاء كلهم يشملهم اسم السحر ويأخذون حكمه :

يدل لهذا حديث: (من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر).

وقال ابن عباس : المنجم كاهن والكاهن ساحر والساحر كافر .

قال ابن تيمية: (العراف: اسم الكاهن والمنجم والرمال ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق) الفتاوى ٣٥/ ١٧٣ .

وقال البعض الكاهن يشمل العراف والمنجم والرمال .

والفرق بين هذه المسميات :

١- الكاهن من يدعي معرفة الأمور المستقبلية بالاستعانة بمسترقي السمع .

٢- العراف هو الذي يخبر عن المسروق والضائع والضالة وبمعنى أشمل يخبر عن الغيب الماضي أو الحاضر الخفي .

٣- المنجم: من يدعي علم الغيب بالنظر للنجوم والاستدلال بها عليه.

قاعدة : تناسب أرواح الكهنة مع الشياطين :

فالجميع يتصف بالنفس الخبيثة والشر والعدوان .

فائدة : موقف النبي ﷺ من ابن صياد الكاهن :

ابن صياد كان من الكهان زمن النبي ﷺ وترك النبي ﷺ قتله وقتل لبيد ابن الأعصم وهذا الحكم كان خاصاً به أو أنه كان قبل الأمر بقتل السحرة .

م (٤) : أنواع الكهانة:

١- أن يخبر عن المغيبات المستقبلية بطريق إخبار مسترقي السمع من الجن .

٢- أن يخبر الكاهن عما يطرأ في أقطار الأرض وعن المسروق والضالة مما تخبره به الجن ، ويسمى هذا العراف .

٣- أن يخبر عن الغيبيات بطريق النظر في النجوم والتنجيم ، وهذا المنجم.

٤- أن لا تأتي الكاهن الجن وإنما يخمن ويقيس ويستدل على بعض الأمور المستقبلية ببعض الأحوال المطردة وهذا يكفر إن ادعى علم الغيب .

قال ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٢١٦) قال الخطابي : (الكهنة قوم لهم أذهان حادة ، ونفوس شريرة ، وطباع نارية ، فألفتهم الشياطين ؛ لما بينهم من التناسب في هذه الأمور ومساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه . وكانت الكهانة في الجاهلية فاشية خصوصا في العرب ؛ لانقطاع النبوة فيهم).

م (٤) : مصادر الكاهن وطرق الكهانة :

أولاً : ما يتلقونه من الجن فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضا إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذي يليه إلى أن يتلقاه من يلقيه في أذن الكاهن فيزيد فيه ، فلما جاء الإسلام ونزل القرآن حرست السماء من الشياطين ، وأرسلت عليهم الشهب فبقي من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِلَّامَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ الصافات: ١٠ وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة كما جاء في أخبار شق وسطيح ونحوهما ، وأما في الإسلام فقد ندر ذلك .

ثانيها : ما يخبر الجني به من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالبا ، أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد، وهذا حال من يستعين بالجن فيما يقدر عليه الجن وسؤاله عن أشياء وقعت أو أشياء مخفية تحت الأرض ونحو ذلك.

ثالثها : ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس ، وهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه .

رابعها : ما يستند إلى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك .

ومن هذا القسم الأخير ما يضاهي السحر وقد يعتضد بعضهم من ذلك بالزجر والطرق والنجوم وكل ذلك مذموم شرعا).

م (٥) :حكم الكاهن :

وهو الذي يتكهن علم الغيب، فيدعي معرفة علم الغيب وما سيكون، وهذا من أخص صفات الله ﷻ، حيث لا يعلم الغيب إلا هو سبحانه وتعالى، وأي مخلوق يدعي علم الغيب وما سيكون، فهو كاهن وطاغوت، ورأس في الطغيان. والمقر له بذلك يكون قد أقر له بخصائص الربوبية، واتخذه إلها من دون الله. وإذا كان الذي يذهب للكهان ويسألهم يعتبر كافرا فكيف بالكاهن نفسه إنه طاغوت كافر خبيث .

وقد بينا وجه كون الكاهن والساحر طاغوتاً وحكم الذهاب لهم وسؤالهم في الكلام عن السحر .

فليحذر المسلم والحريص على دينه من الاقتراب من الكهنة والسحرة أو تجربتهم، ولو كان ذلك على وجه اللعب والمزاح، فإن دين الله يجب إكرامه وتعظيمه.

م (٦) : أدلة الكهانة :

١- عن أبي هريرة ﷺ : (من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ). رواه الأربعة والحاكم . وفي رواية من أتى ساحرا .

٢- رواه مسلم عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: (من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوما).

٣- عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ). رواه أبو داود وأحمد. نعوذ بالله من الكفر والخذلان .

٤- عن عمران بن حصين ﷺ مرفوعا: (ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سحر له؛ ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) رواه البزار، ونحوه عن ابن عباس عند الطبراني في الأوسط .

٥- عن عائشة أن النبي ﷺ قال عن الكهان : (ليسوا بشيء) متفق عليه .

٦- عن معاوية بن الحكم السلمي أنه سأل الرسول ﷺ عن الذهاب للكهان ، فقال له ﷺ : (فلا تأتهم). رواه مسلم .

٧- عن ابن عباس أن النبي ﷺ حين نزل شهاب قال (ماكنتم تقولون فيه)، قالوا موت عظيم . فأخبر أنه لا علاقة له وإنما هو لرمي مسترقي السمع،رواه مسلم.

٨- عن أبي هريرة ﷺ قال: أن النبي ﷺ قال:(إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم، قالوا للذي قال: (الحق وهو العلي الكبير) فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بكفه

فحرفها وبدد بين أصابعه- فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدرك، فيكذب معه مائة كذبة فيقال : أليس قال لنا يوم كذا وكذا كذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء) رواه البخاري.

م (٧): أقسام الكهان :

١- من يأتيه الشياطين ويخبرونه بما يريد بعد الشرك بهم .

٢- المخمن والمتخرص : وهذا يخمن ويخرص ويكثر من الادعاء الكاذب في الأمور المستقبلية وادعاء معرفته بالاستدلال بالمقدمات والقياسات.كقولهم سيموت هذا العام عظيم وهذا بدهي أنه سيموت في السنة عظيم فإذا مات قيل صدق فلان .

م (٨) : أوجه الكفر في المنجم والكاهن . تقدمت في باب الساحر.

م (٩) : ادّعاء علم الغيب المطلق:

علم الغيب وما سيكون، وهذا من أخص صفات الله ﷻ، حيث لا يعلم الغيب إلا هو سبحانه، والأدلة على اختصاص الله ﷻ بالعلم وكفر من أشرك غير الله فيه كثيرة، منها:قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ النمل: ٦٥ ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الجن: ٢٦ ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ الأنعام: ٥٩ وقال عن نبينا محمد ﷺ ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ ﴾ الأعراف: ١٨٨ ﴿ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ الأنعام: ٥٠ ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ يونس: ٢٠

والشرك في العلم الرباني يكون بأحد طريقين :

إما بإنكاره عن الله كما تقوله الفلاسفة وغلاة القدرية .

أو بنسبة علم الغيب لغير الله كما تزعمه الرافضة والصوفية في الأولياء والسحرة والكهان والمنجمون .

وأي مخلوق يدعي خاصية علم الغيب وما سيكون، فهو كاهن وطاغوت، ورأس في الطغيان. والمقر له بذلك يكون قد أقر له بخصائص الإلهية، واتخذه إلها من دون الله. وإذا كان الذي يذهب للكهان ويسألهم يعتبر كافرا فكيف بالكاهن نفسه إنه طاغوت كافر، وهناك أمور ليست من الغيب وإن كان فيها غيب نسبي سنأتي بها.

م (١٠) : حكم الاستعانة بالجن وأقسامها :

الأول : الاستعانة في الأمور المباحة، مثل السفر والعمل، وهذه مختلف فيها، والأقرب التحريم لما فيها من مفاسد، وسداً لذريعة الشرك .

الثاني : الاستعانة في الأمور المحرمة، مثل الاستعانة بهم في أذية الآخرين من قتل أو سرقة أو فاحشة وهي كبيرة من كبائر الذنوب .

الثالث : الاستعانة في الأمور الشركية، مثل دعائهم فيما لا يقدر عليه إلا الله كجلب الولد أو الرزق أو النصر، أو الاستعانة بهم في السحر والكهانة، وهذه شرك أكبر لأنها صرف لعبادة الدعاء لغير الله .

الرابع : من يعينه الشيطان وإن لم يستعن به.

تنبيه : فتوى ابن تيمية رحمه الله في الاستعانة بالجن جرت كثيراً من الشر وفتحت أبوابا من الشرك عند كثير من الرقاة .

مسألة : إخبار الجن ببعض الأمور الخافية والاعانة والخدمة للإنس من غير طلب منهم وشرك بهم ليس بكفر وقد اختلف أهل العلم في جوازه ، والأولى منعه.

م (١١) : حقيقة استراق السمع :

صفة الاستراق أن الشياطين تركب بعضهم على بعض حتى يصلون للسماء الدنيا فيسمعون خبرا من ملائكة السماء الدنيا ثم يلقونها على وليّهم من الإنس وهو الكاهن يخبر بها ويكذب معها مائة كذبة ليقال أنه يعلم الغيب . وتقدم الحديث.

م (١٢) : تسليط الشهب على مسترقي السمع :

يرسل على مسترقي السمع من الشياطين الكواكب والشهب المحرقة لهم فيموت من يموت ويحترق وربما يسلم منهم من يخطف الخبر فيلقي الكلمة والخبر للكاهن كما أخبر عنهم سبحانه بقوله: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ الحجر: ١٨ ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ الصافات: ٦ - ١٠ ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ الملك: ٥ ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾ الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣.

مسألة : كان أول إرسال الشهب على مسترقي السمع زمن بعثة النبي ﷺ فمنعوا من خبر السماء لكي لا يختلط الوحي بما يأتي به الكهان وهذا الذي جعل الجن يبحثون عن سبب منعهم من استراق السمع حتى لقوا الرسول ﷺ وآمنت طائفة منهم به، يدل لذلك: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ وفيهم أنزل الله سورة الجن وآيات من سورة الأحقاف ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾.

ثم بعد موت الرسول ﷺ رجع الجن لاستراق السمع وقليل منهم من يسلم.

فائدة : لماذا يقدم الجن على استراق السمع مع وجود الشهب وقلة من يسلم:

الجواب : أن الشهوة والغي والهوى يعمى صاحبه ألا ترى الكفار كثير منهم يعلم الحق ويعرض عنه ويعاديه ومثل ذلك من يأتي الزنا على كثرة ما يخالطه من العار والأمراض الفاتكة والرجم.

ثم مع ذلك هم يطمعون في السلامة وإضلال الناس .

م (١٣) مصطلحات في باب الكهانة :

١- كانت العرب تسمى الكاهنة الغائبة لكونها تأتي بالغيب أو لكونها تغيب .

٢- **الرئي والهاتف:** هو صوت يسمع ولا يرى وهو الجني الذي يأتي الكاهن.

٣- **حلاوة الكاهن :** الأجرة التي يأخذها الكاهن من الذي يتكهن له.

وهو مال سحت وقد نهى الرسول ﷺ عنه ، وقد تقيأ أبو بكر ﷺ لما طعم من المال الذي من الكهانة من غلامه الذي تكهن في الجاهلية وقد رواها البخاري .

٤- **سجع الكهان:**الكهان يأتون بالأخبار بطريق السجع ليكون أدعى لقبوله.

٥- **القرقرة :**هي صوت الجن حين يلقي الخبر على الكاهن كما ورد في الحديث عند البخاري (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجن فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاجة فيخلطون فيه أكثر من مائة كذبة) وفي حديث عائشة (كما تقر القارورة) .

٦- **الرنة :** كالجرس صوت الشيطان ، والأنة صوت الحسرة من الإنس ، والناموس ناقل خبر الخير والجاسوس الشر .

٧- استراق السمع . وهو مصدر الكاهن وتقدم .

م (١٤) : حكم الذهاب للسحرة والكهنة : له حالات وأقسام :

الأول : إن طلب منهم سحراً له فطلبوا منه أن يكفر ويشرك كأن يذبح ولا يسمي أو يسب الدين أو يهين آيات القرآن كأن يكتبها بالدم ونحو ذلك .

الثاني : من يأتيهم ليسألهم عن أمر غيبي مصدقا لهم، وهذا معنى يصدقهم أي يصدقهم في إدعاء الغيب ويعتقد أنهم يعلمون الغيب مع الله أو أن الله أعلمهم بالغيب ودلهم على أسبابه فهو كافر خارج من الإسلام لا شك فيه.

والدليل على ذلك ما رواه أحمد والحاكم عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : (من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد).

ولأنه مكذبٌ بالقرآن: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ النمل: ٦٥.

الثالث : إن أتاهم وسألهم مع عدم تصديقهم في ادعاء الغيب ومعرفته كذبهم وحقيقة حالهم، مثل من يأتيهم ليسألهم عما ضيعه أو من سحره مع علمه بكفرهم وأن الغيب لله، فهذا فعل محرم دون الكفر، وعقابه أن صلاته لا تقبل أربعين ليلة .

والدليل حديث: (من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة) مسلم.

الثالث: من سألهم ليبين كذبهم أو يفضحهم ويبين تلبيسهم وعجزهم فهذا مشروع وقد فعله النبي ﷺ لابن صياد حين سأله عن الدخان، والحديث متفق عليه.

فائدة : الحكمة من تحريم إتيان السحرة والكهنة وحضور مجالسهم ونواديهم:

لأن ذلك قد يكون مدعاة إلى تصديقهم والتأثر بهم وهذا كفر بذاته، لأن فيه إثبات علم الغيب للمخلوق، وكذلك في الذهاب لهم ترويج لباطلهم ودعاية لهم ونشر للكفر وتغرير بالعوام والجهلة فيصدقوهم ويذهبوا لهم .

ومن أدلة الوعيد المتعلقة بإتيان السحرة والكهان وتصديقهم :

حديث أبي موسى ﷺ مرفوعا : (ثلاثة لا يدخلون الجنة مدمن خمر وقاطع الرحم ومصدق بالسحر) رواه أحمد وابن حبان .

وحديث: (أخاف على أمتي ثلاث) وعد منها (التصديق بالنجوم) و(إيمان بالنجوم) رواه أحمد عبد بن حميد وأبو يعلى وابن عساكر.

وحديث: (من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ).

فائدة : صورة معاصرة للمسألة :

ويدخل في هذا الحكم والوعيد المتعلق بإتيان السحرة والكهان وتصديقهم، من يجري مقابلات تلفزيونية أو صحفية مع السحرة والكهنة والعرافين ، ومن ينظر إليهم في الإعلام معجبا ومستحسنا وراضيا بخروجهم .

قاعدة : متى يعتبر الذهاب للساحر وطلب السحر منه كفرا:

لا يعتبر مناطا للكفر إلا مع وجود أحد أمرين :

الأول : تصديقه في ادعائه علم الغيب والقدرة الكاملة .

الثاني : لو فعل مكفراً كالذبح للجن وإهانة المصحف وسب الدين.

م (١٥) : عدم قدرة الشياطين والسحرة على إيصال أخبار المؤمنين للكفار :

حفظ من الله لهم مع إقدارهم على استراق السمع . فالرسول ﷺ في غار ثور لم يستطع إبليس إخبار المشركين بمكانه وفي كل زمان كم من المؤمنين الذين يطلبهم الكفار ولم يقدروا على التوصل لهم مع ما عندهم من قدرات عسكرية وسحرة وشياطين .

باب ما جاء في النشرة (٢٧)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه: حقيقة النشرة وحكم فك السحر بالسحر .

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بنواقض التوحيد والشرك .

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن النشرة التي هي حل السحر بسحر مثله تعتبر من السحر والسحر يعد مناقضا للتوحيد من أصله ، لأنه لا يقوم إلا على الشرك .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

لما ذكر باب السحر من حيث الأصل ذكر بعد ذلك فروعه وحكم فك سحر المسحور عن طريق السحر . وقد أورده في سياق الأبواب المتعلقة بالسحر لأن علتها واحدة وهي الشرك والاستعانة بالشياطين وتعبيد الناس لغير الله .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب :

له علاقة بأبواب الشرك الأكبر .

وله علاقة بباب الرقى وباب التمائم .

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد الواردة في الباب:

أورد المصنف حديث جابر في النهي عن النشرة . وقول ابن مسعود في النشرة وأثر عن ابن المسيب وأثر عن الحسن ، وكلام ابن القيم.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية المتعلقة بالباب :

مبحث : النشرة

م (١) : تعريف النشرة :

تطلق من حيث الأصل على فك السحر وحله .

م (٢) : النشرة نوعان :

فك السحر برقية مباحة ، وفك السحر بسحر مثله .

ويطلق البعض النشرة على علاج السحر وفكه بسحر مثله فقط.

م (٣) : حكم النشرة التي هي استخدام السحر لفك السحر :

محرمة بل وكفر لأنها سحر والسحر كفر ولم يستثن الله ﷻ منه شيئاً .

والأدلة على تحريم فك السحر بالسحر :

١- عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النُّشرة؟ فقال (هي من عمل الشيطان) رواه أحمد بسند جيد أبو داود.

٢- حديث:(اعرضوا علي رقاكم لا بأس بالرقي ما لم يكن فيه شرك). مسلم. والنشرة سحر والسحر من عمل الشيطان وفيه شرك ولابد، فكان تحريمها متعينا.

٣- أن القول بإباحة سؤال السحرة وطلب علاجهم للسحر بالسحر فيه إقرار السحر وإبقاء للساحر وعدم قتله والرضا بفعله واللجوء إليه عند الحاجة، وفي هذا من أصناف الكفر ما لا يخفي .

٤- أن السحر لا خير فيه أبداً ولا نفعع منه مطلقاً كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ البقرة: ١٠٢ ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ طه: ٦٩.

٥- أما ما يستدل به المخالف في إباحة النشرة :

* من سؤال عائشة رضي الله عنها للرسول ﷺ حين سحر . يا رسول الله هلا تنشرت ؟ فقال النبي ﷺ : (أما الله فقد شفاني) رواه الشيخان.

* وقول سعيد بن المسيب لما سأله رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته أيحل عنه أو ينشر؟ قال : (لا بأس إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه ومن استطاع أن ينفع أخاه فليفعل) رواه البخاري .

* وقول الحسن: لا يحل السحر إلا ساحر، محمول على علاج المسحور بالرقى المباحة وليس السحر كما توهمه البعض وقد بين مراد ابن المسيب ابن القيم وغيره .

وهل يعقل أن يبيح الرسول ﷺ الذهاب للسحرة وهو الذي أمر بقتلهم وأخبر بكفرهم ودل أمته على كل خير وهل في الذهاب للسحرة من خير .

وهل يظن بابن المسيب والحسن تجويز الذهاب للسحرة كما فهم البعض حين جهلوا مقصود السلف من النشرة ومعناها في لغة العرب وإطلاقات الشرع .

قال ابن القيم في زاد المعاد: (النشرة حل السحر عن المسحور، وهي نوعان: أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان ، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة. فهذا جائز).

م (٤) : أقسام المتعالجين بالسحر وأحكامهم :

الأول:أن يتعالج وهو راضٍ بالسحر مصدقٌ للساحر، فهذا كفر أكبر لما تقدم.

الثاني : أن يتعالج وهو ليس راضٍ بالسحر ولا مصدقاً للساحر، ولكن يأمره الساحر أن يذبح للجن ، فهذا يكفر لذبحه لغير الله .

الثالث : أن يتعالج ولا يرضى بالسحر ولا يصدق الساحر، ولا يفعل ما يأمره به الساحر من الشرك أو غيره ، ولكن يدفع مبلغاً فقط ليقوم الساحر بحل السحر عن طريق الاستعانة بالجن والشياطين ، فهذا اختلف فيه العلماء على أقوال :

الأول:أنه جائز، لأن الضرورات تبيح المحذورات ، وهو رأي بعض الحنابلة.

القول الثاني : أنه كفر مطلقا .

الثالث: أنه محرم سدا لذريعة الكفر ، وهذا رأي جمهور العلماء وهو الصحيح.

م (٥) : علاج السحر :

١- استخراج السحر وإبطاله وحرقه أو إتلافه وقراءة المعوذتين عند فكه .

٢- الرقية من الكتاب والسنة على المسحور والنفث عليه وشرب الماء المقرئ عليه وخلطه بالسدر وتدهنه بالزيت المقري عليه .

٣- إخراج الجان من المصروع والمتلبس به بالقراءة والضرب ويجوز قتله إذا لم يمكن دفع ضرره إلا بالقتل وإلا فلا .

٤- الحجامة وقد بين ابن القيم أثرها في علاج السحر وإبطاله .

وليحذر المسلم من الطرق المحرمة وغير المشروعة ، كالذهاب للسحرة وإقامة الزار لإخراج الجان أو تلبية طلبات الجني الصارع .

م (٦): الوقاية من السحر :

١- التحصن بالأذكار الشرعية والتعوذات النبوية .

٢- المحافظة على الصلوات في الجماعة وعلى أذكار الصباح والمساء.

٣- الإكثار من ذكر الله وقراءة القرآن خصوصا أية الكرسي والمعوذتين والإخلاص وآخر آيتين من سورة البقرة .

٤- أكل سبع تمرات عجوة في الصباح لقول الرسول ﷺ : (من تصبح بسبع تمرات لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر) رواه البخاري

٥- التوحيد والاعتقاد الصحيح والتعلق بالله وحده والتوكل عليه وكثرة الدعاء والتوبة إليه .

م (٧) : علاقات السحر .

علاقة السحر بالمس والصرع :

الصرع يكون عضوياً راجعاً لاضطراب أعصاب المخ وقد يكون الصرع سببه المس ودخول الجني في الإنس وتلبسه به. والصرع الذي سببه المس والجن منه ما سببه السحر ومنه غير ذلك فيدخل الجني في الإنس إما عشقاً له أو أذية أو انتقاماً.

وقد أنكر الجهال تلبس الجن بالإنس وأبطلنا قولهم في هذا الكتاب.

علاقة السحر بالحسد :

الحسد والعين تؤثر بذاتها وسببها النفس الآدمية الخبيثة وليست من الجن.

وأعراض العين والحسد تقارب أعراض السحر في المبتلى بها أي المسحور ومن علاجها هي والصرع الرقية وإبطال السحر واغتسال العائن .

باب ما جاء في التطير (٢٨)

اسم الباب : التشاؤم والتطير

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه: حكم التشاؤم ، وكيفية دخوله في الشرك ومنافاته للتوحيد .

مكانه ونوعه: يعد من الأبواب المبينة لذرائع الشرك والشرك الأصغر.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن التشاؤم فيه تعلق بغير الله واعتقاد النفع فيه والتأثير كما أن في هذا منافاة للتوكل على الله وهذا مما يقدح في التوحيد كما سيأتي .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله: أورده في أبواب السحر لوجود مناسبة بين التشاؤم والسحر وتشابه سنذكرها في المسائل .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب :

التشاؤم فيه مشابهة لثلاثة أبواب:الرقى، التمائم، التبرك (أبواب الأسباب).

كما أن لها تعلق باب الغلو ، وباب الأسباب.

فكلها تخرج من باب واحد ألا وهو الشرك الأصغر العملي والاعتقادي .

كما أن له مناسبة لأبواب السحر .

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد المصنف ثمانية أدلة آيتين وستة أحاديث سنوردها مع غيرها في المسائل .

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

مبحث التطير والتشاؤم

م (١) : تعريفه :

الشُؤْم بضم الشين وسكون الواو، ويصح في الواو الهمز والتسهيل بدون همزة فتصير الشوْم . والمشأمة الميسرة، والشام بلاد الشمال في مقابل اليمن وجهة الجنوب .

التشاؤم: توقع حصول ما يكره ويخاف عاقبته، عند رؤية أو سماع أمر معين .

أو هو التشاؤم بالمكروه (وما يكرهه الإنسان) من مسموع أو مرئي أو معلوم أو زمان أو مكان .

والشوم: هو الشر ضد اليُمن والبركة والخير ، والتشاؤم والتطير ضد التبرك .

التَطَيّر : هو التشاؤم بالطير . وحقيقته محاولة معرفة الخير أو الشر المتوقع حصوله في المستقبل بدلالة الطير. وأصل التسمية: مأخوذة من الطير،لأن مشركي الجاهلية كانوا يستعملون الطيور في هذا الباب.

م (٢) : كيفيته: أن المشركين إذا أرادوا فعل أمر كالسفر والحرب والزواج أو غير ذلك، يقومون بتنفير الطير وزجره ليطير، فإذا طار جهة اليمين فرحوا وتفاءلوا وأقدموا على الفعل الذي كانوا يريدونه ، وإذا طار الطير جهة اليسار تشاءموا وأحجموا عن العمل وردهم ذلك عما يريدون .وقد يكون التطير من غير زجر للطير وإنما ترقب له فإذا جاء الطائر من جهة يمين الشخص متجها لليسار تشاءم وسموا الطائر البارح، وإذا طار جهة يمين الإنسان وكانت يمين الطائر جهتنا تفاءل وسموه السانح، والذي يأتي من الخلف للأمام يسمونه القعيد والذي يأتي من الأمام يسمى النطيح، وسمي السانح لأن الفرصة سانحة لصيده أو الأمر سانح في فعله.

م (٣) : الفرق بين الطيرة والتطير :

التطير هو الظن السيئ الذي في القلب .

والطيرة هي الفعل المترتب على الظن السيئ . قاله العز بن عبدالسلام .

م (٤) : أسماء التشاؤم : التطير العيافة الزجر.

والعيافة : من التعيف وهو الكره ومنه عاف الطعام.

هي زجر الطير فتأتي بمعنى التطير.

وتطلق على الحدس والظن والتوقع . والاستدلال على حصول الحوادث بما يشابهها من حوادث مضت والربط فيها بالمناسبة اللطيفة والخفية .

وتطلق على معرفة الأثر والنسب ، مثل القيافة .

م (٥) : هي من علوم العرب المشهورة :

وقد عرفت بالعيافة قبيلة أسد ولِـهْب الأزدية . وقد قيل فيهم :

تيممت لِـهْبا أبتغي العلم عندهم وقد رد علم العائفين إلى لهب

فما أعيف اللِهْبي لا رد دره وأزجره للطير لا عز نصره

فائدة : وجود التطير في الأمم السابقة : في ثمود وفي قوم فرعون وغيرهم .

م (٦) : الفرق بين الفراسة والتطير :

الفراسة أمر يقذفه الله في قلب عبده يبصر به ويتوقعه فيكون حقا أو الاستدلال ببعض المقدمات والقياس عليها من باب الاستنباط والحدس .

أما التطير فهو اعتقاد في القلب متعلق بأمور ليست لها صلة به ومن ثم نسبة ذلك الحادث من خير وشر إليه .

م (٧) : أدلتها :

١- قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ ﴾ يس: ١٨-١٩.

٢- قال: ﴿ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴾ النمل: ٤٧.

٣- قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ الأعراف: ١٣١.

٤- قال تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ ﴾ النساء: ٧٨ .

٥- عن أبي هريرة ﷺ أن الرسول ﷺ قال: (لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر) أخرجاه. زاد مسلم: (ولا نوء، ولا غول).

٦- وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل) قالوا: وما الفأل؟ قال: (الكلمة الطيبة) متفق عليه.

٧- عن عروة بن عامر قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: (أحسنها الفأل، ولا ترد مسلما، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك) رواه أبو داود.

٨- وعن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً: (الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل) ، رواه أبو داود، والترمذي وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود. وفي رواية :(من الشرك).

٩- عن عبد الله بن عمرو بن العاص: (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك. قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك) رواه أحمد .

١٠- عن أم كرز قالت سمعت النبي ﷺ يقول: (أقروا الطير على مكناتها). رواه أبو داود . أي: لا تزجروها واتركوها في محلها، فإنها لا تضر ولا تنفع .

١١- عن أنس ﷺ مرفوعا :(لا طيرة والطيرة على من تطير) رواه ابن حبان.

١٢- وعن الفضل بن عباس رضي الله عنهما قال يارسول الله تطيرت، قالﷺ: (إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك) رواه أحمد.

١٣- عن معاوية بن الحكم السلمي حين سأل الرسول ﷺ عن رجال يتطيرون فقال له : (ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم) رواه مسلم .

١٤- قال ﷺ : (العيافة والطيرة والطرق من الجبت) رواه أحمد وأبو داود .

١٥- حديث فضالة:(من ردته طيرته عن شيء فقد قارف الإشراك) السنة.

١٦- وجاء في وصف السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة من غير حساب : (ولا يتطيرون) متفق عليه.

١٧- عن عمران بن حصين ﷺ مرفوعا : (ليس منا من تطير أو تطير له) رواه الطبراني والبزار .

١٨- قال عكرمة : كنا جلوسا عند ابن عباس رضي الله عنهما فمر طائر يصيح فقال رجل خير خير، فقال ابن عباس: لا خير ولا شر .

١٩- قال طاووس لرجل قال مثل ذلك: وأي خير عند هذا .

م (٨) : ما يكون عليه التشاؤم :

١- التشاؤم ببعض الناس فيقولون فلان رجل شؤم .

٢- الحيوانات كالغراب والبومة والقرد والحرباء، ويسميها العوام مكروهة.

٣- النباتات .

٤- العلل والأمراض، كالتشاؤم من الرجل الأعور وذميم الخلقة.

٥- البلدان والبقاع والأراضي فيقال هذا مكان شر ومصائب .

٦- الأيام والشهور ، كالأربعاء وشوال وصفر.

٧- الحركات والهيئات والتصرفات والحوادث والكلمات والأخبار .

م (٩) : طرق التطير في الجاهلية :

١- زجر الطير .

٢- قراءة الكف .

٣- التشاؤم بالأبراج والنجم ونسبة النحس والسعد إليها أو اعتقاده فيها.

م (١٠) : ضابط الطيرة والتشاؤم المحرم الشركي :

ما ترتب عليها عمل وأثر كأن ترد صاحبها أو تمضيه، وأن يعمل المتشائم بمقتضى ما توهمه ، وقد جاء الحديث بضابط الطيرة وهي: ما أمضاك أو ردك .

ويصير العامل بالطيرة بين الشرك الأكبر والأصغر وشرك الألوهية والربوبية.

أما ما يحصل من تطير وتشاؤم وكره في القلب من غير أن يترتب عليه عمل واعتقاد نفع وضر وتأثير، فهذا لا يدخل في الطيرة الشركية وإن كان تركه أولى .

تنبيه : ليس الكره الحسي ككره السفر أو كره بلد معين من التشاؤم.

م (١١) : **خطورة الطيرة** :في الطيرة خطورة على المتطير من جهتين :

الأولى: من جهة الدين : التطير يخلخل العقيدة ويفسد التوكل والعبادة.

الثانية: من جهة الدنيا: التطير يضعف القلب ويوهن العزيمة ويثنيها، ويجعل صاحبها يعيش الهموم والشكوك والوهم والقلق، حتى يحسب كل صيحة عليه .

فائدة : الطيرة تتضاعف ويستفحل أمرها ويستشري شرها إذا أذعن لها الشخص وأصغى للوساوس واسترسل فيها .

م (١٢) : **الطيرة قد تكون فطرية من غير تعمد ولا قصد** :

إلا أن المؤمن الموحد لا يلتفت إليها ، بل يعتمد على ربه، ويقاوم الطيرة بالتوكل على الله حتى تذهب،كما في حديث ابن مسعود .

م (١٣) : **حالات الناس مع الطيرة** :

الأول: من لا يلتفت إليها ولا يتشاءم أصلا ولا يقوم في قلبه أدنى أثر لما يتطير الناس به ويتشاءمون منه وما ذاك إلا لكمال يقينه بالله وبقدره وعظم توكله على ربه .

الثاني: من قد يحصل في قلبه شيء من التشاؤم والطيرة، إلا أنه لا يلتفت لما يخطر في قلبه ولا يؤثر في فعله وعمله، ويجاهد الوساوس والشكوك والتوهمات بالإيمان والتوكل ، وهذا لا يضره ما حصل له ولا يؤاخذ به .

الثالث: من يسترسل في طيرته وتشاؤمه وتوهماته وشكوكه ووساوسه، حتى يحصل له الهموم والحزن والخوف ويكون دائم التربص والتوقع، ولا يسعى في ردها ومكافحتها ومجاهدة نفسه كحال السابق حتى تتضاعف فيه وتستفحل، وهذا ينقص إيمانه بقدر طيرته فإذا ترتب على تطيره فعل أو ترك كان من القسم التالي .

الرابع: من ترده الطيرة والتشاؤم ويفعل أو يترك عند حصولها وتتغير أفعاله عند وجودها، فإذا رأى ما يتشاءم منه ترك ما بيده من فعل .

فإذا رأى مثلا حيواناً كالقرود وطيراً كالبوم والغربان وهو يريد السفر ترك السفر وأجّله، وإذا دخل عليه رجل مريض أو أعور أغلق دكانه وترك بيعه .

ومن هذه صفته يكون آثما ومرتكبا للشرك الأصغر .

الخامس: من يزيد على سابقه بالخوف مما تطير منه ويعتقد أن هذه المخلوقات لها تأثير حقيقي وتصرف في الكون ولها أثر فيما سيستقبله من العمل ويؤمن بوجود التأثير لهذه الأمور المتطير فيها في الحوادث .

وصاحب هذه الصفة والعقيدة كافر مشرك شركا أكبر والعياذ بالله .

م (١٤): أمثلة معاصرة للطيرة :

قول العامة : خير ياطير، وقولهم: يا الله صباح خير، بنسبة الخير والشر للطير وللصباح، ومثله قولهم: لا يخبرني الطير.

من إذا رأى حيوانات كالقرود البوم والغراب وهو يريد السفر ترك السفر.

من يتشاءم إذا دخل عليه رجل مريض أو أعور أغلق دكانه وترك بيعه .

من يسمي شهر صفر صفر الخير، فداوى البدعة في التشاؤم ببدعة أخرى .

من يفتح المصحف فأي آية وقع نظره عليها تفاءل بها أو تشاءم حسب موضوعها .

ومن ذلك تشاؤم الأمريكان بيوم الثلاثاء الأسود بعد ضربات الحادي عشر من سبتمبر.

م (١٥) : أدلة دخول الطيرة في الشرك:

قال النبي ﷺ :(الطيرة شرك). وفي رواية:(من الشرك) أبو داود والترمذي.

قال النبي ﷺ: (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك) رواه احمد.

م (١٦) : وجه كون التطير والتشاؤم من الشرك وعلاقتها بالتوحيد:

أولاً: أن فيها اعتمادا على غير الله، وتعلقا بغيره، وهذا من الشرك في الألوهية .

ثانياً : أن فيها اعتقاد وجود النفع والضر والتدبير والتصرف والتأثير في غير الله في الطير والمتشائم به أو أن له علاقة سببية بذلك . وهذا من الشرك في الربوبية .

قال البغوي: (جعل الطيرة من الشرك، لأنهم كانوا يعتقدون أن التطير يجلب لهم نفعا أو يدفع عنهم ضرا إذا عملوا بموجبه، فكأنهم أشركوا مع الله) من التيسر.

ثالثاً : أن فيه تخرصاً بعلم الغيب .

م (١٧) : متى تكون الطيرة شركا أكبر ومتى تكون شركا أصغر :

إن اعتقد المتشائم في طيرته وشؤمه أنها تفعل بذاتها وتستقل في حصول النفع والضر ولها تأثيرا حقيقيا، أو وصل خوفه منها إلى خوف السر فهذا شرك أكبر .

إن اعتقد أنها مجرد أسباب ، أو علامات ودلائل لحصول الشيء فشرك أصغر.

م (١٨) : وجه دخول التطير في السحر:

ورد في الحديث:(العيافة والطيرة والطرق من الجبت) والجبت هو السحر .

ليست الطيرة من السحر في الحقيقة، لكن وجه إدخال التطير في السحر لما بينهما من تشابه في ادعاء علم الغيب بطريقة خفيّة ونسبة التأثير للمخلوق والتعلق بغير الله، وهذا مثل إدخال البيان والنميمة في السحر لمشابهتهما له في بعض الأوجه .

م (١٩) : أوجه تحريم الطيرة :

١- أن فيها نسبة التأثير والتدبير والتصرف في الكون لغير الله تعالى .

٢- إثبات النفع والضر والقدرة وتعليق الحوادث ونسبة الخير والشر بها.

٣- إدعاء علم الغيب، ومحاولة كشفه من خلالها .

٤- سوء الظن بالله تعالى.

٥- تعلق القلب بغير الله وقصده ولجوئه إليه والاعتماد على المخلوق ورجائه .

٦- منافاتها للتوكل الواجب والاعتماد على غير الله.

٧- الخوف من المخلوق ومهابته وخشيته.

٨- ما فيها من الأوهام والخرافات وإضعاف القلوب وتشتيت الأمة.

م (٢٠) : كفارة الطيرة :

أولا : الدعاء الذي يقال قبل حصول التطير وعند وقوع مقدمات الطيرة فيكون دافعاً لها وواقياً من حصولها وهو : (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك). وقد ذكرت الطيرة عند ﷺ فقال: (إذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات...). رواه أبو داود

ثانيا : دعاء كفارة التطير : وهو الدعاء الذي يقال إذا حصل من المسلم تطير ووقع في التشاؤم :(اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك) .

يدل له ما جاء عن ابن عمرو وابن عباس: (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك) قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: (أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك) رواه الإمام أحمد.

م (٢١) : مما يذهب الطيرة بالكلية :

١- التوكل على الله وصدق الالتجاء إليه، ويدل لذلك قوله ﷺ: (الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل) رواه أبو داود والترمذي.

٢- حسن الظن بالله والتفاؤل.

٣- البعد عن أسباب الشر ، والإعراض عنها. ٤- الإيمان بالقدر .

م (٢٢) : بدائل الطيرة :التوكل ، العمل بالأسباب، الاستشارة ، الاستخارة .

وقد جاء في الشرع الحث عليها، وهي لا تنافي التوكل وتعتبر من الأسباب الشرعية وليست من الأسباب البدعية المحرمة كالتطير .

م (٢٣) : التطير في العقيدة وليس في المتطير به :

التشاؤم والتطير إنما هو في نفس المتطير والمتشائم وما تكنه نفسه وتعتقده، وليس في ذات ما تطير به شيء من ذلك ، إذ لا أثر له في الشر والخير.

يدل له قوله ﷺ: (ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم). رواه مسلم .

م (٢٤) : الجمع بين قوله ﷺ :(لاعدوى) وقوله:(فمن أعدى الأول):

أن النفي واقع على العقيدة لا على الوجود، فهو على ما كانت العرب تعتقده من وجود التأثير في هذه الأمور، وأما الإثبات فواقع على أصل وجودها، فالعدوى موجودة أثبتها حديث:(فر من المجذوم فرارك من الأسد) البخاري،وحديث:(لا يورد ممرض على مصح) مسلم، والنفي متعلق بما يعتقد من استقلالها في التأثير. ومثل ذلك الحديث المتفق عليه في النهي عن دخول أرض فيها طاعون ووباء ولا الخروج منها، ومثل ذلك الغول التي هي الجن على صور الوحوش موجدة بقدر الله.

م (٢٥) : حديث الشؤم في ثلاثة :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول : (إنما الشؤم في ثلاثة في الفرس والمرأة والدار) رواه البخاري ومسلم .

وقال ﷺ : (لا عدوى ولا طيرة والشؤم في ثلاث في المرأة والدار والدابة) رواه البخاري ومسلم .

وعن أنس ﷺ قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسول إنا نزلنا دارا فكثر فيها عددنا وأموالنا ثم تحولنا عنها إلى أخرى فقلت فيها الأموال وقل عددنا ، فقال رسول ﷺ : (ارحلوا عنها وذروها وهي ذميمة) رواه ابوداود .

ومعناه: أن التشاؤم قد يحصل في هذه الأشياء لما قد يوجد فيها من شر وسوء.

وسُئل الإمام مالك عن هذا الحديث ، فقال: كم من دار سكنها قوم فهلكوا ثم سكنها آخرون فهلكوا . أخرجه أبو داود .

وليس في الحديث ما يدل على جواز التطير والطيرة، لأنه ليس فيه تجويز اعتقاد التأثير، وإنما إثبات ما فيها من شر محسوس ينفر الإنسان فيه .

وذهب بعض أهل العلم إلى إن هذا الحديث مستثنى من أحاديث النهي عن الطيرة والتطير.

قال ابن رجب : (أن هذه الثلاث أسباب يقدر الله تعالى بها الشؤم واليمن، ولهذا يشرع لمن استفاد زوجة أو دابة أن يسأل الله تعالى من خيرها وخير ما جبلت عليه ويستعيذ به من شرها وشر ما جبلت عليه) لطائف المعارف ١٥٧ .

م (٢٦) : شبهات :

تغيير الرسول ﷺ أسماء بعض أصحابه .

حديث:(لا طيرة والطيرة على من تطير) رواه ابن حبان.

قد يظن البعض أنها مجوزة للتطير وليس الأمر كذلك .

فإن تغيير الأسماء واختيار الاسم الحسن في القيام لـه بـبعض أعمالـه كحلـب اللقحة ومن يسوق الإبل بالاسـم، هـو مـن بـاب التفـاؤل ومحبـة الأسـماء الحسنة والاستبشار بها وكراهية الأسماء القبيحة ونفوره منها كل ذلك من حسن الظن بـالله ولم تؤثر في شيء من أفعاله ﷺ فلم ترده عن أمر كان يريد أن يفعله .

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة في محاولة تغيير اسم أبي سعيد المسيب من حزن إلى سهل ورفضه فما زالت الحزونة فيهم : (قد يظن من لا يمعن النظر أن الذي نزل بهم هو من جهة اسمهم ويصح بذلك أمر الطـيرة، ولـو كـان الأمـر كـما ظنـوه لوجب أن ينزل بجميع من تسمى باسمهم من أول الدهر، وأما نزول الحزونـة بهـم فعقوبة لعدم استجابتهم للرسول ﷺ ، والرسول ﷺ استحب تغيير الأسماء المكروهة لنقلهم عن مذاهب آبائهم واعتقاداتهم الفاسدة وتطيرهم الشركي).

أما حديث :(لا طيرة والطيرة على من تطير) فعلى ضعفه فإن معناه الطيرة على من تطير أي إثم الطيرة على من تطير .

قال ابن عبد البر : (لو كان معناه كما ظننت لكان هـذا الحـديث ينفـي بعـضه بعضا، لأن قوله لا طيرة نفي لها، لكن معناه إثم الطيرة على من تطير بعد علمه بنهـي الرسول ﷺ عن الطيرة) التمهيد ٩/ ٢٨٤.

م (٢٧) : أخطر التطير ما كان بالله وبدينه وبالتوحيد وأوليائه .

أخطر التطير ما كان بالله تعالى وبدينه وبالصالحين وأهل الدين من العلماء أو المحتسبين أو الدعاة أو المجاهدين . وقد سمعنا من يصرح بالتشاؤم بهؤلاء، كمن يقول: ما رأينا الخير من جماعة صلوا ويقصد المحتسبين، أو يقول: ما جاءتنا المصائب وتسلط الكفار إلا بسبب المجاهدين. وما فرق الأمة إلا التوحيد أو الجهاد .

وهذا التشاؤم يدخل في نواقض الإسلام في ناقض البغض والكره .

ومن هذا الباب تشاؤم الكفار بالرسل كما في قولهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ يس:١٨ وكتشاؤم قريش برسولنا ﷺ وقولهم : ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ النساء: ٧٨، وكتشاؤم المشركين بالتوحيد : ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ الزمر: ٤٥.

م (٢٨) : الفأل :

هو الكلمة الطيبة والاستبشار والتيامن والتوقع بحصول ما يسر .

مثاله أن يكون شخص مريض فيسمع من ينادي يا سالم فيتفاءل أو يعمل له شخص اسمه ناجح فيقول إن شاء الله إن العمل سينجح .

وكان الرسول يحب الفأل ويعجبه قال ﷺ : (ويعجبني الفأل) متفق عليه.

والفأل من الطيرة ويدل لذلك قوله ﷺ : (أحسنها الفأل) رواه أبو داود.

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة : (أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة، وهو خيرها فأبطل الطيرة، ونفى عن الفأل مذهب الطيرة من تأثير أو فعل أو شرك ويخلص الفأل منها) .

م (٢٩) : الفرق بين الطيرة والفأل :

الطيرة فيها سوء ظن بالله وقطع للرجاء وقنوط من الخير ويأس من رحمة الله.

والفأل فيه حسن ظن بالله وتوكل عليه ورجاء له .

كما أن الفأل تقوية للعزيمة وليس هو المؤثر في الفعل أو الدافع لـه فلـيس فيـه تعلق بغير الله وهذا بخلاف الطيرة .

قال الحليمي:(وإنما كان يعجبه الفأل، لأن التشاؤم سوء ظن بالله بغـير سـبب محقق والتفاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال) .

م (٣٠) : مما له علاقة بالباب الاستقسام بالأزلام :

الاستقسام بالأزلام وهي أواني وأقداح يكتب على بعضها أمضي أو أمرني ربي ويكتب على الآخر لا أمضي أو نهاني ربي فيرمي بحجر فإذا وقع على الذي فيه الأمـر بالإمضاء يمضي وإلا لم يمض ، ومثلها ما يسمى بالحظ واعرف حظك، تشبه التطـير لوجود نسبة السببية لغير محلها وجعل ما ليس بسبب سببا.

وكل ذلك فيه قدح في التوحيد وتعلق بغير الله وادّعاء علم الغيب .

وفي بعض من يفعل ذلك اعتقاد التأثير في هذه الأمور وأن لها تصرفاً وتـدبيراً في الخلق وحوادث المستقبل ، ولا شك أن هذا شرك في الربوبية .

ومثل ذلك ما يشيعه بعض العوام الخرافيين من ربط بعـض الأمـور بأسـباب باطلة ، كقولهم: إذا صرت الأذن فمعناه أن شخصا تكلم فيك، وإذا حـك الإنـسان يده اليمنى فسينال مالاً، وإذا رمشت عينه فسيحصل كذا ، وإذا طار الـدبور فـسيأتي مطرا ، وأمثال ذلك كثير من الشركيات في باب الأسباب .

باب ما جاء في التنجيم (٢٩)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه: حقيقة التنجيم وحكم المنجم وكونه كافرا يجب قتله.

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بنواقض التوحيد والشرك .

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن التنجيم يعد مناقضا للتوحيد من أصله ، لأنه لا يقوم إلا على الشرك .

والتنجيم ينقض التوحيد من جهات سنذكرها في المسائل .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

لما ذكر باب السحر والكهانة ذكر بعد ذلك التنجيم وهو من فروعه وأنواعه .

وقد أورده في سياق الأبواب المتعلقة بالسحر لأن علتها واحدة وهي الشرك والاستعانة بالشياطين وادعاء الغيب والقدرة وتعبيد الناس لغير الله .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب : له علاقة بأبواب الشرك الأكبر .

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد الواردة في الباب:

أورد المصنف حديث أبي موسى في المصدق بالسحر ، وقول قتادة في الحكمة من خلق النجوم ، وخلاف السلف في تعلم منازل القمر.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية المتعلقة بالباب :

التنجيم

م (١) : تعريف التنجيم :

التنجيم على وزن تفعيل، نسبة للنجم والكواكب .

أو هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية .

م (٢) : أقسام علم التنجيم :

الأول : علم الأسباب والتسيير : وهو الاستدلال على الجهات وأوقات الزرع بالنجوم وسيرها وخروجها وهذا جائز .

الثاني : علم التأثير والأحكام : وهو الاستدلال على أمور الغيب بالنظر في النجوم واعتقاد أن للنجوم أحكاماً وتأثيراً فيما يحدث في الأرض ، وهذا كفر أكبر .

م (٣) : علم الحساب :

وهو استخراج وقت الكسوف ودخول الشهر والهلال والولادة ونحو ذلك بالنجوم وحسابها وهذا علم كرهه السلف ولا يعتمد عليه في الشرع .

قال الرسول ﷺ : نحن أمة أمية لا نقرأ ولا نكتب الشهر هكذا وهكذا. (صوموا لرؤيته) أي الهلال ونهى عن الاعتماد على الحساب في مثل هذا .

م (٣) : تعلم علم الفلك :

كره قتادة وابن عيينة تعلم منازل القمر وأوقات النجوم وذلك سداً للذريعة والدخول في تعلم القسم المحرم منه وهو علم التأثير فيكفر متعلمه ، بينما رخص فيه بعض السلف ، وسنعرف بمنازل القمر في باب الاستسقاء بالأنواء.

م (٤): أدلة التنجيم وتقدم في باب السحر . والتنجيم يدخل في السحر:
لحديث أبي داود:(من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر) .

م (٥) : أقسام التنجيم الكفري:

١- منه ما يكون فيه استعانة بالشياطين فيكون من الكهانة، ويدّعي صاحبه أن ما عرفه راجع لنظره للنجوم واستدلاله بها .

٢- ومنه ما هو نظر مجرد للنجوم ومحاولة إثبات علاقة بينها وبين الحوادث الأرضية والأمور المستقبلية وإثبات السعود والنحوس فيها .

فيقول: من ولد أو سافر أو حارب في نجم كذا سيحصل له كذا ومن يتزوج في برج كذا كالثور والأسد سيرزق بأولاد أو بنات أو يسعد في زواجه أو يتعس.

م (٦) : أوجه كفر المنجم والكفريات التي في التنجيم:

الأول : الاستعانة بالشياطين والشرك بهم وعبادتهم، وهذا شرك في الألوهية .

الثاني:اعتقاد أن للنجوم تأثيراً في حوادث الأرض وخلقا وقدرة ونفعا وضرا.
فينسب السعود والنحوس لها وهذا شرك التأثير والتدبير والقدرة والخلق.

الثالث: إدعاء علم الغيب عن طريق النظر للنجوم وهذا شرك في الربوبية.
فيدعي معرفة الغيب عن طريقها وهذا شرك العلم وهذا شرك ربوبية .

الرابع:مخاطبة النجوم ودعاؤها والخوف منها وعبادتها، وذا شرك في الألوهية.

الخامس : جعل علاقة سببية ورابطة بين ما يحصل في الأرض من حوادث وربطها بطلوع الأنواء وغيابها وحركة الأفلاك ، من دون أن يعتقد فيها الخلق والتأثير ، وهذا شرك أصغر وما سبق من الأوجه الأربع فكله شرك أكبر.

م (٧) : أنواع الكفر في عقائد أصحاب النجوم :

١- شركهم في الألوهية بعبادتها والسجود لها وطلب الحوائج منها وخوفها.

٢- شركهم فيها في الربوبية : باعتقاد التأثير والتدبير والقدرة فيها من دون الله فساووا النجوم بالرب في قدرته في التأثير والتصرف في الكون والخلق والتدبير فتكون النجوم مؤثرة بذاتها في المخلوقات ومدبرة، وذا شرك التأثير والخلق والقدرة.

٣- أن عندهم شرك العلم وذلك بادعاء القدرة على معرفة العلم الغيبي بعد النظر في النجوم وأن المستقبل يقرأ بعد النظر إليها والاستدلال بها ، وكذا جعلهم للكواكب دلالات وعلامات على الحوادث وادعاء علم ما يستقبل من الحوادث بها.

٤- اعتقاد أن النجوم والأنواء لها سبب في بعض ما يحصل على الأرض كالمطر والبرد والهواء وأن الله جعلها أسباباً لحصول مثل هذا الاعتقاد من الشرك الأصغر وقد يصل بصاحبه للكفر الأكبر والعياذ بالله والسابقة من الكفر الأكبر .

م (٨) : شرك النجوم أخبث أنواع الشرك :

كشرك قوم إبراهيم والفلاسفة والإغريق، وعبادة الشمس من قوم سبأ وبعض العرب والدبران من بني تميم والثريا بعض طيء والمرزم والقمر والشمس .

وذلك لاعتقاد الربوبية فيها من جهة.

ومن وجه آخر أن طلب الشفاعة منها لا يكون بالدعاء وإنما بالتعلق والتأثر .

وقد بينه ابن تيمية وقارن شرك العرب بالفلاسفة وذكرته في كتاب الشرك .

فائدة: عبر عن التنجيم بالسحر في أحاديث منها: (مصدق بالسحر) بدل (التصديق بالنجوم) و (من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر) .

م (٩) : كذب المنجمين في ادعاء أن إبراهيم كان منجماً :

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴾ الصافات: ٨٨ .

و قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ﴾ الأنعام: ٧٦ .

والحق أن قول الخليل ذلك كان من باب التنزل وإلزامهم وبيان أن النجوم ليس لها تأثير ولا يعلم الغيب منها ولا تستحق أن تعبد بل هي آفلة غائبة مخلوقة وكان قومه عباداً للكواكب والنجوم ويعتقدون أن لها تأثيراً وخلقاً وربوبية وأن الغيب يعرف بالنظر إليها .

وقد رد ابن القيم فرية أهل التنجيم هذه في كتاب مفتاح دار السعادة ، وتتبع فيه شبهات من أباح التنجيم وأثنى عليه واستدل له بأدلة وأحاديث وآثار موضوعة، وذكر الأدلة العقلية والنقلية على فساد هذا العلم وكفر فاعله وكذبهم فيما يدعونه.

م (١٠) : فوائد خلق النجوم :

الأول: زينة للسماء وتدبر خلق الله.

الثاني: رجوم للشياطين ، ودليل هاتين الحكمتين قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ الملك: ٥.

الثالث: علامات يهتدي بها الناس ويعرفون الجهات وأوقات الحرث.

ودليل هذه الحكمة قوله تعالى : ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ النحل: ١٦ .

ومن ادعى في النجوم فائدة غير ذلك فقد تعدى وكذب ، قاله قتادة.

ومن ذلك ما يدعيه أصحاب الهيئة وأرباب التنجيم من أن النجوم فيها دلائل وعلامات وإشارات وروابط للتنبؤ عن المستقبل وهو من الكذب الصريح .

م (١١) : الطوائف التي نشرت التنجيم في هذه الأمة :

انتشر التنجيم على يد الروافض والزنادقة والمنافقين وأهل الكتاب، والرافضة أعظم من نشر هذا الشرك ودعا إليه ، وقد صنفوا الكتب فيه ، وما كتابهم الجفر إلا واحد من ذلك ، وأغلب كتب السحر والتنجيم هي من وضعهم .

م (١٢) : انتشار التنجيم في عصرنا :

كثر في هذه الأزمنة التنجيم وعرض شرك أصحابه في المجلات والجرائد وذلك عن طريق ما يسمونه بالأبراج واعرف حظك وغيرها، وهذه الأمور فيها من الكفر البواح ما لا يخفى من نقض التوحيد والوقوع في شرك الربوبية باعتقاد وجود من يعلم الغيب وتصديق من يدعيه، وكذلك اعتقاد التأثير وأن الأبراج والنجوم مؤثرة ومدبرة أو أن لها علاقة في ذلك وهما شركان من أشد أنواع الشرك كفراً والعياذ بالله بل ومن نشرها ورضي بها وصنعها يكفر بذلك إذ الراضي بالكفر يكفر .

ومما وجد في زماننا من الكفر في هذا الباب والناقض : ما أنشأه هؤلاء من اتحاد المنجمين، وما وضعوه من معاهد لتعليمه، وخروج المنجمين والكهان والسحرة في التلفاز، وإخبارهم بالمستقبل ، ومواقع اعرف حظك وبرجك ماذا يقول ووضع ركن لها في الصحف والمجلات ، وما يحل في ذلك من الفساد وتصديق لهم من العوام والبله لا يخفى على مسلم .

م (١٣): حكم الإتيان للمنجم والكاهن :

ذكرناه سابقاً في الساحر والكاهن. وخلاصته أن من يأتي هؤلاء :

فيصدقهم فهو كافر، ومعنى يصدقهم أي في ادعاء علم الغيب والقدرة .

أما من يأتيهم ليسألهم عن حاجته مع علمه بكفرهم وكذبهم وأن مبلغهم من العلم من الجن في أمر محسوس وهو مؤمن بالله وبتوحيده في علم الغيب والتأثير، فهذا لا يكفر ومع ذلك هو مرتكب كبيرة من الكبائر ولا تقبل صلاته أربعين يوماً .

م (١٤) : أمور لا تنافي الغيب :

١- الإخبار بأحوال الطقس والخسوف والكسوف . وتوقع المطر والريح لأن هذا مبني على أرصاد وأمور محسوسة وليست من الغيب في شيء .

٢- معرفة ما في الرحم بالأشعة وهذا أمر محسوس وليس من علم الغيب .

٣- معرفة أماكن الماء بأمور محسوسة ودلالات مشاهدة.

٤- القيافة وهو معرفة القرابة والنسب ومعرفة آثار المشي والجرة، ويسمى المري وهذا أيضاً ليس من السحر ولا علم الغيب وإنما هو علم وفراسة عند العرب يعلمونها بالدلالات والمشاهدات المحسوسة لهم .

ويسمي البعض مثل هذه الأمور بالغيب النسبي ، وليست من الغيب المطلق.

م (١٥) : تعلق الوثنين بالنجوم وتسميتهم لشهورهم :

وقد كانت أسماء الشهور بالسريانية وهي المعروفه بكانون ونيسان وآذار فلما جاء الرومان ووضعوا تاريخهم وغيروا أسماء الشهور وسموها بأسماء آلهتهم فسموا آذار بمارس وهو إله الحرب وكانون بيناير وهو إله الشمس وحزيران بيونيه إله القمر وكذا بقية الشهور وأغسطس باسم ملكهم القيصر أغسطس واضع هذه الأسماء. كما أن الأيام عندهم بأسماء الآلهه الشركية فصندي يوم الأحد هو إله الشمس المقدسة وبقية الأيام كذلك وهذا التاريخ هو المعمول به عند أكثر الشعوب الغربية.

باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء (٣٠)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه: حكم الاستسقاء بالأنواء ونسبة المطر للنجوم، وكيفية دخوله في الشرك ومنافاته للتوحيد .

مكانه ونوعه: يعد من الأبواب المبينة لذرائع الشرك والشرك الأصغر.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن الاستسقاء بالأنواء ونسبة المطر للنجوم فيه تعلق بغير الله واعتقاد النفع فيه والتأثير وهذا مما يقدح في التوحيد كما سيأتي .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله : أورده في أبواب السحر والتنجيم لوجود مناسبة بينها.

وجاء بعد التنجيم لأن الاستسقاء بالأنواء متعلق بالنجوم وداخل في التنجيم.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب :

باب الاستسقاء بالأنواء ونسبة المطر للنجوم بأبواب الشرك الأصغر في الأسباب ، منها :الرقى ، التمائم، التبرك ، التطير ، الغلو.

وله تعلق بأبواب شرك الألفاظ ، وبباب نسبة النعم لغير الله ، وباب نسبة الحوادث للمخلوق .

كما أن له تعلق بأبواب السحر والتنجيم .

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١ – قول الله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ الواقعة: ٨٢.

٢- عن أبي مالك الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺقال: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة) . وقال: (النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب) رواه مسلم.

٣- عن زيد بن خالد الجهني ﷺ قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب) متفق عليه .

٤- حديث ابن عباس، وفيه: قال بعضهم لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات :﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ الواقعة: ٧٥ - ٨٢. متفق عليه.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١) : معنى الاستسقاء بالأنواء والنجوم:

النوء: هو غياب نجم وظهور غيره مكانه . والاستسقاء: طلب السقيا والمطر.

والمعنى: نسبة نزول المطر للأنواء وطلبه منها . فهما معنيان للاستسقاء بالنوء.

م (٢) : فائدة : جاءت الأحاديث بألفاظ (إيمان بالنجوم) (التصديق بالنجوم) (الاستسقاء بالنجوم) . معنى التصديق والإيمان واحد وهو: أن يصدق ويؤمن أن لها تأثيراً أو سبباً في السقي والمطر.

فائدة : تعلق الاستسقاء بالنوء والنجم ، والنوء والنجم هما بمعنى واحد.

م (٣) : حقيقة المسألة نسبة المطر للكواكب والشتاء :

نسبة الأحوال والحوادث للكواكب ومحاولة إيجاد مناسبة حاضرة أو مستقبلية وعلاقة سببية، فإن قارنه دعوى التأثير أو معرفة الغيب كان أشنع شركا .

قال النبي ﷺ حين نزل الشهاب ما كنتم تقولون فيه، قالوا موت عظيم . فأخبر أنه لا ارتباط له بها يصير وليس له علاقة وإنما هو لرمي مسترقي السمع،رواه مسلم.

م (٤) : معنى الرزق والتكذيب: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ :

التكذيب يكون بالقلب واللسان والجوارح، وهو ما يعرف بالتكذيب العملي.

الرزق : المطر وغيره .

م (٥) : حالات التكذيب بالرزق الواردة في الآية : للتكذيب ثلاث حالات:

١- نسبة المطر للنوء والنجم .

٢- أي أنكم جعلتم شكر نعمة الرسول والقرآن أنكم تكذبون به .

٣- أن المعنى أن يشكر الناس على أرزاق الله ونعمه وينسب الفضل لهم.

م (٦) : وجه الإيمان والكفر في: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر).

الإيمان نوعان أصل باعتقاد الربوبية لله وأنه هو الذي خلق النعم وتفضل بها وقدرها وكمال بشكره عليها ، والكفر أكبر باعتقاد خالق مؤثر لها ، وأصغر بشكر المخلوق عليها أو إسنادها لسببها ونسيان مسببها أو اعتقاد السببية فيها.

م (٧) أقسام وألوان وأوجه الاستسقاء بالنجوم :

١- أن يزعم معرفة الغيب عن طريق النجوم ووقت نزول المطر بالأنواء وحركة النجوم ، وهذا شرك أكبر لما فيه من ادّعاء العلم الغيبي .

٢- أن يعتقد العبد أن النجم هو الذي أنزل المطر وأنه مدبر ومتصرف وله تأثير، إما بذاته من دون الله أو بما جعله الله فيه من القدرة على التأثير، وهذا شرك أكبر في الربوبية لاعتقاد التأثير والخلق والقدرة والربوبية في غير الله .

٣- أن يعتقد أن النجم له علاقة سببية ورابطة ودلالة على نزول المطر فخروج نجم كذا في وقت كذا سبب لنزول المطر وهذا شرك أصغر .

٤- نسبة المطر للنجم من باب الظرفية والوقت :

كأن يستدل بالنجم على نزول المطر دون نسبة المطر إليه، كقولهم فصل الشتاء يكثر فيه المطر وطلوع الشولة المسماة بالربيع والمربعانيه عندنا دليل قرب شدة البرد.

وطلوع الثريا وهي التي نسميها الوسمية والوسم علامة ودليل على قرب المطر غالبا دون تعليق الأمر به لا استقلالا ولا سببا وأنها يكون للظرفية .

٥- دعاء النجوم ومخاطبة الكواكب وعبادتها ، فيكون قصد المستسقي بالنوء طلب المطر من النجم والنوء أغثنا يا نوء كذا ، وهذا شرك في الألوهية .

م (٨) : **فوائد النجوم**: زينة للسماء ، علامات يهتدى بها ، رجوم للشياطين.

م (٩): **متعلقات الأنواء ومنازل القمر وظروف الزمان ومشتقاته** :

كره قتادة وابن عيينة تعلم منازل القمر وأوقات النجوم كما تقدم والصحيح جوازه لقوله تعالى : ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ ﴾ يونس: ٥.

منازل القمر: المنزلة المكان الذي ينزل فيه ويخرج منه ويسير فيه من السماء فشبه بالمنزل للقمر . والمنزلة تشمل نجم أو عدة نجوم وينزل القمر كل ليلة في حذاء أحد النجوم والتي تسمى منزلته وللقمر ثمان وعشرون منزلة في الشهر. وهي:

القلب والشولة وهي التي نسميها الربيع والمربعانيه، والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد السماك والفرع المقدم والفرع المؤخر والرش والشرطين والبطين والثريا وهي الوسم والدبران والهقعه والهنعه والذراع والنثره والطرفة والجبهة والزبده والصرفة والعواء والسماك والغفر والزباني والإكليل .

وظروف الزمان : الوقت، الحين، الدهر، اليوم، السنة، الشهر، وغيرها.

السنة : وهي مدار الشمس في الأبراج وهي نوعان شمسية وقمرية هلالية.

والشهر : سمي شهرا من كونه يشهر ويعرف بالهلال أو البرج وهو نوعان.

والسنة أربعة فصول كل فصل يتكون من عدة بروج وتعرف بالنجوم.

والبروج : مجموعة من النجوم :وهي الجدي والدلو والحوت والحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس .

والنجوم تنقسم إلى سيارة وهي التسعة وثابتة كالثريا.

م (١٠) : النسيء :

هو التأخير ومعناه أن يؤخر الشهر ويغير مكانه وقد أخذته العرب من اليهود بعد أن كانت تسير على الأهلة قامت بمساواة الأشهر والسنة القمرية بالشمسية لمصالحهم فجعلت الحج يقع في أعدل الفصول لتتم مصالحهم التجارية الاقتصادية، وكانوا يؤخرون الأشهر الحرم ليقاتلون متى يشاؤون فكان هذا من تغيير ملة إبراهيم ومن الكفر ولما جاء الإسلام حرم ذلك وحين حج الرسول ﷺ كان حجه في وقت الحج ووافق أشهر الحج وهذا معنى استدارة الزمان الذي أخبر به.

م (١١) : وجوب العمل بالأهلة والتاريخ الهجري :

يجب العمل بالأشهر القمرية لأن عليها مدار الأحكام الشرعية الحج وصيام رمضان وفي السنة الهجرية تذكير بعزة المسلمين، ويحرم العمل بالسنة الميلادية والأشهر الشمسية الأفرنجية لما في ذلك من تضييع لمبادئ الشريعة والتشبه بالكفار.

واليوم عند المسلمين يبدأ من غروب الشمس فالمساء قبل النهار وعند أهل الفلك يبدأ من طلوع الشمس فيكون قبل الليل وعند أهل التنجيم يبدأ من الزوال.

ويوجد لكل أمة الهند والقبط والفرس واليهود والآشوري والمقدوني وغيرهم. أسماء للشهور والأيام ، وكثير منها مسماة بأسماء الآلهة كما تقدم .

وعند العرب للشهور والبروج معاني وقد غيرت العرب أسماء الشهور بعد أن قامت بالنسيء ومحاولة جعل الأشهر القمرية موافقة للأبراج والأشهر الشمسية .

فليتنبه أهل التوحيد لمداخل الشرك التي سدها الشرع في باب الأنواء والكواكب والقبور وغيرها وليسلكوا السبيل في حماية جناب التوحيد .

باب المحبة (٣١)

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾

اسم الباب : شرك المحبة

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه :

عبادة المحبة ووجوب إفراد الله بها وكفر من أشركها وصرفها لغير الله .

مكانه ونوعه:يعد من الأبواب المبينة للشرك الأكبر في العبادات.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن محبة غير الله والتعلق بالمخلوق تنافي التوحيد وتقدح فيه .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله: ساقه بعد أبواب السحر والتنجيم لما فيها وفي المحبة لغير الله من التعلق بغير الله ، وجاء بعد الاستسقاء لأنها نعمة تستوجب المحبة فيوحد الله بالحب كما يجب أن يوحد بالشكر.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب : فيه مشابهة للأبواب المتعلقة بشرك العبادات البدنية والقولية الباب العاشر الذبح وما بعده .

ثالثاً : الرأي في ترتيبه بين الأبواب :

كان الأفضل تبويبا لو جعل المصنف هذا الباب بعد الأبواب الستة التي قعدت مسائل التوحيد ثم يبدأ بسرد أبواب الشرك الأكبر وأبواب العبادات البدنية ثم القلبية ، ثم الأبواب المتعلقة بالشرك الأصغر ووسائل الشرك .

الوقفة الرابعة: ما فات المصنف :

لم يذكر المصنف بقية أنواع العبادات القلبية كالرجاء وإن كان مدرجا ضمنا في باب القنوط والأمن .

أدرج موضوع الولاء والبراء مختصرا في هذا الباب كما أدرجه في الباب السادس تفسير التوحيد ، وكان الأولى أن يفرده بباب مستقل لأهميته ولكونه داخل في التوحيد تضمنا واستلزاما .

الوقفة الخامسة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد المصنف ستة أدلة سنوردها مع غيرها في المسائل.

١- فائدة من حديث ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان :

وقد دل على ثلاثة أصول محبة الله ورسوله وتقديمها على كل شيء ، ومحبة المؤمنين وكره الكفر وأهله وما يكرهه الله وهاتين هما الولاء والبراء.

٢- حديث: (من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله):

هذا الحديث قاعدة الولاء والبراء وقد جمع أركانه الأربع التي لايصح إلا بها:

أولاً: الحب القلبي الباطن ، ثانياً: النصرة والموالاة العملية، وهذا في الولاء.

ثالثاً: البغض القلبي ، رابعاً: المعاداة العملية الظاهرة ، وهذا في البراء .

وقد أفردت موضوع عقيدة الولاء والبراء ومسائله بفصل مستقل .

الوقفة السادسة: المسائل العقدية في الباب :

شرك المحبة

المسألة الأولى: تعريف المحبة :

المحبة اسم للحب ضد البغض والكره .

المسألة الثانية: المراد بالمحبة شرعا :

أن يحب الله تعالى وما يحبه الله ويدخل في ذلك محبةكلمة لا إله إلا الله الدالة على التوحيد والناهية عن الشرك ويحب ما تقتضيه وتستلزمه .

وكذلك محبة أهلها وأوليائها الموحدين، ومحبة من أرسل بها وهو رسول رب العالمين، ومحبة الدين الذي جاء به والشرع الذي ألزم به وهو الإسلام، والرضا بهذه المقامات الثلاث، الإتيان بلوازمها من الانقياد وكره كل ما يناقضها وبغض الشرك وأهله والطواغيت المتبوعة والمطاعة والمعبودة.

فائدة: محبة لا إله إلا الله قائمة على أصلين:

الأول: محبة الله وتوحيده وعدم بغضه، أو بغض ما يحبه الله أو محبة ما يبغضه .

الثاني: توحيد الله في المحبة وعدم الشرك مع الله في المحبة .

المسألة الثالثة: أدلة المحبة :

١ – قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥.

٢ – وقال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ المائدة: ٥٤.

٣ – ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ آل عمران: ٣١.

٤- قال تعالى:﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ التوبة: ٢٤ .

فقرن بين التوحيد ومحبة الله ولازمه الذي هو الانقياد والجهاد .

٥- وقال عن المشركين : ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الشعراء:٩٨ والتسوية في المحبة كما قال أهل التفسير .وقال عنهم : ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ الأنعام: ١ ،والعدول بالمحبة والتعظيم .

٦- قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ محمد:٩.

ومن السنة :

١- عن أبي رزين العقيليﷺ أنه قال يا رسول الله ما الإيمان فقال: " أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما " رواه أحمد .

٢- قال النبي ﷺ : " والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه " رواه أحمد .

٣- وقال ﷺ :" لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين " رواه الشيخان .

٤- وقال ﷺ : " ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار " رواه البخاري ومسلم .

ومن دلالات الحديث أن كره الكفر ومحبة التوحيد من الإيمان .

٥- قال الرسول ﷺ : " أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله والموالاة في الله والمعاداة في الله " . رواه أحمد .

٦- وقال ﷺ :" من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان " رواه أبو داود .

٧- وقال ﷺ:" أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله " رواه الترمذي .

٨- وفي الدعاء النبوي :" اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك " رواه أحمد .

٩- وفي خطبة النبي ﷺ عند ابن إسحاق " أحبوا الله من كل قلوبكم ".

١٠- ما أخرجه البخاري وفيه :" ذلك منافق لا يحب الله ورسوله ".

المسألة الرابعة: أقوال أهل العلم في شرك المحبة :

قال ابن تيمية في التحفة العراقية : " محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، كما أن التصديق به أصل كل قول، فالعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته، فالمحبوب الذي لا يعظّم ولا يذل له لا يكون معبوداً والمُعَظَّم الذي لا يُحب لا يكون معبوداً ".

قال ابن رجب في فتح الباري : " فعلامة تقديم محبة الرسول ﷺ على محبة كل مخلوق، أنه إذا تعارض طاعة الرسول ﷺ في أوامره وداع آخر يدعوا إلى غيرها من هذه الأشياء المحبوبة، فإذا قدم المرء طاعة الرسول وامتثال أوامره على ذلك الداعي كان ذلك دليلا على صحة محبته للرسول ﷺ ، وإن قدم على طاعته وامتثال أوامره شيئا من الأشياء المحبوبة طبعا دلّ على عدم إتيانه بالإيمان التام الواجب عليه ".

المسألة الخامسة : علاقة المحبة ببقية العبادات :

المحبة تستلزم جميع العبادات والعبادات بدونها غير مقبولة .

المسألة السادسة : مراتب المحبة وانقسامها إلى أصل وكمال :

المحبة كغيرها من العبادات التي تزيد وتنقص ويتفاوت الناس فيها، كما أن منها ما هو أصل ومنها ما هو من الكمال.

فأما أصل المحبة ومحبة أهل التوحيد فهذا وجوده شرط في صحة التوحيد وفاقده كافر خارج من الإسلام.

أما كمال المحبة والمحبة التامة المستلزمة لكمال الرضا واليقين فأهل التوحيد متفاوتون في تحقيقها بين :

١- من يأتي بالواجب والمستحب ويسابق بالخير.

٢- من يقتصد فيقتصر على الواجب فحسب .

٣- ومن يظلم نفسه ، ولهذا حالتان :

إما أن يقصر في الواجب منها وينقص منه.

أو أنه يأتي بما يقدح فيه من الأفعال التي تستلزم معارضة المحبة .

وهذه القوادح التي تنقص من درجة المحبة الواجبة كثيرة إلا أنها لا تخرج من الإسلام لوجود أصل المحبة مع حصول الإثم المستوجب للعقاب .

المسألة السابعة : أقسام الناس في محبة التوحيد :

١- من يحب التوحيد وأهله ويبغض الكفر وأهله. وهؤلاء هم أهل التوحيد.

٢- من يحب الشرك ويبغض التوحيد. وهؤلاء هم المشركون .

٣- من لا يحب التوحيد ولا يبغضه ، وهؤلاء هم الكافرون كفر إعراض .

٤- من يحب التوحيد ويبغض أهله. والمتصف بهذا كافر وحبه دعوى كاذبة .

٥- من يبغض الشرك ويحب أهله. وهذا الصنف كالسابق.

ولا يوجد من يحب التوحيد ويحب الشرك معا، لأنهما متناقضان .

المسألة الثامنة : أقسام المحبة :

١- المحبة الطبعية العادية الفطرية:

كمحبة الوالد والولد والمال. وهذه المحبة لا تستلزم التعظيم والتذلل والطاعة المستقلة والخضوع التعبدي، أما التذلل للوالد وخفض الجناح له وتوقيره فهذا من تعظيم الله وتعظيم أمره لكونه الآمر به ثم هو ليس من التعظيم الكامل والخالص .

٢- المحبة التعبدية :

وهي محبة الله المتصفة بالتذلل والخضوع واللجوء والرغبة والرهبة والخوف والرجاء وهذه الخاصة بالله ولا تجوز لغيره ولا تصرف إلا له .

٣- المحبة اللزومية : وهي المحبة في الله ولله، وهي التي تلزم بالمحبة التعبدية وتكون لأجلها، وهي محبة ما يحبه الله من الطاعات والخير، والمحبة في الله ولله وذلك

بمحبة أولياء الله وعباده المؤمنين من الرسل والملائكة والصالحين، وهذه هي محبة الولاء والبراء ولا يتم الإسلام إلا بها وهي أوثق عرى الإيمان .

٤- المحبة الشركية : وهي محبة الأنداد والمحبة التعبدية لغير الله أو المحبة مع الله كما يفعله المشركون مع معبوداتهم .

٥- المحبة المحرمة : وهي محبة ما لا يحبه الله من الكفر والعصيان والهوى، أو محبة الكفار أو مجاملتهم ومن أمر الله ببغضهم أو الغلو في محبة الدنيا والمال .

وهذه المحبة درجات منها الكفر ومنها ما هو معصية دون الكفر .

فحكم الأولى أنها مباحة والثانية والثالثة واجبة والرابعة كفر والخامسة محرمة وليست بمشروعة .

المسألة التاسعة: أقسام المحبة من حيث اختصاصها بالله :

١- المحبة العامة المشتركة بين الله وعباده وأنواعها أربعة :

طبيعية - رحمة وإشفاق - إجلال وتقدير - أنس وألفة .

٢- المحبة التعبدية الخاصة وهي التي لا تكون وتصلح إلا لله وهي: محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والانقياد والتعظيم وكمال الطاعة والإذعان .

المسألة العاشرة: أقسام المحبة المتعلقة بالله تعالى:

١- محبة الله ولا تكفي وحدها.

٢- محبة ما يحب الله.

٣- الحب لله وهي من لوازم محبة الله .

ولا يدخل الإنسان الإسلام إلا بهذه الثلاث .

٤- محبة مع الله وهذه المحبة الشركية الكفرية المحرمة .

المسألة الحادية عشرة: المحبة المثبتة والمنفية :

المحبة المثبتة: هي محبة الله ولله وفي الله، وكذا المحبة الطبيعية .

المحبة المنفية: هي المحبة الشركية التي مع الله، وكذا المحبة المحرمة.

المسألة الثانية عشر ة: المحبة النافعة والضارة:

المحبة النافعة: هي محبة الله ومحبة ما يحبه الله .

المحبة الضارة: هي المحبة الشركية التي هي المحبة مع الله ومحبة ما يكرهه الله ومحبة ما يقطع محبته عن محبة الله، وهي ضارة في الدنيا وتنقلب يوم القيامة لعداوة .

المسألة الثالثة عشرة: ما تتضمنه المحبة الواجبة لكلمة التوحيد ويدخل فيها:

١- محبة الله عز وجل.

٢- محبة ألوهية الله وربوبيته وأفعاله وصفاته. ومحبة توحيده فيها .

٣- محبة أوامر الله وشرعه ودينه وفرائضه.

٤- محبة الإسلام وامتثاله والعبادة والطاعة.

٥- محبة الرسول ﷺ واتباعه وطاعته .

٦- محبة ما يحبه الله وبغض ما يبغضه .

٧- محبة أولياء الله وبغض أعدائه .

المسألة الرابعة عشرة: لوازم محبة الله :

١- طاعة الله وتوحيده وترك الشرك، وعبادته والذل له وامتثال أمره وابتغاء فضله وطلب رضوانه وقصده ورجاؤه واللجوء له والرغبة إليه والخوف منه.

٢- محبة ما يحبه الله من الأفعال والأعيان والذوات وذلك بمحبة دينه والإسلام والتوحيد ومحبة الرسول ﷺ وعباد الله المؤمنين، وبغض ما يبغضه من أعدائه وكره الكفر والشرك .

٣- اتباع الرسول ﷺ والتسليم له، والانقياد له وقبول دينه، فمن لم ينقد للدين ويلتزم بالشريعة ويمتثل للأمر ويعمل بالتوحيد والفرائض ومباني الإسلام فمحبته كاذبة قال تعالى مبيناً هذه القاعدة:﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾.

٤- الولاء والبراء وذلك بموالاة المؤمنين ومناصرتهم ومحبة الخير لهم والنصح لهم، ومعاداة الكفار والبراءة منهم وبغضهم وجهادهم، وقد وصف الله الذين يحبهم ويحبونه بالأعزة على الكافرين والأذلة للمؤمنين، وأن معاداة الكفار وجهادهم مما يبتغى بها محبة الله ورضوانه .

هذه الأمور الأربع هي لوازم محبة الله التعبدية، ومن رفضها أو خالفها فهو سائر بين الكفر والمعصية بحسبه ولا تنفع محبة من دون الإتيان بها .

قال ابن القيم في المدارج :" وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب النهي، فعند الاتباع تثبت حقيقة العبودية والمحبة فانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم فيستحيل إذا ثبوت محبتهم لله بدون المتابعة لرسوله ﷺ" .

وقال ابن كثير: " وهذه الآية فاتبعوني حاكمة على كل من أدعى محبة الله وليس على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله " .

وقال ابن رجب في التوحيد :" محبة الله إذا استغرق بها القلب واستولت عليه لم تنبعث الجوارح إلا إلى مراضي الرب ".

وقال عن حديث تعس عبد الدينار:" فدل على أن كل من أحب شيئا وأطاعه وكان غاية قصده ومطلوبه ووالى لأجله فهو عبده وذلك الشيء معبوده وإلهه ".

المسألة الخامسة عشرة: محبة الله من حيث الأصل هي فطرية في كل الخلق، لكن لا يؤجر العبد على محبته لربه إذا لم تكن المحبة التعبدية القائمة على التذلل والانقياد والطاعة والتعظيم والخضوع .

السادسة عشرة: مما يدخل في شرط المحبة الكفر بالطاغوت وتكفير المرتدين:

قال إمام الدعوة السلفية :" ومن زعم أن الله لم يتعبدنا بتكفير المرتدين ولن يسألنا عنهم ولا عن تكفير من وقع في الشرك من أهل لا إله إلا الله فقد أعظم على الله الفرية " بتصرف من الدرر وللشيخ رسالة نفيسة في الباب هي مفيد المستفيد .

والكلام عن الكفر بالطاغوت ذكرته في مواضع.

السابعة عشرة: المحبة من صفات الله :

فالله عز وجل يحب ويحب ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ المائدة: ٥٤ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ البقرة: ٢٢٢.

الثامنة عشرة: حكم المحبة ومنزلتها وأهميتها ودخولها في العبادة والإسلام :

جميع العبادات تقوم على المحبة، ولذلك أمر الله بها وأثنى على من اتصف بها وهي أحد ركني العبادة التي هي التذلل والمحبة، وهي أعظم محركات القلوب مع الخوف والرجاء . ولذلك كان أصل الشرك بالله الإشراك مع الله في المحبة .

قال ابن تيمية في التحفة العراقية : " محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، فالعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته ".

وقال ابن القيم في المدارج :" لو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها بل هي حقيقة الإخلاص بل هي نفس الإسلام فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة، فمن لا محبة له لا إسلام له البتة بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله فإن الإله هو الذي يألهه العباد حبا وذلا وخوفا ورجاء وتعظيما وطاعة له وأصل التأله التعبد والتعبد آخر مراتب الحب فالمحبة حقيقة العبودية " .

المسألة التاسعة عشرة: نواقض المحبة والقوادح فيها :

١- بغض الله ورسوله ﷺ بالقلب أو بالسب أو السخرية بأمرهم أو العمل المستلزم وجود البغض .

٢- المحبة الشركية بمحبة غير الله كمحبة الله .

٣- محبة ما يبغضه الله من المنهيات.

٤- محبة أعداء الله وموالاتهم.

٥- بغض ما أحبه الله وشرعه، أو ما جاء عنهم .

٦- معاداة أولياء الله .

٧- تقديم الهوى على ما يحبه الله وأمر به .

٨- عدم الإتيان بلوازم المحبة من الانقياد واتباع الرسول ﷺ وامتثال أمره .

وهذه القوادح على درجات منها الكفر ومنها ما هو معصية دون الكفر .

المسألة العشرون : حكم تارك عبادة الحب :

المحبة لله عبادة وتاركها بالكلية كافر ليس بمسلم .

المسألة الحادية والعشرون: أمور لا تناقض المحبة:

استثقال التكاليف ليس مناقض للمحبة ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ البقرة: ٢١٦ . وإن كان تركه أكمل.

المحبة العادية الطبيعية كمحبة الوالد والولد والأهل والمال ما لم يقدمه صاحبه على محاب الله.

المسألة الثانية والعشرون: ضابط محبة العبودية :

هي المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم وكمال الطاعة وإيثاره على غيره، فمن صرف هذه المحبة لغير الله كان مشركاً في العبادة .

قال ابن تيمية في التحفة العراقية : " العبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته فالمحبوب الذي لا يعظّم ولا يذلّ له لا يكون معبوداً والمُعظّم الذي لا يحب لا يكون معبوداً ".

قال ابن القيم في المدارج : " فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته مع الخضوع له والانقياد لأوامره فأصل العبادة محبة الله بل إفراده بالمحبة وأن يكون الحب كله لله فلا يحب معه سواه وإنما يحب لأجله وفيه " .

المسألة الثالثة والعشرون: علامات محبة الله :

١- طاعة الرسول ﷺ ومتابعته والانقياد له .

٢- تقديم محبة الله ورسوله ﷺ على كل شيء وتقديم محاب الله على الهوى .

٣- إيثار الله ورسوله في حال حصول الاختيار .

٤- بغض ما يبغضه الله وإن مال إليه هواه .

٥- الصبر على البلاء ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ محمد: ٣١.

٦- موالاة أولياء الله ومعاداة الكافرين .

٧- ذكر الله دائما وتعلق القلب به والأنس به، والرضا به والتسليم له ولأمره.

٨- الإتيان بلوازمها وتقدم ذكرها.

المسألة الرابعة والعشرون: محبة المشركين لله :

المشركون يحبون الله ولكن يشركون في المحبة فيحبون الأنداد والأوثان كحب الله ومع الله بدليل آية ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾.

ولذلك كانت محبة الله لا تنفع صاحبها إلا بالإتيان بلوازمها من التوحيد والولاء والبراء وإتباع الرسول وطاعة الله ومحبة ذلك .

معنى قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ البقرة: ١٦٥ فيها قولان :

١- أشد حبا لله من حب المشركين لله عز وجل .

٢- أشد حبا لله من حب المشركين لأندادهم وآلهتهم .

المسألة الخامسة والعشرون : أسباب محبة الله :

يستحق ربنا تعالى أن يحب لكماله سبحانه ولجماله ولنعمه على خلقه .

قال ابن تيمية في التحفة:" أصل المحبة هو معرفة الله تعالى وله أصلان :

أحدهما: وهو الذي يقال له محبة العامة لأجل إحسانه إلى عباده، وقد فطرت وجبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها.

الأصل الثاني: محبته لما هو له أهل، وهذا حب من عرف من الله ما يستحق أن يحب لأجله، وما من وجه من الوجوه التي يعرف الله بها مما دلت عليه أسماؤه وصفاته إلا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه، وهو محبة الخاصة " .

المسألة السادسة والعشرون: الأسباب الجالبة لمحبة الله :

معرفته والتفكر في أسمائه وصفاته وكماله وقراءة كلامه وكثرة ذكره والانكسار لله تعالى والتقرب إلى الله بالنوافل وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين وهذه محلها كتب الرقائق .

المسألة السابعة والعشرون : شرك المحبة:

الأصل في هذا النوع من الشرك قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ البقرة: ١٦٥.

وحقيقتها : أن يحب غير الله مثل محبة الله، أو محبة المعبودات والطواغيت المتبوعة والمطاعة من دون الله تعالى، أو محبة أعداء الله وتوليهم .

المسألة الثامنة والعشرون : ضابط المحبة الشركية :

١- محبة المخلوق المتضمنة الخضوع والتذلل له واللجوء إليه والانكسار بين يديه والرغبة والرهبة والخوف منه والرجاء والتوكل عليه .

٢- تقديم الهوى ومحبة الدنيا على محبة الله وطاعته، كمحبة المال وجمعه من كل وجه والبخل به والانشغال به عن طاعة الله وعبادته بتحصيله، وهذا المقصود بقول الرسول ﷺ :" تعس عبد الدنيا إن أعطي منها رضي وإن منع منها سخط " .

قال ابن رجب في فتح الباري : " فعلامة تقديم محبة الرسول على محبة كل مخلوق، أنه إذا تعارض طاعة الرسول ﷺ في أوامره وداع آخر يدعوا إلى غيرها من هذه الأشياء المحبوبة، فإذا قدم المرء طاعة الرسول وامتثال أوامره على ذلك الداعي كان ذلك دليل على صحة محبته للرسول ﷺ ، وإن قدم على طاعته وامتثال أوامره شيئا من الأشياء المحبوبة طبعا دل على عدم إتيانه بالإيمان التام الواجب عليه ".

وقال عن حديث تعس عبد الدينار:" فدل على أن كل من أحب شيئا وأطاعه وكان غاية قصده ومطلوبه ووالى لأجله فهو عبده وذلك الشيء معبوده وإلهه ".

٣- محبة ما يكرهه الله من المعاصي ومن الكفار وهذا الشرك في الولاء والبراء.

المسألة التاسعة: أنواع الشرك في المحبة :

منه ما هو شرك أكبر ومنه ما هو شرك أصغر حسب معتقد صاحبه ونوع حبه.

الثلاثون: تعلق شرك المحبة بالشرك في الربوبية : وقد وقعت فيه طائفتان :

المعطلة الجهمية وذلك بإنكار صفة محبة الله بكونه لا يُحَب ولا يُحِب أحداً .

الجبرية والحلولية وأصحاب الوحدة وقولهم بأن الله يحب الكفر والمعاصي.

المسألة الحادية والثلاثون : معنى المساواة والعدول :

حقيقة المساواة والعدول التي ذكرها الله في قوله عن المشركين:﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الشعراء: ٩٨ وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ الأنعام: ١ .

هي تسوية المشركين بين ربهم ومعبوداتهم في المحبة، كما قاله السلف .

المسألة الثانية والثلاثون : ضابط المحبة المباحة الدنيوية الطبعية :

١- أن لا تشغل عن طاعة الله وما يحبه .

٢- وأن لا تدعو إلى معصية الله .

٣- وألا يلازمها الذل والخضوع للمخلوق .

فإذا وجد أحد هذه الأمور كانت المحبة محرمة وشركية .

الثالثة والثلاثون: كل محبة ليست لله تكون سبباً للعداوة وتنقلب إلى البغض:

يدل لذلك قوله تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ الزخرف:٦٧ وقولـه : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ البقرة: ١٦٦ وهي المودة كما قال ابن عباس . وهي في بغض المشركين لآلهتهم والعكس وزوال المحبة ، ومثلها قوله : ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ يونس: ٢٨.

المسألة الرابعة والثلاثون : المحبة البدعية الصوفية :

من المحبة المحرمة محبة الصوفية بطرقهم التي ابتدعوها في حب الله وإتيانهم بالعشق والسكر ونحوه، وكذلك الغلو في محبة الرسول ﷺ وإعطائه صفات الألوهية أو الربوبية .

المسألة الخامسة والثلاثون : الطوائف التي وقعت في شرك المحبة .

١- الرافضة والصوفية المشركة أفراخ المشركين الأولين في الأمم السابقة .

ومن ذلك قول التيجاني:"من أكبر الشروط الجامعة بين الشيخ ومريده هو أن لا يشارك في محبته غيره ولا في تعظيمه ولا في الاستمداد منه ولا في الانقطاع إليه " .

٢- عبّاد الدنيا والشهوات والهوى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ الفرقان: ٤٣.

وهذا النوع من الشرك من قبيل الأصغر وقد يصل بصاحبه للكفر والشرك الأكبر، ويدخل في شرك الإرادة .

٣- المتولين للكفار :

فإن من كان موالياً لغير الله وأوليائه فقد أشرك مع الله غيره في المحبة

قال سبحانه وتعالى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ ﴾ آل عمران: ٢٨ .

٤- الجهمية المعطلة القائلين أن الله لا يُحِب أحداً ولا يُحِبه أحد .

السادسة والثلاثون : من أعظم لوازم ومقتضيات محبة الله الولاء والبراء :

المسألة السابعة والثلاثون : الفرق بين الخوف والمحبة :

قال ابن القيم الوجل والخوف والخشية والرهبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة .

المحبة من شروط التوحيد بخلاف الخوف ، والخوف داخل في شرط الانقياد وليس بشرط مستقل ولا يماثل المحبة كما توهم البعض ووجه ذلك :أن محبة الله تكون لذاته، والحب سببه الكمال، وذاته لها الكمال المطلق ، أما الخوف من الله فسببه توقع المكروه، وهذا إنما يكون في الأفعال والمفعولات ، وبهذا يعلم بطلان قول من زعم أنه تعالى يخاف لا لعله ولا لسبب ، وهؤلاء عندهم الخوف يتعلق بنفس الذات،من غير النظر إلى فعل العبد،وهذا من قلة نصيبهم من المعرفة بالله وأفعاله وحكمه ، أفاده ابن القيم في طريق الهجرتين .

باب الخوف (٣٢)

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

اسم الباب : شرك الخوف

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه :

عبادة الخوف ووجوب إفراد الله بها وكفر من أشركها وصرفها لغير الله .

مكانه ونوعه: يعد من الأبواب المبينة للشرك الأكبر في العبادات.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن الخوف من غير الله ينافي التوحيد من أصله أو يقدح في كماله .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله : ساقه بعد باب المحبة لأنهما من العبادات القلبية والتي يجب إجتماعهما في العبد ، ومن الشرك صرفها للمخلوق .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب :

يعتبر من أبواب العبادات القلبية . وفيه مشابهة للأبواب المتعلقة بشرك العبادات البدنية والقولية الباب العاشر الذبح وما بعده .

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد المصنف خمسة أدلة سنوردها مع غيرها في المسائل.

الوقفة الخامسة : المسائل العقدية في الباب :

عبادة : الخوف

م (١) : تعريف الخوف وحقيقته :

الخوف صفة قلبية وفعل متعلق بأفعال القلب وتظهر آثاره على الجوارح .

وحقيقته ما حمل صاحبه على المراقبة ومنعه من الوقوع فيما يغضب الله

الخوف من الله عبادة أمر الله تعالى بها وأحبها وأثنى على المتصفين بها .

ومن صرفها لغير الله فقد أشرك ، فالخوف من المخلوق من الشرك.

وقد دل على هذا الأصل أدلة كثيرة تأتي في المسألة الثانية.

م (٢) : أسماء الخوف ومعانيه :

الخوف – الخشية – الرهبة – الوجل – الفزع – الذعر – الرعب – الفرق.

ومن معانيه ولوازمه :

الهول الهيبة الإشفاق الحذر النخب الجبن التروع الوجيب الخرعة والتقوى .

ذكرها الرماني في الألفاظ المترادفة وابن مالك في الألفاظ المختلفة وغيرهم.

وأكملها التقوى ثم الخشية والرهبة .

لأن التقوى ترك المعاصي خوفاً من الله فهي من آثار الخوف ومعانيه .

م (٣) : الفروق بينها .

أولا: الفرق بين الخوف والخشية :

١ – الخوف خوف من الأثر ، والخشية خوف من المؤثر .

﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ الرعد: ٢١.

٢- الخشية خوف وزيادة إذ فيها العلم بالمخاف منه والحذر منه وتعظيمه وطاعته، ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ فاطر: ٢٨.

ثانيا: الفرق بين الخوف والرهبة :

١- أن الرهبة تثمر عملاً واحتياطاً، وأما الخوف فقد يثمر وقد لا يثمر .

٢- أن الرهبة مدة أثرها طويل والخوف مدة أثره قصير .

م (٤) : أدلة عبادة الخوف :

١- قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥.

٢- وقال : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ الزمر: ٣٦ ذم حال المشركين الخائفين من معبوداتهم والمخوفين بها.

٣- وقال: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ النحل: ٥١، وهذا من صيغ الحصر الدالة على توحيد عبادة الخوف لله وحده.

٤- وقال : ﴿ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ الأحزاب: ٣٩ .

٥- وقال: ﴿ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ النساء: ٧٧.

٦- وقال: ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ المائدة: ٤٤ .

٧- وقال: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ التوبة: ١٨ .

٨- ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ الأنبياء: ٩٠.

٩- وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ المؤمنون: ٥٧.

١٠- وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الحج: ٣٥.

أثنى على من اتصف بالخوف منه والخشية وهذا يدل على أنها عبادة .

١١- وقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ العنكبوت: ١٠.

١٢- وقال تعالى: ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ التوبة: ١٣.

١٢- عن أبي سعيد ﷺ مرفوعا: (إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله ، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره).

١٣- عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: (من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس؛ ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس) رواه ابن حبان في صحيحه.

م (٥) : أنواع الخوف :

١- الخوف التعبدي التألهي: هو الخوف من الله ومن عقابه، فلا يخشى غيره، وإذا ذكر الله ﷻ وجل القلب منه، وأشفق من عقابه وغضبه، وخاف من مخالفة أمره والوقوع في نهيه ، وهذا الخوف يقوم معه الخضوع للرب والذل له ورجاؤه .

٢- الخوف الشركي (خوف السر) : وهو صرف الخوف التعبدي لغير الله، بأن يخاف من المخلوق في أمر لا يقدر عليه إلا الله، أو يتوقع أن المخاف منه يستطيع إنزال الضرر الذي لا يقدر على فعله إلا الله، وأن المخلوق يقدر على أن يصيب الناس بما يشاء، كما هو حال المشركين مع آلهتهم .

٣- الخوف المحرم : وهو ترك أمر الله وطاعته أو فعل معصيته مخافةً من المخلوقين وهو داخل في الشرك الأصغر ، كأن يترك الجهاد أو البراءة من المشركين أو النهي عن المنكر وقول كلمة الحق خوفا من الناس أو مهابة لهم أو طلبا لرضاهم.

قال تعالى في من هذه حاله : ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ المائدة: ٥٢ ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ القصص: ٥٧ ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ النساء: ٧٧ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ العنكبوت: ١٠ ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ النساء: ١٣٩ .

قال ﷺ :(من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط عليه واسخط عليه الناس). الترمذي .

قالﷺ : (إن الله يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك إذا رأيت المنكر ألا تغيره ، فيقول يا رب خشيت الناس، فيقول: إياي كنت أحق أن تخشى) أحمد وابن ماجه .

٤- الخوف الطبعي الجِبلّي : كالخوف من السبع والعدو والنار والطاغوت الظالم ومنها قوله تعالى عن موسى : ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ القصص: ١٨.

م (٦) : ينقسم الشرك في الخوف إلى أكبر وأصغر :

الشرك الأكبر في الخوف : خوف التألة والعبادة وهو الخوف من المخلوق أن يضره ويفعل للخائف منه ما لا قدرة له به .

والشرك الأصغر في الخوف: كأن يترك المسلم الإنكار مهابة الناس وخشيتهم أو يفعل المنكر خوفاً منهم من غير أن يوجد الإكراه الحقيقي .

م (٧) : ضابط الخوف الشركي : هو أن يخاف من المخلوق أن يوقع به شيئاً لا يقدر عليه إلا الله، أو يخاف سرا من المخلوق أكثر من خوفه من الله .

م (٨) : شرك الخوف متعلق بالألوهية وقد يدخل في الربوبية ويستلزمه:

ووجه ذلك أن الخوف عبادة لأن الله أمر به وأحبه وأثاب فاعله، فهو متعلق بأفعال العباد وتألههم، عليه فمن صرفه لغير الله كان مشركاً في ألوهيته لا في ربوبيته، ولكن قد يتعلق في قلب الخائف من المخلوق أن المخاف منه يقدر على كل شيء ويتصرف في الخلق بما يشاء فيقع في الشرك في الربوبية من هذا الوجه وليس من أجل الخوف من غير الله وإنما من أجل اعتقاد الربوبية في المخلوق، ومثل ذلك شرك المحبة وشرك الرجاء وشرك الدعاء والرجاء والخشوع، وكل عبادة هي في أصلها متعلقة بالألوهية وقد تدخل في الشرك في الربوبية من جهة ما يقارنها ويلازمها ويخالطها من اعتقاد الربوبية في المخلوق لا أن حصول شرك الربوبية في ذاتها ومضمونها.

م (٩) : أحكام الخوف من المخلوق وأقسامه:

١- الخوف الجائز : ويكون في الأمور الظاهرة والأسباب العادية.

٢- الشرك الأصغر المحرم : وهو الخوف من المخلوق في كل شيء ، كذلك أن يخاف من المخلوق فيترك فعل الواجب والإنكار خوفا منه .

٣- الشرك الأكبر : وهو أن يخاف المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله .

فتأمل هذه القاعدة فهي نافعة في الفرق بين شرك الألوهية وشرك الربوبية .

م (١٠) : درجات الخوف التعبدي :

١- مطلق الخوف وأصله : وهذا ركن في الدين يجب الإتيان به وتاركه كافر .

٢- الخوف الواجب : وهو أن يخاف عقوبة الله على تقصيره وما اقترفه، وأن يحمله خوفه من الله على التوبة وترك المعاصي.

٣- الخوف المطلق الكامل: وهذا من مكملات الدين والناس متفاوتون فيه كسابقه، وهذا القسم مستحب، وهو يبلغ بالكمال إلى أن يراقب الله في كل أموره ويترك المشتبهات ويتورع ويقطع خوفه من المخلوقين.

م (١١) : ترك الخوف مطلقاً من الكفر بالله ونواقض الإسلام :

الخوف عبادة لله يجب أن تصرف له، والذي لا يوجد عنده مطلق الخوف وأصله وجنسه، أي أنه لا يخاف من الله بالكلية ولا يخشى عقابه مطلقاً، فهذا كافر والعياذ بالله، وهذا بخلاف من قصّر في الخوف من الله وأمن الله ورجاه لكمال رحمته وأفرط على نفسه حتى أَمِن من عقابه، فهو وإن كان لم يأت بالخوف الواجب فضلا عن المطلق والكامل إلا أنه يوجد عنده أصل الخوف، وهو مع هذا عاصٍ في فعله متوعد بالعقوبة، وفي الأثر (من أمنني في الدنيا خوفته في الآخرة) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين وأبو نعيم في الحلية عن شداد بن أوس.

م (١٢) : تعلقات الخوف :الخوف من الله تعالى ومن صفاته فيخاف من غضب الله وسخطه وعقوبته ،والخوف من مفعولاته وآثار غضبه كالخوف من النار.

م (١٣) : لماذا يجب الخوف من الله : لأمرين ، وكل أمر متعلق بجانب :

الأول : متعلق بالمخلوق : وذلك لحصول التقصير من العبد في حق الله، وهذا التقصير قد يستوجب العقوبة من الله، لذلك يجب أن نخاف .

الثاني : متعلق بالرب : وذلك لعظمة الله وكماله وقوته وشدة عذابه وأخذه .

م (١٤) : علاقة الخوف ببقية العبادات :

للخوف علاقة بالذل والخضوع والطاعة واللجوء والرغبة والرهبة والرجاء والاستغاثة والإنابة وغيرها، ولذلك من وقع في شرك الخوف لابد وأن يصاحب شرك الخوف شرك الطاعة غالباً للخائف منه أو شرك الدعاء والاستغاثة به ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ الجن: ٦ أي خوفاً وكفراً ، فهم لمّا خافوهم دعوهم واستغاثوا بهم، كذلك يعبد الخائف شريكه ومعبوده بعبادة الخضوع والانكسار والخشوع والذل واللجوء والرغبة والرجاء فيشرك الخائف غير الله في كل هذه العبادات غالباً ويصرفها لغير الله تبعا للخوف .

م (١٥) : علاقة الخوف بالرجاء :

ينبغي للمؤمن أن يجمع في قلبه بين عبادة الخوف من الله وعقابه، وعبادة الرجاء فيرجو الله ويرجو ثوابه، ويتقلب بينهما، فبالخوف يكف عن المحارم، وبالرجاء يقبل على الطاعات .

فلا يطغى الخوف على الرجاء حتى لا يصاب باليأس من رحمة الله .

ولا يطغى الرجاء على الخوف فيصاب بالأمن من مكر الله، إلا عند اقتراب الموت فإنه مما ينبغي له أن يغلب جانب الرجاء ويحسن ظنه بربه .

أدلة اجتماع عبادة الخوف والرجاء: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ الأنبياء: ٩٠ ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ الإسراء: ٥٧ ﴿ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ الزمر: ٩ ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ الأعراف: ٥٦ ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ السجدة: ١٦ .

م (١٦) : ما يقابل الخوف : يقابل الخوف الأمن.

وأما الرجاء فحاله تخالط الخوف ولا تعارضه أو تناقضه .

م (١٧) : الغلو في الخوف من الله :

الغلو في الخوف قد يؤدي بالعبد إلى اليأس من روح الله والقنوط من رحمته .

م (١٨) : علاقة الخوف باليأس والقنوط :

مما يحرم على المؤمن العابد الخائف من ربه والراجي له القنوط من رحمة الله.

م (١٩) : العلاقة بين الإكراه والخوف :

ظن بعض المتأثرين بالإرجاء أن الخوف من الأعداء والمشركين يجوّز موالاتهم ويبيح مظاهرتهم على المسلمين ويسقط فريضة الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واستدلوا بآية الإكراه والتقية والحق أن الإكراه غير الخوف .

فالإكراه صورته أن يقع في يد العدو ويغلب على ظنه أنه سينكل به وهو لا يقدر على جهادهم لكونه تحت قهرهم وسلطانهم فيجوز له أن يجاملهم ويترك إظهار معاداتهم والإنكار عليهم لا أن يناصرهم على المسلمين فهذا لا يجوز بحال إنما الذي رخص لنا هو التلفظ وإظهار الموافقة .

م (٢٠) : آثار الخوف من الله ولوازمه :

مهابة الله والإشفاق من عذابه والحذر من غضبه ومراقبة الله وترك عصيانه والإقبال على طاعته والوجل من عدم قبول الطاعة ، فالحذر والمهابة والإشفاق ليست عين الخوف وذاته ونفسه وإنما من آثاره ، ومن ادعى الخوف مع ركوب المحارم وعدم الإقلاع فخوفه مجرد دعوى كاذبة.

م (٢١) : الفرق المخالفة فيه :

١- الوعدية من المرجئة والصوفية : الذين لا يأتون بالخوف كما يجب .

٢- الوعيدية من الخوارج : ممن يغلب جانب الخوف على الرجاء .

٣- القانطون من رحمة الله اليائسون منه : لغلوهم في الخوف من الله.

٤- الآمنون من مكر الله : لعدم خوفهم من الله تعالى .

م (٢٢) : صور الشرك في الخوف والطوائف الواقعة فيه :

وقع في شرك الخوف :

عبّاد الأصنام والأوثان، والقبورية عباد القبور، والصوفية عباد الأولياء، والرافضة عباد آل البيت .

السحرة عباد الشياطين .

المنافقون العلمانيون والليبراليون المستغربون من عباد الغرب والصليبيين .

العوام في خوفهم من الجن والشياطين وخوفهم من السحرة أو السلاطين .

عباد الدنيا والهوى في خوفهم من الطواغيت والكفار فتولوهم ولم يعادوهم.

باب التوكل (٣٣)

قول الله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

اسم الباب : شرك التوكل

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه :

عبادة التوكل ووجوب إفراد الله به وكفر من أشرك فيه وصرفه لغير الله .

مكانه ونوعه: يعد من الأبواب المبينة للشرك الأكبر في العبادات.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن التوكل على غير الله ينافي التوحيد من أصله أو يقدح في كماله .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله: ساقه بعد باب الخوف لأنهما من العبادات القلبية والتي يجب أن يأتي بها العبد وصرفها للمخلوق يعتبر من الشرك .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب :

يعتبر من أبواب العبادات القلبية . وفيه مشابهة للأبواب المتعلقة بشرك العبادات البدنية والقولية الباب العاشر الذبح وما بعده .

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد المصنف خمسة أدلة سنوردها مع غيرها في المسائل.

الوقفة الخامسة : المسائل العقدية في الباب :

تنبيه : يتعلق بباب التوكل مبحث الأسباب وقد ذكرتها في باب التمائم.

عبادة : التوكل

م (١) : تعريف التوكل وحقيقته :

التوكل هو الاعتماد والالتجاء والاستكفاء والوثوق .

والتوكل على الله يكون بالاعتماد على الله تعالى وتفويض الأمر إليه، وعدم الالتفات لغيره ولا اللجوء لأحد سواه، والاستغناء به تعالى عن غيره في قضاء الحوائج، والثقة به، والاستعانة به، والاستسلام له، والتعلق به، والطمأنينة به، والسكون إليه، والرضا بقضائه، وقطع علائق القلب بغير الله .

م (٢) : أسماء التوكل والألفاظ المقاربة له في المعنى :

الحسب : ودليله قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ﴾ الأنفال: ٦٤.

والتحسب من معاني التوكل، ﴿ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ والمعنى أكتفي بالله وأتوكل عليه. ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ والمعنى فهو كافيه.

فالمتوكل على الله يكفيه كل شيء وهو حسيبه.

الاستكفاء: ودليله قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ الزمر: ٣٦.

التفويض : ودليله قوله تعالى: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ غافر: ٤٤.

والفرق بين التوكل والتفويض :

أن التوكل يكون بعد وقوع السبب، والتفويض يكون قبله وبعده فهو أوسع.

وقيل : التوكل ثلاث درجات : التوكل ثم التسليم ثم التفويض .

الاعتماد : وهو من معاني التوكل .

التسليم والثقة : وهما من آثار التوكل .

م (٣) : مكانة التوكل ومنزلته من الإيمان والدين والعبادة :

التوكل عبادة تقوم عليه كثير من العبادات، والتوكل من أعلى درجات العبودية ، وبه يحصّل المسلم كثيرا من أصناف العبادة كالخضوع والذل والمحبة والرغبة واللجوء والاطمئنان والإخبات والثقة بالله والسكون إليه .

ولا يتحقق وجود التوكل إلا في خواص الموحدين، والمخلصين الكمّل .

م (٤) : مكان التوكل ومحله :

التوكل من أعمال القلوب وهو الصحيح ، بينما جعله البعض من أقوال القلب الداخلة في المعرفة والعلم والإدراك والصدق . وتتعلق لوازمه وآثاره بالجوارح .

م (٥) : وجه كون التوكل عبادة يجب التوحيد فيها:

لأن الله تعالى أمر بالتوكل قال تعالى : ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ ﴾ هود: ١٢٣.

بل وجعل حصوله شرطا لصحة الإيمان كما نصت الآية : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ المائدة: ٢٣، فمفهوم الآية أن من لم يتوكل على الله ليس بمؤمن وأن من لم يوحد الله في توكله فليس بمؤمن.كما أثنى عليه وأحب أهله المتصفين به ووعدهم بالثواب، لذلك كان التوكل عبادة يجب صرفها لله ومن الشرك أن تصرف لغيره .

م (٦) : توحيد التوكل : قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ ﴾ هذه الجملة من أساليب الحصر الدالة على التوحيد، ومعناها توكلوا على الله ووحدوه بالتوكل ولا تتوكلوا على غيره ، وهذا يوجب على العبد توحيد التوكل لله ، وتأمل كيف أعقب كلمة التوحيد بتوحيد التوكل وهو من التأكيد وباب عطف الخاص على العام،﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ ﴾التوبة: ١٢٩﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ التغابن: ١٣.

م (٧) : أدلة التوكل :

قال تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ المائدة: ٢٣.

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ التغابن: ١٣.

قال تعالى : ﴿ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ التوبة: ١٢٩ .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ الطلاق: ٣.

قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ العنكبوت: ٥٩ .

قال تعالى : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ هود: ١٢٣.

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الأنفال: ٢ .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأنفال: ٦٤ .

قال النبي ﷺ : (لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خِماصا وتروح بِطانا) رواه أحمد وابن ماجة .

(من سره أن يكون أقوى الناس إيمانا فليتوكل على الله)رواه الحاكم وأبو يعلى.

قال ابن عباس: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ آل عمران: ١٧٣ . رواه البخاري.

م (٨) : الجمع بين العبادة والتوكل :

جمع الله سبحانه بين العبادة والتوكل في مواضع كثيرة .

قال تعالى : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ هود: ١٢٣ .

﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ الممتحنة: ٤ والإنابة من العبادة .

﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ مريم: ٦٥.

﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ والصبر من العبادة.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة: ٥ والاستعانة على العبادة من معاني التوكل .

م (٩) : أقسام التوكل :

١- التوكل التعبدي الألوهي : وهو التوكل على الله في جميع الأمور وتفويض الأمر إليه والاعتماد عليه وخشيته والطمع فيما عنده ورجاؤه .

٢- التوكل الشركي وهو تفويض الأمر للمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله والاعتماد على المخلوق في كل شيء أو الالتجاء للأموات وغيرهم في دفع الضر .

٣- التوكل المحرم : وهو التوكل على المخلوق فيما يقدر عليه والالتجاء إليه والاعتماد عليه والالتفات للأسباب والارتياح لها والاعتماد والاتكال عليها .

ومن أمثلته : الاعتماد على المخلوق في معاشه، كالاعتماد على الوظيفة وعبادتها من دون الله واعتقاد أن الرزق والفضل منها وأن تركها ذهاب للرزق، ومثل ذلك الاعتماد على الدواء في العلاج والشفاء والالتجاء إليه، ومثل ذلك الخوف من العدو وعدم القيام بجهاد الكفار وخشية بأسهم، وهذا كله من الشرك الأصغر والخفي.

٤- التوكل الطبيعي الجائز : وهو إنابة المخلوق في فعل أمر معين كالبيع والصدقة، وهذا ما يسميه الفقهاء بالوكيل الشرعي ويبحث في باب الوكالة .

م (١٠) : علاقته التوكل بالتوحيد ودخوله في توحيد الربوبية والألوهية :

أما دخول التوكل في الألوهية فلأن التوكل التجاء من العبد لربه وخضوع له وتعلق به وهذا هو التأله والعبادة .

وأما علاقته ودخوله في توحيد الربوبية فهو من باب الاستلزام لأن المتوكل أقر واعتقد بأن ربه هو الوكيل والحسيب والكافي والمتصرف المدبر وحده والقادر على كل شيء والنافع الضار، وكل هذه من معاني الربوبية ، فالمتوكل وحّد ربه في ربوبيته ولم يشرك معه أحدا. كما أن التوكل فيه اعتراف بكثير من أسماء الله وأفعاله وصفاته من القدرة والرحمة والرزق.

م (١١) : درجات التوكل :

١- مطلق التوكل وأصله : وهذا ركن في الدين يجب الإتيان به وتاركه كافر ليس بمسلم . وترك التوكل بالكلية كفر مخرج من الملة .

٢- التوكل الواجب : وفاقد هذا يعتبر من عصاة الموحدين، فإذا تعلق الإنسان بالأسباب واعتمد عليها بالكلية وأعرض عن ربه، كان تاركا الواجب .

٣- التوكل المطلق الكامل: وهذا من مكملات الدين والناس متفاوتون فيه كسابقه، وهذا القسم مستحب، وهو يبلغ بالكمال إلى أن يتوكل العبد على ربه في كل شيء حتى لا يرجو ولا يخاف أحداً لكمال توكله ولجوئه لربه ويقطع علائقه بغير الله.

م (١٢) : تارك التوكل على الله بالكلية كافر :

قال تعالى :﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ المائدة: ٢٣، فمفهوم الآية أن من لم يتوكل على الله ليس بمؤمن وهي مثل عبادة الخوف والرجاء تاركها بالكلية كافر .

م (١٣) : أحكام التوكل على المخلوق وأقسامه :

١- التوكل الشركي الأصغر : وهو التعلق بالمخلوق في الأمور الظاهرة والأسباب العادية كمن يتوكل على السلطان فيما جعله الله بيده من الرزق أو دفع الأذى، أو يعتمد على الوظيفة أو الواسطة في تحصيل مراده والاعتماد على الأسباب في كل شيء من دون التفات لربه وتوكل عليه .

٢- التوكل الشركي الأكبر : وهو أن يتوكل على المخلوق بالكلية ولا يتوكل على الله مطلقا، أو يتوكل على المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مصالحهم من النصر والحفظ والرزق والشفاعة .

٣- الجائز:هو ما ليس قائماً على الاعتماد القلبي،كالتوكيل وفعل ما يقدر عليه.

م (١٤): ضابط التوكل الشركي :

١- أن يتوكل على المخلوق بالكلية ويلتفت إليه ويتعلق به مطلقا ، وغالباً ما يقارن توكله على المخلوق الذل له والخشوع والخضوع واللجوء إليه ، وفي المقابل يعرض عن الله فلا يتوكل عليه في شيء مطلقا .

٢- أن يتوكل على المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله وهذا شرك أكبر .

م (١٥) : صور الشرك في التوكل :

يوجد هذا الشرك عند من يدعو غير الله ويرفع له حوائجه ويطلبه قضاءها، فمن يدعو الأولياء والأموات هو في الحقيقة مفوض أمره إليهم ومتوكل عليهم ومسلم حاله لهم ومعتقد أن بيدهم قضاء حاجاته ونفعه وإلا لما قام بدعائهم.

والقاعدة أن الشرك في الألوهية متداخل متلازم مترابط متضمن لبعضه .

م (١٦) : لماذا يجب التوكل على الله : لأمرين:

الأول: متعلق بالرب : وذلك لكونه العالم بكل شيء والأمور مرجعها إليه وتدبير الخلق مرده له وهو القادر على الضر والنفع الخير وليس غافلا عن خلقه.

وقد جاءت هذه العلة في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ هود: ١٢٣.

الثاني: بالمخلوق : وذلك لضعفه وحاجته لربه في تحصيل النفع ودفع الضر .

م (١٧): ما يضاد التوكل والقوادح فيه :

- التعلق بالأسباب والاعتماد عليها والالتفات لها والمبالغة في الاطمئنان لها.
- التطير والتشاؤم، فكل متطير متشائم قد وقع في قوادح التوكل.
- تعليق التمائم والحجب ولبس الخيط والحلقة .
- الإسترقاء وهو طلب الرقية والسعي لتحصيلها ، ويدخل في ذلك المبالغة في السعي لطلب الدواء واللهث خلف الأطباء والإعراض عن التعلق بالله .
- الذهاب للسحرة والكهان والعرافين والمنجمين .
- التبرك بذوات الصالحين وآثارهم والتبرك بالقبور والأشجار والأحجار .
- دعاء غير الله وسؤال المخلوقين والاستغاثة بهم .
- المبالغة في سؤال الناس والإلحاح عليهم وإنزال الحاجات بهم وخشيتهم والطمع بما في أيديهم والحرص على رضاهم ورفع الحاجات إليهم واللجوء لهم.
- سوء الظن بالله وعدم إحسان الظن به والثقة به وبوعده وترك رجائه .

م (١٨): **تعلقات التوكل:** التوكل لا يكون إلا على الله كالدعاء لا يكون للصفات فلا تدعى صفاته ولايتوكل عليها،خلافا للخوف والرجاء فترجى صفاته.

م (١٩) :**لا يوجد غلو في التوكل كما يكون في الخوف وإنما تدرج في الكمال.**

فلا يقال الغلو في التوكل يؤدي إلى ترك الأخذ بالأسباب مثلاً كما يقال في الخوف الغلو فيه يؤدي إلى القنوط من رحمة الله .

م (٢٠) : **الأخذ بالأسباب الشرعية لا ينافي التوكل :**

الأخذ بالأسباب الشرعية والعرفية مثل الاستشفاء بالقرآن وبالعسل وبالدواء والاستعداد للسفر، وحفظ المال من السرقة بالإحراز، ونحو ذلك كله من التوكل وترك ذلك من التواكل والعجز وليس من التوكل في شيء.

أما الأسباب الشركية البدعية التي لم يجعلها الله ولا رسوله من الأسباب فهي من الشرك، مثل تعليق التمائم والصلاة عند القبور ونحو ذلك من وسائل الشرك .

م (٢١) : **الفرق بين التوكل والتواكل:**

التوكل الاعتماد على الله وتفويض الأمر عليه مع الأخذ بالأسباب من دون تعلق واعتماد عليها. والتواكل والاتكال هو ترك الأخذ بالأسباب والعمل بها .

قال العلماء الأخذ بالأسباب من الدين .وترك العمل بها من ضعف العقل.

الاعتماد على السبب بالكلية والتوكل عليها والمبالغة في اللجوء لها من الشرك.

وفي الحديث الصحيح قال الرسول ﷺ : (اعقلها وتوكل) رواه الترمذي.

وقال عمر لليمنيين الذين حجوا بلا متاع توكلا فقال لهم:(بل أنتم المتكلون)أخرجه ابن أبي الدنيا .

م (٢٢) : مفاسد سؤال الناس والاتكال عليهم : الافتقار لغير الله وهذا من الشرك، إيذاء المسؤول وهذا من ظلم الخلق، الذلة لغير الله وهذا من ظلم النفس .

م (٢٣) : التوكل الحقيقي يقوم على ترك سؤال الناس مطلقا وعدم طلبهم:

وقد ورد النهي عن كثرة السؤال، والمنع من سؤال المخلوقين ما يقدرون عليه سدا لذريعة سؤالهم مالا يقدرون عليه ولكي لا يتعلق العبد بغير ربه أو يرجوه، وقد جاء في الحديث :" وكره لكم ثلاث ... وكثرة السؤال " متفق عليه.

عن ابن عباس في الترمذي:(إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله).

وحديث ترك الاسترقاء، وكره حذيفة وابن مسعود أن يطلب منهم الدعاء .

ومن تأمل هديه ﷺ ومبايعته لصحابته على أن لا يسألوا الناس شيئا، حتى إن أحدهم إذا سقط سوطه لم يطلبه من أحد علم حرصه ﷺ على تحقيق التوحيد في أمته.

م (٢٤) : شروط صحة التوكل :للتوكل شروط ودرجات فهو مركب من أمور لا يتم إلا بها وهي : معرفة الرب بصفاته، وإثبات الأسباب والمسببات، ورسوخ القلب في مقام التوحيد، واعتماد القلب على الله واستناده إليه وسكونه له، وحسن الظن به ﷻ، واستسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطع منازعاته، والتفويض، والرضا وهو ثمرة التوكل . ذكرها ابن القيم في المدارج .

م (٢٥) : آثار التوكل ولوازمه وفوائده:

١- الاعتماد على الله . ٣- عدم الخوف من الخلق ولا رجائهم ولا التعلق بهم.

٢- القناعة وترك الطمع فيما بأيدي الناس .

٤- الإيمان بقضاء الله وقدره . ٥- راحة البال وسكينة القلب .

باب الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله (٣٤)

قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾.

وقوله: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾

اسم الباب : الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : تحريم الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله.

مكانه ونوعه: يعد من الأبواب المحققة للعبادات القلبية ومايترتب على تركها.

كما أنه يدخل في أبواب وسائل الشرك والشرك الأصغر.

الوقفة الثانية: علاقته بالتوحيد وسبب إيراده: أن الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله يقدحان في التوحيد، لما فيهما من ترك التعبد لله بالخوف والرجاء كما أن فيهما سوء ظنٍ بالله وتنقيصا له وعدم تقديره وتعظيمه وهذا بسبب الجهل بصفاته.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله: ساقه بعد باب وجوب الخوف من الله والتوكل لأنه يعتبر ضدهما وهو ترك الخوف من الله والتوكل عليه وترك رجائه .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب : يعتبر من أبواب العبادات القلبية .

ويشابه أبواب وسائل التوحيد وتعظيمه والشرك الأصغر وباب الظن بالله.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد المصنف أربعة أدلة سنوردها مع غيرها في المسائل.

الوقفة الخامسة : المسائل العقدية في الباب :

الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله

المسألة الأولى: تعريفهما :

أولا: الأمن : هو طمأنينة القلب وعدم الخوف .

ثانيا : اليأس والقنوط : قطع الأمل وعدم الرجاء . واليأس أشد من القنوط .

وقيل اليأس استبعاد زوال المكروه والقنوط استبعاد حصول المطلوب .

الثانية : الأمن واليأس ضدان .

الثالثة: تعلقات اليأس والأمن :

أولا : تعلقات اليأس : يتعلق بالرحمة وروح الله ، ويتعلق بعدم رجائه.

وروح الله رحمته وترويحه وتفريجه .

ثانيا: تعلقات الأمن : يتعلق بمكر الله ، ويتعلق بعدم خوفه .

مكر الله : هو استدراج الله عباده العصاة وعقوبتهم من حيث لا يشعرون .

الرابعة أدلتها : أولاً : دليل اليأس والقنوط :

قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ يوسف: ٨٧.

وقال : ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ الحجر: ٥٦ .

وقال : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ الزمر: ٥٣.

ثانياً : دليل الأمن :قال ﷻ: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ النحل: ٤٥ ، ثم ذكر عبادة الخوف بعد آيات الأمن.

وقال ﷻ: ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ الأعراف: ٩٩.

وقال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ يوسف: ١٠٧ .

وهناك أدلة جمعت بين الأمن واليأس معا :

قال تعالى :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ يونس: ٧-٨ .

حديث ابن عباس يرفعه : الكبائر:(الشرك بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله) رواه البزار وابن أبي حاتم في تفسير.

ونحوه أثر ابن مسعود عند عبد الرازق وزاد: والقنوط من رحمة الله.

الخامسة: ما يضاد الرجاء :

يضاد الرجاء القنوط واليأس، ويقابل الرجاء اليأس والقنوط ، فإذا كان رجاء الله عبادة واجبة يأثم تاركها،فإن ضدها الذي هو اليأس من رحمة الله يعتبر أمراً محرماً وقد يكون كفرا عند مقارنته ترك الرجاء بالكلية، لذلك لا يجوز اليأس من رحمة الله.

السادسة: ما يقابل الخوف ويضاده :

يقابل الخوف الأمن، فإذا كان الخوف من الله عبادة واجبة يأثم تاركها، فإن ضدها الذي هو الأمن من مكر الله يعتبر أمراً محرماً، بل وقد يكون كفرا عند مقارنته ترك الخوف بالكلية، لذلك لا يجوز الأمن من مكر الله وعقابه سبحانه .

وأما الرجاء فحالة تخالط الخوف ولا تعارضه أو تناقضه .

قال المقدسي في منهاج القاصدين : (الخوف ليس ضد الرجاء بل رفيق له) .

السابعة: الغلو في الرجاء يسبب الأمن من مكر الله :

إذا غلا العبد في الرجاء مع إقامته على المعصية ويصر عليها ودون أن يعمل صالحاً ويكف عن حرام، فقد وقع في الأمن فيصير آمنا من مكر الله وعذابه .

الثامنة: الغلو في الخوف يسبب اليأس من رحمة الله :

إذا غلا العبد في الخوف ولم يرج رحمة الله ، فقد يقع في القنوط واليأس ويصير يائسا من رحمة الله قانطا من كرمه .

التاسعة: العبادة التي افتقدها القانط والآمن :

القانط ترك عبادة الرجاء : فهو لم يعبد الله بالرجاء .

والآمن ترك عبادة الخوف : فهو لم يعبد الله بالخوف منه .

العاشرة: حكم اليأس والأمن :

الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله واليأس من روحه، ينافيان التوحيد.

ويتدرج صاحبهما بين القدح في أصل التوحيد والوقوع في الكفر والشرك الأكبر، أو نقص كماله والوقوع في الشرك الأصغر والمعصية.

الآمن واليائس دائر بين الكفر والعصيان بين القدح في أصل التوحيد وكماله.

اليأس والقنوط يكون كفرا وضلالا، وهو متعلق بأمور الدين وأمور الدنيا .

ويكون باستبعاد حصول المراد كما في قصة يعقوب ونهيه عن اليأس من لقاء ابنه وإبراهيم في عدم قنوطه من الولد.

الحادية عشرة: ترك الخوف أو الرجاء مطلقاً من الكفر ومن نواقض الإسلام :

الخوف عبادة لله يجب أن تصرف له، والذي لا يوجد عنده مطلق الخوف وأصله وجنسه، أي أنه لا يخاف من الله بالكلية ولا يخشى عقابه مطلقاً، فهذا كافر والعياذ بالله، وهذا بخلاف من قصّر في الخوف من الله وأمن الله ورجاه لكمال رحمته وأفرط على نفسه حتى أمِن من عقابه، فهو وإن كان لم يأت بالخوف الواجب فضلا

عن المطلق والكامل إلا أنه يوجد عنده أصل الخوف، وهو مع هذا عاصٍ في فعله متوعد بالعقوبة، وفي الأثر (من أمنني في الدنيا خوفته في الآخرة) أخرجه أبو نعيم.

وكذا الرجاء عبادة لله يجب أن تصرف له، والذي لا يوجد عنده مطلق الرجاء وأصله وجنسه، أي أنه لا يرجو الله بالكلية ولا يرغب إليه ولا يطمع في ثوابه مطلقاً، فهذا كافر والعياذ بالله، وهذا بخلاف من قصّر في الرجاء من الله لكثرة ذنوبه، إلا أنه يوجد عنده أصل الرجاء، فهو عاصٍ في فعله متوعد بالعقوبة .

الثانية عشرة: وجوب الجمع بين الخوف والرجاء :

ينبغي للمؤمن أن يجمع بين عبادة الخوف وعبادة الرجاء ولا يغلب أحدهما .

وقد أمر الله ﷻ بالجمع بين الخوف منه ورجائه وأثنى على من جمع بينهما في مواضع من كتابه ، قال تعالى : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ الإسراء: ٥٧ ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ الأنبياء: ٩٠ ﴿ يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ الزمر: ٩ ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ الأعراف: ٥٦ ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ السجدة: ١٦ .

قال الإمام أحمد : (ينبغي للمؤمن أن يكون خوفه ورجاؤه واحدا، فأيهما غلب هلك صاحبه) الآداب لابن مفلح .

قال ابن تيمية : (الخشية متضمنة للرجاء ، ولولا ذلك لكانت قنوطا ، كما أن الرجاء يستلزم الخوف ، ولولا ذلك لكان أمنا) الفتاوى ٧/ ٢١.

قال الطحاوي في عقيدته : (والأمن واليأس ينقلان عن ملة الإسلام) .

الثالثة عشرة: أسباب الأمن واليأس :

١- الجهل بالله وبصفاته وأنه شديد العقاب وهو أيضا غفور رحيم .

٢- عدم القيام بالعبادة الواجبة من الخوف والرجاء ، وترك الجمع بينهما.

٣- عدم تعظيم الله وتقديره حق قدره وسوء الظن به.

٤- الإعراض عن الدين والغفلة عن حقوق الله تعالى.

٥- العجب بالنفس والغرور في الأمن ، وكثرة الذنوب في اليأس.

الرابعة عشرة: علة كون القنوط من الشرك ووجه منافاته للتوحيد :

١- أن القانط شبّه الرب الرحيم بالمخلوق الذي لا يرحم .

٢- أن القانط قدح في رحمة الله وكرمه وعفوه وطعن في قدرته .

٣- أن القانط اليائس لم يأت بعبادة الرجاء الواجبة التي قد يكفر تاركها.

٤- أن القانط أساء ظنه بربه ، وقدح في كمال صفاته.

الخامسة عشرة: علة كون الأمن من الشرك ووجه منافاته للتوحيد :

١- أن الآمن شبّه الرب الرحيم بالمخلوق الذي لا يخاف .

٢- أن الآمن قدح في عظمة الله وأساء ظنه بربه وقدح في كمال صفاته.

٣- أن الآمن لم يأت بعبادة الخوف الواجبة والتي قد يكفر تاركها.

٤- أن الآمن استخف بربه وشك في كونه شديد العقاب.

السادسة عشرة : علاقة الأمن والقنوط بالوعيدية والوعدية :

الوعيدية من خوارج وغيرهم : يغلبون الخوف وعندهم اليأس .

الوعدية من المرجئة وغيرهم : يغلبون الرجاء وعندهم الأمن .

تنبيه : لم يذكر المصنف عبادة الرجاء واقتصر على الخوف مع أن هذا الباب متعلق بالعبادتين معا ، وتقدم الكلام عن الخوف وهنا سنفرد الرجاء بالمبحث التالي.

مبحث : عبادة الرجاء

المسالة الأولى : أدلته :

قال تعالى : ﴿ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾ الأحزاب: ٢١.

وقال: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ الكهف: ١١٠.

وذم الله من لا يرجوه وتوعده بالنار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ يونس: ٧ .

وأمر الله ﷻ أن يوحد في الرغبة والرجاء في قوله: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ الشرح: ٨ .

وأثنى الله تعالى على من جمع بين الخوف منه ورجائه، وأمر بالجمع بينهما في مواضع من كتابه: ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ الإسراء: ٥٧.

تنبيه : عبادة الطمع داخلة في الرغبة والرجاء وحسن الظن بالله ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ الشعراء: ٨٢ .

ويكون الطمع متعلقا بدخول الجنة ومغفرة الذنوب .

الثانية : أسماء الرجاء والألفاظ المقاربة له في المعنى :

الرغبة والأمل والتوقع والأمنية والبُغْية والطمع وحسن الظن .

الثالثة : الرجاء عبادة :

الرجاء عبادة أمر الله بها وحث عليها وأثنى على من يتصف بها وذم تاركها وتوعده بالنار، فهي عبادة يحبها الله ويجب أن لا تصرف إلا له فلا يرجى غيره .

الرابعة : تعلقات الرجاء :

رجاء الله تعالى . رجاء صفاته رحمته ولطفه وكرمه. رجاء ثوابه. رجاء لقائه . واليوم الآخر. فالرجاء متعلق بهذه الأحوال والصفات ، وقد جاءت النصوص بها.

الخامسة : شروط اعتبار الرجاء عبادة :

١- محبة ما يرجوه وتعلقه به

٢- الخوف من فوات ما يرجو والحذر من عدم تحققه .

٣- سعيه في تحصيل المرجو .

٤- تعظيم المرجو منه والذل له .

فإذا تخلف أحد هذه الشروط صار أمنية وليس رجاء تعبدياً .

ذكر ذلك ابن القيم في الجواب الكافي ٤٢ .

السادسة : تارك الرجاء :

من لا يرجو الله بالكلية فهو كافر خارج عن الملة ، والدليل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ يونس: ٧-٨ .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ يوسف: ٨٧.

أما من كان عنده أصل الرجاء ولكن قصّر فيه فهو موحد عاصي .

السابعة : درجات الرجاء :

١- مطلق الرجاء وأصله : وهذا ركن في الدين يجب الإتيان به وتاركه كافر .

٢- الرجاء الواجب : وهو أن يرجو رحمة الله في الآخرة وثوابه وأن يغفر له ويرحمه ويدخله جناته ويُجِره من عذابه وغضبه ويرجو كل ما لا يقدر عليه، وفاقد هذا يعتبر من عصاة الموحدين، فإذا توكل الإنسان على عمله ولم يرج رحمة الله ويطمع في فضله واغتر بعمله، كان تاركا للرجاء الواجب .

٣- الرجاء المطلق الكامل: وهذا من مكملات الدين والناس متفاوتون فيه وهو يبلغ بالكمال إلى أن يرجو العبد ربه كل شيء حتى لا يرجو أحداً مطلقاً لكمال توكله ولشدة لجوئه إلى ربه ، ويقطع علائقه بغير الله نسأل الله من فضله.

وفي الدعاء:اللهم إن رحمتك أرجى عندي من عملي وعفوك أوسع من ذنوبي.

الثامنة : أقسام الرجاء :

١- الرجاء التعبدي التألهي : وهو أن يرجو العبد الله وحده، ويرجو رحمته وثوابه ويتعلق بربه، ويدعوه رهبة منه ورغبة فيما عنده ورجاء فيه . وله درجات .

٢- الرجاء الشركي (السر): وهو أن يرجو المخلوق في تحصيل ما لا يقدر عليه إلا الله، كأن يرجو مخلوقاً أن يشفع له عند الله أو أن يغفر له. وغالباً ما يقارن الرجاء الشركي الذل للمخلوق والخضوع له واللجوء والانكسار والرغبة إليه .

٣- الرجاء الطبيعي الجائز : وذلك أن يرجو من المخلوق فعْل ما يقدر عليه، كأن يرجو أن يوفق الطبيب في علاجه، ومع ذلك فترك رجائه أكمل توحيداً .

٤- الرجاء المحرم وله صور :

- يرجو الله أمراً لا يليق، كرجاء أن يجعله في مرتبة الرسل أو ييسر له المحرم.
- أن يتعلق قلبه بالمخلوقين مطلقاً في كل أموره وينصرف عن الله ورجائه.
- أن يرجو ثواب الله وجنته من غير أن يعد لذلك عملا صالحا ، مع إسرافه .

التاسعة : تعلقات الرجاء بأمور الآخرة والدنيا :

١- الرجاء يتعلق بأمور الدين والآخرة من غفران الذنب ودخول الجنة .

٢- يتعلق الرجاء بأمر الدنيا فيرجو الله أن يرزقه ويعافيه ويصلح حاله.

العاشرة : ما يضاد الرجاء : يضاد الرجاء القنوط واليأس .

الحادية عشرة : الغلو في الرجاء دون أن يعمل يسبب الأمن من مكر الله .

وتقدم الكلام عن القنوط والأمن.وعلة كونها من الشرك ومنافاتها للتوحيد .

الثانية عشرة : وجوب الجمع بين الخوف والرجاء وتقدم .

الثالثة عشرة: ارتباط الرجاء بالعبادات :

الرجاء يقترن غالباً بالتوكل على الله والطمع في رحمته والرغبة إليه واللجوء له والخشوع والخضوع والإقبال والانكسار والذل والدعاء والخوف والحذر من فوات ما يرجوه، ولذلك كان من يرجو غير الله من المخلوقين عابداً له لكونه خاضعاً له متذللاً له راغباً إليه مقبلاً عليه، وهذا هو الحال الأغلب للراجي الذي ترجى غيره .

فيكون الراجي بهذا الترجي التعبدي اتخذ المخلوق الذي يرجوه إلهاً من دون الله، فإن كانت هذه الحاجة التي يرغب فيها لا يقدر عليها إلا الله كان ذلك من الشرك الأكبر، وإلا كان من الشرك الأصغر، وإذا كان من الأمور الظاهرة والأسباب العادية فليس من الشرك وإن كان تركه أولى .

الرابعة عشرة : آثار الرجاء ولوازمه :

١- الإقبال على الله والرغبة إليه والخضوع والتذلل له والتوكل عليه .

٢- فعل الطاعات وترك المحرمات .

٣- عدم القنوط من رحمة الله واليأس من روحه .

٤- ترك الأمن من مكر الله ومن عقابه .

٥- كثرة الدعاء والإلحاح فيه .

الخامسة عشرة: أسباب رجاء الله : يستحق ربنا أن يرجى لكماله سبحانه ولسعة رحمته وعظم نعمته وجميل صفاته.

السادسة عشرة : أحكام رجاء المخلوق وأقسامه :

١- الترجي الجائز: وهو رجاء المخلوق في الأمور الظاهرة والأسباب العادية.

٢- الشرك الأصغر: وهو المبالغة والغلو في رجاء المخلوق والتعلق بالمخلوق في كل شيء والتقصير في التعلق بالله ورجائه وعدم الالتفات إليه كما يجب.

٣- الشرك الأكبر: وهو أن لا يرجو الله أو يرجو المخلوق ما لا يقدر عليه .

٤- المحرم: وهو أن يرجو المخلوق فعل المحرم وأن يعينه الله على الإثم.

السابعة عشرة: علاقة الرجاء الشركي التألهي بالربوبية :

الرجاء عبادة وصرفه لغير الله شرك في الألوهية، ولكن قد يستلزم الشرك في الربوبية وذلك لوجود العلاقة التلازمية بينهما كما هو مقرر في موضعه. كما أنه قد يقوم بالمشرك الراجي ترجي المخلوق فعل أمر لا يقدر عليه إلا الله، ويكون برجائه الشركي هذا واقع في شرك الربوبية، وذلك حين اعتقد في المخلوق القدرة على كل شيء، وهذه من صفات الربوبية وليس شركه في الربوبية في نفس الرجاء .

الثامنة عشرة: ضابط الرجاء الشركي :

١- أن يلتفت ويتعلق بالمخلوق في كل شيء ويعرض عن الله بالكلية .

٢- أن يرجو المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، كإنزال المطر ومغفرة الذنوب.

٣- إذا قارن رجاءه من المخلوق الذل للمخلوق والخضوع له واللجوء إليه والتوكل عليه ودعاءه والرغبة إليه .

التاسعة عشرة: الفرق بين الرجاء والتمني :

الرجاء يخالطه عمل وحرص ، والتمني تعليق الآمال على الهوى دون عمل .

وفي الحديث: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت،والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني) رواه الترمذي وابن ماجة.

فلا يصح الرجاء إلا مع العمل الصالح وإلا كان تمنيا ، ولهذا قال البعض: الرجاء اعمله ولا تستعمله، أي لا تعصي وتترك الطاعة بحامل الرجاء .

الفرق بين حسن الظن والغرور :

أن حسن الظن ما حمل صاحبه على العمل وحثه عليه وساقه إليه وزجره عن المعصية مع العمل بالأسباب . وإن لم يصاحبه تلك الحالة بل دعا للبطالة والتفريط والانهماك في المعصية فهو الغرور . ذكره ابن القيم في الجواب الكافي ص ٤٢ .

العشرون : صور الشرك في الرجاء والطوائف الواقعة فيه :

المشركون عامة يرجون آلهتهم ومعبوداتهم أن تجلب لهم النفع وتدفع عنهم الضر ويأملون منهم كل شيء .

وهذا يوجد في الرافضة والصوفية والقبورية وهذا حالهم مع الأموات والأولياء . وقد صرحوا بذلك فانظر إلى قول الشعراني عن أحد شيوخه :

" ولقد قصدته في حاجة ورجوته فرأيته خرج من قبره وقال لي اصبر " .

وقال الدسوقي لطلابه : " إن صح عهدك معي فأنا منك قريب " .

فانظر كيف جعلوا المخلوق الضعيف يرجى ويرغب في كل شيء.

كذلك يوجد هذا الشرك عند : السحرة والعلمانية وطلّاب والتمائم والتبرك.

باب من الإيمان بالله: الصبر على أقدار الله (٣٥)

اسم الباب : عبادة الصبر

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : عبادة الصبر لله ، والتصبر على قضاء الله وقدره.

مكانه ونوعه: يعد من الأبواب المبينة للعبادات القلبية.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن الصبر على أقدار الله والرضا عن الله من العبادة، وضدهما الجزع والتسخط ينافي التوحيد ، كما أن الإيمان بالقضاء والقدر أحد أركان التوحيد والإيمان .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً:مناسبته لما قبله:جاء هذا الباب في سياق أبواب العبادات القلبية الواجبة.

وهي : المحبة، الخوف، التوكل، الرجاء، الصبر ، وبعدها الإخلاص والطاعة.

كما أن له مناسبة لباب الأمن والقنوط من جهة عدم الصبر في أصحابها

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب : يعتبر من أبواب العبادات القلبية .

ويشابه الأبواب المتعلقة بشرك العبادات البدنية والقولية (١٠) وما بعده .

يتعلق بأبواب القدر وتوحيد الربوبية وستأتي في باب القدر رقم : (٦٠) .

كما أنه يتعلق بأبواب وسائل حفظ التوحيد وتعظيم الله والشرك الأصغر.

الوقفة الرابعة: فات المصنف أن يذكر موضوع الرضا وسنذكره إن شاء الله .

خص المصنف رحمه الله نوعاً من الصبر وهو الصبر على القدر دون الشرع ، لكن يقال الصبر على شرع الله يدخل في عموم الصبر على قدر الله .

الوقفة الخامسة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد المصنف خمسة أدلة سنوردها مع غيرها في المسائل.

١- قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ التغابن:١١، سمى الله الصبر إيمانا، لأن الصابر مؤمن بالله وبما جاء منه.

قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم.

٢- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت) صحيح مسلم.

٣- عن ابن مسعود مرفوعا: (ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية) متفق عليه. والطعن والنياحة والجزع منافية للصبر .

٤- عن أنس أنه ﷺ قال:(إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة) . رواه الترمذي.

ومناسبة الحديث للباب : أن المصائب للعبد خير له ففيها تكفير الذنوب وتدعو للصبر فيحصل بذلك الأجر وهذا خير من الجهتين ، وهذا أفضل من أن تؤخر عقوبة العبد ليوم القيامة فتزيد عقوبته ويحرم عبادة الصبر المترتب عليه الأجر.

٥- وعنه أنه ﷺ قال: (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط) رواه الترمذي.

فائدة: الأجر للمبتلى يحصل بتكفير الذنوب والثواب على الصبر فيعظم به.

وفي هذا الحديث والسابق فضيلة الصبر على المصائب والرضا بالقضا.

الوقفة السادسة: المسائل العقدية في الباب :

عبادة : الصبر والصبر على الأقدار والرضا بها وعدم الجزع منها

م (١) : تعريف الصبر :

الصبر هو الكف والحبس ، أي حبس النفس عن الجزع .

سمى الله الصبر إيماناً كما في آية باب الصبر على المصيبة، كما فسره علقمه.

م (٢) : وجه دخولها في التوحيد :

الصبر عبادة يحبها الله وأمر بها ، والصبر يكون على دين الله والرضا بـه وفعـل أوامره وترك نواهيه ، والصبر على أقدار الله وعدم الجزع منها والتسخط عليها .

ويدخل الصبر في الإيمان بالقضاء والقدر.

م (٣) : أنواع الصبر :

١- الصبر على الشرع بامتثاله والرضا به :

ويكون على فعل الطاعات والأوامر وترك المحرمات والنواهي .

٢- الصبر على القضاء ، وعدم الجزع منه والتسخط عليه .

م (٤) : دليل الصبر:

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ الأنفال: ٤٦.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ التغابن: ١١ .

م (٥) : يكون الصبر لغير الله فيقع فيه الشرك:

قال تعالى عن الكفار: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ ص: ٦.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ الفرقان: ٤٢.

م (٦) : آلات الصبر وضده الجزع: يكون بالقلب واللسان والأفعال .

م (٧) : مراتب الصبر على الأقدار :

الإيمان بها ، الصبر عليها ، الرضا بها ، الشكر عليها .

م (٨) : درجات التعامل مع القدر إذا كانت مصيبة :

الإيمان بأنها من عند الله وهذا ركن واجب.

ثم الصبر وعدم الجزع وهذا واجب .

ثم يأتي الرضا، واختلف العلماء فيه والصحيح أنه مستحب .

ثم الشكر وهذا مستحب وهو الكمال .

م (٩) : الفرح والحزن لا علاقة لها بالتعامل مع القدر :

فالحزن على المصيبة يجوز إذا لم يقارنه سخط كحزن النبي ﷺ لفراق إبراهيم.

م (١٠) : علاقة المسألة بالصبر والرضا على الشر :

وهل في قدر الله شر، والتفريق بين القدر الذي هو فعل الله والمقدور المفعول المخلوق كالمعاصي ، سنأتي بها في باب القدر رقم (٦٠) .

م (١١): وجه كون الفخر بالحسب والطعن في النسب من الشرك الأصغر:

لأن فيها تكبراً على الخلق وتعالي وتعاظم من جهة ، وعجباً من جهة أخرى .

وهذا مناف لكمال التوحيد من الذل لله والتواضع ، كما أن فيه طعناً في خلق الله وأقداره وعدم صبر عليها ، وكل ذلك من الشرك الأصغر.

تنبيه : يتبع باب الصبر مبحثان :

الأول : مبحث : حكم الرضا بالقدر.

الثاني : مبحث : الاحتجاج بالقدر .

مبحث : الرضا بالقدر

م (١) : الرضا أكمل من الصبر ، إلا أنه يدخل في الصبر .

م (٢) : دليل عبادة الرضا: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ البينة: ٨.

م (٣) : الرضا يكون بالله وبقدره وبرسوله ودينه.

م (٤) : الرضا بالقدر يشمل الرضا بالقدر والمقدَّر والمقدور .

م (٥) : الرضا بالقدر ومحبته :متعلق بأفعال الله أما المفعولات ففيه تفصيل .

قال ابن القيم:(فلذاك نرضى بالقضاء ونسخط المقضي حين يكون بالعصيان).

م (٦):هذه المسألة تتعلق بفعل العبد من ناحية وبفعل الرب من ناحية أخرى.

م (٧) : حكم الرضا بالقضاء :

يجب عند الجواب على هذه المسألة من الاستفسار والتفريق في أمرين :

الأول: التفريق بين فعل الله وبين فعل المخلوق المقدور .

لأن القدر يطلق على فعل الله وعلى مفعوله المخلوق.

الثاني: التفريق بين الخير والشر من ناحية الرضا به ويأتي .

م (٨) : حكم الرضا بالمصائب والمخلوقات والمعاصي :

الأول: أنا أُمرنا بأن نرضى بالمصائب دون المعائب، فنرضى بالفقر والمرض ولم نؤمر بالرضا بالمعاصي والكفر .

الثاني: أن القضاء غير المقضي فنرضى بالقضاء لأنه فعل الله سبحانه .

وأما المقضي فهو فعل العبد فينقسم المقضي المخلوق كفعل العبد إلى خير كالطاعة والإيمان فنرضى بها، وشر ومعصية وكفر فلا يحل ولا يجوز أن نرضى بها بل ننكرها ونفعل الأسباب التي تزيلها من التوبة والاستغفار وإنكارها .

فالمعصية قدّرها الله فنؤمن بذلك. ولكن العاصي لا نرضى بمعصيته بل ننكرها عليه حتى تزول المعصية .

ولم يخالف في الرضا بالمعاصي إلا الصوفية وغلاة الجبرية المكذبين بالشرع .

الثالث: أن الشر والمعاصي تختلف في إضافتها للخالق والمخلوق:

فهي من الله عز وجل خلقاً وتدبيراً وتقديراً، وهي من العبد فعلاً وتركاً .

فإذا أضيفت إلى الله فهي قضاء وقدر ونرضى بالقدر من هذا الوجه، ونعلم أن فيها أوجه خير مثل طلب التوبة وغيرها ، وإذا أُضيفت للعبد فهي معاصٍ، وأفعاله نسخطها ولا نرضى بها ويجب أن نسعى في إزالتها وتغييرها .

الرابع: أن الله تعالى لم يرض لنا أن نكفر ونعصى فلا يرضى لعباده الكفر، والله ﷻ لا يحب المعاصي والفساد ولا يرضاها بل كرهها ومقتها، فعلينا أن نوافق الله في رضاه فنرضى بالطاعة، ونسخط ونكره المعصية، وقد أمرنا بطلب الشرع لا القدر .

مفاده من منهاج السنة لابن تيمية ٣/ ٢٠٣ .

وخالف في المسألة الجبرية: فقالوا: يجب الرضا بالمعاصي لأنها من القدر .

وخالفت القدرية: فقالوا المعاصي يحرم الرضا بها، لأنها ليست من القدر.

مبحث : الاحتجاج بالقدر

م (١) : مسوغات الاحتجاج بالقدر:

١- عند المصائب التي تحل بالإنسان، مثل الأمراض والفقر وغيرها .

٢- الذنب إذا تاب منه الإنسان، فيحتج بالقدر ولا يجوز أن يلام التائب.

والاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه .

ويضر الاحتجاج بالقدر فيه إذا كان على الذنب حال فعله كما فعل المشركون.

م (٢) : أحوال الناس في الاحتجاج بالقدر :

١- منهم من يحتج به في المصائب دون المعائب ، وهؤلاء أهل الحق.

٢- منهم من يحتج بالقدر على المصائب والمعائب (الذنوب وكل عيب).

٣- منهم المعرض فلا يحتج بالقدر لا في المصائب ولا في المعائب.

٤- المحتج بالقدر في المعائب دون المصائب وهؤلاء شر الناس وخصماء الله .

فإذا أصاب المحتج مصيبة ربما يجزع ولا يحتج بالقدر، وأما إذا عصى الله وأذنب فتراه يحتج بالقدر عليها . وهناك لوازم فاسدة على هؤلاء ، من تعطيل الشرائع والتسوية بين الكافر والمؤمن، والاستغناء عن التوبة والدعاء والجهاد والاستغفار .

والاحتجاج بالقدر حيلة العاجز وهي حجة إبليسية قديمة، أحتج بها إبليس والعصاة من بعده، ولكن لم ينفعهم ذلك ، وجاء الرد عليهم في الشرع والعقل .

م (٣) : أقسام المحتجين بالقدر :

الأول: مبتدع ضال مخالف بأصوله الفاسدة وهم الجبرية والمشركون.

والجبرية الغلاة يحتجون بالقدر على المعاصي لأن الله كتبها وقدّرها .

الثاني: معاند يضرب الشرع بالقدر ويعارض بينهما زندقةً، كما فعل إبليس.

الثالث: عاصٍ صاحب هوى وشبهة ويعلم أنه لا تعارض ولكن ليسلم من اعتراض الناس ويخرج من اللوم وهذا يلام ولا يبدّع وهذا يكثر في الفساق .

الرابع: القدرية: لا يحتجون بالقدر على المعاصي : لأنهم لا يرونها مقدره .

الخامس: أهل السنة ومذهبهم واضح آمنوا بالشرع وآمنوا وأقروا بالقدر وهم يحتجون بالقدر عند نزول المصائب ولا يحتجون به على ذنوبهم.

م (٤) : حديث احتجاج آدم وموسى وحكم النبي ﷺ لآدم:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (احتج آدم وموسى، فقال موسى: أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ـ وفي لفظ احتج آدم وموسى عند ربهم فقال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك في جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض ـ فقال له آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة . فقال النبي ﷺ : حج آدمُ موسى). متفق عليه.

فآدم لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب ، فهوا أعلم بربه وذنبه وأعرف بربه من أن يحتج بقدره على معصية، وموسى كان أعرف بالله وبأسمائه وصفاته وأعرف بأبيه وذنبه من أن يلوم على ذنب قد تاب منه فاجتباه ربه وهداه واصطفاه .

وإنما اللوم وقع على المصيبة التي أخرجت أولاده من الجنة فاحتج آدم بالقدر على المصيبة لا الخطيئة والمعصية وغلب موسى بالحجة.

باب ما جاء في الرياء (٣٦)

اسم الباب : عبادة الإخلاص وشرك الرياء

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : والإخلاص وما ينقضه من الرياء .

مكانه: من الأبواب المبينة لوجوب إخلاص العبادة وعدم إبطالها بالشرك.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن الرياء مناف لإخلاص العبادة لله وقادح في التوحيد من أصله أو كماله .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

جاء هذا الباب في سياق أبواب العبادات الواجب توحيد الله بها وتصفيتها من الشرك. وهي : المحبة، الخوف، التوكل، الرجاء، الصبر ، الإخلاص ، الطاعة.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب :

يعتبر من أبواب العبادات القلبية . وفيه مشابهة للأبواب المتعلقة بالشرك.

كما أنه مرتبط بالباب الذي بعده وهو شرك الإرادة، لأن مرجعهما للإخلاص.

العبادات البدنية والقولية الباب العاشر الذبح وما بعده .

وله علاقة بأبواب الشرك الأصغر ووسائل حفظ التوحيد.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١ – قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ الكهف: ١١٠.

وهذه الآية نزلت في الصحابي جندب بن زهير الغامدي ﷺ.

فقد ذكر الواحدي في سبب نزولها عن ابن عباس ﷺ قال: نزلت في جندب الغامدي وذلك أنه قال : إني أعمل العمل لله فإذا اطلع عليه سرني، فقال رسول الله ﷺ : (إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب ولا يقبل ما شورك فيه) فأنزل الله الآية.

وعن ابن عباس ﷺ قال: (كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام او تصدق فذكر بخير أرتاح له فنزل في ذلك الآية) . أخرجه عبد الرزاق في تفسيره وابن أبي حاتم ويحي بن سلام في التفسير والطبري والحاكم والبيهقي وأبو نعيم وغيرهم.

وجندب وفد للنبي ﷺ مع غامد مرتين بمكة قبل الهجرة ووفد عليه بالمدينة.

أخرج ابن سعد في الطبقات وابن عساكر في تاريخه والخطيب في المتفق:(كتب النبي ﷺ إلى أبي ظبيان بن الحارث الغامدي الأزدي يدعوه ويدعو قومه إلى الإسلام، فأجابه في نفر من قومه بمكة، وكتب النبي ﷺ لهم كتابا). وفي كتابه ﷺ لهم: (أما بعد فمن أسلم من غامد فله ما للمسلمين حرمة ماله ودمه ولا يحشر ولا يعشر ...).

وأورد المصنف بعد آية الرياء هذه حديثين.

٢- عن أبي هريرة مرفوعا: (قال تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه) رواه مسلم.

٣- عن أبي سعيد الخدري مرفوعا: (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل) رواه أحمد.

الوقفة الخامسة : المسائل العقدية في الباب :

مبحث الرياء

م (١) : المراد بهذا الشرك شرك الإخلاص الرياء والإرادة:

أن يعمل العبد عملاً مما يراد به وجه الله والدار الآخرة والعبادة لا يريد الله به وإنما الدنيا وما في أيدي الناس أو مدحهم .

م (٢) : أقسام الشرك المتعلق بالإخلاص والإرادة والنية :

١- أن يقصد الإنسان بعمله وعبادته الدنيا وزينتها من مال ومتاع ومنصب .

وهذا شرك الإرادة والأصل فيه قوله:﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ .

٢- أن يقصد الإنسان بعمله الرياء والسمعة وثناء الناس ومدحهم وهو داخل في القسم الأول .

م (٣) : حقيقة الرياء : عبادة النفس وطاعتها.

م (٤) : تعريف الرياء والسمعة :

مشتق من الرؤية وهو: أن يعمل الإنسان ليراه الناس أو يعمل شيئاً ليسمعه الناس فيحمد عليه ويثنى عليه ويمدح.

م (٥) : يلحق بالرياء السمعة: من يعمل العمل ليسمعه الناس أو يحدث به قاصدا غير الله، قال ﷺ : (من سَمَّعَ سمع الله به ومن يرائي يرائي الله به) متفق عليه.

م (٦) : الفرق بين شرك إرادة الدنيا وشرك الرياء :

أن هذا يريد المدح وذلك يريد الدنيا كمن يصلي أو يطلق لحيته ليقبل في وظيفة أو طلبا لمنصب أو مصلحة وهذا من الشرك في الإخلاص بل إخلاصه لغير الله ﷻ.

وأخطأ من جعل شرك إرادة الدنيا شركا أكبر مطلقا والرياء أصغر مطلقا .

م (٧) : أدلة الرياء :

قال تعالى : ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ النساء: ١٤٢ .

وقال: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ الكهف: ١١٠.

وهذه الآية نزلت في الصحابي جندب بن زهير الغامدي ﷺ .

عن أبي هريرة مرفوعا: (قال تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه) رواه مسلم.

عن أبي سعيد الخدري مرفوعا: (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل) رواه أحمد.

وقال ﷺ : (من سَمَّعَ سمع الله به ومن يرائي يرائي الله به) البخاري ومسلم.

وقال ﷺ : (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: (الرياء، يقول الله ﷻ إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً)أحمد.

وقال: النبي ﷺ: (يا أيها الناس! إياكم وشركَ السرائر) قالوا: يا رسول الله! وما شرك السرائر؟ قال: يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر)رواه ابن خزيمة والبيهقي.

عن أبي يعلى بن شداد عن أبيه قال: (كنا نعد الرياء في زمن النبي ﷺ الشرك الأصغر) رواه الحاكم والبيهقي.

م (٨) : حالات هذا الشرك :

١- أن يكون شركاً أكبر وله صور: كأن يدخل في الإسلام لحقن دمه كالمنافقين ، أو يكون معظم عمله وغالبه رياءً ، أو يرائي ويريد الدنيا بالأعمال التي تركها كفر ، كالصلاة المفروضة ليطلب بها ماعند الناس كالوظيفة كالإمام للمسجد. وهذا رياء المنافقين .

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء: ١٤٢.

٢- أن يكون شركاً اصغر : وهو يسير الرياء أو أن يعمل عبادة خاصة لأجل حاجة دنيوية كمن يحسن صلاته لينال من الدنيا أو طالبا المدح أو يتصدق بصدقة معينة لأجل مصلحة دنيوية لا يريد ما عند الله أو لأجل المدح والسمعة والرياء ، أو أن يكون العمل أصله لله ثم يدخله الرياء أو حاجة دنيوية يطلبها وهذا العمل محبط لا يقبله الله ويأثم فاعله لكن لا يخرج فاعله من الإسلام، أو يصلي في المسجد ليثنى عليه أنه من أهل المساجد مع أنه سيصلي في بيته لو لم يقصد المدح فالمدح والرياء متعلق بالصلاة جماعة وليس لأصل الصلاة أو يتباهى بعلمه في مسألة ليرى الناس أنه عالم بها وكذلك من يحافظ على الإمامة والآذان لأجل الوظيفة والدنيا فهو داخل في عموم الآية إرادة الدنيا .

م (٩) : هل الرياء شرك أكبر أم أنه شرك أصغر :

هو من الشرك الأصغر ومن الشرك الخفي كما نص الحديث .

وبعض أهل العلم كابن القيم وغيره يفرق بين كثير الرياء ويسير الرياء فكثير الرياء شرك أكبر وقليل الرياء شرك أصغر، وقالوا : إن كثير الرياء هو شرك المنافقين .

م (١٠) : حالات الرياء :

الأول : إن كان العمل الصالح من أصله كان للرياء فهذا شرك ولا يقبله الله .

الثاني : الرياء الطارئ : إذا خالط العبادة وهو على قسمين :

فإن جاهده المرء ودفعه فله أجر وإن تركه واسترسل حبطت عبادته .

الثالث : لو طرأ الرياء بعد العمل :فمن أهل العلم من قال بحبوطه ومنهم من قال لا يحبطه لأنه لم يخالط عمله وإنما كان بعد العمل، والصحيح أنه إن لم يكن له فيه يد ولا سبب فلا يحبط أما إن كان هو الذي أعلم الناس بعمله فيحبط .

م (١١) : الرياء الخفي: بعض الأمور من القوادح الخفية في الإخلاص :

١- ترك العمل الصالح خوفاً من الرياء، لا ينبغي وهو من مداخل الشيطان . وعده الفضيل وغيره من السلف من الرياء .

٢- كذلك من الرياء الخفي ذم النفس والقدح فيها أمام الناس، ليقال لفاعل ذلك إنه متواضع. ومن جنس هذا ما يفعله الملامية الصوفية تفعل ما يلامون عليه.

٣- من الرياء الخفي ما يوجد عند بعض أهل العبادة والزهد والعلم من محبة أن يقدموا ويعظموا ويبدؤوا بالسلام، ويرون أنهم أفضل الناس وأن لهم حقاً لما قاموا به من عبادات وهذا الفعل في الحقيقة من الرياء والعجب وعبادة النفس.

م (١٢) : وسائل علاج الرياء :

١- معرفة عظمة الله تعالى .

٢- معرفة حقيقة المخلوقين الذين يتلمس رضاهم ومدحهم وما هم عليه .

٣- استشعار خطورة الرياء وشناعة عقوبته .

٤- مجاهدة النفس والاستعانة بالدعاء .

٥- الحذر من أسبابه والبعد عن دواعيه .

٦- كتمان العمل وإخفائه .

٧- معرفة قبح الرياء في الغير فانظر للمرائي وقبحه لتعلم قبحه بك إن فعلته.

٨- احتقار النفس ولومها كلما طلبت مدحا وثناء .

٩- المداومة على قول كفارته دائما .

م (١٣) : خطورة الرياء والحكمة من كونه أخوف شيء على الأمة:

الرياء خطره عظيم وهو أخوف شيء خافه النبي ﷺ على أمته وأخبر أنه أشد من الدجال وهو من أكثر ما يدخل النار وأن أول من تسعر بهم النار الثلاثة النفر العالم والمجاهد والمتصدق لأجل الرياء ، ووجه ذلك أنه يخفى مع تعلقه بالأعمال الصالحة وبالصالحين بخلاف الشرك الأكبر فمعروف والناس يحذرونه.

فلأجل أنه متعلق بالصالحين مع شدة خفائه كان مخيفا للمخلصين .

تنبيه : هناك مسائل متعلقة بهذا الباب (الرياء) سيأتي بيانها في مبحث الإخلاص والشرك المتعلق به في الباب القادم.

باب من الشرك: إرادة الإنسان بعمله الدنيا (٣٧)

اسم الباب : شرك الإرادة والنية

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه:وجوب إرادة الله وقصده والإخلاص له وعدم إرادة الدنيا بالدين.

مكانه ونوعه: يعد من الأبواب المبينة للشرك الأكبر في العبادات.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن إرادة الدنيا بعمل الآخرة ينافي التوحيد من أصله أو كماله، وهو أحد أنواع الشرك الأربع : (شرك الدعاء ، شرك الطاعة ، شرك المحبة ، شرك الإرادة) .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

جاء هذا الباب في سياق أبواب العبادات الواجب توحيد الله بها وتصفيتها من الشرك. وهي : المحبة، الخوف، التوكل، الرجاء، الصبر ، الإخلاص ، الطاعة.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب : يعتبر من أبواب العبادات القلبية . ويشبه الأبواب المتعلقة بشرك العبادات البدنية والقولية الباب العاشر الذبح وما بعده .

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١ – قال ﷻ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ هود: ١٥ – ١٦.

٢– قال الرسول ﷺ : (تعس عبد الدينار) رواه البخاري.

الوقفة الخامسة : المسائل العقدية في الباب :

سنبين في هذا الباب مسائل الإخلاص لأنه متعلق بهذا الباب والباب السابق.

مبحث : الإخلاص وشرك الإرادة والنية والقصد والابتغاء

م (١):الإخلاص عبادة قلبية،وهو عبادة الله ﷻ وحده. ضده الشرك والرياء.

م (٢) :المراد بالإخلاص والنية:

قصد الله وحده بالعمل وإرادة وجهه بالعبادة ، وأن لا يقع العبد في الشرك.

قد يعبر عن الإخلاص بالابتغاء أو النية أو الإرادة أو القصد .

وقد جاءت النصوص معبرة بهذه الألفاظ .

والإخلاص والتوحيد والإفراد بمعنى واحد ومترادف.

م (٣) : اطلاقات الإخلاص ومعانيه:

المعنى الخاص: وهو المتعلق بالإرادة والنية وبعض أفراد العبادة والطاعة، ويكون بهذا الاعتبار والإطلاق والمعنى جزء من التوحيد، ويصير المقصود به ما يقابل الرياء والسمعة والعجب وإرادة الدنيا .

المعنى العام: وهو مرادف للتوحيد ويتعلق بأصل الإيمان ويكون مقابلا بهذا جميع أنواع الشرك والكفر وهو المقصود في آية: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ الزمر: ٢.

م (٤) : معنى النية: النية هي العزم والقصد والإرادة والبغية .

م (٥) : استعمالات النية : للنية استعمالان :

١- تمييز العبادة بعضها عن بعض كصلاة الظهر عن العصر والنفل عن الفرض والعبادة عن العادة والعمل الجبلي الطبعي كالصوم والتخسيس والرجيم .

٢- تمييز العبادة عن الشرك وإرادة الله والإخلاص له وإرادة غيره .

م (٦): الإحسان يتناول الإخلاص وغيره لا مجرد الإخلاص فالإحسان أعم.

م (٧) : دليل الإخلاص والشرك المتعلق به :

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ هود: ١٥ - ١٦. وآية هود هذه أصل في هذا الشرك .

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الكهف: ١١٠.

﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ آل عمران: ١٥٢ .

وقال تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ الإسراء: ١٨.

وقوله : ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ البقرة: ٢٠٠.

وقوله تعالى : ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء: ١٤٢ .

وقوله : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ البينة: ٥ .

وقوله ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ الشورى: ٢٠.

وفي السنة : عن عمر ﷺ مرفوعا (إنما الأعمال بالنيات) رواه البخاري.

عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا (قال الله ﷻ:أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي غيري تركته وشركه)رواه مسلم. معنى تركته وشركه : أي لم أقبله.

وفي رواية عند ابن ماجه : (فأنا منه بريء وهو للذي أشرك) .

وقال ﷺ : (إن الله ﷻ لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغي به وجهه) رواه النسائي .

وقال ﷺ :(أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر الرياء) رواه أحمد .

حديث الضحاك بن قيس يرفعه :(إن الله ﷻ يقول :(أنا خير شريك ، فمن أشرك معي شريكا فهو لشريكي) ، يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم لله ﷻ فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ، ولا تقولوا هذا لله والرحم فإنها للرحم وليس لله منه شيء، ولا تقولوا : هذا لله ولوجوهكم ، فإنه لوجوهكم وليس لله منه شيء). رواه البزار والبيهقي .

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطى رضي وإن لم يعط سخط؛ تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع) رواه البخاري.

م (٨) :حكم الإخلاص ومنزلته ومكانته:

الإخلاص ركن الدين القويم ولا يقبل عمل ولا عبادة بدونه كما جاءت الأدلة بذلك .وهو الغاية التي من أجلها خلق الخلق وبعثت الرسل والعبادة لا تقبل ولا ينظر فيها إلا إذا كانت خالصة لله وقام بها التوحيد ومالت وحنفت عن الشرك .

والدليل قوله تعالى :﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ البينة: ٥
وقال: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦ .

ولهذا كان السلف رحمهم الله يعتنون بالإخلاص ويجاهدون أنفسهم عليه.

يقول سفيان الثوري: (ما عالجت شيئاً أشد عليّ من نيتي لأنها تنقلب عليّ).

وقال الإمام أحمد : (أمر النية شديد) .

وقال القشيري : (أعز شيء في الدنيا الإخلاص) .

وقال ابن القيم في الفوائد: (لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس) .

م (٩) : مراتب الإخلاص وأقسامه إلى أصل وكمال :

الإخلاص له مراتب يتفاوت الناس فيه، والإخلاص في نفسه يزيد وينقص في المؤمن يزيد إلى درجة الكمال وينقص إلى درجة الأصل الواجب، والناس يتفاضلون فيه على القاعدة في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه، والإخلاص من الإيمان.

ومن زال من قلبه أصل الإخلاص فهو إما كافر مشرك أو منافق كمن زال عنه أصل الإيمان، أما من زال كمال الإخلاص عنه فهو مسلم وقد يكون عاصيا.

فالإخلاص مثله مثل بقية أعمال القلوب وشروط التوحيد من المحبة واليقين والصدق وغيرها لها مرتبتان :

الأولى: أصل الإخلاص: وهو المتعلق بأصل الدين، وهذا لابد منه في الشهادتين، وإلا كان صاحبها كافراً مشركا أو منافقا .

والثانية: كمال الإخلاص :

وهذه المرتبة أصحابها بين من أتى بالإخلاص الواجب والمستحب، ومن أتى بالواجب وترك المستحب، ومن عنده أصل الإخلاص دون الواجب والكمال وهو

من ترك شيئا من الواجب وفرط في عمل معين في بعض أفراد العبادات وشاب إخلاصه شوائب وهذا كحال بعض أهل الرياء .

ومن الأمثلة : من يطمع في ما بأيدي الناس أو يلتفت لهم أو يتطلع للمدح ويهمه الذم ويتكدر منه أو في قلبه شيء من مهابة الناس والخوف منهم، وكذا المجاهد في سبيل الله وفي قلبه التفات للمغنم .

قال ابن تيمية : (وكلما حقق العبد الإخلاص في قول لا إله إلا الله خرج من قلبه تأله ما يهواه) الفتاوى١/ ٢٦٠ .

وقال ابن تيمية : (النوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله فيغفر الله له به كبائر كما في حديث البطاقة.... فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص) منهاج السنة ٦/ ٢١٨.

م (١٠) : القوادح في الإخلاص:

الأولى : قوادح تقدح في أصل الإخلاص وتنقضه وتزيله بالكلية وتبطله وتفسده من أساسه وهي الشرك الأكبر وهذا حال المشركين والكفار والمنافقين.

الثانية : قوادح كمالية: تنقص كمال الإخلاص إلا أنها لا تزيله ولا تبطله وإنما تنقص منه وتقدح فيه، ولا يشترط في من نقص إخلاصه أن يكون واقعاً في الشرك الأصغر والعصيان، بل صاحب النقص في الكمال دائر بين المقتصد والظالم لنفسه .

والقوادح المنقصة له إما أن يكون صاحبها قصر في الواجب منها وأنقص منه ويعتبر صاحبه مسلما عاصيا فاسقا، مثل الشرك الأصغر كيسير الرياء.

أو أنه يأتي بما يقدح فيه من الأفعال التي تستلزم معارضة كمال الإخلاص.

م (١١) : أمور لا تنافي الإخلاص :

١- الاجتهاد في الطاعة إذا رأى الصالحين لكونهم يعينوه على الخير بالاقتداء.

٢- فعل العمل الصالح والإخبار به إذا قصد صاحبه أن يقتدي به ويسن سنة حسنة فليس من الرياء .

٣- كتمان الذنوب وعدم الجهر بها وسترها وكره إطلاع الناس عليها .

٤- فرح العامل بثناء الناس ومدحهم فيما لو اطلعوا على العمل من غير أن يتعمد العامل إظهار عمله أو يسعى لينال المدح .

وفي الحديث عن عمر ﷺ مرفوعا : (من سرته حسناته وساءته سيئاته فذلك المؤمن) رواه الترمذي وأحمد .

وقال النبي ﷺ عن ذلك : (تلك عاجل بشرى المؤمن) رواه مسلم .

ولا ينافي ذلك قول النبي ﷺ لجندب الغامدي ﷺ لما قال : إني أعمل العمل لله فإذا أُطّلع عليه سرني، فقال ﷺ : (إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب ولا يقبل ما شورك فيه) ، وعن ابن عباس ﷺ قال: (كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام او تصدق فذكر بخير أرتاح له فنزلت فيه الآية ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾) وتقدم تخريجه.

لأن هذا والله أعلم إذا كان ذلك الملحظ قبل العمل .

٥- إرادة شيء من الدنيا مع قصد الله في العمل، كالذي يحج ويتاجر، وكمن يجاهد طاعة لله ويرجو تحصيل الغنيمة، وكذا الصوم والإنفاق والصدقة للدواء والاستشفاء وإن كان أجرهم لا يعدل من كان عملهم كله لله وخالصاً لوجهه .

وهذا من أحد أوجه زيادة الإخلاص وكماله .

عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: (إن الغزاة إذا غنموا غنيمة تعجلوا ثلثي أجرهم ، فإن لم يغنموا شيئا تم لهم أجرهم) رواه مسلم .

عن أبي هريرة ﷺ أن رجلا قال للنبي ﷺ : رجل يريد الجهاد وهو يريد عرضاً من الدنيا ، فقال ﷺ : (لا أجر له) رواه أبو داود.

وهناك فرق بين من كانت نية الدنيا مخالطة له من أول مرة بحيث تكون هي الباعث له على العمل أو من جملة البواعث ، وبين من كانت نيته خالصة لله من أول الأمر ثم عرض له من أمور الدنيا وهو لم يقصده ويبالي به حصل له أو لا .

م (١٢) : تحول العادات لعبادات بالنية والعكس :

كما أن أعمال الآخرة قد يراد بها الدنيا كذلك العكس أعمال الدنيا قد يريد بها المسلم الآخرة فيثاب عليها، فأهل الإخلاص الكمّل يحتسبون أفعالهم الجبلّية ويرجون من الله الكريم أن يثيبهم عليها لكونهم ينوون بها الاستعانة على العبادات ، وهذا شأن عباد الله المخلصين ، ومن ذلك احتساب الأكلة والنومة للتقوى على العبادة واللقمة توضع في فم الزوجة والولد وفي بضع أحدكم صدقة .

ويأتي هؤلاء الكرام في مقابل من حول عباداته إلى عادات خاوية عن روح التعبد والتأله لله وحسن النية ، والأسوأ حالا منهم من يلتمس بعباداته حظوظ الدنيا أو المدح والسمعة والرياء والعجب.

م (١٣) : محل الإخلاص وأركانه :

الإخلاص أصل محله وقراره : القلب والنية .

ويكون كذلك متعلقا باللسان والجوارح .

م (١٤) : لوازم الإخلاص: للإخلاص لوازم عدة من أعظمها:

الصدق والمحبة والقبول والانقياد والتوكل والتعلق بالله والتخلص من حظ النفس والإحسان للناس والخوف من الله ورجاؤه والتوبة .

أيضا مراقبة الله وحفظه ، وفي الحديث: (احفظ الله يحفظك) رواه الترمذي.

م (١٥) : ما يضاد الإخلاص ويقابله وينقضه :

١- الشرك عموما وعبادة غير الله تعالى

٢- النفاق.

٣- شرك النية والإرادة والقصد.

٤- شرك الرياء والسمعة والعجب.

٥- صرف الإخلاص لغير الله

٧- يدخل في إرادة الدنيا من يفعل المعصية للناس وهو داخل في شرك الطاعة كمن يحلق لحيته للوظيفة .

٨- أدخل البعض في شرك الإرادة والنية كل كفر. وقد أخذ هذا الفهم من تفسير أنس بن مالك وغيره لآية : (من كان يريد الحياة الدنيا) .

٩- إتباع الهوى والحسد.

١٠- التعلق بالدنيا والحرص عليها وتقديمها على مراد الله وأوامره .

١١- من يعمل العمل الصالح ولا يقصد به ثوابه في الآخرة إنما يريد أن يجازيه به في الدنيا من حفظ المال والعيال، وهذا ليس له في الآخرة من نصيب كما قال ابن عباس .

م (١٦) : ثمرات الإخلاص:

وللإخلاص ثمرات كثيرة ومحاسن عليّة ومنازل نفيسة ومجالات عديدة وصفات وخصائص ، تذكر في كتب الرقائق وليس هذا مقام ذكرها .

وكل ذلك يوجب التنبيه على الإخلاص دوما ، فكم من أدعياء الإخلاص ويسمى الدعاة إلى الله لو دعا إلى الحق، فهو يدعو إلى نفسه لا إلى الله.

م (١٧) : عبارة تدخل في شرك الإخلاص :

يوجد من يصرف الإخلاص ويوقعه لغير الله فيقول : لك يا فلان خالص شكري أو خالص تحياتي أو خالص رجائي أو لكم رجائي الخالص وهذا لا يكون إلا لله ﷻ، فليس مجرد صرف الشرك لغيره وإنما جعلوا الإخلاص لغير الله ﷻ ليس مجرد أنه رجا غير الله أو حمد غير الله إنما جعل الإخلاص في ذلك لغير الله ﷻ .

م (١٨) : ضابط الإرادة الشركية (شرك الإرادة) :

١- إرادة الشيء كالناس والدنيا مع الخضوع والتذلل والرغبة وخوف فواته.

٢- تقديم الهوى والدنيا على مراد الله ومحبته وطاعته.

كمحبة المال وجمعه من كل وجه والبخل به والانشغال به عن عبادة الله.

وهذا المقصود بقول الرسول ﷺ : (تعس عبد الدنيا إن أعطي منها رضي وإن منع منها سخط) رواه البخاري.

٣- إرادة ما يكرهه الله من المعاصي .

إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

م (١٩) : الشرك الأصغر في العبادات:

هل يوجد عبادة صغرى ، وحقيقة عبادة الدنيا والدينار ، وهل الشرك الأصغر فيه عبادة لغير الله ، ومثلها ألوهية اتخاذ الهوى إلها .

العبادة حق لله وخاصة به لا تصرف لغيره .

كما في حديث معاذ : (حق الله على العبيد).

والعبادة هي التذلل والخضوع والمحبة والتعلق والإرادة والتعظيم.

ومن تذللت له حبا وتعلقا فقد عبدته.

ولذلك من تعلق بهواه وخضع له وأحب ما يهوى فقد صار عبدا له.

ومن أراد الدنيا والمال وعظمها وأحبها وتعلق بها وأرادها فقد عبدها.

فمن تعلق قلبه بالدنيا حتى تصير همه ويضيع بسببها الواجبات ويفعل المحرمات ويوالي فيها ويعادي ويرضى بسببها ويسخط، فهذا يقال عنه عبد الدنيا .

لكن ليس المقصود بها العبادة الكلية الكبرى الحقيقية التي يكفر من صرفها لغير الله وإنما الصغرى التي تدخل في الشرك الأصغر، وسميت عبادة وجعلت منها لوجود بعض معاني العبادة فيها .

ومثلها العبادات الصغرى الشرك الأصغر في عبادة المحبة والخوف.

م (٢٠) : حقيقة عبادة الدنيا :

المقصود بقول الرسول ﷺ : (تعس عبد الدنيا إن أعطي منها رضي وإن منع منها سخط) رواه البخاري. وفيه تسمية الإنسان المسلم عبد الدنيا والدينار والمال .

عبودية الدنيا هذه فيها نوع من معاني العبادة ، لا أصل العبادة التي يكفر من صرفها لغير الله.

وذلك أنه لما كانت الدنيا هي مقصود الشخص ومطلوبه الذي عمل له وصارت نيته مقصورة عليه يغضب ويرضى لها صار بذلك عبدا لها .

كما جاء تفسير ذلك في نص الحديث: بأنه إن أعطى رضي، وإن لم يعط سخط.

قال ابن رجب في فتح الباري عن حديث تعس عبد الدينار:(فدل على أن كل من أحب شيئا وأطاعه وكان غاية قصده ومطلوبه ووالى لأجله وعادى لأجله فهو عبده وذلك الشيء معبوده وإلهه).

تنبيه: ليس المقصود من الباب عدم حب المال ومباحات الدنيا وإنما المقصود أن تكون هي المقصودة والمرادة في قلب العبد.

قال ابن القيم في عدة الصابرين: (ما حكم من يريد الدنيا والآخرة ؟ إن الله علق السعادة بإرادة الآخرة والشقاوة بإرادة الدنيا، فإذا تجردت الإرادتان تجرد موجبها ومقتضاهما، وإن اجتمعتا فحكم اجتماع الطاعة والمعصية والإيمان والشرك في العبد ، ولا يمكن إرادة الدنيا وعاجلها بأعمال البر دون الآخرة مع الإيمان بالله فإن الإيمان بالله يستلزم إرادة رحمة الله بأعماله، وحيث كان مراده بها الدنيا فهذا لا يجامع الإيمان).

باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله (٣٨)

اسم الباب : شرك الطاعة والتشريع

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : شرك الطاعة وشرك التحليل والتحريم والتشريع .

هذا الباب له جانبان :

١- المطاع والمشرع والمحلل والمحرم والآمر وسان الدين .

وهم طائفتان العلماء والأمراء ، وهؤلاء شركهم في الربوبية

٢- المطيع المتبع ، وهؤلاء شركهم في الألوهية.

مكانه ونوعه: يعد من الأبواب المبينة لأهم أنواع الشرك الأكبر في العبادات.

وشرك الطاعة أحد أنواع الشرك الأربع :

شرك الدعاء ، شرك المحبة ، شرك الإرادة ، شرك الطاعة .

ويعتبر نصف الشرك فهو شرك القصور والدستور في مقابل شرك الأموات والقبور.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن الطاعة المطلقة لا تكون إلا لله وصرفها لغيره من الشرك في العبادة .

كما أن التشريع والأمر أخص صفات الربوبية التي لا تنبغي إلا لله.

فيعتبر الشرك الذي بينه هذا الباب ناقض لشركي الربوبية والألوهية.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله: ساقه بعد باب شرك الإرادة والرياء لأن الأول في طاعة النفس وتحصيل مرادها، وهذا في طاعة الغير وإرادته .

جاء هذا الباب في سياق أبواب العبادات الواجب توحيد الله بها وتصفيتها من الشرك. وهي : المحبة، الخوف، التوكل، الرجاء، الصبر ، الإخلاص ، الطاعة.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب :

يعتبر من الأبواب التي بينت الشرك الأكبر .

ويشبه الباب الذي يليه شرك التحاكم والمتابعة.

الوقفة الرابعة: الأدلة الواردة في الباب: أورد المصنف دليلا واحدا وأثرين :

١- عن عدي بن حاتم ﷺ : أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١ فقلت له: إنا لسنا نعبدهم. قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ فقلت: بلى. قال: فتلك عبادتهم . رواه أحمد والترمذي وحسنه.

٢- أثر ابن عباس: (يوشك أن تنْزل عليكم حجارة من السماء أقول قال رسول الله ﷺ ، وتقولون قال أبو بكر وعمر) رواه أحمد .

٣- قول الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، ويذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النور: ٦٣ أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

الوقفة الخامسة : المسائل العقدية في الباب :

الفرق بين العبادة والطاعة . وبينت ذلك في المقدمة في الباب الأول.

التنبيه على معنى العبادة التي جهلها عدي. وبينت ذلك في المقدمة.

باب (٣٩)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾

اسم الباب : شرك الحكم والتحاكم

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه: الحكم بغير ما أنزل الله والتحاكم إلى غير شريعة محمد ﷺ واتباعه.

هذا الباب له جانبان :

١- الحاكم ، المشرك في الربوبية.٢- المتحاكم والمتبع، المشرك في الألوهية.

مكانه ونوعه: يعد من الأبواب المبينة لأهم أنواع الشرك الأكبر في العبادات.

ويعتبر نصف الشرك فهو شرك القصور والدستور في مقابل شرك الأموات والقبور.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن الحكم والتحاكم من العبادات، التي لا تكون إلا لله وصرفها لغيره من الشرك في العبادة .وشرك الحكم داخل في شرك الربوبية لأن الحكم لله وحده ومن خصائصه. وشرك التحاكم داخل في شرك الألوهية والعبادة .

وشرك الحكم يشبه شرك التشريع ، وشرك التحاكم يشبه شرك والطاعة .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله: ساقه بعد باب شرك الطاعة والتشريع لأن بابهما واحد .

ويمكن أن يقال: الباب الأول متعلق بشهادة أن لا إله إلا الله .

وهذا الباب متعلق بشهادة أن محمداً رسول الله وتوحيد المتابعة واتباع النبي.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب : يعتبر من أبواب التي تناولت الشرك الأكبر .

ويشبه الباب الذي قبله شرك الطاعة والتشريع.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١- قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ النساء: ٦٠ الآيات.

٢- قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ البقرة: ١١.

٣- قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ الأعراف: ٥٦.

٤- قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ المائدة: ٥٠.

٥- عن عبد الله بن عمرو أن الرسول ﷺ قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به). قال النووي:حديث صحيح رويناه في الحجة بإسناد صحيح.

٦- قال الشعبي: (كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد - لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة. فاتفقا أن يأتيا كاهنا في جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية.

٧- وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف. ثم ترافعا إلى عمر. فذكر له أحدهما القصة. فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ : أكذلك؟ قال: نعم. فضربه بالسيف فقتله.

الوقفة الخامسة : المسائل العقدية في الباب :

وسنبين مسائل هذا الباب والباب السابق في مبحث مستقل نبين فيه :

التحليل والتحريم . تشريع القانون . سن الدين الحاكم . الحكم . التحاكم . الإعراض عن حكم الله . شرك طاعة .

مبحث : الحكم بما أنزل الله والتحاكم إليه

المسألة الأولى : أدلة وجوب الحكم بما أنزل الله وكفر تاركه :

قال تعالى في بيان هذا الأصل : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ الأحزاب: ٣٦

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ النور: ٥١

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ المائدة: ٤٤

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١

﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران ٦٤

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ النساء: ٦٠.

﴿ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ المائدة: ٤٣ .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١ ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة: ٥٠

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ الأعراف: ٥٤ ﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ﴾ الأنعام: ٦٢

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ يوسف: ٤٠

﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦ ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾ الأنعام: ١١٤.

الثانية : أقوال العلماء في ردة من تحاكم إلى الطاغوت وترك حكم الشرع:

قال إسحاق بن راهويه : (أجمع العلماء على أن من دفع شيئا أنزله الله وهو مع ذلك مقر بما أنزل الله أنه كافر) التمهيد لابن عبدالبر ٤/ ٢٢٦ .

قال ابن حزم في إحكام الأحكام : (من حكم بحكم الإنجيل مما لم يأت بالنص عليه وحي في شريعة الإسلام فإنه كافر مشرك خارج عن الإسلام) .

قال القاضي عياض : (فلو طرأ على الخليفة كفر وتغيير للشرع خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب إمام عادل، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم القيام وخلع الكافر) شرح النووي على مسلم ١٢/ ٢٢٩ .

وقال الداودي عن خطباء الجمع المنتسبين لأهل السنة في الدولة الفاطمية : (خطيبهم الذي يخطب لهم ويدعو لهم يوم الجمعة كافر يقتل ولا يستتاب وتحرم عليه زوجته وأحكامه كلها أحكام الكفر ومن صلى خلفه خوفا أعاد ثم لا يقيم إذا أمكنه الخروج من بلدهم ولا عذر له بكثرة عيال وغيره) . ونقل عنه ابن التين بوجوب الخروج على الحاكم إذا بدل الشريعة وكفر كما في فتح ابن حجر .

وقال عنهم أبو شامة: "قال الإمام أبو القاسم الشاشي: لو وفق ملوك الإسلام لصرفوا أعنة الخيل إلى مصر لغزو الباطنية الملاعين فإنهم من شر أعداء الإسلام وقد خرج من حد المنافقين إلى حد المجاهرين لما ظهر في ممالك الإسلام من كفرها وفسادها وتعين على الكافة فرض جهادها وضرر هؤلاء أشد على الإسلام وأهله من ضرر الكفار إذ لم يقم بجهادها أحد إلى هذه الغاية..) مختصر الروضتين ١٥٨.

قال ابن خويز منداد: (ولو أن أهل بلد اصطلحوا على الربا استحلالا لكانوا مرتدين والحكم فيهم كالحكم في أهل الردة) تفسير القرطبي ٣/ ٣٦٤ .

قال الجويني : (من يتخذ سنن الأكاسرة والملوك المنقرضين عمدة الدين ومن تشبث بهذا فقد انسل من ربقة الدين) الغياث ٢٢١ .

قال الجصاص في أحكام القرآن: (وفي هذه الآية دلالة على أن من رد شيئا من أوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ فهو خارج من الإسلام سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة ترك القبول والامتناع من التسليم، وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة في حكمهم بارتداد من امتنع عن أداء الزكاة وقتلهم) ٣/ ١٨١ .

ويقول الإمام ابن كثير في تاريخه: (فمن ترك الشرع المحكم المنزل وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر فكيف بمن تحاكم إلى الياسا وقدمها عليه (أي على شرع الله) من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين) البداية والنهاية ١٣/ ١١٩ .

وقال أحمد شاكر معلقاً على كلام ابن كثير في التتار: (أفرأيت هذا الوصف القوي من الحافظ ابن كثير لذلك القانون الوضعي الذي صنعه عدو الإسلام جنكيزخان ألستم ترون أنه يصف حال المسلمين في هذا العصر في القرن الرابع عشر...) . عمدة التفسير ٤/ ١٧٣ .

وقال أيضاً فيه : (إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس هي كفر بواح لا خفاء فيه ولا عذر لأحد ممن ينسب إلى الإسلام كائنا من كان في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها ، ألا فليحذر امرؤ نفسه وكل حسيب نفسه، ألا فليصدع العلماء بالحق غير هيابين وليبلغوا ما أمروا بتبليغه) .

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: (فإن هذا الشرع ليس لأحد من الخلق الخروج عنه ولا يخرج عنه إلا كافر) مجموع الفتاوى ١١/ ٢٦٢ .

وقال : (كل طائفة ممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها حتى يلتزموا شرائع الله وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء) الفتاوى ٢٨/ ٥٠٢ .

وقال عن الدولة العبيدية الفاطمية وحكامها : (فإن القاهرة بقي ولاة أمورها نحو مائتي سنة على غير شريعة الإسلام .. واتفق طوائف المسلمين علماؤهم وملوكهم وعامتهم من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة وغيرهم على أنهم خارجون عن شريعة الإسلام وأن قتالهم كان جائزا) . الفتاوى ٢٨/ ٦٣٥ .

وقال : (ومتى ترك العالم ما علمه من كتاب الله وسنة رسوله واتبع حكم الحاكم المخالف لحكم الله ورسوله كان مرتدا كافرا) الفتاوى ٣٥/ ٣٧٢.

قال الإمام ابن القيم في أحكام أهل الذمة : (أن من التزم ماجاءت به التوراة والإنجيل ولم يتبع القرآن فإنه كافر) . فانظر كيف جعل الملتزم بما جاءت به التوراة ولم يتبع حكم الله كافراً فكيف بمن التزم القوانين الوضعية التي صدرت من زبالات أفكار الغرب المشركين الذين خرجوا عن دينهم وشرعوا شرائع شتى باطلة .

وقال سليمان بن سحمان : (التحاكم إلى الطاغوت كفر وذكر الله في كتابه أن الفتنة أكبر من القتل والفتنة هي الكفر والشرك، فلو اقتتلت البادية والحاضرة حتى يذهبوا لكان أهون من أن ينصبوا في الأرض طاغوتا يحكم بخلاف شريعة الإسلام التي بعث الله بها رسوله ﷺ) الدرر ٥/ ٥١٠ .

وقال التويجري :(ومن أعظم المكفرات ما ابتلي به كثيرون من اطّراح الأحكام الشرعية والاعتياض عنها بحكم الطاغوت من القوانين والأنظمة الافرنجية ... وآل الأمر بكثير منهم إلى الردة والخروج من دين الإسلام بالكلية) الإيضاح ٢٨ .

وقال الشنقيطي في أضواء البيان : (والعجب ممن يحكم غير تشريع الله ثم يدعي الإسلام كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ﴾).

وقال: (وبهذه النصوص التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله على ألسنة رسله، إنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته وأعماه عن نور الوحي مثلهم) أضواءالبيان٤ / ٨٣ . ٧/ ١٦٢-٥٨٤-٦١٤ .

تأمل كيف اعتبر مجرد إتباع القوانين الوضعية كفرا وشركا مخرجا من الملة فكيف بواضعها !وقد أشبع تفسيره كلاماً في الحكم وكفر الحاكم بغير ما أنزل الله .

وقال محمد بن إبراهيم: (البلد الذي يحكم بالقانون ليس دار إسلام وتجب الهجرة منه عند القدرة) الفتاوى ٦/ ١٨٨.

وقال ابن باز: (فمن خضع لله سبحانه وأطاعه وتحاكم إلى وحيه فهو العابد لله ومن خضع لغيره وتحاكم إلى غير شرعه فقد عبد الطاغوت وانقاد له) .

وقال ابن باز في رسالته نقد القومية : (وكل دولة لا تحكم بشرع الله ولا تنصاع لحكم الله فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة) .

وقال ابن عثيمين في القول المفيد : من وضع قوانينا تشريعية مع علمه بحكم الله وبمخالفة هذه القوانين لحكم الله فهذا قد بدل الشريعة بهذه القوانين فهو كافر).

المسألة الثالثة: مقاصد الحكم بالشريعة ، ولماذا أنزل الله حكمه بين الناس؟:

أولاً : لتحقيق العبودية والذل والخضوع لله وحده، وذلك أن الحكم من العبادة التي أمرنا الله ﷻ بها والحكم أيضاً إذا تم فالناس في عبادة الله ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ يوسف: ٤٠.

وقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ الزمر: ٢.

بل وجعل الله التحاكم والحكم بغير شرعه عبادة لغير الله وسماه الله تعالى جاهلية قال تعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴾ الزمر: ٦٤ ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة: ٥٠ .

فمن ترك التحاكم لله ورسوله فهو غير منقاد لله ولا خاضع له ، بل كافر بعبادته متمرد على ربه وخالقه مستوجب لغضب الله وناره .

قال ابن تيمية :(وحقيقة الشريعة:اتباع الرسل والدخول تحت طاعتهم، كما أن الخروج عنها خروج عن طاعة الرسل، وطاعة الرسل هي دين الله الذي أمر بالقتال عليه) الفتاوى (١٩ / ٣٠٧).

ثانياً : إقامة الدين في الأرض والدليل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ التوبة: ٣٣ ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ المائدة: ٦٨ ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ ص: ٢٦.

ثالثاً : حاجة الناس الملحة لها إذ فيها صلاح الدنيا والآخرة وإقامة الضروريات الخمس والحاجيات والتحسينيات للعباد وما يصلح لهم لأنه جاء من عند من يعلم بما يصلح لخلقه وما يحتاجون إليه، والحكم بغير ما أنزل الله من أعظم الإفساد وترك الحكم بها زعماً للإصلاح ديدن المنافقين :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ البقرة: ١١ - ١٢.

رابعاً : به يحصل الاستخلاف في الأرض والتمكين والأمن والاستقرار والنصر والفتح لهم والعز والشرف والبركة .

خامساً : أن فيه رحمة بالناس فجعل الله حكمه في الأرض رحمةً بنا فهو العالم بما يصلح لنا وما نحتاج إليه .

سادسا : أن فيه إظهار المنافقين وإخراج ما في قلوبهم من مرض، وتمييزاً للخبيث من الطيب ولذلك قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ محمد: ٢٩ ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ المائدة: ٤١ ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ٢٧ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١.

فقد جعل الله الحكم بالشرع وطلبه علامة لإظهار الذين في قلوبهم مرض وتمحيصاً للمؤمنين ورفعة لهم بوجود المنافقين وجهادهم .

الرابعة : حالات ومناطات المتعلقة بكفر بالحكم بغير ما أنزل الله :

الأول : الجحود والاستحلال . وفاعل هذا مرتكب كفر التكذيب والجحود .

وهذا هو الجانب الاعتقادي في كفر الحكم بغير ما أنزل الله، فالكفر فيه كفر اعتقادي، ويدخل تحت هذه الحالة والقسم أكثر من عشرين صورة ، منها :

الجاحد، والمجوز والمستحل، المفضل حكم غير الله أو الممثل والمساوي له بحكم غيره، الشاك في حكم الله في فضله أو في وجوبه، المستخف بحكم الله، المبغض الكاره لحكم الله، من يسب حكم الله ويلمزه ويقدح فيه ويعترض عليه أو يقول إنه المحارب لحكم الله ومن يصد عنه، المعترف بحكم الطاغوت المؤمن به، والمصحح لحكم الطاغوت أو المتوقف في تكفيره، المحب لحكم الطاغوت ، الراضي به، والمادح له والفرح به والداعي إليه والمدافع عنه ، وهؤلاء كلهم كفار بالإجماع.

الثاني : التشريع والتبديل والجلب للقوانين والإلزام بها والتحليل والتحريم بغير سلطان من الله وصاحب هذه الحالة فاعل مناط شرك التشريع والحكم .

وهو من ينحي الشريعة وحكم الله أو بعض شرعه وحكمه ويستبدله بشرائع وقوانين أخرى مضاهية لحكم الله من صنع البشر أو بدين منسوخ محرم أو بعرف يحلل بها ما حرم الله ويحرم ما أحل الله ويقدم العمل بها على شرع الله تعالى ويجعل هذه الشرائع والقوانين المستبدلة قانوناً ملزما للبلاد والعباد وهذا كفر بالإجماع .

وقد انبرى العلماء لجهاد هذا الشرك الصراح والكفر البواح من حين حصوله وكفروا أصحابه وكان من أبرزهم :

العلامة محمد بن إبراهيم رحمه الله في رسالته تحكيم القوانين وفتاواه ورسائله التي حارب فيها هذا الشرك حتى أنه قرر في رسائله وفتاواه أن الدولة التي يوجد بها قانون ويحكم فيها بقانون أنها دار كفر يجب الهجرة منها .

والعلامة أحمد شاكر رحمه الله في تعليقاته على الكتب كتفسير ابن كثير وتفسير الطبري وشرح الطحاوية والمسند وكتابه كلمة حق وحكم الجاهلية وغيرها.

والعلامة الشنقيطي في أضواء البيان كفّر المشرع والحاكم بغير ما أنزل الله.

والشيخ عبدالله بن حميد رحمه الله ومن كلامه في رسالته أهمية الجهاد: (ومن أصدر تشريعاً عاما ملزماً للناس يتعارض مع حكم الله فهو كافر خارج من الملة..).

كما أن لابن حميد رسالة في كفر نظام العمل والعمال مطبوعة في الدرر السنية .

تنبيه : خلاف المرجئة الشنيع في عدم اعتبارهم التشريع ناقضاً ، فخالفت المرجئة الإجماع ومذهب أهل السنة وأقوال العلماء حيث اشترطوا فيه الاستحلال، وظنوا أنه مثل الحكم قي القضية العينية مستدلين جهلاً بقول ابن عباس كما سيأتي وعارضوا كتاب الله في كفر من حكم وشرع في دين الله وحلل وحرم .

الثالث : الحكم بغير ما أنزل الله والامتناع والإباء والإعراض عن الشريعة، والتزام حكم الطاغوت والاذعان والاستسلام له ، وصاحب هذا الفعل يسمى والمعرض والممتنع عن حكم الشريعة، وهذا ارتكب ما يسمى بشرك الحكم .

وهذا هو الذي يقوم بشرك الحكم فيباشر الحكم بغير ما أنزل الله كمن يحكم بالقوانين المصادمة للشريعة ، معرضاً عن حكم الله عز وجل متولياً عنه وتاركاً له وراداً لحكم الله تعالى منقاداً ملتزما بحكم غيره .

الرابع : الطاعة للمشرعين الحاكمين والتحاكم للطاغوت برضاه واختياره معرضا عن التحاكم للشريعة مع وجود من يحكم بها.

وهذا ارتكب صاحبه ما يسمى بشرك الطاعة والاتباع وشرك التحاكم .

ومناط الكفر في شرك الطاعة القبول والاتباع والانقياد وليس الاستحلال والجحود لأنها كفر بذاتها ولو لم يحكم أو يتحاكم .

وهذه الحالة تشتمل على قسمين ومناطين :

الأول : التحاكم إلى غير ما أنزل الله دليله قوله تعالى :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ .

الثاني : طاعة المشرع والحاكم والمحلل والمحرم واتباعه و دليل هذا القسم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ مع ما جاء من قصة عدي بن حاتم ﷺ .

الفرق بين هذه الحكم والتحاكم والطاعة والتشريع:

الأولى : أن الحاكم هو الذي يقوم بإصدار الحكم بغير ما أنزل الله والمتحاكم هو المحكوم عليه والمتبع والمذعن والمطيع لذلك الحاكم .

الثانية : أن التحاكم والطاعة والاتباع الشرك فيها شرك في الألوهية، وأما شرك التشريع والحكم شركهما في الربوبية .

فعندنا أربعة مناطات مكفرة الجحود وشرك التشريع وشرك الحكم وشرك الطاعة والتحاكم، الأول كفره اعتقادي والبقية كفرهم عملي وكل الأقسام الأربعة كفر مخرج من الملة إلا في حالة واحدة .

ضابط الحكم الذي لا يخرج من الملة وصفة الحاكم به :

من يحكم متعمدا بغير ما أنزل الله في بعض القضايا والواقعات اليسيرة كمن يحكم لشخص معين في حادثة مفردة بداعي الشبهة أو الشهوة أو الهوى أو الظلم، وليس ديدنه ذلك فليس ملتزما الحكم بغير ما أنزل الله وإنما هي حالات نادرة .

قال محمد بن إبراهيم : (وأما الذي قيل فيه كفر دون كفر إذا حاكم إلى غير الله مع اعتقاد أنه عاص وأن حكم الله هو الحق فهذا الذي يصدر منه المرة ونحوها ، أما الذي جعل قوانين بترتيب وتخضيع فهو كفر وإن قالوا أخطأنا وحكم الشرع أعدل) الفتاوى١٢/ ٢٨٠ .

وقال في رسالته تحكيم القوانين : (القسم الثاني من قسمي كفر الحاكم بغير ما أنزل الله وهو الذي لا يخرج من الملة - والذي قال فيه ابن عباس كفر دون كفر- وذلك أن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضية بغير ما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى) .

قال أحمد شاكر معلقاً على كلام ابن عباس كفر دون كفر: (وهذه الآثار عن ابن عباس مما يلعب به المضلون في عصرنا من المتنسبين للعلم يجعلونها عذراً في إباحة القوانين الوثنية الموضوعة التي ضربت بلاد المسلمين).

وقال ابن تيمية : (وهذا إذا حكم في قضية معينة لشخص وأما إذا حكم حكماً عاماً في دين المسلمين ...) [الفتاوى ٣٥/ ٣٨٨] .

وقال : (ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر ... وحكام المسلمين يحكمون في الأمور المعينة ولا يحكمون في الأمور الكلية) منهاج السنة ٥/ ١٣٠ .

تنبيه: مناط الكفر في شرك الطاعة :

أخطأ الكثير ممن خاض في غمار هذه المسألة ووقع في شباك شبهاتها القاتلة وارعووا لقول المرجئة الأفاكة، حين قالوا أن شرك الطاعة لا يكون شركا إلا بالاعتقاد والاستحلال، وأن من وقع في شرك التحاكم وطاعة المشرعين المحللين المحرمين لا يكفر بمجرد طاعتهم واتباعهم ما لم يقارن فعله جحود واستحلال . وقولهم باطل وقد نقضته وبينت مخالفته لمعتقد أهل السنة في شرح النواقض.

قاعدة : كفر الإعراض عن الشريعة والامتناع عن تحكيمها كفر بمجرده ولو لم يستحل ويجحد ولو لم يشرع أو يحكم بالقانون ، فالحكم بغير ما أنزل الله إذا كان منهجا ثابتا للحاكم دائما فهذا كفر بالإجماع لأنه رفض للشريعة ويعد من كفر الإباء.

مسألة : التحاكم إلى السلوم ومذاهب القبائل وهذا كان يوجد عند كثير من القبائل والأعراب حتى قالوا كسر الخشوم ولا كسر السلوم أي القتل وذهاب الرقاب ولا ذهاب أحكام القبائل والتحاكم إليها والحاكم بالقانون القبلي سواء كان شيخ القبيلة أو العارف والعريفة أو الفريض ويحكم بين المتخاصمين في الدماء والجنايات والمعاملات وهذا من الكفر الأكبر .

الخامسة : أوصاف تارك الحكم بما أنزل الله والمتحاكم إلى غير شرعه :

ذكر الله ﷻ أوصاف الذين تجرءوا على هذا المقام المتعلق بجناب الربوبية حين جعلوا لأنفسهم التشريع وأحقية الحكم بغير ما أنزل الله . فوصفهم ﷻ بصفات كثيرة منها : الكفر، الظلم، الفسق، النفاق، الشرك، عدم الإيمان، التحاكم للطاغوت، اتباع الهوى، العدول عن الحق، ابتغاء حكم الجاهلية .

السادسة : صفات من يستحق الحكم وسن الدين والتشريع للحلال والحرام :

لا خلاف بين المسلمين قاطبة أن الحكم والتشريع والتحليل والتحريم والأمر والنهي وسن الدين خاص بالله تعالى لا يشاركه فيه أحد، وأن الله تعالى هو وحده الذي يحكم عباده فيأمرهم وينهاهم وعلى العباد أن يطيعوه وينقادوا لشرعه، ويثابوا بهذه الطاعة ويعاقبوا بمعصيته، فالحكم خاص بالله عز وجل ولا يجوز إلا له بإجماع الأمة ، ومن خالف هذا الإجماع من المسلمين فقد كفر، ومن زعم أن لغير الله ﷻ حق الحكم والتشريع والتحليل والتحريم والأمر فقد كفر إجماعاً، وهذا المبدأ يجب أن يعلمه كل مسلم ويعتقده ولن يدخل الجنة أحد إلا بعد إيمانه بهذا الأصل .

وحتى يقطع الله الحجة على المشركين ذكر سبحانه العلة التي استوجب لأجلها اختصاصه وتفرده بهذا الأمر وبين سبحانه في مواضع كثيرة من كتابه صفات من يستحق أن يشرّع ويسن الدين ويحلل ويحرم ويأمر وينهى ويحكم ويقضي وأنها لا يمكن أن توجد إلا في الخالق وحده الذي خلق فسوى وقدر فهدى والذي يعلم وحده بما يصلح لخلقه وعبيده وما ينفعهم وما يضرهم وما يحصل الخير لهم وما يدفع الشر عنهم وأن هذه الصفات العظيمة لا يوجد منها شيء في المخلوقين ألبته فهي من خصائص الرب تبارك وتعالى التي لا يشاركه فيها أحد ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ الأعراف: ٥٤ .فمن يخلق وله الخلق استحق أن يأمر وينهى ويشرّع ويحكم.

قال الشيخ ابن باز : (ولهذا كان من مقتضى رحمته وحكمته أن يكون التحاكم بين العباد بشرعه ووحيه لأنه سبحانه المنزه عما يصيب البشر من الضعف والهوى والعجز والجهل وهو سبحانه الحكيم العليم اللطيف الخبير يعلم أحوال العباد وما

يصلح لهم في حاضرهم ومستقبلهم ومن تمام رحمته أنه تولى الفصل بينهم في المنازعات والمخاصمات وشؤون الحياة ليتحقق لهم العدل والسعادة بل الرضا والاطمئنان وذلك أن العبد إذا علم أن الحكم الصادر في قضية يخاصم فيها حكم الله الخالق العليم الخبير قبل ورضي وسلم حتى لو كان الحكم خلاف ما يهوى ويريد بخلاف إذا علم أن الحكم صادر من أناس بشر مثله لهم أهواؤهم وشهواتهم فإنه لا يرضى ويستمر في المطالبة والمخاصمة ..) الخ كلامه في فتاوى التنبيهات .

وأفضل من تكلم في هذا الباب وبين صفات من يستحق صفة الحكم والتشريع للناس الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان يقول فيه: (اعلم أن الله جل وعلا بين في آيات كثيرة صفات من يستحق أن يكون الحكم له فعلى كل عاقل أن يتأمل الصفات المذكورة التي سنوضحها الآن ويقابلها مع صفات البشر المشرعين للقوانين الوضعية فينظر هل تنطبق عليه صفات من له التشريع سبحان الله وتعالى عن ذلك فإذا كانت تنطبق عليهم ولتكون فليتبع تشريعهم وإن ظهر يقيناً أنهم أحقر وأخس وأذل وأصغر من ذلك فليقف بهم عند حدهم ولا يجاوز بهم إلى مقام الربوبية سبحانه وتعالى أن يكون له شريك في عبادته أو حكمه أو ملكه . فمن استحق الربوبية استحق الألوهية والربوبية مستلزمة للألوهية).

وقال : (فهل في الكفرة الفجرة المشرعين للنظم الشيطانية من يستحق أن يوصف بأنه الرب الذي تفوض إليه الأمور ويتوكل عليه ...).

السابعة : أوجه كون الحكم والتحاكم لغير شرع الله كفر مخرج من الإسلام :

الحكم بما أنزل الله له علاقة بمسائل الدين وحقائقه الظاهرة والباطنة فإذا زال الحكم بما أنزل الله وتركه الإنسان ونقضه فقد نقض هذه الأمور، فالحكم بغير ما أنزل الله موقع في الشرك وناقض لأركان لا إله إلا الله وناقض لشروطها وناقض لشهادة أن محمداً رسول الله وناقض للتوحيد بأنواعه وناقض لحقيقة الإسلام والإيمان وأركانه .وبيان ذلك على وجه الاختصار كما يلي :

الحكم بغير ما أنزل الله شركٌ أكبر وهو من أعظم نواقض الإسلام:

ومن الأشياء التي نثبتها لله الحكم كما أثبته تعالى لنفسه، وهو من الأمور الداخلة في معاني الربوبية والألوهية، والحكم عبادة يجب فيه التوحيد، فيجب إفراد الله بهذه الصفة العظيمة وعدم التحاكم إلى أحد سواه . وترك الحكم بما أنزل الله فيه شرك التعطيل لله . والحكم بغير ما أنزل الله فيه شرك التمثيل .

ومن الأمور التي يجب أن ننفيها عن غير الله عز وجل الحكم، ومن حكم بغير ما أنزل الله أو تحاكم إلى الحاكم بغير ما أنزل الله وأثبت الحكم لغير الله فإنه لا يعد كافرا بالطاغوت بل مؤمنا بالطاغوت .

عليه فمن حكم بغير ما أنزل الله فقد نقض كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ووقع في جميع أنواع الشرك وآمن بالطاغوت وكفر بالله تعالى .

لأن الحكم من صفات الله تعالى وأفعاله التي تفرد الله ﷻ بها ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦ ﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ﴾ الأنعام: ٦٢ ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ الأعراف: ٥٤ ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾ الأنعام: ١١٤.

فمن حكم بغير ما أنزل الله فقد أشرك في الربوبية ومن تحاكم إلى هذا الطاغوت فقد أشرك في الألوهية ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ يوسف: ٤٠، يعني لا تتحاكموا إلا إليه ومن تحاكم إلى غيره فقد عبده .

وتأمل قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ الأنعام: ١٢١. فإذا كانت طاعة المشركين المشرعين الحاكمين بغير ما أنزل الله شركاً فكيف بحال الحاكم أو المشرع ؟

وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ النساء: ٦٠. فإذا كفر الله ﷻ المتحاكم لغير الشرع فكيف بالحاكم نفسه ؟ إنه يستحق أن يسمى طاغوتاً لأنه تجاوز الحد وقد سماه الله طاغوتاً بنص القرآن .كما سمى ﷻ الذي يحكم بغير ما أنزل الله ربا لأنه جوز لنفسه التشريع ومشاركة الله في أفعال ربوبيته وأخص أوصافه ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ التوبة: ٣١ .

والنصوص الدالة على أن الحكم بغير ما أنزل الله يعتبر صاحبه مشركاً، وأن الحاكم مشرك والمتحاكم مشرك كافر خارج من الملة كثيرة.

ومن ذلك يظهر قوله تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المائدة: ٤٤ حيث جمع شر الصفات الكفر والفسوق والظلم والشرك والنفاق .

الحاكم بغير ما أنزل الله والمشرع ممثل (واقع في شرك التمثيل) :

وجه ذلك أنه مثل نفسه بالرب الجبار الذي تفرد بالأمر والحكم والمستحق للطاعة وحده، وهذا الحاكم يكذب بهذا الأصل وقد جعل له كفواً ونداً وشريكاً ومثيلاً وسوى نفسه بربه وعدل به، والله تعالى يقول :﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ الأعراف: ٥٤

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يوسف: ٤٠ ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ الكهف: ٢٦ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ الأنعام: ٦٢ وهذا الحاكم المشرك المشبه يقول بل ليس له الحكم وحده وإنما له ولغيره وليس له الأمر وحده بل لنا مثل ما له. ومن هذا الباب إنكار الرسول ﷺ على أبي شريح كما عند أبي داود وغيره، حين كان يسميه قومه أبا الحكم فقال :" إن الله هو الحكم " وغيّر كنيته لما رأى في صفته اقتضاء المماثلة لله عز وجل، مع أنه لا يحكم إلا بما أنزل الله، فكيف بالذي يقع في الاسم والمسمى يسمى بالحاكم ويحكم بغير ما أنزل الله ويشرع ؟ ولذلك أرباب القوانين يسمون محاكمهم وبرلماناتهم بالسلطة التشريعية ومن هذا الباب يضاهون بها سلطان الله وينازعونه اختصاصه بالأمر .

والحاكم المشرع متطاول على ربوبية الله عز وجل واقع في شرك التعطيل :

حيث إن الحكم لا يكون إلا للرب عز وجل فلا يأمر إلا من يخلق فمن له الخلق والتدبير له الأمر والحكم والطاعة ومن أعرض عن حكم الله وحكم بغير ما أنزل فقد عطل الله عن أعظم أفعاله وأخص أوصافه.

ترك حكم الله ورسوله من أعظم صفات المنافقين : قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١.

الحكم بغير ما أنزل الله ناقض للشريعة والدين :

من حكم بغير ما أنزل الله فقد عطل الشريعة ولم يؤمن بها وكذب بها وانتقصها واستخف بها، فما جاء الدين وما أنزلت هذه الشريعة إلا للعمل بها والأخذ بها.

الحكم بغير ما أنزل الله مناف لحقيقة الإسلام :

ووجه ذلك أن الإسلام هو الاستسلام لله عز وجل بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك .

ومن حكم بغير ما أنزل الله فهو لم يستسلم لله بالتوحيد بل وقع في الشرك، ولم ينقد له بالطاعة ولم يعمل بشرعه ولم يتبع رسوله بل أعرض وتولى ولم ينقد.

الحكم بغير ما أنزل الله ناقض لحقيقة الإيمان وأركانه :

من حكم بغير ما أنزل الله فقد نقض الإيمان من أصله، وكذّب بحقيقته التي تقوم على التصديق والانقياد والقبول والعمل الظاهر والباطن . ومن جهة أخرى فهو ناقض لأركان الإيمان جميعها كما تقدم، فقولهم: لا داعي لهذا الحكم حقيقته أنه لا داعي للكتاب الذي يوجد فيه هذا الحكم وهذا كفر بالكتاب وأيضاً لا داعي للذي أرسل بهذا الكتاب وجاء به وهو الرسول ﷺ ولا بالذي نزل به وهو جبريل .

الحكم بغير ما أنزل الله ناقضٌ للعبادة :

من حكم بغير ما أنزل الله فقد نقض عبادة الله ﷻ لأن العبادة لا تقبل إلا بالتوحيد وهي بدون التوحيد كعدمها، لذلك يجب أن نفرد الله عز وجل بالعبادة ومن العبادة التي تفرد الله بها الحكم: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ يوسف: ٤٠، فمن حكم بغير ما أنزل الله فإنه ما عبد الله بل عبد غيره .

الحاكم بغير ما أنزل الله والمتحاكم إليه وقعا في كفر الإعراض :

الحاكم بغير ما أنزل الله واقع في كفر الإعراض ، وهذا ناقض من نواقض الإسلام فمن حكم بغير ما أنزل الله فقد أعرض عن دين الله عز وجل وسيأتي .

تنحية الشريعة وعدم تحكيمها فيه قدح في الله وفي رسله ودينه وشريعته وكتبه:

فمن حكم بغير ما أنزل الله فقد وقع في القدح في الله وفي الرسول ﷺ والاستهزاء بهم والإعراض عن شرعهم وعدم الإيمان بهم . إذ أن في فعله لمز للشارع ولشرعه وسب للفعل وللمفعول والفاعل، لأن لازم تركه حكم الله لمز فعل الله ﷻ (وهو التشريع والحكم)، ولمز الحاكم (وهو الله ﷻ)، ولمز حكمه (وهو شرعه)، ولمز القرآن كلام الله ﷻ، ولمز الذي أرسله بها (وهو محمد ﷺ)، ولمز الصحابة الذين نقلوا لنا أحكام الله ودينه ، وعليه فهو واقع في القدح في الله ﷻ ونسبة النقائص إليه.

فمن حكم بغير ما أنزل الله أو شرّع فقد جعل لنفسه الكمال ولغيره النقص، إذ لو اعتقد أن في غير أمره وحكمه كمال لأخذ بحكم غيره ولكن رأى أن حكمه أفضل من حكم غيره ، ولذلك الحاكم بغير ما أنزل الله يصدق عليه أنه ساب لله ﷻ محتقر لدينه ومستخف بأمره وهازل بشريعته ومبغض لما أنزل الله.

كما أن الحاكم بغير ما أنزل الله يسعى إلى إبطال شريعة الله عز وجل ومحاربة دينه والسعي بالإفساد في الأرض.

تنحية الشريعة يناقض توحيد المتابعة ويعتبر كفراً برسالة محمد ﷺ:

من حكم بغير ما أنزل الله فإنه لم يصدق الرسول ﷺ في إخباره بكفر الذين حكموا بغير ما أنزل الله ، ولم يطع الرسول ﷺ في أمره بأن نحكم بما أنزل الله، ولم يجتنب ما نهى عنه الرسول ﷺ من الحكم بغير ما أنزل الله، فإذا كان الرسول ﷺ نهى عمر ﷛ أن ينظر في التوراة ويأخذ منها شيئاً مع كون أصلها منزل من عند الله فما بالك بالقوانين الوضعية المصادمة لما أنزل الله والتي وضعها المشركون المشرعون

للحلال والحرام . كما أن الحاكم المشرك لم يعبد الله بما شرعه لـه رسـوله، فمـن شرع غير شريعة الله ﷻ وحكم بغير ما أنزل الله ﷻ فقد وضع شرعـا غـير شرع الرسـول ﷺ ولم يعبد الله بما شرعه رسوله ﷺ ولم يتبعه في دينه الذي أمرنا الله به .

وعلى ذلك فالحكم بغير ما أنزل الله ناقض لمقتضيات الإيمان بشهادة أن محمـداً رسول الله الأربعة كلها، ومبطل للحكمة التي من أجلها بعثت الرسل .

ومن لم يحكم بما أنزل الله فما تابع الرسول ﷺ ومن ثم لا يعد شاهدا بأن محمدا رسول الله والدليل على ذلك قوله تعـالى : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ النور: ٥١ أي لا يقبل لهم قول ولا عمـل إلا أن يقولـوا سـمعنا وأطعنـا وأنقـدنا وتابعنـا الرسـول ﷺ وقولـه : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ النساء: ٦٥ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ الأحزاب: ٣٦.

ومن أطـاع غـير الرسـول ﷺ وأطـاع المشرعين فقـد أشرك قـال ﷻ : ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ الأنعام: ١٢١ ، فهو مشرك في توحيد المتابعـة ومـشرك في توحيـد الألوهية ومشرك في توحيد الربوبية وأسماء الله وصفاته.

ومما يجب أن يعلمه المسلم أن من لم يؤمن بهذا الأصل: وجوب طاعة النبي ﷺ والتحاكم لشريعته وكمال هديه فهو كافر مرتد والعياذ بالله وداخـل في قولـه ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ النساء: ١١٥ وذكرنا شيئاً من ذلك في مسألة كمال هديه ﷺ ، فمن يمتنع عن طاعته ويتعمد مخالفته ويتعند لأمره ويترك متابعته فقد شاق الله ورسوله .

الثامنة : الحكم في من حكم بما أنزل الله ولكن لم يكفر بحكم ما سواه :

هذا لا يعتبر من أهل التوحيد ولا آمن بالله وحده بل هو مشرك مؤمن بالطاغوت كافر بالله. لأنه ﷻ أمرنا بالكفر بحكم الطاغوت وتكفير تاركه وأنه مجرد زاعم للإيمان في قوله:﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ ﴾.

ولا يمكن أن يجتمع في قلب المؤمن الموحد إيمان بحكم الله تعالى مع عدم الكفر بحكم ما سواه، أو قال: لا أتعرض لأحكام القوانين الوضعية ولا أكفر بها ولا أكفر بأصحابها لا يمكن أن يكون هذا في قلب مؤمن فلا يقبل الله عز وجل من مؤمن إيماناً بحكم الرسول ﷺ حتى يكفر بحكم الطاغوت الجاهلي كما أمرنا الله ﷻ في خطابه لعباده: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ ﴾ النساء: ٦٠ .

فلا قسم غير ذلك إما حكم الله وهذا يجب الإيمان به والإذعان له ، أو حكم الطاغوت الجاهلي وهذا يجب الكفر به واجتنابه .

التاسعة: الجهل بالتوحيد في العبادة والحكم لا يعذر صاحبه:

كثير ممن يدّعي الإسلام ويقول:(لا إله إلا الله) هو جاهلٌ بها، فيقول: لا أعلم أن الله ﷻ أمرنا بالحكم بالشريعة، فهو لا يعلم أن من معنى (لا إله إلا الله) أن لا يحكم إلا بما أنزل الله، وأن الحكم من العبادة التي لا تصرف إلا لله، وهذا في الحقيقة لاينفعه قوله: لـ(لا إله إلا الله) مع جهله بمعناها .

قال سليمان في التيسير: (النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها، فإن ذلك غير نافع بالإجماع . فتباً لمن كان أبو جهل وغيره أعلم منه بـلا إله إلاَّ الله) .

فكما أنه لا يدعى إلا الله ولا يسجد إلا له فكذلك لا يحكم المسلم إلا بما أنزل الله ولا يتحاكم إلا إلى شرع الله ، ويؤمن بأنه لا حاكم إلا الله.

قال محمد بن إبراهيم: (وخضوع الناس ورضوخهم لحكم ربهم خضوع ورضوخ لحكم من خلقهم تعالى ليعبدوه، فكما لا يسجد الخلق إلا لله ولا يعبدون إلا إياه ولا يعبدون المخلوق فكذلك يجب أن لا يرضخوا ولا يخضعوا أو ينقادوا إلا لحكم الحكيم العليم الحميد الرؤوف الرحيم دون حكم المخلوق الظلوم الجهول) .

المسألة العاشرة: تحكيم الشريعة واجب على الفور :

الحكم بالشريعة ركن في التوحيد والبراءة من الحكم بغيرها من دمقراطية وأحكام بشرية وقوانين وضعية والكفر بها كلها ركن الدين الأعظم وهو من حقيقة الكفر بالطاغوت الذي يجب أن يكون ملازماً للمسلم حتى يموت ولابد أن يكون مقصوداً، ونبذها وتركها ردة بمجرد فعلها كما قررناه بالأدلة والنقولات من كلام أهل العلم وبينا أوجه الكفر في ذلك.

باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات (٤٠)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

ترجمته وموضوعه : هذا الباب متعلق بالأسماء والصفات ، ووجوب الإيمان بها ، وكفر من جحدها وأنكرها .

مكانه : هو بداية الأبواب المتعلقة بتعظيم الرب ﷻ ووسائل حفظ التوحيد.

نوعه : يعتبر من أبواب وسائل حفظ التوحيد والبراهين الدالة علية .

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

لما كان التوحيد ثلاثة أقسام توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات وأن توحيد الربوبية والصفات مستلزم لتوحيد الألوهية ولا يحصل التوحيد إلا بالإيمان الصحيح بالله وبأسمائه وصفاته بيّن رحمه الله ذلك بهذا الباب، وأن من اختل توحيده في الأسماء والصفات وأخل بنسبة الكمال لله وقع في الشرك في الألوهية لزاماً ، ولا يتم توحيد الألوهية إلا بتوحيد الأسماء والصفات وإثباتها لله على الحقيقة كما جاء في النصوص وعدم تعطيلها ، ومن وقع في شرك الأسماء والصفات لا بد له من حصول الخلل في الألوهية، وهذه القاعدة منضبطة لا تنخرم.

فالقاعدة في هذا الباب أنه لا يستقيم التوحيد إلا بإثبات الصفات لله ﷻ .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

لما تكلم المصنف عن باب جحد شرع الله وحكمه والذي هو من صفات الله وخصوص أفعاله تكلم عن جحد أسمائه وصفاته ومنها الرحمن .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

هذا الباب موضوعه عن أسماء الله وصفاته ، وقد تكلم المؤلف رحمه الله عن الأسماء والصفات في ثلاثة أبواب من كتابه وهي :

١- باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات ، باب رقم: (٤٠).

٢- باب احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك. رقم : (٤٧) .

٣- باب قول الله تعالى :﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ﴾ الأعراف: ١٨٠ .رقم : (٥١).

كما أن هناك أبواب موضوعها بعض أفراد هذا النوع من التوحيد منها:

١- باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه. (٤٦) .

٢- باب لا يقال: السلام على الله. (٥٢) .

ومما له علاقة أيضا بالصفات : باب الاستشفاع بالله ، وذمة الله ، وسب أفعال الله كالدهر والريح ، ونسبة النعم لغير الله، وقول ربي وعبدي ، والتعبيد لغير الله .

ثالثاً : الرأي في ترتيبه بين الأبواب :

كان الأفضل تبويبا لو جعل المصنف لباب الأسماء والصفات بابا واحدا أدرج فيه المباحث المتعلقة به والمسائل التي فرقها في أكثر من باب وصار في بعضها تكرارا ملحوظا .

الوقفة الرابعة: ما فات المصنف :

المسائل المتعلقة بمبحث الأسماء والصفات وعقيدة أهل السنة فيها والكلام عن الجهمية المعطلة وتكفير السلف لهم .

كما فات المصنف أن يستدل بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ الفرقان: ٦٠.

الوقفة الخامسة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب: أورد المؤلف:

١- آية واحدة في إنكار الكفار اسم الرحمن .

وهي قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ الرعد: ٣٠.

وبدايتها: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾

والآية بينت التلازم بين التوحيدين وأن الشرك والكفر بالرسالة سنة الأمم قبل أمة محمد ﷺ .

٢- أثر عن علي في تحديث العامة بما يعقلون .

وقريب منه أثر ابن مسعود عند مسلم : (ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) .ولم يورده المصنف .

٣- أثر عن ابن عباس في من استنكر التحديث بأحاديث الصفات .

وقريب من معناه كلام وكيع .

٤- خبر في سبب نزول آية الباب .

وأصل الخبر أن سهيل بن عمرو الذي أرسلته قريش لمفاوضة النبي ﷺ في صلح الحديبية وأمر النبي ﷺ أن يكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سهيل وكان مشركا: (أما الرحمن فلا والله ما أدري ماهي، اكتب باسمك اللهم) أخرجه الطبري.

الوقفة السادسة: المسائل العقدية في الباب :

الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته

م (١) : **ما يتضمنه الإيمان بالله** : يتضمن الإيمان بوجوده وبربوبيته وبألوهيته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وتقدم بيان ذلك، وبقي هنا باب الأسماء والصفات .

م (٢) : معنى الأسماء والصفات وتفسيرها والمقصود بالتوحيد فيها :

أولاً:المقصود بأسماء الله:أسماؤه الدالة على صفاته،مثل: الرحمن العزيز الخالق.

ثانياً : المقصود بالصفات : صفات الله ، مثل: الرحمة والعزة والقدرة والخلق .

ومن صفات الله أنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه .

ومنها علوه بذاته واستواؤه على عرشه، وأجمع السلف على كفر من أنكره.

ثالثاً : المقصود بتوحيد الأسماء والصفات : إثبات أسماء الله وصفاته فلا يعطل عن صفاته ولا نمثلها بصفات خلقه ولا نصف العباد بصفات الله .

م (٣) : عقيدة أهل السنة في الأسماء والصفات :

أولاً : يثبتون لله من الأسماء والأوصاف ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله، ويعرفون معناها ويفوضون كيفيتها وينفون ما نفاه الله عن نفسه ورسولُه ﷺ، ويمسكون عما سكت الله تعالى عنه ورسوله ﷺ فلا يخوضون فيه بنفي ولا إثبات، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ولا إلحاد.

ثانياً : باب الإثبات جاء في النصوص مفصلاً أما النفي فمجملا، والمفصل من النفي المقصود منه إثبات كمال الضد فالمراد من نفي النوم مثلا إثبات كمال الحياة .

ثالثا: يجوز الإخبار عن الله بما يليق، وإن باب الإخبار أوسع من باب الأفعال والصفات، وباب الصفات أوسع من باب الأسماء، فكل اسم له صفة وليست كل

صفة لها اسم كالإرادة والاستواء، وعندهم أن أسماء الله توقيفية لا تثبت بالاجتهاد والعقل، وإنما بالشرع والنص، وأسماء الله أعلامٌ وأوصافٌ وليست مجرد أعلام محضة فكل اسم له صفة ومعنى يخصه .

رابعا: أسماء الله لا يعلم عددها إلا هو، فليست منحصرة في تسعةٍ وتسعين.

خامسا: أقسام الصفات إلى ذاتية وفعلية اختيارية، وإلى عقلية وخبرية .

سادسا:صفات أفعال الله قائمة بالله أزلية النوع حادثة الآحاد يفعل متى شاء .

سابعا: صفات الله قائمة بالله غير منفصلة عنه وليست مخلوقة .

ثامنا: الله ﷻ بصفاته كاملٌ غنيٌ، لا نقول أنه محتاج لصفاته أو اكتمل بها كالمخلوق، بل أفعاله صادرة عن كماله تعالى ، لا تنفك صفاته وكماله عنه ، ومن صفاته ما يتعلق بأفعاله الاختيارية المتعلقة بالمشيئة وهي التي يفعلها متى شاء كالنزول والمجيء والفرح والغضب والرضا.

هذا خلاصة ما يعتقده أهل السنة، ويخالف في ذلك فرق المعطلة على اختلاف درجاتهم من فلاسفة وباطنية وجهمية ومعتزلة، وأشعرية وماتريدية.

م (٤): علاقة أسماء الله وصفاته وأفعاله بربوبيته :

أسماء الله وصفاته وأفعاله من الربوبية فكل اسم لله وصفة تمثل ربوبية الله.

كما أن الربوبية وأفعالها من صفات الله ﷻ . فالخلق والرزق من صفات الله .

م (٥): الفرق بين أسماء الله وصفاته وأفعاله وربوبيته :

١- أسماء الله هي أعلام له كالإله والرب والرحمن والرزاق والقدير والملك.

٢- الصفات هي ما يوصف الله بها كالألوهية والربوبية الرحمة الرزق القدرة.

٣- أفعال الله مثل الخلق والرزق والإحياء والإماتة والرحمة والنزول، فهو يخلق ويرزق ويرحم فهذه كلها أفعال لله تعالى، وتسمى الصفات الفعلية .

٤- الربوبية تشمل أربعة أمور: وجود الله وأسمائه وصفاته وأفعاله .

والقاعدة أن كل اسم لله له صفة وليست كل صفة لها اسم مثل الاستواء والكلام فليس من أسماء الله المستوي والمتكلم . وكل فعل له صفة وليس كل صفة لها فعل مثل صفة الوجه واليدين، فهي من الصفات الذاتية وليست من الفعلية.

وذهب البعض إلى وجود أفعال لا يوصف الله بها مثل الاستهزاء والمكر والتردد ونحوها وكذلك وجود صفات لا أفعال لها، وهذا الخلاف ناشئ على الخلاف اللغوي، هل أصل الاشتقاق الصفة أو الفعل .

والصحيح أن الصفات على قسمين :

١- صفات فعلية : فكل فعل يعتبر صفة، فالاستهزاء فعل وهو صفة والخلق فعل وهو صفة، وأفعاله منها المتعدية إلى مفعول كالخلق، ومنها اللازمة كالاستواء .

٢- صفات ذاتية خبرية ليست فعلية: كصفة اليدين والعين والوجه والجمال.

ويلحق بذلك الحياة والعظمة والغنى والعزة وكذلك العلو والأولية .

م (٦) :حقيقة توحيد الأسماء والصفات والربوبية مبني على أصلين :

الأول : تنزيه الرب ﷻ عن مشابهة الخلق ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ .

الثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه من الكمال ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

فهذان الأصلان بينهما الله ﷻ وجمع بينهما في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ الشورى: ١١ .

م (٧) مسائل متعلقة بأسماء الله من حيث عددها ومعناها وكونها توقيفية.

ستأتي في باب ولله الأسماء الحسنى .

م (٨) معنى الجحد والإنكار :

الجحد والإنكار ضد الإقرار ، والإقرار يكون بالقلب واللسان ولازمه الالتزام والانقياد .

الفرق بين الإنكار والجحود : الإنكار أعم والجحود أخص مطلقاً :

١- الإنكار يكون مع الجهل، ويكون مع العلم واليقين، والثاني المرادف للجحد، فلا يكون الجحود إلا مع اليقين والعلم ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ .

٢- الإنكار يكون بالقلب واللسان والجحود باللسان مع إقرار القلب.

٣- الإنكار يكون للأمر الظاهر والخافي أما الجحد فهو إنكار الشيء الظاهر ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ الأنعام: ٣٣ .

٤- الإنكار قد يكون حقا إذا كان المنكر محقا .

م (٩) إنكار أسماء الله وصفاته وجحدها كفر :

ومثل ذلك جحد معانيها كما هو عند الجهمية ، التي سمت إثبات الصفات شركا وإنكارها توحيدا ، ومن ذلك تسمية الكوثري الجهمي المشرك كتاب التوحيد لابن خزيمة بكتاب الشرك.

م (١٠) حكم المعطلة الجهمية ومن تابعهم .

أجمع السلف بلا خلاف على كفر الجهمية لما عندهم من أقوال كفرية .

وأخطأ من زعم وجود خلاف بين السلف في تكفيرهم كما هو قول ابن تيمية.

قال الإمام أحمد : (الجهمية كفار) . السنة للخلال ٢١٣٧ .

قال اللالكائي ت ٤١٨ عن كفر الجهمية: (فهؤلاء خمس مائة وخمسون نفساً أو أكثر .. ولو اشتغلت بنقل أقوال المحدثين لبلغت ألوفاً كثيرة، لكني اختصرت .. لا ينكر عليهم منكر ومن أنكر قولهم استتابوه أو أمروا بقتله). رقم ٤٩٣ .

قال ابن القيم في النونية في كفرهم:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان

واللالكائي الإمام حكاه عنـ هُمُ بل قد حكاه قبله الطبراني

الأوجه والأقوال التي من أجلها كفر السلف الجهمية و الأشاعرة :

الأول : أن السلف كفروا بالإجماع من أنكر علو الله ﷻ وهذا تقول به الأشاعرة تبعاً للجهمية .

الثاني : أن السلف كفروا من قال (إن القرآن مخلوق).

قال ابن البناء في الرد على المبتدعة ٢٣٩ : قال عبد الله بن الإمام أحمد : سألت أبي عمن يقول لما كلم الله موسى لم يتكلم بصوت ، فقال أبي تكلم الله بصوت .. هؤلاء كفار يريدون أن يموهوا على الناس .

قال أبو جعفر أحمد بن سنان الواسطي شيخ البخاري : (من زعم أن القرآن حكاية فهو والله الذي لا إله إلا هو زنديق كافر بالله) .أخرجه الضياء في اختصاص القرآن . وهو صحيح الإسناد . وهذا هو قول الأشاعرة .

قال السجزي : (فقد بان بما قالوه - أي ابن كلاب والأشعري - أن القرآن الذي نفوا الخلق عنه ليس بعربي وليس له أول ولا آخر . ومنكر القرآن العربي كافر بإجماع ومثبت قرآن لا أول له ولا آخر كافر) رسالة إثبات الصوت ص ١٠٧ .

الثالث : أن السلف قد كفروا الجهمية لقولهم إن (الإيمان مجرد التصديق والمعرفة) . وهذا قول الأشاعرة .

وذكرنا في كتابنا الرد على الأشاعرة الجهمية أن السلف كانوا يفرقون بين المرجئة والجهمية فإذا قالوا المرجئة قصدوا الفقهاء وأبي حنيفة.وكانوا يكفرون الجهمية دون المرجئة والأشاعرة على قول الجهمية .

الرابع : تعطيلهم الصفات : وقد كفر السلف من عطل الله عن صفاته :

قال الدارمي في الرد على الجهمية : (ونكفرهم أيضا بالمشهور من كفرهم أنهم لا يثبتون لله تبارك وتعالى وجها ولا سمعا ولا صفة إلا بتأويل ضلال ..، ونكفرهم أيضا أنهم لا يدرون أين الله ولا يصفونه بأين ..) . وهل هذا إلا قول الأشاعرة .

وقال: (وأي فرق بين الجهمية وبينهم حتى نجبن عن قتلهم وإكفارهم) .

وقال السجزي : (ومنكر الصفة كمنكر الذات فكفره كفر جحود) .

قال الترمذي: (ذكر الله في كتابه اليد والسمع ، فتأولت الجهمية هذه الآيات ففسروها على غير ما فسر أهل العلم وقالوا معنى اليد القدرة) السنن ٣/ ٥١ .

الخامس : أن العبد ليس له فعل واختيار فالفعل فعل الله . وهذا قول الجهمية الجبرية وتبعتهم الأشاعرة ، وقد كفر بعض أهل العلم من قال بذلك .

عليه فتكفير السلف للجهمية لما قالوه من أقوال كفرية هي نفسها يقول بها الأشاعرة من أعظمها : إنكارهم علو الله ﷻ . ما قالوه في القرآن وفي أن الذي في المصاحف مخلوق، تعطيلهم الصفات، قولهم الإيمان مجرد المعرفة والتصديق . إضافة لقدحهم في التوحيد ووقع أكثرهم في الشرك وعبادة القبور وقولهم بأقوال الصوفية.

م (١١) رواية أحاديث الصفات .

الجهمية تحرم الكلام عن صفات الله تعالى .

وقد تأثر بهم قوم يتحرجون من رواية أحاديث الصفات ويزعمون أنه لا ينبغي أن يحدث العامة بها مطلقاً، ويستدلون بأثر علي (حدثوا الناس بما يعرفون).

والحق أنه لا يتحرج من رواية أحاديث الصفات إلا الجهمية، أما السلف فقد رووها وآمنوا بها ، ويشهد لذلك إنكار ابن عباس على الذي استنكر ما جاء في حديث الصفات. وأيضا ما ثبت في السنة لعبد الله بن أحمد عن وكيع من إنكاره على من استنكر التحديث بأحاديث الصفات وروايتها لما روى حديث : (إذا جلس الرب على الكرسي) ، وقد رد ابن تيمية على جهمية زمانه حين طلبوا منه ترك التحديث بأحاديث الصفات وكتب في ذلك مناظرة الواسطية والتسعينية .

م (١٢) باب الصفات ليس من المتشابه .

الجهمية وأتباعهم من الأشاعرة يزعمون أن آيات الصفات من المتشابه .

يقول السيوطي الأشعري في الإتقان: «من المتشابه آيات الصفات» ثم أولها حسب طريقة الجهمية المعطلة ، ومثله الزركشي في برهانه .

والحق أن صفات الله وأدلتها من المحكم وأن معاني الصفات معلوم وواضح،

وهي من المحكم، وهذا لا يعني الإحاطة به سبحانه ومعرفة كيفية صفاته .

قال الشنقيطي في مذكرته: «آيات الصفات لا يطلق عليها اسم المتشابه».

قال ابن القيم : (ولم يعرف عن أحد من الصحابة قط أن المتشابهات آيات الصفات ، بل المنقول عنهم يدل على خلاف ذلك . ومن ذلك تفسيرهم للصفات الواردة في القرآن والسنة ، فكيف تكون آيات الصفات متشابهة عندهم وهم لايتنازعون في شيء منها ، وآيات الأحكام هي المحكمة وقد وقع بينهم النزاع في بعضها ، وإنما هذا قول بعض المتأخرين) . الصواعق المرسلة ١/ ٢١٣ .

وانظر كلام ابن تيمية في تلبيس الجهمية ٢/ ٢١٨ .

ولا يفهم من قول ابن عباس أن الصفات من المتشابه وإنما معناه أن الشخص إذا جاءه شيء من الدين وهو يجهله ولم يسمع به واشتبه عليه فلا يضل به وإنما يؤمن به ويطلب معناه عند من يعلم حتى يكون محكما عنده .

ومن المقرر عند أهل السنة :

أنه لا يوجد في كتاب الله ﷻ شيء مجهول لجميع الأمة ولا يعلمه أحد .

م (١٣) حقيقة إنكار كفار العرب اسم الرحمن .

إنكارهم له وجهان :

إنكار جحود مع اعترافهم به باطنا .

أو أن الإنكار من بعضهم وليس كلهم .

ويشهد لذلك أشعارهم في الجاهلية صرحوا فيها بذكر اسم الرحمن .

كقول بعضهم في شعره: (وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق) .

باب قوله: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (٤١)

اسم الباب

نسبة النعم إلى غير الله تعالى وعدم شكره عليها .

ويصح أن يسمى شرك الشكر والثناء .

ويصح أن يسمى كفر النعمة وإنكارها.

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : الباب متعلق بنسبة النعم إلى غير الله تعالى .

ويكون بإحدى طريقتين :

١- نسبة النعم إلى غير الله تصريحا إما استقلالا أو من باب السببية .

٢- شكر المخلوق وترك شكر الله وهذا يلمح إلى نسبة النعمة لغير الله.

مكانه ونوعه: هو من الأبواب المتعلقة بتعظيم الرب ﷻ والتأدب مع جناب الربوبية برد الإنعام إلى مقام الربوبية والقيام بحق الألوهية بالقيام بعبودية الشكر.

والأصل أن هذا الباب من الوسائل والقدح فيه من الشرك الأصغر ، وقد يكون من الشرك الأكبر كما سيأتي.

تنبيه من الألفاظ المتعلقة بالباب :

النعمة ، الشكر ، المعرفة ، الإنكار ، الكفر . وسيأتي تفسيرها .

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

وضح هذا الباب بعض الطرق المؤدية إلى الشرك، حيث أن نسبة النعم للخلق وشكرهم عليها من الشرك، يدخل في باب الشرك الذي يخفى على أكثر الناس.

هذا الباب الذي هو نسبة النعم لغير الله تعالى يدخل في أنواع الشرك :

١- فيكون شركا في الربوبية ويكون شركا في الألوهية .

٢- كما يكون شرك تعطيل وشرك تمثيل .

٣- كما يكون من الشرك الأصغر ويكون من الشرك الأكبر .

٤- ويكون كفرا وشركا .

٥- ويكون شركا اعتقاديا وقوليا وعمليا، فالإنكار بالقول والعمل والمعتقد.

وسيأتي بيان ذلك في المسائل المتعلقة بالباب وطرق نسبة النعم لغير الله تعالى وصور كفرها.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله: أن إنكار إنعام الله وكفر النعمة يدخل في جحد أسماء الله وصفاته فناسب أن يأتي بعد باب جحد الأسماء .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

هذا الباب يقارب في موضوعه ومسائله أبوابا من كتاب التوحيد وهي:

١- الاستسقاء بالأنواء ، وقوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ الواقعة: ٨٢.

٢- باب: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ فصلت: ٥٠.

٣- باب لبس الحلقة ، وما يتعلق بالأسباب .

٤- باب ما جاء في قول لو .

الوقفة الرابعة: ما فات المصنف : ترك المصنف الاستدلال لهذا الباب بشواهد أخرى ظاهرة الدلالة سنذكرها في مسائل شرك الثناء والشكر .

الوقفة الخامسة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب: أورد المؤلف:

آية واحدة وهي في كفر النعمة في سورة النحل المسماة بسورة النعم .

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

والمعرفة ضد الجهل وضد الإنكار. والمعرفة المجردة التي لا تستلزم العمل بآثار صفات الله ويصاحبها تصديق القول العمل فليست بنافعة .

والمعرفة النافعة ما كانت على علم صحيح و أثمرت العمل واليقين والمراقبة.

والإنكار يطلق على : إنكار القلب وهو الجهل ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ .

وعلى إنكار اللسان مع اعتراف القلب ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ وهو بهذا مثل الجحود . والإنكار غالبا ما يقارن التكذيب والجهل .

فائدة في قوله : (وأكثرهم الكافرون) يدخل في جميع أنواع الكفر .

وأورد في تفسيرها ثلاثة آثار عن السلف في معناها :

١- أثر مجاهد: قول الرجل: هذا مالي ورثته عن آبائي.

٢- أثر عون بن عبد الله وهو متعلق ب(اللو): لولا فلان لم يكن كذا.

٣- أثر قتيبة: قولهم: هذا بشفاعة آلهتنا.

كما أورد كلاما لابن تيمية في الأدلة على شرك من يضيف إنعامه إلى غيره مستدلا بحديث الاستسقاء بالأنواء ونسبة المطر لها في الصحيحين.

وأورد قولاً لبعض السلف في أمثلة نسبة النعم لغير الله .

فائدة : سيأتي قول ابن القيم عن الآثار الثلاثة السابقة في آخر الباب.

الوقفة السادسة: المسائل العقدية في الباب :

مبحث : شرك الشكر والثناء وكفر النعمة

المسألة الأولى : حقيقة هذا النوع من الشرك : يقوم على أصلين :

الأول : عدم شكر الله وإنكار نعمه وفضله ويدخل هذا في الكفر .

الثاني : شكر المخلوق ومدحه والثناء عليه ونسبة الإنعام والفضل إليه ويدخل هذا في الشرك .

الثانية: الألفاظ المرادفة في الباب : الثناء والشكر والمدح والحمد والذكر والتسبيح والتقديس والتنزيه والتحية والاستغفار والحلف .

الثالثة : خطورة هذا الشرك وغفلة البعض عنه وإعراضهم عن تبيينه :

هذا الشرك يعرض الكثير عن ذكره ولم أر من أفرده ببيان مع انتشاره وخفائه وتنوعه وكثرته وكون كثير من الناس يقع فيه من غير أن يشعروا.

الرابعة: حكم الشكر والحمد والثناء ودرجاته:

يجب أن نعبد الله بهذا الجنس من العبادة التي هي الحمد والشكر والثناء والمدح والتحية وبقية العبادات التي تعتبر من هذا الباب .

كما يجب الإخلاص فيها بأن يوحد الرب سبحانه بها ويفرد باستحقاقها .

وهذه العبادات كغيرها تقوم على درجتين :

الأولى: مطلق الحمد والشكر وجنسه وهذا ركن وهو من الأصل الذي لا يعتبر العبد مسلما ما لم يأت به ويكفر تاركه.

الثانية : الحمد المطلق وهو من الكمال المستحب الذي يتفاوت الناس فيه .

الخامسة: أدلة هذه العبادة ودخول الشرك فيها:

الأدلة التي أوجبت هذه العبادة كثيرة منها:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الفاتحة: ٢ ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ البقرة: ١٥٢ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ طه: ١٣٠ ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ نوح: ١٠.

أدلة دخول الشرك في الثناء: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ البقرة: ١١٤ ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ الزمر: ٤٥ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ الصافات: ٣٥ ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ النحل: ٨٣ ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ الواقعة: ٨٢ ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ فصلت: ٥٠. ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢٢ . ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف: ١٠٦ . ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ البقرة: ٢٠٠ . ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ القصص: ٧٨.

وقال رسول الله ﷺ : (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم) متفق عليه.

وفي الحديث قوله ﷺ : (قال ربكم: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب) متفق عليه .

وعن أبي سعيد قال: قال النبي ﷺ : (إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله. إن رزق الله لايجره حرص حريص،ولايرده كراهية كاره) أخرجه أبو نعيم والبيهقي في الشعب.

السادسة : علاقة الشكر ببقية العبادات :

هناك علاقة تربط الشكر والذكر مع كل العبادات وكل منها يدخل في الآخر، فالشكر والذكر والحمد تكون بالقلب والقول والعمل فهي ترادف العبادة فمن عمل طاعة فقد ذكر وشكر بالفعل فتكون هذه أعم من الثناء والحمد باللسان فقط.

كما أن الشكر يقوم غالبا على الخضوع والتعظيم والحب والرجاء والتوكل.

السابعة : حقيقة عبادة الشكر وكيفية تحقيقه :

الشكر مبني على خمس قواعد لا يتحقق إلا بها كما قال ابن القيم :

١- خضوع الشاكر للمشكور .

٢- حبه له .

٣- اعترافه بنعمته .

٤- ثناؤه عليه بها .

٥- ألا يستعملها فيما يكره .

وقال: أصل الشكر الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع والذل والمحبة .

تنبيه : الشكر والتوحيد متلازمان وقد قرن الله تعالى بينهما في مواضع ، وضد ذلك كفران النعم يلازم الشرك ، ولابن تيمية كلام جميل في هذه العلاقة .

راجعها في الفتاوى ٨/ ٣٣ .

الثامنة : لماذا يحمد ربنا تبارك وتعالى ويستحق الشكر وحده ؟

لكماله ولإنعامه وفضله ولجماله سبحانه ولربوبيته وألوهيته . ولكونه المنعم ابتداء من غير استحقاق ومن غير أن يكون للعبد في الإنعام حول أو قوة .

التاسعة : شرك المدح والثناء والشكر والإنعام يدخل في جميع أنواع الشرك :

أولاً : يكون شركا في الربوبية ويكون شركا في الألوهية :

يتعلق بالربوبية ، وذلك إذا نسب الإنعام إلى المخلوق .

ويتعلق بالألوهية إذا شكر الناس وتعلق بهم وذل لهم وعظمهم ورجاهم وتوكل عليهم في حصول النعم .

ثانياً : يكون من الشرك الأصغر ويكون من الشرك الأكبر :

إذا اعتقد أن إيجاد النعم يكون من الخلق استقلالاً ، فهذا من الشرك الأكبر.

إذا نسب النعم إلى الخلق من باب الأسباب ، فهذا من الشرك الأصغر.

ثالثاً : يكون شركا في التعطيل وشركا في التمثيل :

فيدخل في شرك التعطيل، إذا عطل الله من فعل الإنعام وعطله من أن يشكره.

ويدخل في شرك التمثيل، عندما ينسب الإنعام للمخلوق ويشكره عليها.

رابعاً : يكون شركا اعتقاديا وقوليا وعمليا.

فشرك المدح والثناء والإنعام والإنكار يحصل بالقلب واللسان والجوارح .

خامساً : ويكون كفرا وشركا :

يكون كفرا إذا لم يشكر الله وأنكر نعمته وفضله .

ويكون شركا إذا شكر المخلوق ومدحه ونسب الإنعام والفضل إليه .

تنبيه : لا يدخل في هذا الباب قول الرسول ﷺ:(هل تنصرون إلا بضعفائكم).

تنبيه: نسبة النعم للآلهة والأموات والأولياء وزعم أن ذلك من باب الكرامات فإن هذا لا يكون إلا من الشرك الأكبر ويتعلق بالربوبية والألوهية معاً.

تنبيه : قول: لولا فلان لما حصل لنا هذا الخير والفضل، شرك من جهتين :

فيه نسبة الإنعام والخير للخلق ويختلف الحكم بين اعتقاد السببية فيه والتأثير.

كما أن فيه أيضاً الاعتماد والتوكل على غير الله وشكره والثناء عليه.

فائدة جميلة : يحسن أن تنسب النعم والخير إلى الله والشرور إلى أسبابها من باب التأدب مع الله مع اعتقاد أن الله خلقها وقدرها .

وقد أشار الله لهذا الأدب في مثل قوله تعالى:﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ .

العاشرة : أقسام شرك الثناء والمدح:

الشرك الأكبر : ومن ذلك ذكر المشركين لآلهتهم المعبودة والمطاعة والمتبعة، وتعظيمها وتسبيحها وتنزيهها ونسبة الخير إليها والفضل منها وحمدها ومدحها وطلب استغفارها والغضب على من يتنقصها والغيرة عليها .

الشرك الأصغر : كالمبالغة والتفاني في الثناء على المخلوق وإطرائه ، وحمد الناس على رزق الله .

قال تعالى :﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ النجم: ٣٢ .

قال ﷺ : (إذا لقيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب) رواه مسلم .

وقوله ﷺ لمادح بين يديه : (قطعت عنق صاحبك) رواه أبو داود.

وقوله ﷺ : (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم) متفق عليه.

الحادية عشرة : حالات وأقسام مدح المخلوق والثناء عليه :

أولا : المدح الشركي : وضابطه: أن يمدح المخلوق على أفعال الله ونعمه أو إذا قارن المدح التعظيم والخضوع والتذلل المطلق .

ثانيا : المدح والشكر الجائز :

وهو ما كان من قبيل العادة والعرف من دون إطراء أو غلو، وستأتي أدلته .

ثالثا : المدح المحرم :

وهو مدح من لا يستحق المدح ، ومدح الانسان نفسه وبما ليس فيه .

﴿ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ آل عمران: ١٨٨ .

وقال النبي ﷺ : (لا تقولوا للمنافق سيد فإنكم إن قلتم ذلك أغضبتم ربكم) رواه الحاكم.

أو نسبة النعمة إليه والالتفات له والمبالغة، وتقدمت أدلته.

م (١٢) : يجوز نسبة النعمة للخلق من باب الإخبار، وباب كونه سببا للفعل، ومن باب الاعتراف بالفضل لأهله ومدحه من دون مبالغة فيه ونسيان المنعم حقا.

يدل لذلك قوله ﷺ : (من لم يشكر الله لا يشكر الناس) رواه الترمذي.

وقوله ﷺ : (من صنع لكم معروفا فكافئوه) رواه أبو داود.

وقوله ﷺ في أبي طالب:(لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار) متفق عليه.

وثناء الله على عباده كما في قوله:﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ص: ٤٤ .

وقوله ﷺ : (نعم الرجل عبدالله) رواه البخاري.

م (١٣) : أوجه إنكار النعمة وصور كفرانها :الواردة في سورة النعم (النحل):

قال تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾.

١- نسبة الإنعام والفضل لغير الله تعالى.تكذيبا بقوله تعالى :

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ النحل: ٥٣ ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ النحل: ١٨.

٢- شكر الخلق على نعم الله .

مصداقا لحديث: إن من ضعف اليقين أن تحمد الناس على ما رزقك الله .

٣- أن يعتقد العبد أنه مستحق للنعمة وأن له حق فيها . كما أخبر تعالى:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ فصلت: ٥٠

٤- عدم القيام بشكر الله باللسان والقلب والجوارح ، أو قلة الشكر.

كما أخبر تعالى:﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ سبأ: ١٣.

٥- استخدام نعم الله تعالى في معاصي الله . كما أخبر تعالى :

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ الواقعة: ٨٢.

٦- احتقار النعم وازدراؤها وإهانتها، ومن ذلك: رمي النعم والطعام في الزبل، والصيد بغير قصد الأكل، وهذه انتشرت في زماننا ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال النبي ﷺ : (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) رواه مسلم .

تنبيه : أكثر الناس في نعم الله في طرفي نقيض :

منهم من أنكر نعم الله وجحدها وأظهر الفقر وبخل بالمال فتراه دائم الشكاية عديم الشكر والاعتراف لله بالجميل بحجة التواضع أو خوف العين والحسد أو

خوف أن يطلبه الناس العون ، ومنهم من يبذخ ويبطر ويسرف ويدعي أن هذا من الاعتراف بالنعمة والتحدث بها .

وقد ذم الله الحالين في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ .

الرابعة عشرة : آلات الشكر والمدح والثناء وضد ذلك من الكفران :

١- يكون بالقلب : وذلك باعتقاد أن الله هو الموجد للنعم والخالق والمتفضل والاعتراف له بالفضل ، وعدم اعتقاد استحقاق النعم أو أن المنعم أحد من الخلق.

٢- يكون بالقول : بالثناء على الله وشكره باللسان وعدم نسبتها لغيره.

٣- يكون بالعمل: وذلك باستخدامها فيما يرضيه وعدم الاستعانة بها على المعاصي، واستعمال الجوارح في طاعة الله فالعبادات البدنية كلها داخلة في الثناء.

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ الضحى: ١١ ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ سبأ: ١٣.

الخامسة عشرة : الفرق بين الحمد والشكر والمدح والثناء :

١- الحمد يكون باللسان فقط ويكون مقابل نعمة كالإنعام ويكون في غير مقابلة نعمة كالحمد على الشجاعة وكحمد الرب تعالى على عدم اتخاذ الولد.

الحمد يتضمن الثناء مع العلم بما يثنى به وإن انعدم العلم كان مدحا لا حمدا.

كما أن المدح يكون في الأعمال الظاهرة .

وإن كان الإخبار عن المحاسن مصحوبا بالحب والإجلال والرضا والإرادة فحمد وإن تجرد عن المحبة ولم تقارنه هذه الحالة فمدح.

كما أن الحمد إذا عرف بأل كان خاصا بالله لا يطلق على غيره تعالى إما ملكا أو استحقاقا والرب تعالى يمدح عباده الصالحين ويثني عليهم ولا يحمدهم لأن الحمد ليس إلا لمن علم بمحاسنه وكماله وهذا معدوم في غيره تعالى.

٢- الشكر يكون باللسان والعمل ﴿ اَعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ سبأ: ١٣.

ولا يكون إلا في مقابل نعمة ، وأيضاً ما للعبد فيه اختيار كالكرم .

٣- المدح يكون فيما يقابل نعمة وفيما ليس كذلك ، وفيما للعبد فيه اختيار وما ليس كذلك كالجمال ، ويكون باللسان فقط .

٤- الثناء أعم من ذلك كله فيشمل كل ما سبق إضافة على أنه يكون الثناء بالشر كما يكون الثناء بالخير ومنه حديث : (فمرت جنازة فأثنوا عليها شرا) رواه البخاري ، والثناء أخص من حيث يطلق على تكرار المحامد .

وإذا كان الإخبار عن المحاسن المتعلقة بأوصاف العظمة والجلال فالمجد وإن كانت أوصاف جمال وإحسان فحمد .

وهذا بين من حديث الفاتحة وقول ربنا تقدس وتعالى حمدني عبدي ومجدني وأثنى علي . مستقى الفروق من كلام الإمام ابن القيم في البدائع ٢/ ٩٥ وغيره.

فائدة : التحيات لله عز وجل :

وهذه خاصة به فلا تصرف لغير الله يدل لذلك حديث التشهد:(التحيات لله) ، وأما ما يقال ويجري على بعض الألسنة وهو لا يجوز كقولهم لبعضهم: لك خالص شكري أو لكم خالص تحياتي، ونحو ذلك مما يسمع كثيراً.

فائدة : الحلف له تعلق بالحمد والثناء .

السادسة عشرة : السب والذم ضد المدح يكون عبادة :

سب الكفار والمشركين وذمهم وإهانتهم وعيب آلهتهم، من أعظم العبادات ، كما أمر الله تعالى في قوله : ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ التوبة: ٢٩

﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ النمل: ٣٧

﴿ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ التوبة: ١٢٠

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح: ٢٩ .

وكل هذا يدخل ضمن البراءة من الكفار ومعاداتهم والكفر بالطاغوت، وهذه هي ملة إبراهيم .

وأما النهي عن سب آلهة المشركين فهذه حالة مخصوصة وليست عامة، والكلام عن ذلك مبين في شرح النواقض.

تنبيه : ذكرت الصور المعاصرة في هذا الشرك في شرح النواقض.

فائدة : قال ابن القيم في شفاء العليل : (لما أضافوا النعمة إلى غير الله ، فقد أنكروا نعمة الله بنسبتها لغيره ، فالذي قال:إنما كان هذا لآبائنا ورثناه، جاحدا لنعمة الله عليه غير معترف بها مع أن الإنعام بالإرث أبلغ ، وأما قول : لولا فلان فيتضمن قطع النعمة إلى من لولاه لم تكن وإضافتها إلى من لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا، وغايتها أن تكون سببا لا يستقل بالإيجاد ومع ذلك جعله سببا من نعم الله ، وأما قول بشفاعة الآلهة فيتضمن الشرك مع إضافة النعم ، والشفاعة بإذنه من نعمه فهو المنعم بها وبقبولها ، فمن المنعم سواه وما بكم من نعمة فمن الله) بتصرف.

باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤٢)

اسم الباب : الشرك الأصغر

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : الشرك الأصغر والألفاظ الشركية.

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بالتأدب مع الله ﷻ وتعظيمه وصيانة القول والعمل مما يقدح في كمال التوحيد وينقصه ويؤدي إلى الشرك.

فائدة : الصور الثلاث التي ذكرها المصنف أمثلة للشرك الأصغر:

١- الحلف بغير الله .

٢- نسبة الحوادث لغير الله والاعتماد على الأسباب . بقول لو لا فلان والكلب والبط لأتانا اللصوص.

٣- التشريك والتسوية في اللفظ والسبب في المشيئة وفي لو وفي التعوذ ، كقول: ما شاء الله وشئت ، لولا الله وفلان ، أعوذ بالله وبك.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

هذا الباب في بيان الشرك الأصغر وسد الطرق المؤدية إلى الشرك .

والأصل أن هذا الباب من الوسائل التي تؤدي إلى الشرك وتقدح في التوحيد.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

جاء في سياق الأبواب المبينة لكيفية حفظ جناب التوحيد وحراسته وصيانته وحمايته مما ينقضه أو ينقصه ، والتي مقصدها الأعظم تعظيم الله تعالى والتأدب معه .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

هذا الباب يعتبر من الأبواب الأمهات في كتاب التوحيد ويدخل فيه أبواب كثيرة تندرج تحت قاعدته وهي : باب الحلف. باب قول: ما شاء الله وشئت. باب ما جاء في اللو. لبس الحلقة ، الرقى والتمائم ، التبرك ، التطير ، الاستسقاء بالأنواء ، الأمن من مكر الله ، الرياء وإرادة الدنيا ، الغلو في الصالحين ، الغلو في القبور ، لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغيره ، من عبد الله عند قبر ، نسبة النعم لغير الله وكفر النعم ، اعتقاد استحقاق النعم ، سب الدهر وسب الريح ، جحد الأسماء والصفات ، احترامها، التسمي بقاضي القضاة ، الأَسْمَاء الحُسْنَى ، شرك التسمية ، قول:السلام على الله ، قول: اللهم اغفر لي إن شئت ، قول:عبدي وربي ، لا يرد من سأل بالله ، لا يسأل بوجه الله إلا الجنة ، التصوير، الظن بالله ، ذمة الله ، الإقسام على الله ، الاستشفاع بالله ، إنكار القدر، باب تقدير الله وتعظيمه ، وكل هذه الأبواب تدخل في الشرك الأصغر ، كما تعتبر من حماية لتوحيد وسد طرق الشرك.

ثالثاً : الرأي في ترتيبه بين الأبواب :

كان الأفضل تبويبا لو جعل المصنف هذا الباب بعد الأبواب التي في الشرك الأكبر وأبواب العبادات وأدرج بعده كل الأبواب المتعلقة بالشرك الأصغر ووسائل الشرك وبعدها يأتي بالأبواب التي تدل على حماية التوحيد وتعظيم الرب.

الوقفة الرابعة: ما فات المصنف :

لم يذكر المصنف لهذا الباب قاعدة يندرج تحتها أمثلة وأدلة ، وإنما جعل الباب قائما على بعض الأدلة التي يؤخذ منها قاعدة الشرك الأصغر .

كما أنه لم يذكر بقية أنواع الشرك الأصغر وإنما ذكر ثلاث صور لشرك الألفاظ وترك غيرها كشرك النيات والاعتقاد وشرك الأعمال التي من قبيل الشرك الأصغر.

الوقفة الخامسة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب: أورد المؤلف:

١- آية وهي آية الباب ترجم بها له ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٢- تفسير ابن عباس للآية في معنى الأنداد وخفاء الشرك وصوره له.

الأنداد: هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل.

وأورد له أربعة أمثلة كلها شرك بالله ، وهي من الأصغر:

* الحلف بغير الله : وحياتك وحياتي .

* نسبة الحوادث لغير الله لولا الكلب والبط في الدار لأتانا اللصوص.

* التشريك في المشيئة : ما شاء الله وشئت.

* التشريك في لو والسببية : لولا الله وفلان. رواه ابن أبي حاتم .

والصحابة يستدلون بالآية النازلة في الشرك الأكبر على الأصغر، لأنها تعم.

وقدمنا في الباب الرابع الخوف من الشرك : معنى الجعل ومرادفاته .

ومعنى الند وتقسيم التنديد إلى أكبر وأصغر وأن حقيقته ليست في الربوبية .

ومعنى ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فيقال فيها مثلما يقال في قوله ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ :

* تعلمون ربوبية الله وتؤمنون بها وتشركون به الأنداد في الألوهية .

* تعلمون استحقاق الله للعبادة وتؤمنون ثم تشركون الشرك الأصغر تنديدا.

٣- حديث : (من حلف بغير الله قد كفر أو أشرك) رواه الترمذي .

ونسبه لعمر بن الخطاب والصواب أنه لابنه .

٤- أثر ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذبا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقا. رواه الطبراني والصنعاني وابن أبي شيبة والطبري .

٥- عن حذيفة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان) رواه أبو داود.

٦- أثر إبراهيم النخعي: أنه يكره أن يقول أعوذ بالله وبك. ويجوز أن يقول: بالله ثم بك. قال: ويقول: لولا الله ثم فلان؛ ولا تقولوا ولولا الله وفلان.

فائدة : التفريق بين الشرك والند في حديث أبي بكر عند أبي يعلى :

الشرك : أعطاني الله وفلان . الند : لولا فلان قتلني فلان .

وإن كان ظاهرهما واحداً إلا أن بينهما فرقاً لطيفاً :

وهو أن الشرك ذكر الرب ومعه غيره مشروكا معه لولا الله وفلان، أما الند فيذكر المخلوق وحده دون الله لكن في فعل ليس من مقدوره لولا فلان لكان كذا.

فائدة : لفظ (العدل) و(الند) بمعنى واحد وتقدم .

فائدة: قوله: (كفر أو أشرك) دليل على عدم التفريق بينهما ، وتقدم.

الوقفة السادسة: المسائل العقدية في الباب :

وسنذكر هنا تحت هذا الباب مسائل الشرك الأصغر وضوابطه وأقسامه .

أما المسائل المتعلقة بالحلف والتسوية في الألفاظ في المشيئة وفي لو .

فسيأتي بها المصنف في ثلاثة أبواب مستقلة وسنذكر مسائلها فيها إن شاء الله.

مبحث : الشرك الأصغر

م (١) : أقسام الشرك إلى أكبر وأصغر :

ينقسم الشرك من ناحية خطره وعظمه إلى أكبر وأصغر .

الشرك الأكبر هو الذي لا يغفره الله ويخرج عن الملة . ومن أمثلته: السجود لغير الله والذبح والنذر لغير الله ، والخوف من المخلوق والتوكل عليه فيما لا يقدر عليه المخلوق، دعاء غير الله والاستغاثة بالميت وطلب الشفاعة منه والتشريع .

والشرك الأصغر ما دون ذلك .

م (٢): تعريف الشرك الأصغر وحقيقته :

اختلف أهل العلم في تعريفه وضبطه على أقوال :

القول الأول : أنه ليس له تعريف، وإنما يعرف بالأمثلة .

الثاني: له تعريف وضابط يعرف به ، إلا أنه لا يوجد تعريف إلا وعليه انتقاد.

ومن أضبط ما عرف به الشرك الأصغر بأنه :

كل ما نهى عنه الشرع مما هو ذريعة إلى الشرك الأكبر ووسيلة للوقوع فيه وجاء النص بتسميته شركا، ولا يصل إلى الشرك الأكبر .

فمن قال : الشرك الأصغر كل وسيلة للشرك الأكبر، قد يعترض عليه بأن هناك وسائل للشرك الأكبر ليست من الشرك كالصلاة عند القبور.

ومنهم من قال : كل شيء سماه الله تعالى شركاً ولم يصل إلى الشرك الأكبر أو لم يخرج من الملة، وقد يعترض عليه بوجود أمثلة للشرك لم يرد ذكرها في النصوص.

م (٣) : ضوابطه : يمكن أن يعرف الشرك الأصغر بعدة ضوابط أو ببعضها :

١- كل ما هو ذريعة إلى الشرك الأكبر ووسيلة للوقوع فيه .

٢- ما نهى عنه الشرع وسمّاه شركا من غير إخراج صاحبه من الملة .

٣- كل ما كان من قبيل التعلق بالأسباب والاعتماد عليها ونسبة الحوادث لغير الله ، أو تسبيب ما ليس بسبب . ومعظم الشرك الأصغر من باب الأسباب.

٤- كل ما ينافي كمال التوحيد ويقدح فيه وهو من جنس الإشراك ، فيخرج بهذا القيد المعاصي والكبائر .

٥- كل ما كان من قبيل الألفاظ وهيئة العمل من غير أن يقارنها اعتقاد .

٦- كل ما فيه تعلق القلب بغير الله واللجوء والتوجه إلى غيره، لكن لا يصل إلى رتبة العبادة ولا يتضمن عبادة للمخلوق .

٧- الذرائع والأسباب والدواعي والوسائل لحصول الشرك ووقوعه .

٨- ما جاء منكراً غير معرف فهو أصغر وما جاء معرفاً بأل فهو الأكبر .

م (٤) :قاعدة : وجه كون الشرك الأصغر شركا :

لأن فيه نوع شرك وذلك بإعطاء المخلوق بعض صفات الرب تعالى وخصائصه.

فائدة : معظم أنواع الشرك الأصغر من باب الأسباب .

م (٥) : قاعدة : وجه كون الشرك الأصغر شركا أصغر وليس بأكبر:

لأنه ليس فيه رفع للمخلوق إلى درجة الألوهية وليس فيه عبادة.

م (٦) : يوجد شرك أصغر لم ينص على أنه شرك وإنما يعرف بالقياس .

مثال : كالشرك الأصغر في المحبة وفي الخوف.

م (٧) : العلاقة بين وسائل الشرك والشرك الأصغر:

أغلب وسائل الشرك إن لم يكن جميعها فيها نوع شرك حتى التقليد والتصوير والتعظيم والكبر والتوسل ، لكن قد يوجد وسائل للشرك الأكبر وليست من باب الشرك الأصغر . مثل : الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها والصلاة في المقبرة من غير قصد التبرك .

لكن لا يوجد شرك أصغر إلا وهو وسيلة من وسائل الشرك الأكبر .

م (٨): تتنوع وسائل الشرك لنوعين خاصة بالقبور والأموات ووسائل عامة .

م (٩) : وجوب تغيير الألفاظ الموهمة والتي قد تكون وسيلة وذريعة للشرك.

م (١٠) : يسمي بعض أهل العلم الشرك الأصغر شرك الألفاظ :

وقصدوا بها أن قائلها لا يصاحب لفظه تعظيم وتذلل وشرك قلب .

لكن هذه التسمية يؤخذ عليها وجود شرك متعلق بالقلب وليس من الألفاظ كما أن بعض الألفاظ من الشرك الأكبر كدعاء غير الله ، وقد يكون مرجع هذا المصطلح للمرجئة الذين لا يكفرون إلا بالجحود والاستحلال وكفر القلب .

م (١١) : ورود تسمية الشرك بالأصغر وبالخفي في الشرع :

قال الرسول ﷺ : (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) قالوا وما الشرك الأصغر قال : (الرياء) رواه أحمد.

وقال الرسول ﷺ : (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال) قلنا : بلى يارسول الله ، قال : (الشرك الخفي ، أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل) رواه أحمد وابن ماجه.

م (١٢) : الفرق بين الشرك الخفي والباطن:

فائدة : البعض ضبط الخفي بما لا يعلمه الشخص ومن ذلك جاء التعوذ والاستغفار منه ، كما في الحديث (اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم).

والأظهر أنه خفي من ناحية كونه مصروفاً لله تعالى من حيث الأصل، فالمرائي صلاته صلاها لله وليست لمن يرائي له ولكن زينها وحسنها له . ولو أنه لم يُنشئ الصلاة إلا للمخلوق لكان شركا أكبر .

أما الشرك الباطن القلبي فمن مثل الخوف والتوكل والمحبة وبقية العبادات القلبية فهي شرك مستقل ظاهر وليس خفياً ، لأنها صرفت للمخلوق من دون الله فالخوف حاصل من المخلوق وهذا بخلاف الصلاة والسجود والحج والصدقة وغيرها من العبادات التي يدخلها الرياء فسجود المرائي وصلاته وحجه أصلها لله .

م (١٣) : مصطلح الشرك الخفي للرياء .

تسمية النبي ﷺ الرياء بالشرك الأصغر والشرك الخفي وسماه شرك السرائر:

لكن لا يدل على أن الشرك الخفي لا يكون منه شرك أكبر وأن الرياء لا يصل إلى الشرك الأكبر.

ويدخل البعض في الشرك الخفي أنواعا كثيرة غير الرياء ويزعم أن الرسول ﷺ فسّر الشرك الخفي ببعض أفراده فيدخل في الشرك الخفي شرك الخوف والتوكل وأعمال أخرى، وهذا خطأ فهناك فرق بين الشرك الخفي والشرك الباطن كما تقدم.

م (١٤) : الفرق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر :

١- أن الشرك الأكبر لا يغفره الله إجماعاً أما الشرك الأصغر فمحل خلاف .

٢- أن الشرك الأكبر يخرج من الملة والشرك الأصغر لا يخرج من الملة .

٣- أن الشرك الأكبر يحبط الأعمال والشرك الأصغر لا يحبط الأعمال .

٤- أن الشرك الأكبر يبيح الدم والمال والعرض وأما الشرك الأصغر فلا .

٥- تجري على صاحب الشرك الأصغر أحكام الإسلام وتجري على صاحب الشرك الأكبر أحكام الكفر والكافرين .

م (١٥) : سر وضابط الفرق بين الشرك الأكبر والأصغر :

١- أن الأكبر فيه عبادة لغير الله والعمل من أصله مصروف لغير الله، بينما الأصغر فاعله عابد لله ولكن عنده نوع توجه لغيره تعالى وأما العمل نفسه فهو لله.

٢- أن الأكبر مبني على الخضوع والذل لغير الله .

٣- أن الأكبر مبني على تعظيم المخلوق .

٤- يجتمع الشرك الأصغر مع الإيمان والإسلام بخلاف الشرك الأكبر .

٥- في الأكبر اعتقاد النفع والضر وإسناد الحوادث لغير الله فإذا وجد ذلك الاعتقاد في الأسباب كالتمائم والتطير ونحوها حولها إلى شرك أكبر.

م (١٦) : تحول الشرك الأصغر إلى أكبر:

قد يصير الشرك الأصغر شركا أكبر وذلك إذا قارنه الاعتقاد .

كأن يخرج من دائرة السببية إلى دائرة التأثير والاستقلال بالنفع والضر.

وذلك مثلاً في تعليق التمائم وقول (ما شاء الله وشاء فلان ولولا فلان).

م (١٧) : اختلف العلماء في الشرك الأصغر هل يغفره الله تعالى أو لا يغفره .

فمن أهل العلم من ذهب إلى أن الشرك الأصغر لا يغفره الله تعالى للآية التي في سورة النساء : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ .

وقالوا : في هذه الآية عموم ، فهي عامة للشرك الأصغر والأكبر ودلت الآية على العموم لأنها نكرة في سياق النفي .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الشرك الأصغر يغفره الله ﷻ .

وقال غيرهم: إن الشرك الأصغر لا يغفره الله ﷻ، لكن عدم مغفرة الله تعالى لا يستلزم دخول النار ولا يستلزم الخروج من الملة ، فقد يعذب الله ﷻ المشرك شركاً أصغر بأمراض أو نحوها في الدنيا أو بالعذاب في القبر أو يوم القيامة ، دون أن يدخل النار ، وقد يدخل النار ولكن لا يخلد فيها .

قال ابن تيمية : (إن الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر لعموم الآية) .

وقال : (الشرك لا يغفر منه شيء لا أكبر ولا أصغر ، على مقتضى القرآن ، وإن كان صاحب الشرك الأصغر يموت مسلماً ، لكن شركه لا يغفر له بل يعاقب عليه وإن دخل بعد ذلك الجنة) . الاستغاثة ١٤٦ .

م (١٨) : الشرك الأصغر أعظم من الكبائر التي ليست بشرك .

قال ابن مسعود ﷺ : لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أحلف بغيره صادقا .

م (١٩) : علة خوف الرسول ﷺ من الشرك الأصغر :

لأن فاعله يفعله ولا يهتم له ولا يخشى من عواقبه فيستهين به حتى يوصله للشرك الأكبر من حيث لا يشعر ، فتنتشر ذرائع الشرك ومسوغاته والناس في غفلة .

م (٢٠) : الشرك الأصغر في العبادات:

هل يوجد عبادة صغرى ، وحقيقة عبادة الدنيا والدينار ، وهل الشرك الأصغر فيه عبادة لغير الله ، ومثلها ألوهية اتخاذ الهوى إلها .

العبادة حق لله وخاصة به لا تصرف لغيره .

كما في حديث معاذ : (حق الله على العبيد).

والعبادة هي التذلل والخضوع والمحبة والتعلق والإرادة والتعظيم.

ومن تذللت له حبا وتعلقا فقد عبدته.

ولذلك من تعلق بهواه وخضع له وأحب ما يهوى فقد صار عبدا له ، ومن أراد الدنيا والمال وعظمها وأحبها وقدمها وتعلق بها وأرادها فقد عبدها.

فمن تعلق قلبه بالدنيا حتى تصير همه ويضيع بسببها الواجبات ويفعل المحرمات ويوالي فيها ويعادي ويرضى بسببها ويسخط، فهذا يقال عنه عبد الدنيا .

وهذا هو حقيقة عبادة الدنيا والمقصود بقول الرسول ﷺ : (تعس عبد الدنيا إن أعطي منها رضي وإن منع منها سخط) رواه البخاري. تسمية الإنسان المسلم عبد الدنيا والدينار والمال ، وذلك أنه لما كانت الدنيا هي مقصود الشخص ومطلوبه الذي عمل له وصارت نيته مقصورة عليه يغضب ويرضى لها صار بذلك عبدا لها .

كما جاء تفسير ذلك في نص الحديث: بأنه إن أعطى رضي، وإن لم يعط سخط.

قال ابن رجب في فتح الباري عن حديث تعس عبد الدينار:(فدل على أن كل من أحب شيئا وأطاعه وكان غاية قصده ومطلوبه ووالى لأجله وعادى لأجله فهو عبده وذلك الشيء معبوده وإلهه).

وعبودية الدنيا هذه فيها نوع من معاني العبادة ، لا أصل العبادة التي يكفر من صرفها لغير الله. وليس المقصود بالعبودية هنا العبادة الكلية الكبرى الحقيقية التي يكفر من صرفها لغير الله وإنما الصغرى والتي تدخل في الشرك الأصغر، وسميت عبادة وجعلت منها لوجود بعض معاني العبادة فيها .

ومثلها العبادات الصغرى الشرك الأصغر في عبادة المحبة والخوف.

م (٢١) : قاعدة : شرك الأسباب وإسناد الحوادث لغير الله .

باب يدخل فيه معظم صور الشرك الأصغر.

إما بجعل ما ليس بسبب سببا ، أو بالغلو في السبب والاعتماد عليه .

قاعدة:حقيقة الشرك في قول ما شاء الله وشئت، ولولا كذا لصار كذا، ومطرنا بالربيع، وفي تعليق التمائم، والرقى ، والتبرك الممنوع ، والتطير ، والتوسل البدعي.

شرك لأن فيها نسبة شيء من التدبير والتأثير لغير الله . فإن اعتقد فيها الاستقلال في التدبير والمشيئة فأكبر، وإن جعلها مجرد سبب فشرك أصغر.

فائدة سيأتي وجه كون العجب والكبر والفخر والطعن في الأنساب والجزع من القدر من الشرك الأصغر .

م (٢٢) : كفارة الشرك الأصغر: لما قال الرسول ﷺ أيها الناس اتقوا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل قالوا وكيف نتقيه يارسول الله قال قولوا : (اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه) رواه أحمد بسند ضعف.

م (٢٣) : حمى الرسول ﷺ جناب التوحيد وسد كل طريق يوصل إلى الشرك:

ترك الألفاظ الموهمة والمحتملة وصيانة اللسان عنها والتي قد تفضي للشرك.

م (٢٤) : أقسام الشرك الأصغر :

ينقسم الشرك الأصغر إلى : شرك خفي وظاهر.

وينقسم الظاهر إلى : اعتقادي قلبي ، وقولي ، وعملي متعلق بالجوارح.

وينقسم إلى شرك أصغر متعلق بالربوبية ومتعلق بالألوهية .

القسم الأول: شرك أصغر خفي وهو الرياء .

القسم الثاني: شرك أصغر ظاهر وهو نوعان:

النوع الأول: في الربوبية وفي الأسماء والصفات، ويكون في ثلاثة أمور:

الاعتقاد: كمن يعتقد في أمرٍ أنه سبب في دفع ضر وجلب نفع وهو ليس سبباً كأن يظن التميمة تدفع العين أو يعتقد أن النجم سبب للمطر وكالتشاؤم.

أو يسمي المخلوق بشيء من أسماء الله .

الأعمال: تعليق التمائم ، والتصوير، والتطير.

الأقوال: ماشاء الله وشئت ولولا كذا لصار كذا، من ينسب المطر للنجم.

النوع الثاني: في الألوهية، ويكون في ثلاثة أمور:

الاعتقاد القلبي: كخوف المخلوق أو التعلق به . كخوف الحيوان المتشائم منه .

الأعمال: كأن يتمسح بجسده طلباً للبركة، مثل التمسح بجدران الكعبة ، أو يذهب إلى القبور لقصد الدعاء عندها لأجل ما يريده ويظنه من تحصيل بركتها .

الأقوال: كالحلف بغير الله، ومدح الناس وشكرهم على ما آتاك الله .

م (٢٥) : **بعض الأفعال تدخل في أكثر من قسم** : فتكون شركا في الربوبية وشركا في الألوهية . وشركا في الاعتقاد والقول والعمل . وتكون أكبر وأصغر . كالتشاؤم والتبرك يكون بالقلب واللسان والجوارح ، وشركا في الربوبية والألوهية.

م (٢٦) : **أمثلة على الشرك الأصغر** :

١- الرياء .

٢- السمعة .

٣- العجب .

٤- إرادة الدنيا بعمل الآخرة .

٥- الكبر ، ويدخل فيه الفخر .

٦- الحلف بغير الله ، (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) رواه الترمذي .

٧- التسوية في اللفظ ، كقول : لولا الله وفلان وقول ما شاء الله وشئت ، وفيه الحديث : (إنكم تشركون،تقولون ماشاء الله وشئت) أحمد.

٨- قول (لولا) : لولا الكلب لسرق البيت .

٩- تعليق الحوادث بغير الله وإسناد الأمور للأسباب والاعتماد عليها بالكلية. وتحت هذا الباب جملة من الأمثلة .

١٠- لبس الحلقة والخيط والتمائم ، (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) أحمد .

١١- التشاؤم والطيرة والتطير ، (الطيرة شرك) رواه أحمد وأبو داود .

١٢- عبادة الدنيا والمال والمنصب ، (تعس عبد الدينار) البخاري .

١٣- طاعة المخلوق في معصية الخالق .

١٤- التسمي بالحكم وقاضي القضاة وملك الملوك .

١٥- التعبيد لغير الله .

١٦- التسخط على القدر ، وهذا باب يدخل تحته أمثلة كثيرة .

١٧- نسبة المطر للنجم والأجواء، مطرنا بنوء وبالنجم الفلاني بسبب الشتاء.

١٨- الاستشفاع بالله على خلقه .

١٩- التصوير .

٢٠- تعظيم المخلوق والمبالغة فيه.

٢١- التعلق بالمخلوق .

٢٢- التبرك .

٢٣- الطعن في النسب .

٢٤- الفخر بالأحساب .

٢٥- الجزع والتسخط على القدر وعدم الصبر.

٢٦- قول (لو) .

٢٧- سب أفعال الله .

٢٨- سب الدهر .

٢٩- سب الريح .

٣٠- القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله .

٣١- الأمن من مكر الله .

٣٢- تسمية المخلوق بأسماء الله ووصف الله تعالى ببعض صفات خلقه .

٣٣- تعليق الدعاء بالمشيئة إذا قصد المعنى المحذور .

٣٤- شكر الناس على نعم الله .

٣٤- الشرك الأصغر في العبادات القلبية .

٣٥- الشرك الأصغر في المحبة .

٣٦- الخوف الأصغر .

٣٧- التوكل الأصغر .

٣٨- ترجي المخلوق .

٣٩- القيام للمخلوق تعظيما له .

٤٠- الحكم بغير ما أنزل الله في قضية معينة للهوى من غير استحلال .

٤١- تعظيم القبور ، ومن ذلك إسراجها والبناء عليها .

٤٢- الذبح والصلاة في أماكن عبادات الكفار .

٤٣- رعاية الآثار وتعظيمها .

٤٤- التوسل .

فهذه بضعة وأربعون فعلا شركيا من باب الشرك الأصغر.

باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله (٤٣)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : قاعدته في الحلف وحكم من لم يقنع به .

وفي الباب مقاصد أخرى وهي : عدم الشرك في الحلف .

تعظيم الله حال الحلف من الحالف ومن المحلوف له.

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بالتأدب مع الله ﷻ وتعظيمه ، كما أنه من الوسائل التي تحفظ جناب التوحيد.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

عدم القنوع باليمين فيه عدم تعظيم الله وينافي الأدب معه وكمال توحيده.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

أورده المؤلف بعد الباب الذي بين فيه الشرك الأصغر وشرك الألفاظ ، فهو من التفصيل بعد الإجمال ، فجاء في سياق الأبواب المبينة لكيفية حفظ التوحيد وسد طرق الشرك .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

هذا الباب له علاقة بباب الشرك الأصغر لكن العملي لا اللفظي، وأبواب تعظيم الله.

الوقفة الرابعة: ما فات المصنف :

أن يدرج في الباب المسائل المتعلقة بالحلف والشرك فيه .

الوقفة الخامسة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد المؤلف حديثا واحدا :

عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: (لا تحلفوا بآبائكم،من حُلِف له بالله فليصدِّق، ومن حُلِف له بالله فليْرضَ ، ومن لم يرض فليس من الله)رواه ابن ماجه بسند حسن.

الحديث جاء بثلاثة أحكام ، المقصود منها تعظيم الرب :

١- تحريم الحلف بغير الله .

٢- وجوب الصدق في الحلف وعدم الكذب.

٣- وجوب رضا المحلوف له وتصديق الحالف .

معنى ليس من الله:ليس من أوليائه ومتبعي أمره المستحقين لرضاه والله أعلم.

الوقفة السادسة: المسائل العقدية في الباب :

سنذكر هنا المسائل المتعلقة بالحلف، كما ستأتي مسائل أخرى متعلقة بالحلف وحفظه في باب ما جاء في كثرة الحلف (٦٢).

علاقة مبحث الحلف بالتوحيد

مقاصد مبحث الحلف: عدم الشرك في الحلف ، والصدق فيه ، والرضا ممن يحلف له وحفظ اليمين وعدم الإكثار منه ، والتأدب مع الله ﷻ وتعظيم الله حال الحلف من الحالف ومن المحلوف له وهذا من الوسائل التي تحفظ جناب التوحيد.

م (١) : تعريف الحلف :

هو: تأكيد الكلام بصيغة الجزم وأداة القسم مقترناً باسم من أسماء الله أو صفة من صفاته ، وهي الباء والواو والتاء ، وكذا لفظ أحلف وأقسم .

ويسمى : اليمين والقسم والحلف والإيلاء .

واليمين ثلاثة أنواع: منعقدة ، لغو غير مقصوده ، غموس.

م (٢) قاعدة : يجوز الحلف بصفات الله مثل : وعهد الله ، ودين الله .

م(٣) : الحلف بالأمانة : لا يجوز .

جاء في الحديث : (من حلف بالأمانة فليس منا) رواه أحمد وأبو داود.

تنبيه : قول العامة في وجهي وأنا في وجهك وأدخل عليك وأطلبك .

ليس من الحلف وإنما هو من الاستعانة والمحالفة والحماية.

م (٤) : حلف الله بالمخلوقات هذا لله فله أن يقسم بما شاء من خلقه وليس لخلقه أن يقسموا إلا به.

م (٥) : الأدلة على تحريم الحلف بغير الله وبيان أنه من الشرك :

قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢٢.

وفسر ابن عباس الأنداد في الآية: بالحلف بغير الله ونحوه. رواه ابن أبي حاتم.

١ – عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) رواه أبو داود والترمذي وأحمد والحاكم.

٢ – قال النبي ﷺ :(ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت) رواه البخاري ومسلم .

تنبيه : النهي عن الحلف بالآباء ليس له مفهوم ، فالحلف بغير الله يحرم مطلقا بالآباء أو بغيرهم.

٣- عن قتيلة أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: (ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء ثم شئت) رواه النسائي وأحمد والحاكم.

٤- عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال:(لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق ،ومن حلف له بالله فليرض،ومن لم يرض فليس من الله)رواه ابن ماجه بسند حسن.

م (٦) الجواب عن حديث: (أفلح وأبيه)، وحديث أبي هريرة عند مسلم (نعم وأبيك) فهي لفظة منكرة غير محفوظة ، ثم يقال في الجواب عنها أوجه:

الأول: أن هذه اللفظة ليست للحلف، وإنما تجري على الألسنة من غير قصد القسم ومثلها العبارات التي تجري مجرى الدعاء من غير قصده كثكلتك أمك .

الثاني: أن الواو ليس للحلف وإنما للعطف والمعنى أفلح وأفلح أبيه ، لأن فلاح الابن فلاح لأبيه غالبا .

الثالث : أن هذا الحلف كان منه ﷺ قبل النهي عنه، ويدل لذلك حديث قتيلة السابق، عليه فالحلف بالآباء منسوخ .

م (٧) : أحوال الحلف بغير الله :

١- يكون شركاً أكبر إذا اعتقد أن المحلوف به مساوٍ لله تعالى، وحصل في قلبه التعظيم وقارنه الذل للمخلوق المحلوف به والمهابة والخوف منه، ويعد هذا الصنيع شركا أكبر لكون الحالف صرف خصيصة من خصائص الألوهية والربوبية

للمخلوق ، كما هو حال القبورية الذين جعلوا جهد أيمانهم الحلف بالشيوخ والأولياء، فإذا طلب من أحدهم الحلف بالله وهو كاذب حلف فإذا طلب منه الحلف بالولي والميت توقف خوفا وإجلالا .

٢- يكون شركاً أصغر : وهذا إذا كان مجرد لفظ من غير قصد التعظيم والتذلل كما جرى على ألسنة البعض الحلف بالأمانة والشرف والنبي وحياة الأب .

فكون شرك الألفاظ من الشرك الأصغر مرجعها ومدارها على القصد والاعتقاد .

م (٨) : خطأ بعض الفقهاء في قولهم إنه يطلب من الخصم أن يحلف بغير الله:

وذلك إذا عرف عنه أنه لا يحلف به كاذبا . ومثل ذلك قول بعضهم يطلب من الحالف أن يحلف عند مكان معظم وذكر بعضهم القبر وصخرة بيت المقدس وهذا من الجهل والبعد عن مقاصد الشريعة .

قال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذبا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقا.

رواه الطبراني والصنعاني وابن أبي شيبة والطبري .

وذلك لأن الحلف بغير الله شرك ، وأما الكذب فهو كبيرة وليس بشرك، والشرك أعظم ذنب عصي الله به ولذلك لا يغفره الله تعالى .

م (٩) : كفارة الحلف بغير الله :

أن يقول الحالف لا إله إلا الله ، ويستغفر ، ويدل لذلك : (من حلف فقال في حلفه واللات والعزى فليقل لا إله إلا الله) ، وفي رواية فليستغفر . متفق عليه

م (١٠) : الوعيد في من لم يقنع بالحلف بالله :

لأن عدم القنوع باليمين فيه عدم تعظيم الله وينافي الأدب معه وكمال توحيده.

ولكن إذا كان الحالف معروفاً بالكذب فلا يشمله الحكم بوجوب الرضا.

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض. ومن لم يرض فليس من الله) . رواه ابن ماجه.

تنبيه: إذا كان الحالف معروفاً بالكذب فلا يشمله الحكم بوجوب الرضا بيمينه ، ويدل لهذا أحاديث منها حديث حويصة ومحيصة وقولهم للرسول ﷺ كيف نرضى يا رسول الله بأيمان اليهود) متفق عليه ، ولم ينكر عليهم .

فائدة : قول عيسى ﷺ في الرجل الذي رآه يسرق فحلف أنه ما سرق : (آمنت بالله وكذبت عيني) متفق عليه .

قيل الرجل لم يسرق في الحقيقة وربما يكون قد أخذ ما له حقٌّ فيه .

والصواب أنه كان سارقا وصدق عيسى يمينه تعظيما ومهابة واحتراما لله ﷻ.

باب قول: ما شاء الله وشئت (٤٤)

اسم الباب : التسوية اللفظية

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : قول: ما شاء الله وشئت ، وحكم التسوية بين الله وخلقه في اللفظ وأن هذا يعتبر من الشرك الأصغر والألفاظ الشركية.

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بالتأدب مع الله ﷻ وتعظيمه وصيانة القول والعمل مما يقدح في كمال التوحيد وينقصه ويؤدي إلى الشرك.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

حقيقة قول: (ما شاء الله وشئت) أن فيه قدح في التوحيد وشيء من الشرك ، لما فيها من التعلق بغير الله والتوكل على الخلق ، ونسبة الحوادث للخلق ، ولما فيها من نسبة شيء من التدبير والتأثير لغير الله، وهي داخلة في عموم شرك الأسباب .

والقاعدة في هذه الألفاظ أنها من الشرك الأصغر وقد تصل إلى الأكبر.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

جاء في سياق الأبواب المبينة لكيفية حفظ جناب التوحيد وحراسته وصيانته وحمايته مما ينقضه أو ينقصه ، والتي مقصدها الأعظم تعظيم الله تعالى والتأدب معه .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:هذا الباب يشبهه أبوابا بينت الألفاظ الشركية القادحة في التوحيد والمنافية للتأدب مع الله ﷻ والتي هي من وسائل الشرك .

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب: أورد المؤلف:

١- حديث قُتيلة الأنصارية : (أن يهوديا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت) رواه النسائي .

٢- حديث ابن عباس رضي الله عنهما: (أن رجلا قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت. فقال: أجعلتني لله ندا؟ ما شاء الله وحده). رواه النسائي .

٣- حديث الطفيل الزهراني أخي عائشة لأمها قال : (رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود قلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون عزير بن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررت بنفر من النصارى فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح بن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال: هل أخبرت بها أحدا؟ قلت: نعم قال فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن طفيلا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده) رواه ابن ماجة. **ولنا مع الحديث خمس وقفات:**

١- معرفة اليهود بالشرك الأصغر، مع مكابرتهم للحق وامتناعهم عن اتباعه.

٢- حكم العبارة بينته الرؤيا وهي من الوحي وقد شرع بها أحكام كالأذان.

٣- هذه العبارة ليست من الشرك الأكبر لأنها لو كانت منه لما أخر إنكارها .

٤- معنى (يمنعني كذا) :المانع له ﷺ هو الحياء ، كما جاء مصرحا به في رواية .

٥- تنبيه : هناك حكما كثيرة في كون هذه اللفظة المنكرة لم ينكرها إلا اليهود .

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

أمثلة المسألة التسوية اللفظية : كقول: ما شاء الله وشئت ، مالي إلا الله وأنت ، توكلت على الله وعليك ، من الله والوقت، أعوذ بالله وبك.

م (١) : معنى المشيئة من الفعل شاء يشاء بمعنى أراد.

م (٢) حقيقة الشرك في قول ما شاء الله وشئت، ولولا الله وفلان لصار كذا:

شرك لأن فيها نسبة شيء من التدبير والتأثير والحوادث لغير الله .

إن اعتقد أنه يساوي الله في التدبير والمشيئة وأن هذه الأمور تؤثر وتدبر فهذا شرك أكبر ، وإن لم يعتقد ذلك واعتقد أن الله وتعالى فوق كل شيء لكن اعتمد على السبب وساواه بالمسبب فهذا شرك أصغر.

تنبيه : هذه اللفظة تقدح في توحيدي الألوهية والربوبية:

شرك ربوبي باعتقاده وجود مدبر مريد مع الله، وألوهية بتوكله على المخلوق.

تنبيه: كره إبراهيم النخعي قول: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: بالله ثم بك.

الاستعاذة كالاستغاثة لا تطلب إلا من الله إلا ما كان تحت قدرة المخلوق.

م (٣) : فعل المشيئة يوصف بها الرب ﷻ والعبد:﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

ومشيئة الله أحد مراتب القدر الأربع .

والعبد له مشيئة حقيقية لكنها داخلة تحت مشيئة الله ولا تحصل إلا بقدر الله.

ومشيئة الله تنكرها القدرية وتزعم أن الله لم يقدر ويشأ ويخلق أفعال العباد .

ومشيئة العبد تنكرها الجبرية .

م (٤) : الأدلة المحرمة لقول: ما شاء الله وشئت :

١- عن حذيفة ﷺ عن النبيﷺ قال: (لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان) رواه أبو داود بسند صحيح.

٢- عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: (أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده) .

وفي رواية (أجعلتني لله عدلا؟ قل ما شاء الله وحده) رواه أحمد .

٣- عن قتيلة أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: (ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء ثم شئت) رواه النسائي وأحمد والحاكم.

٤- حديث الطفيل الزهراني أخي عائشة لأمها:(فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده) رواه ابن ماجه.

م (٥) : الفرق بين الواو وثم في (ما شاء الله ثم شئت / ولولا الله ثم فلان) :

أن ثم تقتضي التعقيب والتراخي والواو تقتضي التسوية والتشريك .

وأكملها قول ما شاء الله وحده .

وما شاء الله ثم شاء فلان تجوز.

أما ما شاء الله وشاء فلان فلا تجوز.

التسوية إن كانت في اعتقاد الاستقلال بالفعل والشراكة في القدرة والتأثير فهذا شرك أكبر، وإن كانت التسوية في اللفظ فقط ومجرد السبب فهذا من الأصغر.

م (٦) : المقارنة بين هذه اللفظة وبعض ألفاظ القبورية المشركة :

إذا كان هذا قوله ﷺ أجعلتني لله ندا؟ فيمن قال ما شاء الله وشئت، فماذا سيقول فيمن قال: يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك وأبياته البقية في قصيدته.

قال ابن القيم في الجواب الكافي: (ومن الشرك به سبحانه الشرك به في اللفظ، كقول القائل للمخلوق: ما شاء الله وشئت، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال له رجل: (ما شاء الله وشئت. فقال: أجعلتني لله نداً، قل ما شاء الله وحده)أحمد. وهذا مع أن الله أثبت للعبد مشيئة كقوله: (لمن شاء منكم أن يستقيم) ، فكيف من يقول: أنا متوكل على الله وعليك، وأنا من حسب الله وحسبك، وما لي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض، ويقول: والله وحياة فلان، أو: يقول: نذراً لله ولفلان، وأنا تائب لله ولفلان، وأرجو الله وفلاناً، ونحو ذلك؟ فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل: (ما شاء الله وشئت)، أيها أفحش؟ يتبين لك أن قائلها أولى بجواب النبيﷺ لقائل تلك الكلمة.

وأنه إذا كان قد جعله نداً لله بها، فهذا قد جعل من لا يداني رسول الله ﷺ في شيء من الأشياء، بل: لعله أن يكون من أعدائه؛ نداً لرب العالمين).

م (٧) : الجمع بين النهي عن قول هذه الألفاظ وبعض العبارات المشروعة :

أولاً : الجمع بينها وبين قوله تعالى: ﴿ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ التوبة: ٧٤، ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ الأحزاب: ٣٧.

١- أن هذا من كلام الله وله تعالى أن يخبر بما شاء .

٢- أن إثبات ذلك مقيد والرسول ﷺ سبب في هذه الأمور، فقد أنعم على زيد بالعتق والناس بالصدقة، والله المنعم حقيقة وهو المغني والعالم حقيقة .

٣- أن النهي عن هذه الألفاظ من باب سد الذريعة ولتحقيق تعظيم الله تعالى وإفراده بالتصرف والمشيئة والكمال والنفع والضر والقدرة والخلق والتأثير .

ثانياً : الجمع بينها وبين قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ النور: ٥٢.

أن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى .

ثالثاً : الجمع بينها وبين حديث: (إن الله ورسوله حرم) متفق عليه .

أن تحريم الرسول ﷺ هو بتحريم الله ﷻ فليس الرسول ﷺ مشرّعاً للدين استقلالا وإنما هو مبلغ عن الله دينه وشرعه.

أما إنكار الرسول ﷺ على الخطيب الذي قال : (ومن يعصهما فقد غوى) فقال له : (بئس الخطيب أنت) رواه مسلم.

فلأن الخطيب كان قادرا على الإتيان بالاسم الظاهر، ثم أراد أن ينبه المسلمين للتأدب مع الربوبية وعدم الغلو فيه وقرنه بالله في المنزلة مما قد يفهم منه تسويته بالله .

رابعاً : الجمع بينها وبين قول عائشة: (أتوب إلى الله ورسوله) رواه البخاري.

أن التوبة بمعنى الرجوع اللغوي ويكثر هذا على ألسنة الناس، أو أن التوبة للرسول توبة لله مثل الطاعة وليست العبادة والأول أقرب.

ويؤيد ذلك قول الأعرابي اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد فقال ﷺ : (عرف الحق لأهله) رواه أحمد.

ومثلما سبق قول الصحابة زمن حياة الرسول ﷺ : (الله ورسوله أعلم) .

باب من سب الدهر فقد آذى الله (٤٥)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : تحريم سب الدهر لأنه سب لفاعله وهو الرب ﷻ .

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بالتأدب مع الله ﷻ وتعظيمه والوسائل التي تحفظ جناب التوحيد وتسد ذرائع الشرك وتغلق أبوابه.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

١- أن في السب قدح في باب التوحيد من عدة أوجه .

٢- عدم الرضا بالله وبأفعاله وأقداره .

٣- تعظيم الله تعالى وعدم القدح في أفعاله وتقص تصرفاته .

٤- فيه إيهام بنسبة الحوادث للخلق وتأثيرهم من دون الله.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

قد يلتمس له مناسبته من حيث كونه جاء في سياق الأبواب المبينة للشرك الأصغر في الألفاظ .

ومن جهة أخرى فسب الدهر يشعر بوجود من يخلق ويؤثر مع الله فيكون بذلك يرجع لنفس الأصل الذي رجع فيه الباب السابق وهو التشريك في المشيئة.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

هذا الباب له علاقة بأبواب المتعلقة بالربوبية والصفات وتعظيم الرب ﷻ واحترامه .

كما له علاقة بالأبواب القدرية في الكتاب والرضا بالقدر والصبر عليه.

وله علاقة بأبواب الشرك الأصغر والمحاذير اللفظية .

الوقفة الرابعة: ما فات المصنف :

فاته رحمه الله أن يدرج في الباب أصل جامع في القدح في أفعال الله.

الوقفة الخامسة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب: أورد المؤلف:

١- قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ الجاثية: ٢٤ .

٢- حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (قال تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر أقلب الليل والنهار) رواه البخاري.

وفي مسلم: (لا تسبوا الدهر،فإن الله هو الدهر) .

الوقفة السادسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١) : تعريف الدهر وسبه :

هو الزمان الذي هو الساعات والأيام والليالي والشهور والسنين.

والدهر ليس من أسماء الله ﷻ كما توهم البعض.

ومعنى أنا الدهر أي مالكه ومدبره كما فسره بتقليب الليل والنهار وتصريفها .

والسب هو الذم والشتم والقدح واللمز.

وله أمثلة لا تكاد تحصر على ألسنة العوام والشعراء الذين يندبون زمانهم.

فيقولون : زمن غدّار ودهر أقشر وزمن أسود وسنة سوء وساعة شر.

والحق أن يقال فيهم: نعيب زماننا والعيب فينا   وما لزماننا عيب سوانا.

م (٢) : المقصود في الآية المتعلقة بسب الدهر طائفتان :

مشركو العرب : الذين ينكرون البعث ، ويزعمون أن الدهور وطول السنين هي المهلكة وليس بعد الحياة الدنيا حياة.

الفلاسفة : وهم مذهبان :

الإلهيون الذين يقرون بالخالق لكن ينكرون البعث ويقولون بقدم العالم.

الطبعيون الدهريون الذين ينكرون الخالق والبعث معا ، ويزعمون أن الطبيعة خلقت نفسها.

تنبيه : البعث دلت عليه أدلة الشرع والعقل والحس.

م (٣) : سب الدهر يتعلق بالقدح في توحيد الربوبية والألوهية:

أولاً : وجه دخوله في الشرك في الربوبية : إذا اعتقد أن للدهر تأثيراً وتدبيراً فيه، وأنه الفاعل والمؤثر، ومثله اعتقاد أن الريح مدبرة وتؤثر من دون الله تعالى .

ثانياً : وجه دخوله في شرك الألوهية: تسخط على أقدار الله وأفعالـه وربوبيتـه وعدم الرضا بها .

م (٤) : علة النهي عن سب الدهر والريح وعموم أفعال الله:

١- أن في سبه سب لمصرفه وخالقه وفاعله المدبر له.

٢- كذلك يوهم ما تعتقده الدهرية من نسبة التدبير إلى غير الله، وأنه الفاعـل والمؤثر، ومثله سب الريح فيه سب لخالقها ومرسلها .

٣- أيضا فيه تسخط على أقدار الله وأفعاله وربوبيته .

وهذه الأمور تدخل في الشرك الأصغر .

م (٥) : السب يقع على أحد ثلاثة أوجه :

١- أنه ظرف الأقدار المكروهة التي حصلت فيه، فهذا محرم للعلل الثلاث.

٢- السب على أن له دخلاً وسبباً وأثراً ، وهذا شرك ويدخل في النوعين : فإن اعتقد السببية فشرك أصغر وإن اعتقد الاستقلال في التأثير فشرك أكبر.

٣- إخبار محض ووصف لا يقصد منه السب وهذا لا يدخل في المنهي .

كمثل ﴿ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ فصلت: ١٦ ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ القمر: ٨ ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ يوسف: ٤٨ ﴿ يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ القمر: ١٩ ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ هود: ٧٧ ونحو ذلك.

م (٦) : مفاسد السب :

١- سب من ليس أهلاً للسب ومن هو خلق مسخر منقاد لأمر الله.

٢- السب متضمن للشرك ، فإنه إنما سبه لظنه أنه يضر وينفع.

٣- السب إنما يقع على من فعل هذه الأفعال. استنبط ذلك ابن القيم .

م (٧) : تنبيه : يخشى على من يسب الدهر والريح من لعنة الله :

لأنه يؤذي الله والله يقول ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ الأحزاب: ٥٧ .

وفي الحديث قال ﷺ : (لا تلعنوا الريح ، فإنها مأمورة ، وإنه من لعن شيئا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه) رواه أبو داود والترمذي.

م (٨) : دليل النهي عن سب الدهر :

قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ الجاثية: ٢٤ .

قال النبي ﷺ : (قال تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر أقلب الليل والنهار) رواه البخاري. وفي مسلم: (لا تسبوا الدهر،فإن الله هو الدهر) .

م (٩) : فائدة : العبد يؤذي الله ﷻ ولكن لا يبلغ أحدٌ ضر الله :

الله تعالى يؤذيه المخلوق ولا يضره.

والأذى ما خف أمره وضعف أثره من الشر والمكروه .

فالأذية من الخلق للرب نثبتها في حق الله ﷻ كما أخبر تعالى عن نفسه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ الأحزاب: ٥٧ .

وفي الحديث الصحيح : (يؤذيني ابن آدم يسب الدهر). رواه البخاري.

لكن الأذية لا تبلغ إلى الضرر ، وهناك فرق بينهما.

قال تعالى في سورتي آل عمران والقتال : ﴿ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ .

وفي الحديث يقول الله : (يا عبادي لن تبلغوا ضري فتضروني) .

وقال تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ آل عمران: ١١١ .

وفيها يؤثر عن النبيﷺ (القر بؤس والحر أذى) .

وجه الأذية لأن السب يقع على الله وأفعاله ومن صرفه وخلقه وفعله ودبره .

م (١٠) : ساب الدهر ساب لله، ولو لم يقصده السب بقلبه.

فإن قصد السب لله حقيقة كان كفرا محضا .

م (١١) : حكم سب آيات الله ومخلوقاته والاستهزاء بها :

إن قصد بالسب نفس مخلوقات الله وآياته المخلوقة كالريح والشمس فقد وقع في أمر محرم ويدخل في النهي الوارد في الحديث.

أما إن قصد بالسب خالقها وفاعلها فهذا كفر محض، وكذلك لو سب آيات الله الشرعية فيعد كفراً .

ولا يدخل في السب المنهي الاستهزاء بالكفار وآلهتهم وسبهم فإن هذا مشروع.

م (١٢): ينبغي التربي والتعود على تطهير اللسان من سيء القول والسباب .

باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه (٤٦)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه : الباب متعلق بالنهي عن تعظيم المخلوق والغلو فيه. وما قد يورث ذلك من حصول الشرك وتسوية الخلق بالرب في الربوبية والألوهية .

نوعه ومكانه: هذا الباب يعتبر من الأبواب الداخلة في أقسام التوحيد ومنها:

وسائل حفظ التوحيد وتحصيل كماله وصيانته وحمايته وسد الطرق الموصلة إلى الشرك وعدم القدح فيه بما ينقصه، وهو من الأبواب المتعلقة بإفراد الرب ﷻ بالتعظيم وعدم تنقصه ، وأن هذه الألفاظ لا تكون إلا من باب التعظيم وأي لفظ مقتضاه التعظيم فيجب أن لا يكون إلا لله، وأن الغلو في المخلوق وتعظيمه وتشبيهه بالخالق ، والأصل أن هذا الباب من الوسائل من الشرك الأصغر وشرك التسمية.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن التسمي بقاضي القضاة ونحوه فيه قدح في التوحيد محرماً من جهتين:

الأولى: تنقص عظمة الله من ناحية تشبيه المخلوق بالخالق في الاسم والمكانة.

الثانية: فيه تعظيم المخلوق مما قد يؤدي إلى الشرك به فصار وسيلة له.

لأجل هاتين العلتين كان محذورا وقادحا في جناب التوحيد فلذا أورده.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لأبواب الكتاب:

هذا الباب فيه مشابهة : لباب التعبيد لغير الله ، وباب قول ربي وعبدي ، وباب احترام أسماء الله ، وباب من جحد شيئا من الأسماء وغيرها.

ثانياً : مناسبته لما قبله:

لما تكلم المصنف عن تنقص الخالق الكامل بالطعن في أفعال الله وقبله تسوية غير الله بالله، ذكر ضد ذلك وهو رفع المخلوق الناقص وتسويته بالخالق الكامل.

كما أن هذا الباب جاء في سياق الأبواب القاضية باحترام وتعظيم جناب الله وصفاته وأفعاله والدهر من أفعاله وهنا المالك والحاكم القاضي من أسمائه.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب: أورد المؤلف:

حديث واحد استدل به للباب وهو حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺقال: (إن أخنع اسم عند الله رجل تسمَّى ملك الأملاك. لا مالك إلا الله) متفق عليه.

وفي رواية: أغيظ ، وفيه إثبات صفة الغيظ لله ﷻ على الحقيقة .

ومعنى أخنع : أوضع وأحقر وأخس وأسوء وأخبث.

وأورد توضيح سفيان للحديث : فيقال مثل ملك الأملاك : شاهان شاه والشاه بلغة الفرس الملك .

مسألة : ومثل هذه التسمية المنكرة : إطلاق لقب ملك الإنسانية وملك القلوب وصاحب الجلالة وصاحب الفخامة وصاحب السمو وصاحب المعالي ومثل ذلك أيضاً : شيخ الإسلام وقاضي القضاة والمفتي الأكبر وحجة الإسلام.

باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك (٤٧)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه : الباب متعلق بالأسماء والصفات وجوب تعظيمها والإيمان بها.

الاحترام : معناه: التقدير والتوقير والتعظيم .

مكانه : هو من الأبواب المتعلقة بتعظيم الرب ﷻ .

نوعه : يعتبر هذا الباب من الأبواب الداخلة في وسائل حفظ التوحيد وتحصيل كماله وعدم القدح فيه بما ينقصه .

والأصل أن هذا الباب من الوسائل والقدح فيه من الشرك الأصغر ، وقد يكون من الشرك الأكبر كما سيأتي.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

قدمنا في باب (من جحد شيئا من الأسماء والصفات) علاقة الأسماء والصفات بالتوحيد، وكونه لا يستقيم إلا بالإيمان الصحيح بالصفات الإلهية.

ونضيف هنا ما اختصت به هذه الترجمة :

وهو أن احترام أسماء الله ﷻ من تعظيم الرب وتوقيره واحترامه .

والتوحيد والعبادة قائمة على التعظيم للرب والذل له .

كما أن احترامها داخل في احترام وتعظيم شعائر الله تعالى .

وسنذكر الأدلة على وجوب تعظيم الله في باب (وما قدروا الله حق قدره).

وستأتي العلة من النهي عن التشبه بأسماء الله تعالى وتغيير الأسماء المشابهة .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله: لما تكلم عن باب التسمي بقاضي القضاة والنهي عنه لما فيه من قدح في عظمة الله وتشبيه المخلوق بالخالق في الاسم وتعظيم المخلوق مما قد يؤدي إلى الشرك به، ترجم بترجمة أضبط وتعتبر قاعدة من قواعد الأسماء والصفات، وهي أن أسماء الله لا يسمى بها غيره، وتغيّر لأجل تحقيق التوحيد من باب التعظيم .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب: هذا الباب موضوعه عن أسماء الله وصفاته من جهة وفي تعظيم الرب من جهة أخرى، وقد ذكرنا الأبواب المتعلقة بالموضعين في الباب الأربعين باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات، وفي غيره .

ثالثاً : الرأي في ترتيبه بين الأبواب : كان الأفضل تبويبا لو جعل المصنف هذا الباب بعد الباب الأربعين . لأن موضعهما في الأسماء والصفات.

الوقفة الرابعة: ما فات المصنف :فاته أن يذكر ما جاء في تسمية بعض الصحابة ومن سبقهم كالعزيز ببعض أسماء الله والجمع بينهما . وسنذكر ذلك .

أيضاً تحريم التسميات التي تقدح في التوحيد مع كونها ليست من أسماء الله.

الوقفة الخامسة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

استدل المصنف لهذا الباب بحديث واحد في تغيير الرسول ﷺ كنية صحابي من أبي الحكم إلى أبي شريح . فعن أبي شريح أنه كان يكنى أبا الحكم، فقال له النبي ﷺ: إن الله هو الحكم، وإليه الحكم. فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين. فقال: ما أحسن هذا، فما لك من الولد؟ قال شريح ومسلم وعبد الله. قال: فمن أكبرهم؟ قلت: شريح. قال: فأنت أبو شريح.

رواه أبو داود وغيره.وأبو شريح هو هاني بن يزيد الكندي . أسلم عام الفتح .

الوقفة السادسة: المسائل العقدية في الباب :

قدمنا المسائل المتعلقة بالأسماء والصفات .

ونذكر هنا بعض المسائل الفرعية المتعلقة بالباب :

م (١) : العلة من النهي عن التشبه بأسماء الله تعالى وتغيير الأسماء المشابهة :

العلة في ذلك ظاهرة : ويمكن إرجاعها لقاعدتين :

الأولى : أن في ذلك من تعظيم المخلوق وتشبيهه بالرب ﷻ وهذا قد يؤدي إلى الشرك بالمخلوق وعبادته وهذا ينقض التوحيد من أصله.

الثانية : لما يلزم منه القدح في عظمة الله وجعل المخلوق بمنزلة الخالق وأنه ليس بأرفع وأعظم من خلقه .

م (٢) : ما يدخل في باب احترام أسماء الله :

١- أن لا يسمى المخلوق بأسماء الله تعالى .

٢- أن لا يسمى الله ﷻ بأسماء الخلق .

٣- أن لا يسمى المخلوق باسم يشعر بصفة اختص الله بها كملك الملوك .

٤- أن لا يعبد العبد لغير الله في الاسم كعبد الرسول والمسيح.

٤- أن لا ينكر شيئاً من أسماء الله وصفاته ولا تحرف معانيها .

م (٣) : احترام أسماء الله وما يخالف ذلك له درجتان :

الأولى : ما هو ركن في التوحيد ويعتبر من أصله الذي يكفر من نقضه .

مثل تسمية الأصنام بالعزى ونحوها وكتسمية القبورية الغلاة بعض الأولياء الأموات بمالك الأمور وخازن السماء ونحوها ، فهذا شرك أكبر .

الثانية : ما هو من كمال التوحيد الذي يعتبر من قدح فيه واقعاً في الشرك الأصغر ، ومثاله ما جاء في حديث الباب .

م (٤) : الاحترام يكون بالقلب واللسان والجوارح .

ومن صور احترام أسماء الله تعالى:

أن لا ترمى إذا كانت مكتوبة في أوراق في الزبل ولا تدعس بالقدم .

وأن لا تصغر أسماء الله تعالى ، كأن يقال في قاهر قويهر .

وأيضا لا يصغر ما عبد بأسمائه كأن يقال في عبد الرحمن رحيّم ودحيّم ودحمان وعزوز تصغير عبد العزيز ونحو ذلك مما هو شائع في ألسنة العامة .

م (٥) : تنبيه بليغ :

إذا كان الرسول ﷺ غير كنية أبي الحكم لما فيها من منازعة الله صفته الحكم من حيث الاسم مع عدم حكمه بغير ما أنزل الله فكيف الحال بمن نازع الله هذه الصفة من أصلها من مشركي زماننا فادّعى لنفسه الحكم والتشريع والتحليل والتحريم ، وهذا كفر أكبر بواح بلا خلاف .

م (٦) : لم لم يغير الرسول ﷺ اسم حكيم بن حزام والحكم الغفاري ؟

والجواب : أن هذه أعلام محضة لم يقصد فيها الصفة التي هي الحكم .

ومن هذا الباب أيضاً جواز إطلاق كلمة الأخ الكريم والعزيز مالم يقصد مشابهة اسم الله تعالى.

باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول (٤٨)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه: الاستهزاء بالله أو ما جاء عن الله تعالى أن من هزل بهذا فهو كافر.

معناه : الهزل هو الاستهزاء والسخرية والاستخفاف، ضد التعظيم.

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بالتأدب مع الله ﷻ وتعظيمه.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن الاستهزاء يعد مناقضا للتوحيد من أصله ، حيث لا يجتمع في قلب مؤمن تعظيم الله مع الاستخفاف به، لذلك كان الهزل والاستهزاء أحد نواقض الإسلام..

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

بعد أن أورد باب احترام الله وأسمائه وأن هذا من شرائط الإيمان وصحة التوحيد ، ذكر ما يضاد ذلك تماما وهو الاستخفاف والاحتقار والاستهزاء المناقض للتوحيد والمبطل للإيمان.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

له علاقة بأبواب توحيد الربوبية وتعظيم الرب ﷻ..

الوقفة الرابعة: ما فات المصنف ذكره في هذا الباب :

لم يذكر ناقض البغض والسب وهو قريب من معنى الباب.

الوقفة الخامسة: الأدلة والشواهد الواردة في الباب:

١- قول الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ التوبة: ٦٥ .

٢- عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة ، أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء؛ يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء. فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه. فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق. قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ ، وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب. فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ ما يلتفت إليه وما يزيده عليه.

الوقفة السادسة: المسائل العقدية في الباب :

ذكرنا المسائل المتعلقة بالاستهزاء في شرحنا للنواقض بشيء من التوسع ، ونذكرها هنا اختصارا .

مبحث : كفر الاستهزاء ومنافاته للتوحيد والتعظيم

م (١) : تعريفه : الاستهزاء والسخرية والاستخفاف والهزل بمعنى واحد.

وهو كل قول وعمل دلّ على الاستهانة والاحتقار وإظهار العيب والتنقص.

م (٢) : بواعث الاستهزاء والهزل :

١- الكره والبغض والحقد والحسد : وهو من أعظم أسباب الاستهزاء والسب فلا يجد المبغض للدين وأهله متنفس غير اللمز والهمز والاستهزاء .

٢- الكبر واحتقار وازدراء واستصغار الغير والاستهانة به.

٣- الشح بالدنيا وحب ملذاتها من الرياسة والملك والجاه والمال .

٤- قلة الدين وضعف الإيمان وعدم الرغبة في الآخرة .

٥- الجهل: وهذا يكفر ولا يعذر بجهله إلا عند المرجئة.

٦- إضحاك الغير على المستهزئ به من باب الهزل والمرح واللعب والمزح .

م (٣) : مجالات الاستهزاء ومحلاته :

١- بالقلب وذلك باستخفاف القلب وعدم تعظيمه وإجلاله .

٢- باللسان والسب.

٣- بالفعل كما يقوم به أصحاب التمثيل في المشاهد المرئية الساخرة بالدين .

٤- بالإشارة باللسان والغمز بالعين ومد اللسان .

٥- بالكتابة والقلم ويكثر ذلك في الصحف .

٦- بالرسوم والصور وهي ما يسمونها بالكاريكاتير .

٧- التعريض كوضع القرآن في دور البغايا وكتابة آية الزنا فيه .

م (٤) : أوجه كون الاستهزاء كفر :

١- أنه مناف للدين وهادم لأصل الإيمان لأن الإيمان قائم على تعظيم الله وإجلاله ومحبته والذل له والخضوع له، والاستخفاف بالله أو بأمر يتعلق به ﷻ كأوامره ونواهيه وأخباره ودينه وشرعه وثوابه وعقابه وقضائه وأفعاله وأوصافه وآياته ورسله وملائكته وأوليائه، ضد ذلك، فالتعظيم والاستخفاف نقيضان لا يجتمعان في قلب واحد ولذلك كان أعظم النواقض المغلظة على الإطلاق .

قال ابن تيمية في الصارم :(فالسب إهانة واستخفاف، والانقياد للأمر إكرام وإعزاز، ومحال أن يهين القلب من قد انقاد له وخضع واستسلم أو يستخف، فإذا حصل في القلب استخفاف واستهانة فإنه لا يكون فيه انقياد أو استسلام فلا يكون فيه إيمان وهذا بعينه كفر إبليس). ٩٦٧.

٢- أن الاستهزاء مستلزم للبغض وأما السب فمتضمن له مقارن له ومعلوم أن الدين والعبادة مقامها على محبة الله والذل له والبغض نقيض المحبة.

٣- أن الاستهزاء يناقض الإسلام والعبودية لأن قوامها على الانقياد والتسليم والإذعان وهل المستهزئ بالدين يعتبر منقاداً للشرع مع استخفافه .

٤- أن الاستهزاء يستلزم التكذيب وعدم اعتقاد صحة الدين ونبوة محمد ﷺ .

م (٥) : الاستهزاء يستلزم التكذيب والبغض :

الاستهزاء والسب مستلزم للتكذيب والبغض ويناقض محبة الله والذل له والإنقياد والتسليم والمستهزئ مكذب بعمله وإن كان قد يكون معه في قلبه أصل تصديق وقبول ومحبة إلا أنه يصير بالاستهزاء كعدمه :

م (٦) : أنواع الاستهزاء الكفري :

١- الاستهزاء بالرب عز وجل بذاته وصفاته وأفعاله وقدره .

٢- الاستهزاء بالتوحيد وذلك يظهر في عبادة غير الله .

٣- الاستهزاء بحكم الله والتحاكم للشريعة الإلهية وأحكام الحدود كالاستهزاء بالقطع والرجم ولمز طلاب الحكم بالشريعة بالرجعية والتخلف .

٤- الاستهزاء بالقضاء والقدر والسخرية به وبأفعاله وحكمه وتقديره.

٥- الاستهزاء بدين الله وشرعه وأمره ونهيه وفرائضه وتوحيده .

٦- من يلمز الولاء والبراء ومعاداة الكافرين وجهادهم وبغضهم وعداوتهم والتبرء منهم وتكفيرهم وتكفير المرتدين.

٧- الاستهزاء بالمعاد والجنة والنار والبعث والحساب والنشور والحوض والميزان والصراط وعذاب القبر وفتنته وسؤال الملكين.

٨- الأخبار الغيبية والثواب والعقاب كالاستهزاء .

٩- الاستهزاء بالملائكة والاستخفاف بهم أو بغض واحد منهم .

١٠- الاستهزاء بالأنبياء وبمقام النبوة ، وخصوصا نبينا محمد ﷺ.

١١- الاستهزاء بالقرآن أو إهانته ودعسه أو رميه في القاذورات أو ادعاء أنه ناقص أو محرف أو يجحد شيئا منه أو يحرف معناه أو الغناء بالقرآن.

١٢- الاستهزاء بالسنة النبوية والأحاديث والطعن فيها .

١٣- سخرية المنافقين بالجهاد وقولهم إنه عبث، ولمز المجاهد بأقبح الصفات.

١٤- السخرية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنها تدخل في حريات الناس وأنها شعيرة تخلفية تناقض التقدمية والحضارة والحرية .

١٥- سب الصحابة والاستهزاء لهم ولمزهم وبغضوهم كما تفعل الرافضة .

١٦- الاستهزاء بأهل الدين والعلماء والملتزمين بالشريعة والمستمسكين بدين الله . ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴾ المطففين: ٢٩ ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ التوبة: ٧٩ ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ الأنفال: ٤٩ ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ الشعراء: ١١١ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ الأحقاف: ١١ ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ الأنعام: ٥٣ ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ البقرة: ٢١٢ ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ البروج: ٨ .

وكل هذه الأمور الاستهزاء بها كفر مخرج من الملة لأن مؤداها الاستهزاء بالله.

م (٧) : تلازم مقامات الدين :

المستهزئ بالله مستهزئ بدينه ورسوله وأوليائه من باب التضمن لأن الاستهزاء بالفاعل يتضمن الاستهزاء بفعله .

المستهزئ بشيء مما أمر الله به أو أحبه ورضيه يستلزم السخرية بالله .

فمن استهزأ بآيات الله أو رسوله أو دينه أو أوليائه أو ملائكته أو أخباره أو ثوابه وعقابه أو أوامره ونواهيه فإن ذلك يستلزم الاستهزاء بمن تبعه وهو الله عز وجل لأنها مضافة إليه موصوف بها فهو المرسل والمتولي والمشرع سبحانه .

م (٨) : حكم المستهزأ بالنبي ﷺ وسابه:

أولاً : الكافر الأصلي المحارب :

يجب قتله على الصحيح ولو أسلم ولا يمن عليه ولا يؤسر بل يتعين قتله لتعلق مناط الكفر والقتل به وهو الكفر بالله والطعن في دينه ورسوله ، وأوجب البعض قتله حى لو أسلم قبل القدرة عليه لتعلق حق النبي ﷺ بذلك .

قال ابن تيمية في الصارم : (وأما من طعن في الدين فإنه يتعين قتاله وهذه كانت سنة رسول الله ﷺ فإنه كان يهدر دماء من آذى الله ورسوله وطعن في الدين).

وقال : (قال أبوعلي البناء من سب النبي ﷺ وجب قتله ولا تقبل توبته، وإن كان كافرا فأسلم فالصحيح من المذهب أنه يقتل أيضا ولا يستتاب) الصارم ٥٥٨ .

ثانياً : الذمي والمعاهد والمستأمن: ينتقض عهده ويجب قتله مطلقا، وخالف بعض أهل السنة في قبول إسلامه ورفع القتل عنه إن تاب وأسلم قبل القدرة عليه .

قال ابن تيمية في الصارم:(فإذا طعن الذمي في الدين فهو إمام في الكفر فيجب قتاله لقوله:" فإن طعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر" فيجب قتله بنص الآية) .

ثالثاً : المسلم المرتد والمنافق والزنديق: والمنافق إذا أظهر نفاقه واستهزأ وسخر فإنه يجب قتله ولا تقبل توبته في الدنيا ويدل على وجوب قتله آيات كثيرة .

قال ابن تيمية : (إما إن كان مسلما فبالإجماع لأنه نوع من المرتد أو الزنديق وسواء كان رجلا أو امرأة) الصارم ٤٦٧ .

وقال ابن تيمية: (فدل على أن ضرب عنق المنافق من غير استتابة مشروع إذ لم ينكر النبي ﷺ على عمر استحلال ضرب عنق المنافق) الصارم.

م (٩) : أصناف المستهزئين :

المشركون – اليهود والنصارى – المنافقون – أهل الذمة – المحاربون – أهل الردة – المبتدعة .

م (١٠) : هل المستهزئون في غزوة تبوك كانوا مؤمنين أو منافقين:

القول الأول : أن الآية ﴿ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ نزلت في أناس منافقين فكان ما أظهروه من كفر موجود أصله في قلوبهم وقال به بعض أهل العلم .

القول الثاني : أن الذين تكلموا في غزوة تبوك ونزلت فيهم الآية من المؤمنين في الأصل ولم يكن لديهم نفاق ولا علموا أن كلامهم الذي قالوه سيخرجهم من الإسلام وهذا قول الجمهور ونصره ابن تيمية وهذا القول هو الصحيح .

قال ابن تيمية ناصراً القول بإسلامهم ورادا على من قال أنهم منافقون :

(وقول من يقول عن مثل هذه الآيات أنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم لا يصح لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر فلا يقال قد كفرتم بعد إيمانكم فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم ... فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفرا بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر فبين أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه، فدل على أنه كان عندهم إيمان ضعيف ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم ولكن لم يظنوه كفراً وكان كفراً كفروا به فإنهم لم يعتقدوا جوازه) الفتاوى٧/ ٢٧٢ .

م (١١) : علاقة الاستهزاء بالنفاق :

الاستهزاء من أكبر علامات المنافقين ولكن قد يكون المستهزئ مسلما قبل استهزائه فيكون مرتداً لا منافقاً، أو يكون استهزاؤه سبباً لحصول النفاق. وعليه فالنفاق سبب لوقوع الاستهزاء كما أن الاستهزاء يسبب حدوث النفاق فيورثه.

فائدة : من تأمل حال هؤلاء المستخفين والمستهزئين من المنافقين بشتى أسمائهم تجد عندهم الإعجاب للكفار وتعظيمهم واحتقارهم الإسلام وأهله.

م (١٢) : وجوب الإعراض عن المستهزئين وعدم الجلوس معهم :

جاء الأمر الصريح بالنهي عن مجالسة المستهزئين وتحريم ذلك وأن من جالسهم عن رضا من غير إكراه فهو كافر مثلهم والعياذ بالله في أدلة منها :

قال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ﴾ النساء: ١٤٠. وقال: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ الأنعام: ٦٨.

م (١٣) : حكم المجالس للمستهزئ بالله أو دينه : لا يخلو من حالتين :

الأولى: أن ينكر ذلك بقوله ويبغضه، أو يقوم من المجلس منكراً بقلبه لعدم قدرته على الإنكار بلسانه، فهذا هو الواجب، وهو مأجور بقدر إنكاره.

الثانية: أن يرضى ذلك ولا ينكره، بل ربما يذهب بنفسه إلى تلك المجالس على علم بما سيجري من الاستهزاء بالله أو بدينه، فهذا لا ريب أنه كافرٌ، وهو من أعظم خصال المنافقين كما تقدم في الآيتين الصريحتين وغيرها .

باب قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ (٤٩)

اسم الباب : اعتقاد استحقاق النعم وعدم إرجاع الإنعام لتفضل الله .

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : أن يعتقد الشخص أنه مستحق للنعم وليس ذلك محض فضل من الله ، أو أن الله ما أنعم عليه إلا لمكانته عند الله ومنزلته واستحقاقه.

ويشبه هذا المعتقد ما زعمته اليهود والنصارى في قولها: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ المائدة: ١٨.

وقد أكذب الله ﷻ من كان هذا ظنه بقوله: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ النحل٥٣.

وبقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الزمر: ٤٩، فالحق أن هذه فتنة لهم واستدراج .

وأخبر الرسول ﷺ أن الله تعالى يعطي الدنيا والنعم من يحب ومن لا يحب ، أما الدين فلا يعطه إلا من يحب.

مكانه ونوعه: هو من الأبواب المتعلقة بتعظيم الرب ﷻ والتأدب مع الله ﷻ برد الإنعام إلى مقام الربوبية والقيام بحق الألوهية بالقيام بعبودية الشكر.

والأصل أن هذا الباب من الوسائل والقدح فيه من الشرك الأصغر ، وقد يكون من الشرك الأكبر كما تقدم في باب كفر النعم.

وعموما فالمقصود الأعظم من هذا الباب وغيره هو تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى ونفي الاعتزاز والالتجاء والاعتداد بغيره والبراءة من كل شيء إلا منه.

وهنا فائدة لطيفة: وهي أن من عادة البشر غالبا إذا مد الله لهم في النعم طغوا وبغوا وظنوا أن ذلك لمكانتهم ومنزلتهم وجاههم وأن ذلك حق لهم وبالتالي لا يذكرون الله عندها ولا يشكرونه عليها ، ثم يبلغ بهم الحال إلى احتقارها ثم استخدامها في معصية الله وكل ذلك من كفر النعم والكفر الذي أخبرنا الله به .

والآيات في هذا المعنى كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

هذا الباب في بيان الطرق المؤدية إلى الشرك، حيث أن نسبة النعم للخلق وشكرهم عليها من الشرك، يدخل في باب الشرك الذي يخفى على أكثر الناس.وهذا الباب الذي هو نسبة النعم لغير الله يدخل في أنواع الشرك كما قدمنا في باب (٤١).

ويقوم على مخالفتين :

١- جعل النعم من الحقوق وليس من التفضل .

٢- عدم شكر الله على النعم .

وتقدم مواقف الناس من نعم الله تعالى وصور كفر النعم.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

مناسبته لأبواب الكتاب: هذا الباب لا يخرج موضوعه ولا تختلف مسائله عن باب رقم: (٤١) باب قوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ .

فالبابان موضوعهما متعلق بنسبة النعم لغير الله وعدم شكر الرب عليها.

ومسائله ذكرناها في باب كفر النعمة .

الرأي في ترتيبه: الأفضل لو جعله المصنف بعد الباب رقم: (٤١) .

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد المؤلف ثلاثة أدلة : آيتين وحديث :

١- قوله ﷻ: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ فصلت: ٥٠.

٢- قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ القصص: ٧٨.

٣- حديث أبي هريرة في الثلاثة من بني إسرائيل الأبرص والأقرع والأعمى .

وأورد المصنف في تفسير الآيتين أربعة آثار :

قال مجاهد: هذا بعملي، وأنا محقوق به.

وقال ابن عباس: يريد من عندي.

قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب.

وقال آخرون:على علم من الله أني له أهل ، وأوتيته على شرف.

ويرجع جميعها إلى نسبة الأفضال والإنعام إلى العبد لا إلى الرب .

وقد قيل: مصادر الكبر ثلاث كلمات: أنا ، عندي ، لي .

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب:

تقدمت المسائل المتعلقة بموضوع هذا الباب في باب نسبة النعم لغير الله.

باب قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٥٠)

اسم الباب : شرك التسمية والتعبيد لغير الله.

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : تحريم أن يسمى الإنسان بالتعبيد لغير الله ، كعبد الكعبة وعبد الحسين وعبد الحارث وعبد النبي.

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بالتأدب مع الله ﷻ وتعظيم الربوبية، وعدم تشبيه المخلوق بالخالق ، وهو من وسائل الشرك. ويعد هذا الباب من أبواب شرك الألفاظ الأصغر لأنه مجرد تسمية ولا يقصد حقيقة العبودية والشرك فيها .

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن التعبيد لغير الله في التسمية يعتبر شركا من جهات في الربوبية والألوهية:

١- تشبيه للمخلوق بالخالق.

٢- الإيهام بوجود من يوصف بالربوبية واستحقاقها وذلك لاستحقاق نسبة العبودية لغير الله فيوجد من يعبد له فكأنه إله ورب لهذا المعبد له، فكأنا نقول في عبد علي مثلاً أن عليا إله مع الله ورب، وأن له عبيد.

٣- عدم شكر الله على نعمة الولد بتعبيده لله.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

أورده المؤلف بعد باب كفر النعمة وعدم شكر الله عليها والاعتراف بها، وهو في النعم عامة وهذا في نعمة الولد خاصة .

وأيضا من شرك الشكر تقديم محبة الولد على عبادة الله.

ويزيد في هذا الباب مسألة التعبيد لغير الله في التسمية .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

له علاقة بباب لا يقل عبدي وربي وبأبواب النعم ، وأبواب شرك الألفاظ .

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١- أورد آية الأعراف المترجم بها للباب: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾.

٢- أثر ابن عباس في الآية قال: (لما تغشاها آدم حملت فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لأجعلن له قرني أيل، فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما، سمياه عبد الحارث. فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا، ثم حملت فأتاهما فقال مثل قوله، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتا. ثم حملت فأتاهما فذكر لهما فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله ﴿ جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾) رواه ابن أبي حاتم.

٣- أثر قتادة قال: (شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته).

٤- أثر مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا ﴾ قال: (أشفقا أن لا يكون إنسانا).

٥- كلام ابن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك حاشا عبد المطلب.

تنبيه : الفرق بين الطاعة والعبادة:

مذكورة في ثلاثة مواضع من أبواب الكتاب رقم : (١، ٣٨، ٥٠) .

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١):حكم التعبيد لغير الله وأقسامه :

أولاً : يعتبر محرما ومن الشرك الأصغر إذا قصد به مجرد التسمية.

ثانياً : يكون شركا أكبر إذا كان المقصود منه العبادة.

ويظهر هذا المعتقد كثيرا فيمن يسمي بعبد علي وعبد النبي.

م (٢) : الجواب عن قول الرسول ﷺ أنا ابن عبد المطلب :

١- أنه من باب الإخبار وليس الإقرار .

٢- أن عبد المطلب اسمه شيبة الحمد ، وسمي بعبد المطلب لأنه دخل مكة مع أخيه المطلب وكان غلاما أسمر اللون فظنت قريش أنه عبد له فقالوا عبد المطلب فاستسمى بذلك، فيكون (عبد) هنا بمعنى رقيق وليس تعبيد العبادة فالرسول ﷺ غير من كان اسمه عبد شمس لما كان في التسمية معنى العبادة .

م (٣) : الفرق بين الطاعة العبادة:

ذكر المصنف عن السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة.

وهنا أخطأ الكثير في عدم فهم الفارق وذكرت الفروق بينهما في الباب الأول.

م (٤) :التحقيق فيما نسب لآدم من وقوعه في الشرك بتسمية ابنه بعبد الحارث:

اعلم أن أهل العلم قد اختلفوا في وقوع آدم في الشرك وثبوت ما نسب إليه مع إجماعهم أن المقصود به الشرك الأصغر وليس الأكبر .

فذهب جماعة من السلف إلى أن آدم وحواء وقعا في الشرك مستدلين بقوله تعالى :﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا

حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ الأعراف: ١٨٩ - ١٩٠.

وقالوا : إن المقصود بها آدم وحواء واستدلوا لذلك :

بحديث سمرة بن جندب ﷺ أن النبي ﷺ قال : (لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبدالحارث فإنه يعيش فسمته عبدالحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره) رواه أحمد والترمذي وحسنه والحاكم.

وقوله ﷺ : (خدعهما مرتين) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير.

ثم إنهم فسروا الشرك هنا بأنه كان في التسمية لا في العبادة .

لكن الصحيح أن آدم وحواء لم يقعا في الشرك ، وأن الذي وقع فيه هم المشركون من الذرية وبنو آدم وليس آدم ، كما قال الحسن البصري وغيره ونصره ابن القيم وابن كثير وغيرهم ، وأن معنى الآية: أنه لما أتى آدم وحواء صالحا كفر به بعد ذلك كثير من ذريتهما، وأسند فعل الذرية إلى آدم وحواء لأنهما أصل لذريتهما .

قال الحسن: (كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم) أخرجه الطبري.

وأما جوابنا عما قاله أصحاب القول الأول وما استدلوا به فمن عدة أوجه:

١- أن نسبة الشرك لآدم وهو نبي قول خطير يتضمن مفاسد ويناقض العصمة ، والآية أثبتت وقوع الشرك ولم تصرح بوقوع آدم فيه فعلم أن المقصود مشركو ذرية آدم.

٢- أنه لم يثبت في هذه القصة خبر صحيح ،وإذا كان الله ﷻ قص علينا خطيئة آدم من أكل الشجرة فكيف لم يذكر هذا الذنب الذي يتعلق بالشرك وهو أعظم،

وصح أن آدم يوم القيامة يذكر أكله من الشجرة ولم يذكر التسمية بعبد الحارث ، فعلم بهذا أن مصدر هذا القول من أهل الكتاب الذين عرف منهم الطعن في الرسل.

٣- أما الحديث فهو ضعيف معلول من ثلاثة أوجه منها أن فيه عمر بن إبراهيم البصري لا يحتج به ثم أنه روي موقوفا على سمرة . قال ابن كثير : (أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا فلو كان عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه).

٤- أن الشرك لم يقع في البشر إلا بعد مضي عشرة قرون على الذرية وانقضاء عشرة أجيال من بني آدم . يدل لذلك ما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام) رواه الحاكم .

٥- أن أول أولاد آدم قابيل وهابيل ولم يثبت أنه مات لهم أحد إلا ما حصل من قتل قابيل لهابيل .

٦- ثم لو افترضنا صحتها فهي في الشرك الأصغر في شرك التسمية والألفاظ، ويؤخذ منها الحذر من الشرك لسرعة حصوله وإمكانية وقوعه .

تنبيه: مما سبق تقريره يتبين لك خطأ الشيخ سليمان في التيسير من زعمه أن هذا القول من تفاسير المبتدعة ، مع ذهاب الحسن إليه وانتصار ابن كثير وغيره له.

قال ابن القيم: (النفس الواحدة وزوجها آدم وحواء، واللذان جعلا له شركاء فيما آتاهما المشركون من أولادهما،ولايلتفت إلى غير ذلك أن آدم وحواء كان لايعيش لهما ولد فأتاهما إبليس فقال: إن أحببتم أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث ففعلا، فإن الله اجتباه وهداه لم يكن ليشرك به بعد ذلك) روضة المحبين ٢٨٩.

باب قوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾. (٥١)

اسم الباب : الإلحاد في أسماء الله

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه : الباب متعلق بالأسماء والصفات ، من جهتين :

الأولى : الإيمان بأسماء الله ﷻ . الثانية : عدم الإلحاد فيها.

مكانه ونوعه : يعتبر هذا الباب من الأبواب المبينة لبعض أفراد التوحيد ، كما أن فيه بيان لنوع من أنواع الشرك وهو الشرك في الأسماء والصفات والإلحاد فيها

الإلحاد : معناه: الميل عن الحق.

الوقفة الثانية : علاقة الباب بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

قدمنا في باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات علاقة الأسماء والصفات بالتوحيد وكونه لا يستقيم إلا بالإيمان الصحيح بالصفات الإلهية.

ونضيف هنا ما اختصت به هذه الترجمة :

وهو أن الإيمان الحق بأسماء الله ﷻ من تعظيم الرب وتوقيره واحترامه .

والتوحيد والعبادة قائمة على التعظيم للرب والذل له .

والإلحاد في أسماء الله تعالى بأنواعه داخل في الشرك المنافي للتوحيد ، إما لأصله أو لكماله .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

جاء المصنف بهذا الباب بعد باب التعبيد لغير الله ، ولا شك أن ذلك من الشرك في العبادة والأسماء والصفات والإلحاد فيها .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

هذا الباب موضوعه عن أسماء الله وصفاته من جهة وفي الشرك في الأسماء والصفات والإلحاد فيها من جهة أخرى، وقد ذكرنا الأبواب المتعلقة بالموضعين في الباب الأربعين باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات، وفي غيره .

ثالثاً : الرأي في ترتيبه بين الأبواب :

كان الأفضل تبويبا لو جعل المصنف هذا الباب بعد الباب الأربعين ، لأن موضعهما في الأسماء والصفات.

الوقفة الرابعة: ما فات المصنف :

ترك رحمه الله بيان أنواع الإلحاد في باب أسماء الله وتوحيده ﷻ .

الوقفة الخامسة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب: أورد المؤلف:

١- آية واحدة وهي آية سورة الأعراف قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ ﴾ .

٢- أثرين عن ابن عباس، وأثر عن الأعمش كلها في تفسير الإلحاد.

ففسروه: بالشرك ، تسمية الأصنام بأسماء الله ، إدخال فيها ماليس منها.

الوقفة السادسة: المسائل العقدية في الباب :

قدمنا المسائل المتعلقة بالأسماء والصفات ونذكر هنا بعض المسائل الفرعية المتعلقة بالباب :

م (١) : من خصائص أسماء الله تعالى :

١- أنها حسنى فهي بالغة المنتهى في الكمال والحسن والجمال .

٢- أسماء الله لها معاني ومعلومة وليست مجهولة .

٣- أنها مشتقة وليست جامدة وليست أعلاما لا تحتوي على أوصاف.

٤- أنها قائمة بالله وليست مخلوقة أو منفصلة عن الله .

٥- أنها توقيفية ولا تعرف بالاجتهاد.

٦- أن أسماء الله لا يعلم عددها إلا هو، فليست منحصرة في تسعةٍ وتسعين، يدل لذلك حديث : (أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقه أو استأثرت به في علم الغيب عندك) رواه أحمد .

فقول النبي ﷺ : أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، فيه دلالة على أن لله أسماءً لا يعلمها إلا الله .

م (٢) : حقيقة إحصاء أسماء الله تعالى :

قال ﷺ: (إن لله تسعة وتسعين اسماً ، من أحصاها دخل الجنة) متفق عليه.

يتحقق إحصاؤها بأربعة أمور : ١- حفظ ألفاظها . ٢- معرفة معانيها .

٣- عبادة الله بمقتضياتها ودعائه بها . ٤- عدم الإلحاد فيها .

تنبيه : لم يصح حديث في عد أسماء الله تعالى والروايات في حصرها لا تثبت عن الرسول ﷺ .

م (٣) : معنى فادعوه بها :

الأول : التوسل إلى الله بها عند الدعاء . الثاني : عبودية الله بحقائقها وآثارها .

تنبيه : دعاء الصفات كقول : (يا رحمة الله ولطف الله) من الشرك .

م (٤) أنواع الإلحاد وصوره:

١- تعطيل الله من أسمائه وصفاته .

٢- تمثيل الله بخلقه ، ومن ذلك تسمية الله ﷻ بأسماء المخلوقين.

٣- تمثيل المخلوق بالرب ، ومن ذلك تسمية المخلوق ببعض أسماء الله .

ومن أعظم ذلك إلحادا تسمية الأصنام والآلهة الباطلة بأسماء الله تعالى.

٤- تسمية الله بما لم يسم به نفسه ، أو بما لا يليق كالأب والواجب والصانع.

٥- تحريف معاني أسمائه وصفاته وتأويلها.

٦- ادعاء أن معانيها مجهولة ولا تعرف وتفويض معانيها.

٧- تكييف صفات الله .

٨- وصفه سبحانه بالنقائص كالنوم والتعب والولد .

٩- ادعاء أنها جامدة غير مشتقة، أو أنها مخلوقة .

وكل هذه الصور داخلة في حقيقة الشرك.

قال قتادة : يلحدون يشركون . أخرجه ابن أبي حاتم .

ونسبه المصنف إلى ابن عباس.

والإلحاد منه ما هو مناف لأصل التوحيد ، ومنه ما هو مناف لكماله .

باب لا يقال: السلام على الله (٥٢)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : تحريم أن يقول العبد السلام على الله .

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بالتأدب مع الله ﷻ وتعظيم الربوبية، وعدم التشبيه، ويعد هذا الباب من أبواب شرك الألفاظ الأصغر من وسائل الشرك.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن قول السلام على الله يقدح في التوحيد من جهتين :

١- أنه يلزم منه أن الله تعالى محتاج لمن يسلمه وأنه غير سالم من النقص.

٢- وأنه الله سبحانه محتاج لمن يدعو له وهذا يخالف كونه يُدعى ولا يدعى له.

وفي هذا قدح في الرب ﷻ ومناقضة لتعظيمه، وتشبيه له بالمخلوق الناقص.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

أورده المؤلف بعد باب الأسماء الحسنى وعدم الإلحاد فيها فهو يتعلق بإثبات الأسماء المتضمنة لصفات الكمال، وفي هذا الباب قعد لنفي النقص عن الله، لأن قول (السلام على الله) يوهم وجود النقص به فيحتاج لمن يسلمه ويدعو له بالسلامة.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

له علاقة بأبواب شرك الألفاظ وقد حصرناها وبيناها فلا حاجة للإعادة.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد دليلا واحدا وهو حديث ابن مسعود ﷺ قال: كنا إذا كنا مع النبـي ﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان، فقال النبي ﷺ : (لا تقولوا السلام على الله ؛ فإن الله هو السلام) رواه البخاري.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١) : حكم قول : (السلام على الله) :

يحرم قول هذه العبارة ، ولا يزال بعض العامة بعد الصلاة يقـول اللهـم أنـت السلام وعليك السلام والواجب أن يقال ومنك السلام بدل عليك السلام .

م (٢) : دليل تحريم هذه العبارة : عن ابن مـسعود ﷺ قـال: كنـا إذا كنـا مـع النبي ﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان، فقال النبـي ﷺ : (لا تقولوا السلام على الله ؛ فإن الله هو السلام) رواه البخاري.

م (٣) : وجه دخول هذه العبارة في شرك الألفاظ الأصغر :

أن قول السلام على الله يقدح في التوحيد ويدخل في الشرك من جهتين :

١- أنه يلزم منه أن الله تعالى محتاج لمن يسلمه وأنه غير سالم من النقص.

٢- وأن الله سبحانه محتاج لمن يدعو له وهذا يخالف كونه يُدعا ولا يدعا له.

وفي هذا قدح في الرب ﷻ ومناقضة لتعظيمه، وتشبيه له بالمخلوق الناقص.

م (٤) : علة نهى النبي ﷺ الصحابة عن قول هذه العبارة: بـيّن ﷺ علـة النهـي وهي أن الله هو السلام ولا يسلّم أحد دونه، فهو المسلم لخلقه السالم من كل نقـص، وأما الخلق محتاجون للسلام فمن الذي يسلم الله وهو السلام السالم المسلم سبحانه .

م (٥) : معنى السلام :السلام له معنيان :

قال ابن القيم : (السلام اسم مصدر وهو من ألفاظ الدعاء يتضمن الإنشاء والإخبار، وهو معنى السلام المطلوب عند التحية وفيه قولان : (أن الله ﷻ هو السلام ومعنى الكلام نزلت بركته عليكم. الثاني: أن السلام بمعنى السلامة وهو المطلوب المدعو به عند التحية . والحق في مجموع القولين) البدائع ٢/ ١٣٧ .

السلام له معنيان :

معنى ثبوتي : ومعناه المسلم لغيره من النقص.

ومعنى سلبي من السلامة من النقص والعيب .

فيدخل بذلك السلام في الأسماء المنفية فيكون مثل القدوس وسبحان.

م (٦) : الفرق بين التحية والسلام.

يقال التحيات لله ، ولا يقال السلام لله وعلى الله .

لأن التحيات تأتي بمعنى الثناء وبمعنى السلام، فتضاف لله بالمعنى الأول.

م (٧) : فقه البدائل :

أمر النبي ﷺ أن يقول لفظ التحيات ودعاء السلام بعد الصلاة بدل عبارة السلام على الله فعلمهم الدعاء والتحية التي تصلح لله.

باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت (٥٣)

اسم الباب : تعليق الدعاء بالمشيئة

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه: تحريم تعليق الدعاء بالمشيئة، مثل أن يقول اللهم اغفر لي إن شئت.

مكانه ونوعه:

يعتبر من الأبواب المتعلقة بالتأدب مع الله ﷻ وتعظيم الربوبية، وعدم التشبيه، ويعد هذا الباب من أبواب شرك الألفاظ الأصغر من وسائل الشرك.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن هذه العبارة فيها تعليق الدعاء بالمشيئة، وهذا يقدح في التوحيد من جهات: إيهام الإكراه والعجز في حق الله والاستغناء عنه، وهذه لوازم فيها سوء أدب معه.

كما أن هذا الباب الاستثناء في الدعاء يتعلق بتوحيدي الربوبية والألوهية :

دخوله في شرك الألوهية أنه ينافي الافتقار لله والتذلل والخضوع وغيرها من المعاني التي تقوم عليها العبودية وهذا من حيث الاستغناء عن الله وعدم الرغبة.

ودخوله في شرك الربوبية : أن فيه قدحاً في الرب ﷻ ومناقضة لتعظيمه، وتشبيهاً له بالمخلوق الناقص ، وهذا المعنى من حيث توهم الإكراه والعجز في الله.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله: هذا الباب بين خطورة توهم الاستغناء عن الله واعتقاد أن لله مكره، فكان فيه مشابهة للباب السابق لكونه يوهم أن الله ﷻ محتاج لمن يسلمه.

فالبابان في العبارات الموهمة وجود النقص في الرب كما يدخلان في الإلحاد.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

له علاقة بأبواب شرك الألفاظ وقد حصرناها وبيناها فلا حاجة للإعادة.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد دليلا واحدا وهو حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة، فإن الله لا مكره له)، ولمسلم: (وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه) رواه البخاري.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١) : حكم قول : (اللهم اغفر لي إن شئت) :

يحرم قول هذه العبارة في الدعاء الديني والدنيوي، ومع ورود النهي عنها إلا أنه لا يزال كثير من الناس يعلق دعاءه بالمشيئة ،كقولهم: الله يعافيك إن شاء الله.

وهذا الحكم يتأكد تحريمه وقد يصل إلى الشرك الأكبر ما لو تحققت العلل في قلب من يقولها ، أنه مستغن عن الله أو أن الله له مكره أو صعب عليه ولا يقدر عليه.

م (٢) : دليل تحريم هذه العبارة :

١- نهي النبي ﷺ عن هذه العبارة كما جاء في حديث أبي هريرة عند البخاري.

٢- قال ﷺ : (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل) رواه الترمذي.

م (٣) : وجه دخول هذه العبارة في شرك الألفاظ الأصغر :

لما فيها من تشبيه الرب بخلقه ونسبة النقص له بكون أحد مكره له ووجود ما هو صعب عليه مع استغناء العبد عن الله تعالى.

م (٤) : ذكر النبي ﷺ ثلاث علل في وجه تحريم قول هذه العبارة:

أن تعليق الدعاء على المشيئة محرم لكونه قادحاً في التوحيد من ثلاث جهات :

الأول : أنه قد يفهم منه أن أحداً يكره الله عز وجل والله ليس له مكره .

وهذه العلة نص عليها النبيﷺ بقوله: (فإن الله لا مكره له).

الثاني: أنه قد يلزم منه أن هذا الأمر عظيم أو صعب على الله .

وهذه العلة نص عليها النبيﷺ بقوله: (فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه).

الثالث: أنه يفهم منه أن الإنسان غني عن عطاء الله وليس في حاجة لدعاء الله تعالى ، فإن تحقق المدعو به أو لم يتحقق فالأمر بالنسبة للداعي سواء .

وهذه العلة نص عليها النبيﷺ بقوله: (ليعزم المسألة ، وليعظم الرغبة) .

م (٥): فائدة: ليس من تعليق الدعاء المنهي عنه ما قصد به البركة لا التعليق ، كما في حديث (طهور لا بأس إن شاء الله) ، وحديث (وثبت الأجر إن شاء الله) ، وحديث دعاء الاستخارة.

م (٦): قاعدة: أحكام الشريعة معللة وليست مجرد تعبدية فالله تعالى إذا نهى عن شيء كان ذلك لحكمة قد نعلم بعضها ونجهل بعضها ، ومن هذا الأصل نهيه ﷺ عن الاستثناء في الدعاء حيث قرن بين الحكم وحكمته فبين العلة في النهي.

باب لا يقول: عبدي وأمتي (٥٤)

اسم الباب: النهي عن التعبيد لغير الله تعالى وقول عبدي وربي

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه: النهي عن التعبيد لغير الله تعالى وقول عبدي وربي .

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بالتأدب مع الله ﷻ وتعظيم الربوبية، وعدم التشبيه، ويعد هذا الباب من أبواب شرك الألفاظ الأصغر من وسائل الشرك.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن هذه العبارة توهم المشاركة في الربوبية وتشبيه للمخلوق بالله تعالى .

وأيضاً وجود من يستحق العبادة من دون الله .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

أورده بعد موضوع إيهام الإكراه والعجز والاستغناء في حق الله تعالى وإعطائه شيئاً من صفات المخلوق وفي عبارة عبدي وربي وجود علة مقاربة وهي وجود من يشارك الله في صفاته وإعطاء المخلوق شيئا من الربوبية فالبابان يدخلان في الإلحاد.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

فيه مشابهة لباب شرك التسمية.

له علاقة بأبواب شرك الألفاظ وقد حصرناها وبيناها فلا حاجة للإعادة.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد المصنف دليلا واحدا وهو حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

(لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضيء ربك؛ وليقل: سيدي ومولاي. ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي) متفق عليه .

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١) : حكم قول : (عبدي وربي) :

يكره قول هذه العبارة ، وتكون هذه العبارة محرمة، وتصل إلى الشرك الأكبر إذا قصد حقيقة العبودية والربوبية وليس الرق والسيادة.

تنبيه : توجد هذه العبارة في من يوصفون بالمشرعين والجهات المشرعة .

م (٢) : دليل تحريم هذه العبارة : حديث أبي هريرة المتفق عليه.

م (٣) : وجه دخول هذه العبارة في شرك الألفاظ الأصغر وعلة تحريمها :

أن هذه العبارة توهم المشاركة في الربوبية وتشبيه المخلوق بالله تعالى والرب بخلقه.

وأيضاً وجود من يستحق العبادة من دون الله .

فالنهي جاء حسما لمادة التشريك والتشبيه بين الخالق والمخلوق.

م (٤) : فقه البدائل :

أمر النبي ﷺ أن يقول لفظ سيدي ومولاي بدل ربي وفتاي وفتاتي بدل عبدي وأمتي ، فعلمهم تحقيق التوحيد بقول العبارة السليمة من شوائب الشرك.

م (٦) : الفرق بين السيد والرب :

أن الرب إذا عرّف لا يطلق إلا لله تعالى.

كما أن السيد اختلف في كونه من أسماء الله تعالى.

م (٧) : الجمع بين الحديث وما جاء في خلاف ذلك من الأدلة:

ليس من هذا الباب قوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا ﴾ التوبة: ٣١. لأنهم شابهوا الرب في صفة التشريع فيقال فيها ما يقال في الآلهة.

أما قوله تعالى : ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ يوسف: ٤٢، فقيل إنه من شرع من قبلنا كما أبيح لهم السجود لبعضهم للتحية ونحن نهينا عن هذه اللفظة .

وقيل إن النهي للتنزيه والكراهة لا التحريم وهذه الآية لبيان الجواز كما يقال رب الدار والناقة .

وقيل النهي إذا قصد به الغلو والمشابهة.

وأخطأ من قال إذا قصد بهذه الألفاظ الإخبار فيجوز إذ النهي للعموم.

باب لا يرد من سأل بالله (٥٥)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه: إجابة من سألنا بالله وعدم رد طلبه.

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بالتأدب مع الله ﷻ وتعظيمه، وعدم التشبيه، ويعد هذا الباب من أبواب الشرك الأصغر العملي ، ومن وسائل الشرك.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن في إجابة من سأل بالله وعدم رد طلبه تعظيما لله تعالى ، وضد ذلك فيه تنقصا لله تعالى وعدم احترامه . فمن رد من سأل بالله فهو في الحقيقة لم يعظم الله المسئول به والمتوسل به، فصار بذلك متنقصا لله لا المخلوق الذي سأله .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً: مناسبته لما قبله: يناسب الأبواب السابقة في باب دفع النقص عن الرب.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب: له علاقة بأبواب تعظيم الرب وحفظ وسائل التوحيد وسد ذرائع الشرك وقد حصرناها في باب الشرك الأصغر فراجعها في محله.

ويشبه أبواب: الاقتناع بالحلف ، وإعطاء ذمة الله ، والسؤال بوجهه ، والاستشفاع به ، والإقسام عليه.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد حديثا واحدا عن ابن عمر قال: قال ﷺ :(من سأل بالله فأعطوه، ومن استعاذ بالله فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه) رواه أبو داود والنسائي.

الوقفة الخامسة: ما فات المصنف :

ذكر إجابة من سأل بالله وفاته أن يبين حكم السؤال عامة وبالله خاصة وتقدم.

وسؤال المخلوق الأصل أنه مكروه ومنهي عنه وتركه مطلقا من الكمال.

الوقفة السادسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١) : حكم إجابة أو رد من سأل بالله : يجب إجابة من سأل بالله وعدم رد طلبه إن لم يكن في الطلب ضرر، وضد يحرم لما فيه من تنقص لله وعدم احترامه .

م (٢) : دليل تحريم هذه المسألة : حديث ابن عمر المتقدم .

م (٣) : وجه دخول هذه المسألة في شرك الألفاظ الأصغر :

فيها تشبيه الله بخلقه ونسبة النقص له بكونه يرد كما يرد المخلوق ولا يجاب.

م (٤) : وجه تحريم رد من سأل بالله وعلة الحكم بوجوب إجابته :

لأن فيه قدح في ربوبية الله ﷻ ومنافاة لتعظيمه.

م (٥) : معنى إعاذة من استعاذ بالله. لها صيغتان : أن يقال لك :

أعوذ بالله منك ومن شرك ، أو أسألك بالله أن تعيذني وتكفيني شرك.

وصيغة السؤال بالله : أسألك بالله ، بالله عليك .

م (٦) : وجه الحث على المكافأة على الصنيع .

لينتفي الذل للمخلوق الذي استعبدك بإحسانه فلا يبقى في القلب ذل لغيره.

م (٧) : هل في صيغة السؤال بالله كفارة: إن قصد السائل اليمين ففيه الكفارة على الحالف إذا لم يجبه المحلوف عليه ويعتبر حانثا،وإن قصد مجرد السؤال فلا كفارة.

ولا ينبغي أن يسأل بالله من عرف أنه لا يقدر ولا يجيب.

باب لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة (٥٦)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب، موضوعه، ومعناه، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه: تحريم السؤال بوجه الله . وله صيغتان ستأتي.

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بالتأدب مع الله ﷻ وتعظيم الربوبية.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن السؤال بوجه الله الأمور الحقيرة إبتذال وامتهان، وهذا يخالف مبدأ تعظيم الرب تعالى وإجلاله وبالتالي يعد قادحا في كمال التوحيد.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

هذا الباب يشبه الباب السابق فالبابان في احترام الرب وتعظيمه ﷻ والبعد عما يوهم تنقصه. وله مناسبة بما سبق من أبواب من حيث قاعدة دفع العيب عنه.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

له علاقة بأبواب شرك الألفاظ وقد حصرناها وبيناها فلا حاجة للإعادة.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد دليلا واحدا وهو حديث جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة) رواه أبو داود ومدار الإسناد على سليمان بن معاذ وهو ضعيف.

وأخرج الطبراني بإسناد حسن: (ملعون من يسأل بوجه الله ، وملعون من سئل بوجه الله ثم يمنع سائله ما لم يسأل هجرا) .

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١) : أوجه السؤال بوجه الله : له صيغتان :

١ - أن يسأل الله بوجهه أمور الدنيا :

فلا يجوز أن يسأل بوجهه غير الأمور العظيمة كالجنة ورضا الله.

٢- أن يسأل الناس بوجه الله :

كأن يقول: وجه الله عليك تفعل كذا ، أو أسألك بوجه الله أن تفعل كذا.

تنبيه : تخصيص الجنة، يدخل فيه ما هو وسيلة لها كرضا الله وعدم غضبه .

وجاء في دعاء النبي ﷺ:(أعوذ بنور وجهك أن يحلل علي غضبك) رواه الطبراني. وقوله ﷺ : (أعوذ بوجهك).

م (٢) : حكم السؤال بوجه الله :

وهذا الحكم يتأكد تحريمه وقد يصل إلى الشرك الأكبر ما لو تحققت العلل في قلب من يقولها ، أنه مستغن عن الله أو أن الله له مكره أو صعب عليه ولا يقدر عليه.

وتقدم دليل تحريم هذه العبارة وعلة تحريمها .

م (٣) : في الحديث إثبات الوجه لربنا تعالى خلافا للمعطلة الجهمية.

باب ما جاء في اللو (٥٧)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : حكم قول لو وأنواع استعمالاتها.

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بالوسائل التي تحفظ جناب التوحيد.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

لو تقدح في التوحيد ويظهر ذلك من ملحظين :

الأول : أن قول لو تقوم على التسخط على القدر والجزع والتحسر والندم.

والتوحيد لا يتم إلا بالرضا بالله وبالقدر والاستسلام لله في كل شيء وعدم التسخط على أفعاله وأقداره.

الملحظ الثاني : أن قول لو فيه التفات للسبب وإيهام استقلاله بحصول المطلوب، وفي هذا نسبة الحوادث لغير الله وتعلق بالأسباب وتسوية الخالق بالمخلوق في الفعل والسبب والتأثير وفي هذا أيضا منافاة للتوكل الذي تقوم عليه العبادة .

من هنا يتبين مخالفة هذه الكلمة للتوحيد وفتحها لباب الشرك ، وعليه فهذا الباب يدخل في الشرك الأصغر وتعد من الوسائل التي قد توصل إلى الشرك الأكبر.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً:مناسبته لما قبله:جاء في سياق الأبواب المبينة حفظ التوحيد وسد الشرك.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

هذا الباب له علاقة بأبواب القدر : الصبر على الأقدار وإنكار القدر.

وله علاقة بباب الشرك الأصغر شرك الألفاظ، وأبواب الألفاظ الشركية.

الوقفة الرابعة: ما فات المصنف :

أن يدرج تحت الباب مسائل لو لا المتعلقة بشرك الأسباب.

الوقفة الخامسة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب: أورد المؤلف:

١- قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ آل عمران: ١٥٤ .

٢- قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ﴾ آل عمران: ١٦٨ .

٣- حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول ﷺ قال: (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان) رواه مسلم.

وقفات مع الحديث :

١- حال العبد مع الأمر المراد :

قبل وقوعه عليه بما يلي: الحرص على ما ينفعه في دينه ودنياه . الاستعانة بالله والتوكل على الله ، القيام به وعدم العجز والتواكل والتفريط في الأسباب.

بعد وقوع المراد إن حصل ما يريد من خير يشكر الله .

وإذا لم يحصل يتسلى بالصبر ويتعزى بالقدر ويقول ما ورد في الحديث .

٢- أقسام الناس عند المصائب :

جازع متسخط ، يقول : لو أنني فعلت كذا لكان كذا وكذا .

صابر يقول : قَدَر الله وما شاء فعل . والدال بالتخفيف ويصح فيها التشديد.

٣- فائدة : عمل الشيطان الذي تفتحه لو : الوسوسة والتسخط والحزن .

الوقفة السادسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١) : قاعدة:حقيقة الشرك في قول لو ولولا :

١- أن قول (لو) تقوم على التسخط على القدر والجزع والتحسر والندم.

والتوحيد لا يتم إلا بالرضا بالله وبالقدر والاستسلام لله في كل شيء وعدم التسخط على أفعاله وأقداره.

٢- أن قول (لولا) شرك لأن فيها نسبة شيء من التدبير والتأثير لغير الله.

وهي داخلة في باب شرك الأسباب والاعتماد عليها ونسبة الحوادث للخلق.

والقاعدة في هذه الألفاظ معروفة متى تكون من الشرك الأصغر أو الأكبر.

يزيد لفظ (لولا الله وفلان) أن فيه التسوية في اللفظ الموهم التسوية في التأثير.

م (٢) : وجه كون (لو) قادحة في كمال التوحيد :

١- أنه ينافي كمال التوكل الذي تقوم عليه العبادة .

٢- أن فيه تسخطاً على القدر وعدم الرضا عن الله وأقداره.

٣- نسبة الحوادث لغير الله وتعلق بالأسباب.

٤- تسوية الخالق بالمخلوق في الفعل .

م (٣) : حالات قول (لو) :

١- إذا كان لتمني الخير فهو جائز ومنه قوله ﷺ : (لو استقبلت من أمري ما استدبرت لسقت الهدي) . وقول لوط : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ هود: ٨٠.

٢- أن تكون للجزع والتسخط والاعتراض على القدر أو تمني الشر ، فهذا محرم وهو الذي ورد النهي عنه . (وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا).

٣- إن كان لبيان سبب حقيقي في الأمر فلا بأس : كقول النبي ﷺ عن أبي طالب : (لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار) .

م (٤) : الفرق بين لو ولولا :

لو : المقصود منها الاعتراض على القدر وعدم الرضا ، مثال : لو سافر ما قتل.

لولا : المقصود منها هنا نسبة الحوادث للمخلوق والاعتماد على السبب.

مثال : لولا كذا أو لولا الله وفلان لما صار كذا ، وهذا شرك تسوية في اللفظ

م(٥) فائدة : لفظ (ليت) قد تكون مثل لو في الدلالة فتأخذ نفس الحكم .

باب النهي عن سب الريح (٥٨)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : تحريم سب الريح لأنه سب لفاعله وهو الرب ﷻ .

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بالتأدب مع الله ﷻ وتعظيم الربوبية، والوسائل التي تحفظ جناب التوحيد وتسد ذرائع الشرك وتغلق أبوابه.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن في السب قدح في باب التوحيد من عدة أوجه :

عدم الرضا بالله وبأفعاله وأقداره .

تعظيم الله تعالى وعدم القدح في أفعاله وتقص تصرفاته .

فيه إيهام بنسبة الحوادث للخلق وتأثيرهم من دون الله.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

مناسبته ظاهرة حيث أورده المؤلف بعد باب لو الذي مقصوده عدم الاعتراض على أقدار الله وأفعاله .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

له علاقة ظاهرة بباب سب الدهر فهذا خاص بالريح وذاك عام بأفعال الله.

وهذا الباب له علاقة بأبواب متنوعة وكثيرة من كتاب التوحيد ذكرتها في باب سب الدهر مرجعها ثلاثة أقسام حسب مقاصدها.

ثالثاً : الرأي في ترتيبه بين الأبواب :

الأولى لو جعل هذا الباب بعد باب سب الدهر ، لما بينهما من ترابط وعلاقة ظاهرة ، فباب سب الدهر عام لكل أفعال الله وهذا الباب خاص بالريح منها .

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد دليلا واحدا:

عن أبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به) صححه الترمذي.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١) : حقيقة سب الريح:

الكلام في سب الريح وعلل تحريمها ينطبق عليه الكلام عن سب الدهر .

م (٢): الريح مأمورة ومن ضعف العقل والحمق سبها .

م (٣) : علة النهي في سب الريح :

لأن في سب الريح سب لمدبرها وخالقها وآمرها وهو الله ﷻ.

م (٤) : سب الريح كفر في حالتين :

إن اعتقد أنها مستقلة في التأثير وليست مدبرة مربوبة.

إن قصد بالسب خالقها ومدبرها ومرسلها فسب الله لذلك.

م (٥) : الريح فيها خير كسوق المطر واللقاح وتطهير الجو.

وفيها شر ومكروه كالباردة والحارة الجافة والعقيم .

م(٦) كراهية الريح لا يدخل في النهي للحديث (إذا رأيتم منها ما تكرهون).

م (٧) : دليل النهي عن سب الريح :

عن أبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تسبوا الريح) صححه الترمذي.

وقال ﷺ : (لا تلعنوا الريح ، فإنها مأمورة ، وإنه من لعن شيئا ليس لـه بأهـل رجعت اللعنة عليه) رواه أبو داود والترمذي.

م (٨) : تنبيه : معنى الروح والنفس : هو من باب التنفيس والتفريج .

قال ﷺ : (الريح من روح الله) رواه أحمد وأبو داود.

وقال ﷺ (لا تسبوا الريح فإنها من نفس الرحمن). أخرجه الحاكم .

م (٩) : ما يقال عند هبوب الريح ورؤية ما يكره منها :

عن أبي بن كعب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تسبوا الريح، فـإذا رأيـتم مـا تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به) صححه الترمذي.

وعند الحاكم والطبراني من دعاء النبي ﷺ : (اللهم لقاحا لا عقيما) .

ومنه : (اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا) .

م (١٠) : من هذا الباب النهي عن سب الحمى:

قال ﷺ : (لا تسبي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم) رواه مسلم .

باب قوله تعالى: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (٥٩)

اسم الباب : أحكام الظن بالله تعالى، الظن الحسن والسيئ.

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه: وجوب الظن الحسن بالله وتحريم الظن السيئ بالله .

مكانه ونوعه : يعد من الأبواب الداعية للتأدب مع الله وتعظيمه، ومن أبواب وسائل حفظ التوحيد وحسم الشرك. كما يعد من أبواب الشرك الأصغر العملي.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن في حسن الظن بالله تعظيما لله تعالى ومعرفته حق المعرفة، وضد ذلك الذي هو سوء الظن بالله يعد تنقصا لله تعالى، وجهلاً بصفاته الحسنى، وتشبيهاً له بخلقه، واعتراضاً على قدره، وإساءة أدب معه فهو بذلك يعتبر من قوادح التوحيد .

والأصل أن هذا الباب من الوسائل والشرك الأصغر ، وقد يدخل في الأكبر.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً: مناسبته لما قبله:

جاء بعد الأبواب التي أوضحت الاعتراض على القدر لتقارب موضوعها.

كما يناسب الأبواب السابقة في باب دفع كل ما يوهم تعييب ربنا تعالى وتنقصه، فجاء في سياق الأبواب المبينة لكيفية حفظ جناب التوحيد وحراسته وصيانته وحمايته مما ينقضه أو ينقصه ، والتي مقصودها تعظيم الله والتأدب معه.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

له علاقة بأبواب الشرك الأصغر وقد حصرناها في باب الأنداد رقم(٤٢).

وله علاقة بأبواب القدر وقد بيناها في بابها .

كما يشبه أبواب:الأمن والقنوط، كفر النعم وظن استحقاقها، رد السائل بالله، عدم الاقتناع بالحلف، وأبواب التطير والتمائم والتبرك لما فيها من حسن الظن بغيره.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد آيتين وتفسيراً للآية من قول ابن القيم وقد أخذه من كلام السلف:

١- قوله تعالى: ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ آل عمران: ١٥٤.

والآية جاءت في سياق قصة معركة أحد وما قاله المنافقون فيها.

٢- قوله تعالى: ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ الفتح: ٦.

وهي في المنافقين والمشركين، وفيه دلالة على ارتباط الظن بالشرك والنفاق.

٣- قال ابن القيم في الآية الأولى في زاد المعاد عند كلامه عن معركة أحد :

(فسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته. ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يظهره الله على الدين كله. وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا الظن السوء لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق . فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره،

أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة، فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده.

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله، وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء. ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتا على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا؛ فمستقل ومستكثر. وفتش نفسك، هل أنت سالم.

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا أخالك ناجيا.

تنبيه: رد ابن القيم الظن السيئ عند المنافقين والجهال في الآية لثلاثة أسباب:

١- أن الله لن ينصر دينه ورسوله وأنه سيضمحل أمره ويعلو أعداؤه.

٢- أن هذا الأمر لم يكن بقدر الله وكان يمكن دفعه.

٣- أنه مخالف للحكمة .

الوقفة الخامسة: ما فات المصنف :

ذكر الشيخ المصنف أدلة الظن السيئ ولم يذكر أدلة للظن الحسن ونذكر منها:

١- قال الله ﷻ: (أنا عند ظن عبدي بي فليظن عبدي بي ما شاء)البخاري.

٢- قال ﷺ : (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن ظنه بالله ﷻ) رواه مسلم .

٣- في الحديث: (حسن الظن بالله من حسن العبادة) رواه الترمذي والحاكم.

الوقفة السادسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١) : تعريف الظن وحقيقته وأنواعه:

الظن هو التوقع والعلم بالشيء على غير حقيقته غالبا وهو أنواع :

١- ظن صحيح صادق وظن باطل كاذب آثم.

٢- ظن حسن وضده الظن السيئ .

م (٢) : ارتباط مسألة الظن بالله بثلاثة أبواب من العقيدة :

١- باب الأسماء والصفات.

٢- باب العبادة وتوحيد الألوهية والرجاء والتوكل.

٣- باب القدر .

م (٣) : صوره : أنواع الظن السيئ بالله لا تحصر ، فمنها :

ظن الكثير أن الله لن ينصر دينه وأولياءه وسيخذلهم ويظهر الكفار عليهم، وأن الله يخيب من دعاه ورجاه وتوكل عليه، ظن العبد أن الله لن يرحمه ولن يعاقبه إذا أساء ، الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله، ظن الجهال أنه يمكن مغالبة القدر وأن الشخص لو فعل كذا لما وقع المقدور ، ما يقع في نفس الكثير أن هذا الأمر الذي قدره الله وأراد وقوعه لا حكمة فيه أو فيه شر، أو أن فيه ظلماً على العباد، الاعتراض على القدر، أن الله لم يقدر الأمور، اعتقاد أن الله يساوي المسلم بالكافر والطائع بالعاصي، إنكار الحساب والثواب والعقاب، إنكار صفات الله وتحريفها ، الشرك .

تنبيه: ليس من الظن السيئ خشية الله والخوف من عدم قبول العمل.

تنبيه : الشرك بالله بأنواعه من أعظم أنواع إساءة الظن بالله تعالى ومن أبرزها جعل الوسائط بين الله وبين خلقه تشبيها له بملوك الدنيا الذين لا يرحمون ولا

يعلمون ولا يقدرون إلا بالوسطاء عندهم ، ووجه ذلك أن سوء الظن بالله ﷻ وعدم تقديره سبحانه ولا معرفة صفاته العلية من أعظم أسباب الشرك .

فالمشرك يقيس ربه الغني بالمخلوق الضعيف الذي يحتاج لواسطة تقرب إليه وتشفع عنده وذلك لجهله وعجزه وعدم رحمته فتطلب الواسطة عنده، ليعلم بوزرائه وأعوانه وشركائه ويرحم بهم ويقدر بهم، فأين ذلك من الله سبحانه العالم بكل شيء والذي لا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وهو مع خلقه أينما كانوا ، وهو يعلم السر وأخفى ، وهو القادر على كل شيء والمالك وحده للنفع والضر وغيره لا يضر ولا ينفع ، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، وهو الراحم بخلقه المتكفل بأرزاقهم الغني الحميد الصمد الذي يصمد الخلق إليه ويسألونه حوائجهم وهم الفقراء إليه والله وحده هو الغني الحميد .

وصدق الله تعالى حين وصف حال المشركين في سوء ظنهم بالله بقوله تعالى:

﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ الفتح: ٦ ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ فصلت: ٢٣ ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الصافات: ٨٧ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ص: ٢٧ ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ آل عمران: ١٥٤ وقال: ﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ الحج ٧٤ ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ نوح: ١٣.

هذا هو الشرك وهذا حال صاحبه أساء ظنه بربه ولم يقدره حق قدره فشبهه بخلقه فتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

م (٤) : خطورة الظن وطرق السلامة منه :

يقع أكثر الناس في الظن السيء وهم بين مقل ومكثر ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه. والواجب أن لا يظن العبد بربه الذي كل خير منه تعالى ، وليظن بنفسه التي هي مأوى كل سوء .

م (٥) : مرجع الظن بالله إلى معرفة صفاته والعلم الصحيح به .

وسبب الظن السيئ : إنكار صفات الله تعالى وتحريفها والجهل بها.

م (٦): تقدم في الوقفات :

الكلام عن حكم الظن ودليله وعلة تحريمه ووجه دخوله في الشرك الأصغر.

باب ما جاء في منكر القدر (٦٠)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب، موضوعه، ومعناه، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه: في القضاء والقدر، الإيمان به وحكم إنكاره.

كيفية الإيمان بالقدر : أن يؤمن العبد أن الله عليم بكل شيء، وكتب مقادير كل ما هو كائن، وأراده بمشيئته، وخلقه . كما يؤمن العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ثم يرضى بذلك القدر.

كيفية إنكاره : يكون بصور كثيرة .

حكم إنكاره : إنكاره بالكلية كفر مخرج من الملة وكذا إنكار أحد مراتبه على الصحيح، أما الجزع من القدر ومعارضته وعدم الرضا به فالأصل أنه محرم ومن الشرك الأصغر ويكون من الكفر الأكبر كما قدمنا في باب الصبر .

حكم الإيمان به : يعتبر أصلاً من أصول الدين وركناً من أركان الإيمان فلا يصح الإيمان إلا بعد الإيمان به. وقد دل على هذا الكتاب والسنة وأقوال الصحابة .

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بإثبات القدر وهو داخل في عموم تعظيم الله ﷻ وحقيقة صفاته وتوحيده في الربوبية.

الوقفة الثانية : علاقة باب القدر بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

القدر داخل في أفعال الله وصفاته، وذلك أن مراتب القدر العلم والكتابة والمشيئة والخلق كلها صفات وأفعال لله فيدخل بذلك في توحيد الربوبية والصفات.

أما علاقته بالألوهية :فلأن القدر يجب الرضا به والتسليم فيه وعدم السخط على ما قدر الله، وهذه كلها داخلة في التأله والعبادة فيشملها توحيد الألوهية .

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً: مناسبته لما قبله:

يناسب الأبواب السابقة في دفع النقص والعيب عن الرب ، وخصوصا باب الظن السيئ بالله الذي له علاقة بالقدر.

وتقدم في باب سابق وغيره الكلام عن الرضا بالقدر ووجوب الصبر عليه وتحريم الاعتراض والتسخط على أقداره وسب أفعاله .

وهنا ذكر حكم إنكار القدر بالكلية وأول من أنكره من الفرق القدرية وكان ذلك آخر زمن الصحابة ، وعقوبات منكره.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

له علاقة بالأبواب القدرية فهو المرجع لها ، وهي:

الصبر على أقدار الله ، الهداية ، لو ، سب الدهرو سب الريح ، الظن بالله.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١- أثر ابن عمر: (والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر) .

٢- ثم استدل ابن عمر بقول النبي ﷺ: (**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**) رواه مسلم.

٣- أثر عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: (يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك). ثم قال:

٤- سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. فقال: رب، وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**).

٥- يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**من مات على غير هذا فليس مني**).

٦- وفي رواية لأحمد: (**إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**).

٧- وفي رواية لابن وهب قال رسول الله ﷺ: (**فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار**).

٨- أثر أبي بن كعب ﷺ: في المسند والسنن عن ابن الديلمي قال: أتيت أبي فقلت في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي.

فقال: (لو أنفقت مثل أحد ذهبا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار).

٩- قال: فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة ابن اليمان وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ. حديث صحيح. رواه الحاكم في صحيحه.

الوقفة الخامسة: ما فات المصنف :

لم يذكر رحمه الله أدلة القدر من الكتاب والسنة ولا عقيدة أهل السنة الجامعة في القضاء والقدر ومراتبه والهداية والضلال وأفعال العباد.

الوقفة السادسة: المسائل العقدية في المتعلقة بباب القضاء والقدر:

مبحث : الإيمان بالقضاء والقدر

م (١) : تعريف القضاء والقدر ومعناهما شرعاً :

تقدير الله تعالى للأشياء في الأزل وعلمه سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة وكتابته سبحانه لذلك ومشيئته له ، ووقوعها على حسب ما قدرها وخلقه لها .

م (٢): الفرق بين القضاء والقدر: القضاء والقدر إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا،وإذا اجتمعا افترقا في أوجه، فيشتركان في معانٍ ويفترقان في معانٍ.

فيجتمعان في العلم والمشيئة والتقدير العام ، ويختص القدر بالتقدير السابق والقضاء بالخلق بعده، فالقدر تقدير والقضاء إيقاع ذلك التقدير، فالقضاء بعده .

م (٣) : علاقة القدر بالربوبية وبالأسماء والصفات وبالألوهية : تقدم.

م (٤) : أدلة القدر : منها أدلة عامة على القدر ومنها الخاصة ببعض مراتبه :

يدل على القضاء والقدر الكتاب والسنة والإجماع والفطرة والعقل والحس .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ القمر: ٤٩، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ الفرقان: ٢.

حديث جبريل :(وتؤمن بالقدر خيره وشره)، وقوله ﷺ: (وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل: قَدَرُ اللهِ وما شاء فعل) رواهما مسلم.

م (٥) : مراتب القدر :

القدر يقوم على أربعة أركان ومراتب مترابطة: العلم، الكتابة، المشيئة، الخلق.

وهذه المراتب هي المدخل لفهم باب القضاء والقدر، ولا يتم الإيمان إلا بها.

يجب أنا يؤمن المسلم بأن الله يعلم كل شيء وعلمه سابق شامل، وأنه كتب كل شيء وأنه شاءه وأراده وأنه خالق كل شيء فلا موجود إلا والله قد خلقه وقدره.

م (٦) : خلاصة الواجب اعتقاده في القدر :

١- يجب على العبد أن يؤمن بمراتب القدر الأربع : وتقدم بيانها.

٢- وأن من جملة ما خلقه الله وقدّره أفعال العباد خيرها وشرها الطاعة والمعصية ، مع كون الله أعطى العبد اختياراً وإرادةً وقدرة تابعة لمشيئة الله وخلقه.

٣- ومما يدخل في الإيمان بالقدر التقادير التي كتبها الله : في اللوح المحفوظ، وتقدير الميثاق، والتقدير العمري، والتقدير السنوي، واليومي ، والتكليفي.

وأن القلم الذي كتب في اللوح المحفوظ خلق قبل أن تخلق السموات والأرض لكنه ليس أول المخلوقات فالعرش قد خلق قبله.

٤- الإرادة على قسمين :إرادة كونية قدرية لابد من وقوعها، وقد لا توافق المحبوب . وإرادة شرعية يحبها الله ، وقد لا تقع .

٥- الهداية قسمان: هداية الدلالة وهي عامة. وهداية التوفيق خاصة بالمؤمن . والضلال والخذلان والهداية والتوفيق لها جانب من الله وجانب من العبد بالسبب .

٦- القدر من الغيب، لايعلمه أحد لا ملك ولا نبي، ومن زعم العلم به كفر .

٧- أن الله خلق وقدر الشرور والمعاصي والمال الحرام وأنها موجودة بحكمته.

٨- أن القدر الذي هو فعل الله لا شر فيه، فالشر ينسب للمقدور المخلوق.

وبهذا يحصل الجمع بين حديث: (والشر ليس إليك) عند مسلم .

وحديث جبريل عند مسلم : (وتؤمن بالقدر خيره وشره) .

فالشر في المفعولات المقدورات المخلوقة وليس في أفعال الله وقدره.

٩- كل ما يفعله الله ويقدره فهو حاصل بحكمته فأفعاله معللة بحكمته.

١٠- مما يدخل في القدر الواجب تصديقه أنه قسمان: قدر مثبت مطلق لايتغير ولا يطلع عليه أحد وهو ما في اللوح المحفوظ، ومعلق وهو ما في صحف الملائكة .

١١- أن الله تعالى منزه عن الظلم، وإن كان قادراً عليه، والظلم وضع الشيء في غير موضعه .

١٢- أن القدر يشمل الأسباب والمسببات، فالله خالق للسبب والمسبب ، خالق للنار وإحراقها، وأن الأسباب لها تأثير حقيقي في مسبباتها بقدرة الله .

١٣- أنا لا نوجب على الله تعالى شيئاً بعقولنا إلا ما كتبه على نفسه فضلا منه.

١٤- وأن العقل يعرف حسن الشيء وقبحه في كثير من الأفعال ، ولكن العقاب والثواب بالشرع لا بالعقل ، فالعقل تابع للشرع وليس مستقلاً في الحكم .

١٥- وأن الاستطاعة على قسمين : شرعية قبل الفعل ومعه بمعنى الصحة والسلامة، واستطاعة قدرية وتكون مع الفعل وهي بمعنى التوفيق والإعانة .

١٦- أن الله لا يكلف عباده إلا ما يطيقون.

١٧- وأنه ليس كل ما أراده الله فقد أحبه ، مثل إرادة الله وقوع الكفر.

١٨- وأنه ليس كل ما أمر الله به فقد أراده ، مثل أمر الله إبراهيم بذبح ابنه .

١٩- وأنه يجب على العبد أن يرضى بالقدر ويصبر على ما قدره الله من مصائب، ولا يرضى بالمعاصي وإن كانت من قدر الله .

٢٠- وأن القدر يحتج به في المصائب لا في الذنوب والمعائب .

٢١- وأن لا نعارض القدر بالعقل ، فهو من الغيب والسر الذي يحير العقول، مما يوجب الإيمان والتسليم لا الاعتراض والخوض بالباطل فيه .

م (٧) : الفِرَق المخالفة في القدر :

المخالفون في العلم طائفتان :

الطائفة الأولى: الفلاسفة: حيث أنكرت صفة الشمول في علم الله، فقالت الله يعلم بالكليات لا بالجزئيات فسقوط الورقة مثلاً لا يعلم بها .

الثانية: غلاة القدرية: أصحاب معبد وغيلان :حيث أنكرت أزلية العلم فأنكرت أن يكون العلم سابقاً فلا يعلم الله عندهم بالشيء إلا إذا وقع .

المخالفون في الخلق والمشيئة :

القدرية المعتزلة : حيث تنكر تعلق المشيئة والخلق بأفعال العباد فالله تعالى عندهم لم يخلق أفعال العباد ولم يردها وإنما العباد هم الذين خلقوا أفعالهم.

وسموا قدرية : لأنهم ينفون القدر عن الله ويثبتونه لأنفسهم (للمخلوق).
ويسمون بمجوس هذه الأمة لكونهم يثبتون خالقاً مع الله .

الجبرية الأشاعرة: وهي التي لا تثبت للعبد قدرة ولا فعل أو تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة وتسميه الكسب كما تنكر تأثير الأسباب وحقيقتها.

وسمو جبرية : لأنهم ادعوا أن الله أجبرهم وأنهم مجبورون وليست لهم إرادة .

ويسمون بالقدرية المشركة : لأنهم خالفوا في القدر ولم يوحدوا الله في الشرع والأمر، بل عارضوا الشرع بالقدر، فقالوا : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ الأنعام: ١٤٨ .

م(٨) : حقيقة القدر :

قدرة الله كما قال الإمام أحمد من جهة حصوله بقدرته ومن جهة إعجازه فلا أحد يعلمه أو يطلع عليه فهو سر الله في خلقه .

باب ما جاء في المصورين (٦١)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه: التصوير والتغليظ الشديد في المصورين.

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بتوحيد الربوبية والتأدب مع الله ﷻ وتعظيمه ، وعدم التشبيه، كما يدخل في الأبواب المحذرة من وسائل الشرك.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن التصوير يقدح في توحيدي الربوبية والألوهية من جهات :

١- مشابهة لخلق الله ومضاهاة لصنعه وفعله ، وهذا قادح في الربوبية.

٢- أنه وسيلة عظمى للوقوع في الشرك ، وهذا قادح في توحيد الألوهية.

٣- فيه تعظيم غير الله والتعظيم من خصائصه ﷻ.

٤- التشبه بالكفرة الفجار في شنيع أفعالهم وقبيح تصرفاتهم .

٥- تنقص الرب ﷻ في محاولة التشبه به وترك الأدب معه وتعظيمه.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً: مناسبته لما قبله:

أورده المؤلف بعد باب القدر لما بينهما من تناسب من جهتين :

١- دخولهما في توحيد الربوبية وتعظيم الرب وعدم تنقصه وتشبيهه.

٢- أن المخالفة فيهما من أسباب نقض التوحيد وحصول الشرك.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

له علاقة بقسمين من أبواب كتاب التوحيد:

١- له علاقة بأبواب توحيد الربوبية وتعظيم الرب والشرك فيها .

٢- له علاقة بوسائل الشرك والشرك الأصغر وحماية التوحيد.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد الواردة في الباب:

أورد خمسة أحاديث نذكرها اختصاراً وسيأتي بيانها:

١- قال الله تعالى: (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي) أخرجاه.

٢- (أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله).

٣- (كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها).

٤- (من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ).

٥- قول علي:(ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرا مشرفا إلا سويته).

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١) تعريف التصوير :

التصوير من الفعل صوّر وهو بمعنى التقدير والخلق .

م (٢) : حكم التصوير :

التصوير يعتبر محرما ومن كبائر الذنوب .

ويكون كفرا في حالتين :

الأولى: إذا استحل المصور فعله فيخشى عليه من الردة وما أكثر هؤلاء.

الثانية: إذا قصد المشابهة والمضاهاة.

م (٣) : وجه دخول التصوير في الشرك الأصغر العملي:

١- لأن فيه تشبها بالله في أخص صفاته وهي الخلق .

٢- أن فيه تعظيم المخلوق والغلو فيه.

٣- كما يدخل فيه من ناحية كونه وسيلة للشرك الأكبر وعبادة غير الله .

م (٤) : التصوير يعتبر من الشرك في الربوبية .

لأن فيه مشابهة لخلق الله الذي هو من أفعال ربوبيته .

والمصور من أسماء الله التي تفرد بها .

والتصوير من أفعال الله وصفاته .

والتصوير أحد مراتب الخلق الثلاث ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ .

ولذلك سمى الله تعالى التصوير خلقا : (يخلق كخلقي).

فائدة : الأفعال التي فيها مشابهة ومضاهاة: التصوير ، التشريع ، الكبر .

م (٥) : الأدلة الصحيحة الصريحة الدالة على حرمة التصوير :

١- ما جاء عند البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى : **(ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذره أو ليخلقوا حبه أو ليخلقوا شعيره)** رواه البخاري ومسلم .

ومعلوم أن الخلق هنا التصوير إذ أن الإنسان لا يخلق حقيقة وإنما خلقه الذي أنكره الله هو التصوير وليقف المسلم عند أمر الله وليعلم هذا الحديث ويعمل به وليحاسب نفسه ويدع التعلل بالشبهة والتلاعب بدين الله .

٢- عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: **(أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله)** رواه البخاري ومسلم .

٣- عن عبد الله ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **(أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون)** رواه مسلم .

٤- عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **(الذين يصنعون الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم)** متفق عليه .

٥- لمّا جاء رجل إلى ابن عباس ، فقال : إني رجل أصوّر هذه الصور فأفتني فيها، فقال له ابن عباس رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفسا فتعذبه في جهنم)** . ثم قال له : إن كنت لابد فاعلا فاصنع الشجر وما لا نفس فيه . رواه مسلم.

٦- وعنه أيضاً مرفوعاً **(من صوّر صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ)** رواه البخاري ومسلم .

فليحذر كل الحذر المصورون بالكاميرات والجوالات والرسامون ومعلقو الصور من عموم هذا الحديث وليحاسبوا أنفسهم ويقفوا عند حدود الله ولا ينتهكوا محارم الله .

٧- عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي ﷺ: ألا ابعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ :(**أن لا تدع صورة إلا طمستها ولا قبراً مشرفاً إلا سويته**) رواه مسلم. وفي لفظ : (تمثالا) بدل القبر.

وهنا نكره في سياق النهي وهي من دلالات العموم فلا تدع صوره إلا وتطمسها وتزيلها بيدك بأمر رسول الله ﷺ غير ناظر لمخالفة غيره أو غضب وأمر المخلوق، وفي قوله طمستها والتفريق بينه وبين الشيء البارز دليل أن الصورة ليس لها ظل ، ويؤيد ذلك حديث عائشة الذي سيأتي في الصور التي كانت على الوسادة.

٨- قال ﷺ :(**لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة**) رواه البخاري .

٩- عن عائشة قالت قدم رسول الله ﷺ من سفر وقد سترت على بابي درنوكاً - أي ستر له خمل - فيه الخيل ذوات الأجنحة فأمرني فنزعته . متفق عليه.

وفي رواية:سترت سهوة لي بقرام فيه تماثيل، فلما رآه هتكه وتلون وجهه .

١٠- وعنها أنها اشترت نمرقة - وسادة - فلما رآها رسول الله ﷺ قام على الباب ولم يدخل فعرفت في وجهه الكراهة ، فقالت : يا رسول الله أتوب إلى الله وإلى رسوله فماذا أذنبت فقال رسول الله ﷺ : ما بال هذه النمرقة . فقالت اشتريتها لك تقعد عليها وتوسدها فقال رسول الله ﷺ: (**إن أصحاب هذه الصور يعذبون ويقال لهم أحيوا ما خلقتم**) رواه البخاري ومسلم .

م (٦) : أوجه الحكم بتحريم التصوير وعلة النهي عنه وعلاقته بالتوحيد:

١- مشابهة لخلق الله ومضاهاة لصنعه وفعله كما في حديث أبي هريرة وعائشة.

٢- أنه وسيلة عظمى للوقوع في الشرك إذ أن أول شرك وقع على هذه الأرض حصل في قوم نوح وكان سببه التصوير كما جاء عن ابن عباس في ذلك .

٣- فيه تعظيم غير الله والتعظيم من خصائصه عز وجل الذي لا يستحقه أحد سواه ولا يكون إلا له .

٤- التشبه بالكفرة الفجار في شنيع أفعالهم وقبيح تصرفاتهم خصوصاً اليهود والنصارى بتعليق صور علمائهم ورؤسائهم كما جاء في حديث أم سلمة .

٥- تنقص الرب ﷻ في محاولة التشبه به وترك الأدب معه وتعظيمه.

وغير ذلك من العلل القاضية بتحريم التصوير .

تنبيه : هذه العلل منها ما يرجع للربوبية وهو المشابهة ومنها ما يعود لنقض توحيد الألوهية وهو التعظيم وذريعة الشرك .

أدلة تحريم التصوير جاءت بصيغ العموم من غير تخصيص :

الملاحظ في أدلة تحريم التصوير الناهية عنه أنها جاءت عامة بدون استثناء مما يقطع بتحريم التصوير سواء كان التصوير للذكرى أو الدعوة أو التعليم أو التعليق أو غير ذلك وسواءً كانت الصور مرسومة باليد أو بآلة حديثة للتصوير بالفيديو أو بالنت أو بالجوالات أو كانت تمثالاً مجسماً، كل هذا داخل في عموم الصور المحرمة المشتملة على علل التحريم التي جاءت بها النصوص وبينها أهل العلم .

م (٨) : عمومات في تحريم التصوير :

أولاً : الصور غير التمثال ومن أدلة ذلك حديث لاتدع صورة ولا قبراً ولا تمثالاً ففرق بينهما في اللفظ ، وفي الإزالة ، فإزالة الصورة بالطمس ، والتمثال والقبر بالتسوية ، مما يبين أن الصورة ليس لها جسم.

ثانياً: تحريم التصوير يشمل ما كان باليد أو بآلة .

ونقول لمن خالف كما أن القتل يشمل ما كان باليد أو بآلة فكذا التصوير .

ثم يقال الرسول ﷺ نهى عن التصوير وحذر المصور ، فما هي اسم هذه التي خرجت من الآلة وماذا يسمى فعله ، فهل سيكون جوابهم أنها ليست صورة وفعلها لا يدعى تصويرا ، مما يدل على مخالفتهم للحقيقة الشرعية واللغوية والعرفية.

ثالثاً : التصوير يشمل ماكان له ظل ومجسم ومالم يكن كذلك .

تنبيه : المقصود بالتصوير ماله روح كما جاء في الأحاديث وما يفهم من حديث (يؤمر أن ينفخ فيه الروح) وتفسير ابن عباس ، والبعض عمم ولم يستثن.

م (٩) : عقوبات المصور :

١- أنه أشد الناس عذاباً يوم القيامة .

٢- أن الله يخلق بعدد كل صورة نفسا يعذب بها المصور في جهنم.

٣- أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح.

م (١٠) : الأمر بطمس الصور ومخالفة الناس للأمر:

ومن العجب في زماننا تنافس كثير من المفتونين بتعليق الصور وإظهارها وتعظيمها بدل إنزالها وطمسها وإهانتها. وفي هذا أعظم المعاندة للشرع والعياذ بالله.

م (١١) الرد على من زعم أن تحريم التصوير مسألة خلافية :

ظهر بعض من ينتسب للعلم والدين في زماننا بفتوى باطلة وهي إباحة التصوير بالآلات الحديثة وانساق خلف فتاواهم كثير من الجهال .

وزعم كثير من المفتونين أن المسألة خلافية ، وهيهات ، أن يساوى قول من أدلته قال الله وقال رسوله وأدلته في الصحيحين بلعنة المصور وشدة عذابه وبين من دليله قول فلان وفلان ، وأدلة فلان وفلان أن هذا ليس بتصوير وإنما هو حبس ظل وهو مثل المرآة ونحو ذلك من ساقط القول وفاسد الفهم نعوذ بالله من الضلال ، ولما تجرأ من تجرأ بفتواه في هذه المسألة انبرى لرد فريتهم ابن باز والتويجري وعبدالله بن حميد وغيرهم وانظر ما أدت إليه فتواهم من فساد في الدين ونشر للشرك وتعظيم الخلق بتعليق صورهم ، فماذا ستكون حجتهم عند الله وقد بلغتهم نصوص الوعيد.

م (١٢) : رجوع شبهات مجيزي التصوير لأربع:

ليس لها جسم، ليست باليد وإنما بالآلة، ليس فيها مضاهاة،الفتاوى المخالفة .

وكلها لا تناهض عموم الأدلة الصريحة الصحيحة المحرمة للتصوير.

م (١٣) : تعليق الصور وتعظيمها :

مما يزيد الأمر شناعة تعليق الصور وتعظيم أصحابها وكأنهم آلهة معبودة معظمة من دون الله تعالى فقبحا لها.

وقد جمع هؤلاء بين فتنة التصوير وتعظيم المخلوق والغلو فيه.

اللهم إنا نبرأ إليك مما يفعله هؤلاء ومن جوز لهم ونعتذر إليك من ضعفنا ونشكو إليك قلة حيلتنا وهواننا على الناس.

م (١٤) : فائدة: العلة بين الجمع بين القبر والتصوير في حديث أبي الهياج وحديث: (بنوا على قبره مسجدا وصوروا على قبره التصاوير) ظاهرة وهي أن كلتيهما من وسائل وقوع الشرك .

م (١٥) : تنبيه : وضع خط على رقبة الصورة لا يغني عن طمسها .

م (١٦) : قاعدة : المنهيات تحرم ولو لم يقصد فاعلها العلة التي حرمتها .

ومن أمثلة القاعدة تحريم التصوير ولو لم يقصد المضاهاة والتشبه بالكفار في الزي الظاهر ولو لم يقصد المتشبه مشابهتهم .

م (١٧): عدم دخول الملائكة البيوت التي فيها صور ودخول الشياطين بدلها.

م (١٨) : انتشار التصوير في زماننا :

إن من الأمور التي ابتلينا بها في هذا الزمان ما نراه من كثرة التصاوير المحرمة التي حذر الله ورسوله من فعلها أيما تحذير وأوعد بالنار فاعلها والراضي بها والعياذ بالله . وقد انتشرت من قبل عن طريق الكمرات ثم فشت عن طريق الجوالات فوقع الكثير فيما هو أشد من التصوير ألا وهو استحلال التصوير، وهذا مصاب عظيم في الدين ولا حول ولا قوة إلا بالله . والسبب في كثرة انتشارها المفرط هو قلة الإنكار الذي أخذ على أهل العلم وعدم تبيين الحق وإظهاره للناس طمعاً أو خوفاً أو ابتغاء رضا المخلوقين وطاعة في معصية الخالق.

ومن وسائل انتشار الصور والتصوير كثرته في الملابس والفرش والكتب والمجلات والألعاب والمواد التجارية والمعلبات الغذائية والفلوس والبطاقات.

ومن الفتن تصوير المحاضرات ومعارك الجهاد والأخبار وغير ذلك.

م (١٩) : وقوع الكثير في استحلاله

والعجيب أنه صار كثير يدافع عنها ويجادل ويشكك في تحريمها ووجوب المسارعة إلى طمسها كما أمر المصطفى عليه الصلاة والسلام فجعل من نفسه حارساً لمعاصي الله منتهكاً لحدوده مرضياً للناس بسخط الله . والكثير الأكثر من ماتت الغيرة في قلبه على دين الله فتنزل الإنكار مع كثرة السكوت من الإنكار باليد أو اللسان إلى ترك الإنكار بالقلب فصار الإنسان يرى الصورة تلو الأخرى وربما في أقدس البقاع في بيوت الله ولا ينكر بقلبه ولا يتمعر وجهه غضباً لله ولو حصل في ماله أو عرضه أدنى تعدي لبان أثر الغضب في وجهه وتصرفه أما إذا كان التعدي على دين الله فلا يقيم لذلك وزناً همه دنياه وشهواته .

م (٢٠) : خطورة التصوير فهل من مدكر :

فهذه الأحاديث والعلل ذكرناها وبيناها تذكيراً للناس وهي علامة فارقة بين المؤمن المستجيب لأمر الله وبين المخادع لله المرتاب في دينه فمن لم يستجب لكلام الله ورسوله فلا خير فيه ولن يستجيب لكلام غيره والأشد ظلماً وفساداً أن يقدم قول المخلوق وأمره على أمر ربه،وليعلم أن من لم يستطع أن ينكر هذا المنكر بيده فلا أقل من أن ينكره بلسانه وإن عجز أو ادعى العجز فليحذر من فعله أو انطماس نور قلبه بعدم إنكاره فضلا عن استباحته وتبريره. فلينكر ولو بقلبه وليعتقد بطلان هذه الصور والتماثيل وليحذر أن يتشرب قلبه هذه المعصية ويستسيغها فيهلك ، فمن عصى الله وهو معترف خائف أهون ممن استهان بمعصيته ورضي بها واستحلها .

وتيقن يا عبد الله أن الله سبحانه سيسألك لا محالة ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ القصص: ٦٥ - ٦٦. فستعلم حينئذ ما كنت فيه من الحق أو ضده من الانقياد لله وحده الذي جاءك عن رسوله والأوامر التي جاءت بها شريعته ودينه أو الانقياد لغيره وستعمى عليك الأنباء حينئذ وستذهب الحجج الباطلة . فما عساك أن تقول إن قال لك ﷻ أمرك رسولي بطمس الصور ونهاك عن التصوير وأخبرك بلعنتي للمصور وأنت لم تجبه ولم تأتمر بل صورت ما لا تحصيه من الصور ولم تنته فما ذا أجبتم المرسلين ؟ فهل تظن عندها يا قليل التذكر أنك ستقول أنت لم تحرم علينا إلا ما كان باليد ولم يحرم علينا رسولك التصوير بالكاميرات والجوالات ، أو أنك ستقول له هذا حبس ظل ، أو أنك ستقول هذه من زينة الله التي أخرجتها لنا ، أو ستقول أجازها لي الشيخ الفلاني وتقدمه على رسولك، أو ستقول أمرني بها ولي أمري وأطعنا سادتنا وكبراءنا ، أم ماذا عساك أن تجيب به وماذا سيكون جوابك له وأنت موقوف بين يديه وهو يخاطبك بلا ترجمان ولا واسطة ؟ ألا فأعد لكل فعل تفعله وقولاً تقوله حجة بين يدي ربك ! وأعدّ للسؤال جواباً وللجواب صواباً .

باب ما جاء في كثرة الحلف (٦٢)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : في كثرة الحلف وعدم حفظ اليمين .

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بالتأدب مع الله ﷻ وتعظيمه والوسائل التي تحفظ جناب التوحيد.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

كثرة الحلف وعدم حفظ اليمين فيه امتهان لاسم الرب ﷻ وعدم تعظيمه ، كما ينافي الأدب معه وكمال توحيده وقد يكون من الوسائل التي تؤدي إلى الشرك.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

جاء في سياق الأبواب المبينة لكيفية حفظ جناب التوحيد وحراسته وصيانته وحمايته مما ينقضه أو ينقصه ، والتي مقصدها الأعظم تعظيم الله تعالى والتأدب معه .

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

الأبواب المشابهة للحفظ :

ذمة الله ، من لم يقنع ، من سأل بالله .

ثالثاً : الرأي في ترتيبه بين الأبواب :

كان الأفضل لو جعل المصنف باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله (٤٣).

الوقفة الرابعة: ما فات المصنف :

لم يدرج في الباب كل الصور المتعلقة بحفظ اليمين .

الوقفة الخامسة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب: أورد المؤلف:

١- قول الله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ المائدة: ٨٩.

٢- حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب) متفق عليه.

٣- حديث سلمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل (الله) بضاعته: لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه" رواه الطبراني بسند صحيح.

٤- حديث عمران بن حصين ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم - قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثا - ثم إن بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن) رواه مسلم.

٥- حديث ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته) متفق عليه.

٦- أثر إبراهيم النخعي: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار.

وعلة ذم الذين يحلفون ويشهدون من غير أن يطلب منهم عدم تعظيم الله ﷻ.

الوقفة السادسة: المسائل العقدية في الباب :

تقدمت المسائل المتعلقة بالحلف تحت باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله رقم:(٤٣) ، وسنذكر هنا بعض المسائل الخاصة بالباب .

م (١) : وجوب حفظ اليمين والنهي عن عدم حفظه وعن كثرة الحلف :

والعلة في كل ذلك لما فيه من منافاة تعظيم الله .

قال الله تعالى: ﴿ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ﴾ المائدة: ٨٩ ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ ﴾ البقرة: ٢٢٤ ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ القلم: ١٠.

م (٢) : حفظ اليمين يكون بأمور :

١- الحلف بالله وحده وعدم الحلف بغير الله تعالى .

٢- عدم الحلف بالله أصلا إلا للحاجة .

٣- عدم الإكثار من الحلف .

٤- عدم استعمال الحلف في الأمور الحقيرة والدنيوية .

٥- عدم استعمالها في البيوع ، وهذا محرم ووردت الأحاديث المحرمة له.

٦- الوفاء بما حلف عليه وعدم الحنث إلا للمصلحة.

٧- القيام بالكفارة إن حنث في حلفه .

٨- عدم الكذب ، والكذب في اليمين عمدا يسمى الغموس لأنها تغمس في الإثم والعقوبة ، ويستثنى من حلف كاذبا لدفع ضرر لا يستحقه وهو مكره .

وكل هذه الصور تنافي حفظ اليمين ، وتنافي تعظيم الرب وكمال التوحيد .

م (٣): يحرم استعمال اليمين في البيوع ، وقد وردت الأحاديث بذلك:

عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب) متفق عليه.

عن سلمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه) رواه الطبراني بسند صحيح.

م (٤): لا تطلب اليمين ممن عرف بعدم احترامها والكذب فيها تعظيما لله.

عن ابن مسعود ﷺ قال ﷺ: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته)رواه البخاري.

عن عمران ﷺ : (ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون) رواه البخاري.

قال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار.

م (٥) : الكفارة واجبة في اليمين المنعقدة لا أيمان اللغو :

قال تعالى :﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ﴾ المائدة: ٨٩ .

م (٦) : يدخل في هذا الباب وجوب إجابة من سأل بالله، وهذا من لوازم تعظيم الله. ولهذا بحث مستقل في بابه .

باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه (٦٣)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه : النهي عن إعطاء ذمة الله ووجوب الوفاء بها لمن أعطاها .

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بالتأدب مع الله ﷻ وتعظيم الربوبية، وعدم التشبيه، تشبيه ذمة الله بذمة خلقه في المكانة والحرمة.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

لهذا الباب جانبان :

الأول : حفظ ذمة الله ورسوله ، وعدم إعطائها أحدا.

الثاني : الوفاء بذمة الله وعهده إذا جعلها الشخص للناس.

والمناسبة للتوحيد في ذلك ظاهرة من حيث أن هذا من تعظيم الله تعالى وإجلاله واحترامه وعدم تنقصه ﷻ.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله:

أورده بعد باب حفظ اليمين من كثرة الحلف والحنث فيها فلا يوفى بها، وهذا الباب في حفظ ذمة الله وعهده من أن تجعل للناس ولا يوفى بها.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

فيه مشابهة لباب كثرة الحلف ، وباب إجابة من سأل بالله .

كما أن له علاقة بأبواب شرك الألفاظ وقد حصرناها فلا حاجة للإعادة.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد الواردة في الباب:

١- قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ النحل: ٩١.

٢- حديث بريدة قال: (كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا فقال: اغزوا بسم الله في سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله تعالى ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن هم أبوا ، فاستعن بالله وقاتلهم.

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك؛ فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنْزلهم ، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا) رواه مسلم.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١) : حكم جعل ذمة الله للناس :

يكره إعطاء ذمة الله عند العهود .

ويحرم الحنث فيها وخفرها وعدم الوفاء بها .

عبارة : أعطيك عهد الله ، لك عهد الله ، وبيني وبينك عهد الله ، ونحوها .

الذي يترجح لي تحريمها لظاهر هذا الحديث والله أعلم .

م (٢) : دليل تحريم هذه العبارة :

حديث بريدة عند مسلم: (فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ؛ فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه) .

م (٣) : وجه دخول هذه العبارة في شرك الألفاظ الأصغر :

لما فيها من تشبيه الخالق بالمخلوق في خفر الذمة وهوانها ، فالنهي جاء حسما لمادة التشريك وذريعة التشبيه وباب الانتقاص .

م (٤) : علة تحريم قول هذه العبارة:

١- تعظيم الله وعدم انتقاصه ، وقد نص النبي ﷺ على هذه العلة بقوله : إنكم إن تخفروا ذممكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه.

٢- من جهة أخرى في نقض ذمة الله صدٌ عن دين الله وتشويهٌ لصورته.

م (٥) : فقه البدائل :

أمر النبي ﷺ أن يعطى المحالف ذمته بدل أن يعطِ ذمة الله تعالى .

م (٦) : أعظم العهود والحقوق عند الله التوحيد .

وعهد الله على عباده : عبادته وعهدهم عنده أن يدخلهم الجنة .

قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ البقرة: ٤٠ ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ المائدة: ١٢ .

م (٧) : لا يقال هذه ذمة رسوله بعد موته لأمرين لعلة الحديث ولكونه انقطعت حياته وعهده وحلفه.

م (٨) : الفرق بين حكم الله وحكم العلماء:

وهل علة (لا يدري أيوافق حكم الله أم لا) باقية أو انتهت باستقرار الأحكام واكتمال الشريعة، قولان لأهل العلم في المسألة، والصحيح أنه يفرق بين الأحكام القطعية والمسائل الخلافية الاجتهادية فيجزم بأن ذلك حكم الله في الأول لا الثاني.

فيقال: حكم الله في الزنا أنه محرم ، ولا يقال مثلاً : حكم الله فيكم وجوب أن تقتلوا ، حيث لا يدري هل هذا حكم الله أم لا .

م (٩) : قرر حديث بريدة بعض مسائل الجهاد والمعاهدات ، وينبغي للمجاهدين العلم بها .

باب ما جاء في الإقسام على الله (٦٤)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه: الإقسام على الله تعالى ، والتحكم في أفعاله.

ومعناه: أن يحلف العبد أن الله يفعل كذا وكذا .

والإقسام على الله نوعان :

الأول : محرم : وهو أن يكون حلفه وإقسامه على الله من قبيل التدخل في خصائص الله والتحكم في أفعاله، كأن يقول:والله لا يغفر الله لفلان ولا يهدي فلانا.

ويدل لهذا القسم : حديث الباب .

الثاني : جائز: وهو أن يحلف العبد على ربه من باب حسن الظن به وقوة رجائه ، من غير تحكم في أفعاله وشؤونه وكأنه وصي على ربه أو تدخل في خصائص الله أو اعتراض على ما يخالف صفاته ومن ذلك سلب الله من الرحمة والمغفرة .

ومن أمثلة هذا القسم : أن يقول التائب الراجي ربه أقسم عليك إلا تغفر لي وتعفو عني ، أو يقول : والله لتنزلن الغيث على عبادك بكرمك.

ويدل لهذا القسم : قول النبي ﷺ في أنس بن النضر حين قال : والله لا تكسر ثنية الربيع : (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره) متفق عليه .

وعند مسلم :(رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره).

تنبيه : ليس من هذا الباب الحكم على الكفار بعدم المغفرة ، تقول الله لا يغفر للكفار ، أو الحكم على كافر ميت بأنه من أهل النار ، كما جاء في الحديث .

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بالتأدب مع الله ﷻ وتعظيم الربوبية.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

١- أن هذه العبارة توهم المشاركة في الربوبية وتشبيه المخلوق بالله تعالى .

٢- تنقص الرب من حيث توهم من يتحكم في تصرفاته ويتدخل في أموره.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله: جاء في سياق الأبواب المتعلقة بقوادح التوحيد في الألفاظ والتأدب مع الله وتعظيمه وسد وسائل الشرك.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب:

له علاقة بأبواب شرك الألفاظ وقد حصرناها وبيناها فلا حاجة للإعادة.

كما وله علاقة بأبواب تعظيم الرب والتأدب معه وتوحيده في الربوبية.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد حديثا واحدا: عن جندب بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله : (من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له، وأحبطت عملك) . رواه مسلم.

وفي حديث أبي هريرة: أن القائل رجل عابد.

قال أبو هريرة: (تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته).

والتألي والإيلاء: هو بمعنى الحلف واليمين والقسم.

وفي الحديث من الفوائد : خطر الكلمة وأنها قد تخرج صاحبها من الإسلام.

تنبيه : علاقة الإقسام بالسؤال والتوسل :

قد تكون العبارة سؤالا وقد تكون توسلا وقد تكون إقساماً ، والإقسام قد يكون على الله ويكون على المخلوق أقسم عليك وأسألك .

قال ابن تيمية في التوسل: (قول القائل ، أسألك بكذا نوعان ، فالباء تكون للقسم وتكون للسؤال ، فالأول القسم بالمخلوقات لا يجوز على المخلوقات فكيف بالخالق ، وأما الثاني وهو السؤال بالمعظم كالسؤال بحق الأنبياء) .

باب لا يستشفع بالله على خلقه (٦٥)

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه: لا يستشفع بالله على أحد، وطلب الشفاعة من الله عند خلقه.

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بتعظيم الرب ونفي المشابهة .

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد: هذه العبارة فيها قدح في التوحيد من جهتين:

١- فيها تنقص الرب ﷻ ، وأنه يطلب من خلقه ويرجوهم وكأنهم أعلى منه.

٢- أن فيها رفع المخلوق، كما يوهم المشاركة في الربوبية وتشبيه المخلوق بالله.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لغيره من الأبواب:

أولاً : مناسبته لما قبله: أورده بعد باب الإقسام على الله لما بينهما من ترابط وهو أن الله تعالى كأنه يتصرف بعد إذن عبيده وأمرهم.

ثانياً : مناسبته لأبواب الكتاب: فيه مشابهة لباب الشفاعة.

له علاقة بأبواب شرك الألفاظ وقد حصرناها وبيناها فلا حاجة للإعادة.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

أورد دليلا واحدا :وهو حديث جبير بن مطعم ﷺ قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، نهكت الأنفس وجاع العيال وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك، **فإنا نستشفع بالله عليك،** وبك على الله . فقال النبي ﷺ : (سبحان الله سبحان الله! فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: ويحك أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، **إنه لا يستشفع بالله على أحد**) رواه أبو داود .

وجاء في الحديث تقرير إثبات الاستواء لله تعالى.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١) : تعريف الشفاعة والاستشفاع : تقدم في باب الشفاعة.

م (٢) طلب الشفاعة من المخلوق والرسول. تقدم حكمه في باب الشفاعة.

م (٣) : حقيقة الاستشفاع بالله على خلقه :

الله لا يشفع لمخلوق عند مخلوق فهو رب الجميع ومالكهم، والله إذا أراد أن يعفو المخلوق عن ظالمه عرض له من الثواب ما يجعله يعفو وليست هذه شفاعة، وقد غضب النبي ﷺ لما قال له الرجل نستشفع بالله عليك ومثلها الإقسام على الله.

م (٤) : حكم جعل الله واسطة عند خلقه وشفيعاً للداعي عند الله :

قول: (الشفاعة يا الله، وشفاعتك يا الله سقت لك الله، والله واسطتي عندك).

وهذا يحتمل أحد أمرين :

الأول: إن قصد أن الله هو الشافع والمتوسط عند خلقه وأنه كالواسطة يتوسط له عند المخلوق من ملك وغيره، فهذا قد استشفع بالله وقد نزل الله تعالى عن منزلته، وقال قولا عظيما واعتقد اعتقادا فاسدا وارتكب أمراً محرماً ووقع في سوء الأدب مع الله، فإن الله ﷻ أعظم شأنا من أن يشفع عند أحد فالكل خلقه وعبيده، وقد غضب الرسول ﷺ على الرجل الذي قال:(نستشفع بالله عليك) وأنكر عليه هذا اللفظ .

الثاني: إن قصد التوكل وأن الأمر كله لله عز وجل ، فهذا يجوز ولكن هذا اللفظ الأولى تركه، لوجود الإيهام فيه والقاعدة (أن أي لفظ يوهم فإن الله أمرنا بتركه) ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ البقرة: ١٠٤ فهذا يدل على أن الإنسان يجب أن يتقيد بالألفاظ الشرعية التي لا إيهام فيها .

م (٥) : هل الرب عز وجل يشفع :

في الحديث المتفق عليه يقول تعالى: (فيقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين). وفي رواية عند البخاري (وبقيت شفاعتي) .فالله ﷻ يرحم ويغفر ويتوب ويعفو وأما الشفاعة فهي عنده وملك له فيشفع عنده بأمره وإذنه ولا يشفع عند أحد تبارك وتعالى .

لكن قد يقال في هذه الرواية بتصور شفاعة الله عند نفسه وهي من جنس ماورد في الدعاء الذي رواه مسلم : (اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك) ، (برحمتك أستغيث).

قال ابن القيم:(الشفاعة لمن له الملك فهو الذي يشفع لنفسه عند نفسه ليرحم، فيأذن لمن يشاء أن يشفع فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له) الإغاثة ٢٤٦.

م (٦) : الفرق بين الاستشفاع والسؤال بالله :

أن السؤال لا يلزم منه نزول مرتبة المسؤول وأنه أدنى ، خلافا للاستشفاع.

م (٧) : وجه دخول هذه العبارة في شرك الألفاظ الأصغر :

لما فيها من تشبيه المخلوق بالرب.

وتقدم بيان علل تحريم هذه العبارة في الوقفات .

م (٨) : من هذا الباب قول بعضهم:

(سقت لك الله ، والله واسطتي عندك) .

ويكثر في زماننا من يقول : الشفاعة يا الله ، وشفاعتك يا الله.

باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك (٦٦)

اسم الباب : سد ذرائع الشرك ووسائله

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه: المقصود بهذا الباب كيفية صيانة التوحيد وسده طرق الشرك .

مكانه ونوعه: حفظ حمى جناب التوحيد من وسائل الشرك .

وهذا الباب يعد مرجعاً لأكثر أبواب الكتاب.

الوقفة الثانية:علاقته بالتوحيد:أن التوحيد لا يحفظ ويصان إلا بإغلاق الطرق المفضية للشرك وسد ذرائعه، ولا يحمى جنابه إلا بحفظ بابي الوسائل والغايات معاً.

الوقفة الثالثة : مناسبة الباب لأبواب الكتاب:

هذا الباب يعتبر أصلا جامعا لأبواب الكتاب ، لأن جميع الأبواب جاءت في حماية التوحيد وسد الطرق المفضية للشرك وكل ما ينقضه أو يقدح فيه .

وقد أحسن المصنف حين ختم به كتابه مع الباب الذي يليه.

تنبيه : كرر المؤلف هذا الباب حيث أورده في أول الكتاب رقم (٢٢) .

والتكرار للتأكيد ، إضافة إلى أن الباب الأول جاء في طرق الشرك الفعلية .

وهذا الباب في سد طرق الشرك القولية ، وقد أورده بعد شرك الألفاظ.

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١- عن عبد الله بن الشخير ﷺ قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا. فقال: (السيد الله تبارك وتعالى). قلنا: وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا.فقال:(قولوا بقولكم أو بعض قولكم،ولا يستجرينكم الشيطان)رواه أبوداود.

٢- عن أنس ﷺ : أن ناسا قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا فقال: (يا أيها الناس، قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعوني فوق منْزلتي التي أنزلني الله) رواه النسائي.

الوقفة الخامسة: ما فات المصنف :

لم يدرج في الباب كل الصور المتعلقة بحماية التوحيد ، واكتفى بمثال واحد.

الوقفة السادسة: المسائل العقدية في الباب :

أولاً : الأمثلة والصور والقواعد التي جاءت بها النصوص في وسائل الشرك .

ثانياً : مسألة الباب وهي: (المدح والغلو فيه ، وقول سيد) ، وتقدم الكلام عنها في باب سابق مستقل.

ثالثاً :جمع النبي ﷺ بين الحرص على من اتبعه والحزن على من كفر به :

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة: ١٢٨ .

دلت الآية على حرص نبينا محمد ﷺ علينا ورأفته ورحمته فسد طرق الشرك وبصرنا بها وإبعاده أمته عن هذا الحمى الخطير غاية البعد ، وكل ذلك من حرصه وخوفه ومحبته لنا فجزاه الله عنا خيرا.ومما يدل لذلك قوله تعالى:﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ الشعراء: ٣﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ فاطر: ٨﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ النمل: ٧٠﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ آل عمران: ١٧٦﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾ لقمان: ٢٣﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾ الأنعام: ٣٣.

مبحث : ذرائع الشرك ووسائله

المسألة الأولى : معنى الذرائع والوسائل:

الوسائل هي بمعنى الذرائع .

والذريعة ما كان طريقا وسببا يتوصل بها لحصول غاية.

ومن معانيها : ما كان مباحا في أصله لكن يفضي لأمر محرم.

أيضاً : ما كان طريقا إلى المقاصد من المصالح والمفاسد .

فائدة : باب الذرائع ضد رعاية المصالح .

فائدة : علاقتها بالأسباب . باب الأسباب يدخل في باب ذرائع الشرك .

م (٢): منهج الشارع مع الوسائل والغايات والمقاصد :

الشارع إذا حرم شيئاً حرم الطرق الموصلة إليه والوسائل المفضية إليه .

ومن هذا الباب كان من مقاصد الشريعة وأبواب الدين سد الذرائع ، فالأفعال إذا كانت مباحة لكن قد تفضي إلى محذور وجب سدها ودفعها وإغلاقها .

م (٣) : معنى: (لايستجرينكم الشيطان) أبو داود، (لا يستهوينكم) النسائي.

هذه خطواته التي يتدرج بها ويتبعها المفتون أخبرنا الله عنها وحذرنا منها بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ ﴾ ، وهي من الذرائع والوسائل والطرق والأبواب المفضية للشرك والموقعة في حمى التوحيد وجنابه ، والشارع صان كل ذلك وحماه وحفظه وحسم كل ما يخالف ذلك وسده وأغلقه.

م (٤) : الفرق بين الحماية للتوحيد وسد طرق الشرك :

أن سد الطرق والوسائل من الحماية .

م (٥) : فتح الذرائع :

كترك النبي ﷺ قتل المنافقين ، وتحريق أموال الكفار وإتلافها ، والسفر للكفار، وإقامتهم عندنا للمصلحة ، وكفعل الكفر مكرها.

م (٦) : علاقة وسائل الشرك بالشرك الأصغر :

١- أغلب وسائل الشرك إذا لم يكن جميعها فيها نوع شرك حتى التقليد والتصوير والتعظيم والكبر والتوسل .

٢- لكن يوجد وسائل للشرك الأكبر وليست من باب الشرك الأصغر ، مثل: الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها والصلاة في المقبرة من غير قصد التبرك .

٣- ولا يوجد شرك أصغر إلا وهو وسيلة من وسائل الشرك الأكبر .

م (٧) : أقسام الوسائل:

١- مقصودة بذاتها ، كمن تشبه بالكفار قصدا وتقصد الصلاة في المقبرة.

٢- ألا يقصد فاعلها موافقة المحرم ، كمن لبس مثل لبس الكفار وشابههم من غير أن يقصد ، أو صلى في المقبرة وفاقا لا تعمدا .

م (٨) : أبواب الوسائل:

١- وسائل متعلقة بالألوهية ، كالصلاة عند القبور والبناء عليها.

٢- وسائل متعلقة بالربوبية والصفات ، كالإقسام على الله والاستشفاع به.

٣- وسائل متعلقة بالولاء والبراء، كالتشبه بالكفار وهو من ذرائع الكفر.

٤- وسائل متعلقة بالقدر ، كالصبر وكعدم قول (لو) اعتراضا على القدر.

ووسائل تتعلق ببقية أبواب العقيدة والإيمان والغيبيات والأسماء والأحكام.

م (٩) : مقاصد التوحيد التي جاء الشرع بالوسائل لحمايتها :

١- تحقيق العبودية لله وإخلاص العبادة لله والبعد عن الشرك .

٢- تعظيم الرب ﷻ والبعد عما ينافي تعظيمه ، واحترام جناب الربوبية.

٣- إثبات الكمال لله ﷻ، وعدم تعطيله عن كماله.

٤- عدم القدح في أفعال الله وسبها، ونفي النقص عنه وتبرئته من العيب .

٥- تنزيه الله عن التمثيل مع خلقه فلا يعطى صفات الخلق ولا الخلق صفاته.

٦- عدم الغلو في الخلق وإعطائهم صفات الخالق وربوبيته والتأثير .

٧- إثبات صفات الله لهم ، نسبة الحوادث للخلق والتأثير لهم.

٨- الرضا عن الله وعما جاء عنه وعن أقداره وعدم التسخط على أقداره .

٩- التأدب مع الله في الألفاظ والبعد عن الألفاظ الموهمة .

١٠- حفظ وسائل حماية التوحيد، وسد ذرائع الشرك وطرقه.

١١- البعد عن مشابهة المشركين.

م (١٠) : هل يوجد وسائل قلبية اعتقادية :

في الغالب أن وسائل القلب لا تستقل بل يتبعها قول أو فعل .

م (١١):القاعدة:أن كل الوسائل متعلقة بالقلب وقد تفضي للعقيدة الفاسدة.

م (١٢) : حكم ما لو لم توجد عقيدة القلب في فعل الذريعة:

الحكم يبقى على أصله بالتحريم وسد الذريعة كحسم مادة التشبه.

م (١٣) : بعض الوسائل تكون قولية وعملية . كالتسخط والتشاؤم .

م (١٤) : أسباب وقوع الشرك وبقائه :

١- الجهل بحقيقة الدين وما أمر الله به وما نهى عنه، والجهل بمعنى العبادة والتوحيد والشرك وما هو التوحيد الذي يرضاه الله والعبادة التي هي حق خالص له وحده لا شريك له، والتي من نازعه فيها وعبد غيره فإنه يصير بذلك كافراً مشركاً.

٢- سوء الظن بالله ﷻ وعدم تقديره سبحانه ولا معرفة صفاته العلية، فالمشرك يقيس ربه الغني بالمخلوق الضعيف الذي يحتاج لواسطة تقرب إليه وتشفع عنده وذلك لجهله وعجزه وعدم رحمته فتطلب الواسطة عنده، بالله سبحانه العالم بكل شيء والقادر على كل شيء والمالك وحده للنفع والضر وغيره.

٣- الغلو في الصالحين فترفع عن مرتبتها ومنزلتها ويشبه المخلوق بالرب تبارك وتعالى ويعطى صفات الألوهية والربوبية.

م (١٥) : الجامع في تحريم وسائل الشرك :

١- أن تقوم على تعلق القلب بغير الله واللجوء والتوجه إلى غيره .

٢- أنها ذرائع وأسباب ودواعي ووسائل لحصول الشرك ووقوعه .

٣- أن فيها تعظيم المخلوق والغلو فيه .

٤- أن فيها تنقص الرب ﷻ والقدح في أفعاله.

م (١٦) : ألفاظ فيها تجرؤ على الرب وعدم تعظيمه ونقص لكمال التوحيد:

١- السلام على الله ﷻ .

٢- التألي على الله ﷻ .

٣- الاستشفاع بالله ، بأن تجعل الله ﷻ واسطة لك عند خلقه .

٤- الاستثناء في الدعاء : كقول: اللهم اغفر لي إن شئت .

٥- الإقسام على الله ﷻ والتدخّل في أفعاله .

٦- لا يقول : عبدي وأمتي .

٧- رد من سأل بالله ﷻ.

٨- لا يسأل بوجه الله ﷻ إلا الجنة .

٩- قول : (لو) وقول: (لولا).

١٠- الظن السيئ بالله تعالى .

١٢- الوفاء بذمة الله ﷻ وعدم إخفارها .

١٣- دعاء الله ﷻ ببعض الألفاظ السيئة كقول : الله يظلم فلان أو الله يؤذي فلان أو يخون الله من يخوننا أو الله يخدمني في فلان ، فهذه كلها تنبئ عن سوء أدب مع الله عز وجل ومما يجب أن ينزه ربنا عنه، فالله لا يظلم ولا يخون سبحانه .

١٠- قول: (لولا الله وفلان) ، وقول: (ما شاء الله وشاء فلان) .

١١- سب أفعال الله تعالى.

فهذه الأمور داخلة في تعظيم الله وتوحيده وتتعلق بالشرك الأصغر ووسائل الشرك .

م (١٧) : من حماية الشرع جناب التوحيد وسد وسائل الشرك :

١- بيانه لأضرار الشرك وخطره ومفاسده .

٢- خوف الأنبياء من الوقوع في الشرك :

فهذا الخليل عليه السلام إمام الموحدين دعا الله بقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ إبراهيم: ٣٥.

٣- سد ذرائع الشرك .

وإذا كان الله ورسوله حرموا هذه الوسائل حتى لا تفضي للشرك وحماية جناب التوحيد ، فمن المستحيل شرعاً وفطرة وعقلا أن يأتي في هذه الشريعة المطهرة الكاملة إباحة دعاء الموتى والغائبين والاستغاثة بهم في الملمات والمهمات.

٤- إزالة آثار الشرك وبقايا الأصنام :

ومن ذلك أمر الرسول ﷺ للصحابة ﷺ بهدم اللات والعزى وذي الخلصة وغيرها ، وهدم يوم فتح مكة ثلاثمائة وستين صنماً كانت على الكعبة وحولها .

م (١٨) : فائدة : تتنوع وسائل الشرك لنوعين :

وسائل متعلقة بالقبور وخاصة بالأموات ووسائل عامة .

م (١٩) : قاعدة :

وجوب تغيير الألفاظ الموهمة التي قد تكون وسيلة وذريعة للشرك.

م (٢٠) : عدد وسائل الشرك :

الذرائع التي سدها الشرع حسب استقراء النصوص وصلت إلى خمسين ذريعة شركية ووسيلة .

م (٢١) : أنواع الذرائع الشركية: وعددها خمسون ذريعة بعد الاستقراء:

أولاً : وسائل قولية لفظية:

١- الاطراء والمدح .

٢- التسوية اللفظية.

٣- التوسل .

٤- الاستسقاء بالأنواء .

٥- إسناد الحوادث لغير الله ونسبة الحوادث للدهر. وقول (لولا) .

٦- الحلف بغير الله .

٧- التشبه بالمشركين.

٨- نسبة النعم لغير الله وشكر الخلق عليها .

٩- ترك الدعاء والشكر.

١٠- الاستشفاع بالله .

١١- الإقسام على الله ، والتألي عليه.

١٢- كثرة الحلف وامتهانه.

١٣- السلام على الله .

١٤- تعليق الدعاء بالمشيئة كقول اللهم اغفر لي إن شئت .

١٥- اخفار ذمة الله ونكث عهده.

١٦- التسخّط على القدر بالقول والعمل وقول (لو).

١٧- انتقاص الرب ﷻ وانتقاص صفاته وأفعاله .

١٨- سب أفعال الله كالدهر والريح .

١٩- تشبيه الرب بخلقه والخلق بربهم، جحد الأسماء والصفات وتعطيلها، احترامها، والتسمي بقاضي القضاة .

٢٠- التعبيد لغير الله وشرك التسمية .

٢١- الألقاب المعظمة للمخلوق أو فيها مشابهة لما يختص به الرب.

ثانياً : وسائل عملية بدنية :

١- الغلو والتعظيم في : الأحياء والأموات والقبور والمواضع والآثار.

٢- تقصد مواضع بالعبادة أو أماكن الشرك التي يعبد فيها غيره .

٣- البناء على القبور واتخاذها مساجد وإنارتها والصلاة فيها .

٤- التصوير .

٥- التقليد .

٦- التبرك .

٧- التمائم .

٨- التشاؤم .

٩- الذهاب للسحرة .

١٠- ترك الواجب خشية الناس .

١١- القيام للمخلوق .

١٢- رعاية الآثار وتعظيمها .

١٣- الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها .

ثالثاً : وسائل قلبية اعتقادية :

١- الأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله.

٢- التبرك.

٣- التشاؤم .

٤- الغلو في الخلق.

٥- الجزع وعدم الصبر ، تسخط على أقدار الله وأفعاله وربوبيته .

٧- الرياء وإرادة الدنيا.

٨- سوء الظن بالله .

٩- اعتقاد استحقاق النعم ، وأن للمخلوق حقاً على ربه.

١٠ الكبر والفخر والعجب والطعن في الناس وأنسابهم.

١١- تقدير الله وتعظيمه .

١٢- الاعتماد على الأسباب بالكلية.

١٣- الخوف من المخلوق والتوكل عليه وترجيّه.

١٤- عبادة الدنيا والتعلق بها .

١٥- الاستغناء عن الله .

وكل هذه الأبواب تدخل في الشرك الأصغر كما تعتبر من حماية النبي ﷺ التوحيد وسد طرق الشرك.

باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (٦٧)

اسم الباب : تعظيم الله وتقديره.

الوقفة الأولى: ترجمة الباب ، موضوعه، ومعناه ، ونوعه من أي قسم:

موضوعه ومعناه: بيان صفات الكمال والعظيمة لله،وسبب استحقاقه للعبادة.

مكانه ونوعه: يعتبر من الأبواب المتعلقة بالتأدب مع الله ﷻ وتعظيم الربوبية.

الوقفة الثانية : علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

أن تعظيم الله وتقديره يؤدي إلى التوحيد، وأن الشرك وكل ما يقدح في التوحيد أعظم أسبابه هو عدم تقدير الله تعالى.

والباب في الجملة يعد من أبواب توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

الوقفة الثالثة : مناسبته لما قبله من أبواب الكتاب:

ختم المؤلف به ليبين أن تعظيم الله وتقديره وتوقيره واحترامه يستلزم الإتيان بالتوحيد على أتم وجه ، وأن الشرك بنوعيه الأكبر والأصغر وشرك الألفاظ وقوادح التوحيد ونواقضه كل ذلك أعظم أسبابه هو عدم تقدير الله تعالى ، لأجل هذه العلة ختم المؤلف كتابه التوحيد بهذا الباب وهذا يدل على دقة فهمه رحمه الله.

فائدة: يشبه هذا الباب باب رقم: (١٦) المتعلق بحقيقة عظمة الرب ﷻ .

الوقفة الرابعة: الأدلة والشواهد والنقولات الواردة في الباب:

١ – قول الله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ الزمر: ٦٧.

٢- عن ابن مسعود ﷺ قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر. ثم قرأ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ ﴾.

وفي رواية لمسلم: (والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله).

وفي رواية للبخاري: (يجعل السماوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع) أخرجاه.

٣- عن ابن عمر مرفوعا: (يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟) رواه مسلم.

٤- وروى مسلم عن ابن عباس قال: (ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم).

قال ﷺ: (ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس).

قال أبو ذر ﷺ : سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض).

٥- قال ابن مسعود:(بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم).

٦- عن العباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض. والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم) أخرجه أبو داود وغيره.

الوقفة الخامسة: المسائل العقدية في الباب :

م (١) : حقيقة تعظيم الرب والتذلل له وكونه أعظم حقائق التوحيد :

التعظيم لله ولشرعه وتوقير رسوله ﷺ من مستلزمات الانقياد وأبرز مضموناته وهو من توحيد الله .

قال تعالى : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ نوح: ١٣ .

قال ابن عباس : عظمة، وقال: مالكم لا تعظمون الله حق عظمته .

وقال قتادة: عاقبة . وقال ابن زيد : الوقار الطاعة .

وقال: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ الزمر:٦٧ .

وقال: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ الأنعام٩١ .

وقال : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ الحج:٣٠.

وقال: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ الحج:٣٢.

والحُرمَات تشمل: الحرم والحج والأمر والنهي وترك المناهي وكل ما يغضبه.

فيجب توحيد الله بتعظيمه وحده سبحانه وتوقير أمره وشرعه ورسوله وعدم منازعته في عظمته وكبره.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين: (التعظيم أثر من آثار المحبة، وهي وجود تعظيم في القلب يمنع الانقياد لغير محبوبه، فإن المحبة إذا كانت صادقة أوجبت للمحب تعظيماً لمحبوبه يمنعه من انقياده إلى غيره، وليس مجرد التعظيم هو المانع له بل التعظيم المقارن للحب هو الذي يمنع).

م (٢) : أمور داخلة في تعظيم الله ومن كمال توحيده ، وهي لا تحصر:

١- إجابة من سأل بالله، وإعاذة من استعاذ به .

٢- الرضا بكل ما جاء عنه ، وعدم السب والقدح في شيء من أفعال الله.

٣- أن لا يسأل بوجه الله إلا الجنة ، تعظيما لوجهه الكريم.

٤- ألا يقال عبدي وربي للمخلوق.

٥- أن يحفظ اليمين .

٦- احترام أسماء الله.

٧- أن لا يخاف من المخلوق ولا يرجوه وأن لا يعتمد عليه، ولو كان في يده بعض أسباب النفع والضر .

٨- التواضع والخشوع والتذلل لله ولعباده.

٩- شكر النعم .

١٠- ترك تعظيم ما لم يعظمه الله ﷻ.

م (٣) : صور عدم تقدير الله وسوء الأدب مع الله ﷻ :

أن عدم تقدير الله عز وجل جنس يدخل تحته أفراد وأصناف منهم :

المشرك بالله تعالى ، منكر الصفات ومعطلها ومؤولها ، منكر القدر ، منكر كلام الله ، ورؤيته يوم القيامة ، الممثل الرب بخلقه والعكس ، منكر الرسالة ، الساب للشريعة والصحابة ، كل هؤلاء ما قدروا الله ﷻ حق قدره .

قال ابن تيمية:(من أعظم الاعتداء والعدوان والذل والهوان أن يدعى غير الله فإن ذلك من الشرك والله لا يغفر أن يشرك به والشرك ظلم عظيم) الاستغاثة ٩٥ .

م (٤) :علاقة الصفات بالتوحيد :

قال ابن تيمية في هذه الآية: (وأصل عبادته معرفته بما وصف به نفسه ، والذين ينكرونها ما قدروا الله حق قدره ولا عبدوه حق عبادته ، والله ذكر هذه الكلام ، ليثبت عظمته في نفسه وما يستحقه من الصفات ، وليثبت وحدانيته وأنه لا يستحق العبادة إلا هو) الفتاوى ١٣/ ١٦٠ .

قال ابن القيم:(كل شرك في العالم فأصله التعطيل،فإنه لولا تعطيل كماله وظن السوء به لما أشرك به ، والمقصود أن التعطيل مبدأ الشرك وأساسه) المدارج ٣/ ٣٤٧.

م (٥) : من مسائل الصفات الواردة في الباب:

عظمة الله وصفاته .

العلو لا ينافي المعية والإحاطة وعلمه بعباده.

حديث القبضة والأصابع والإشارة فيهما فيه رد على المعطلة والمفوضة.

كفر منكر العلو .

إن هذه العلوم وإثبات الصفات وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ لم ينكروها ولم يتأولوها. ولا يدخلها النسخ .

انتهى الكتاب

وختاماً أسأل الله ﷻ أن ينفع بهذا الشرح كما نفع بأصله المشروح .

وأن يجعله خالصا لوجهه وأن يوفقنا لصالح القول والعمل .

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

فهرس أبواب كتاب التوحيد